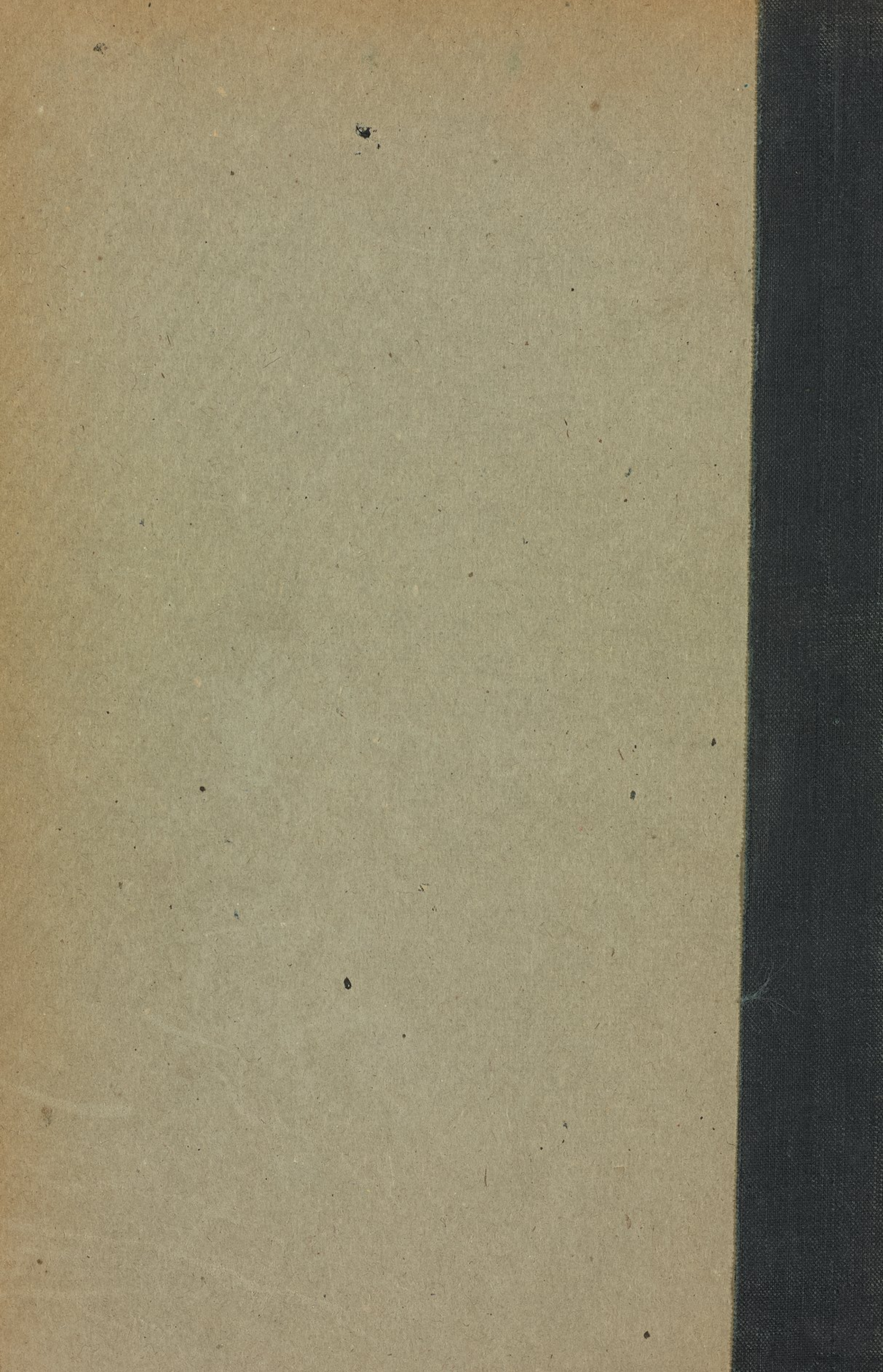
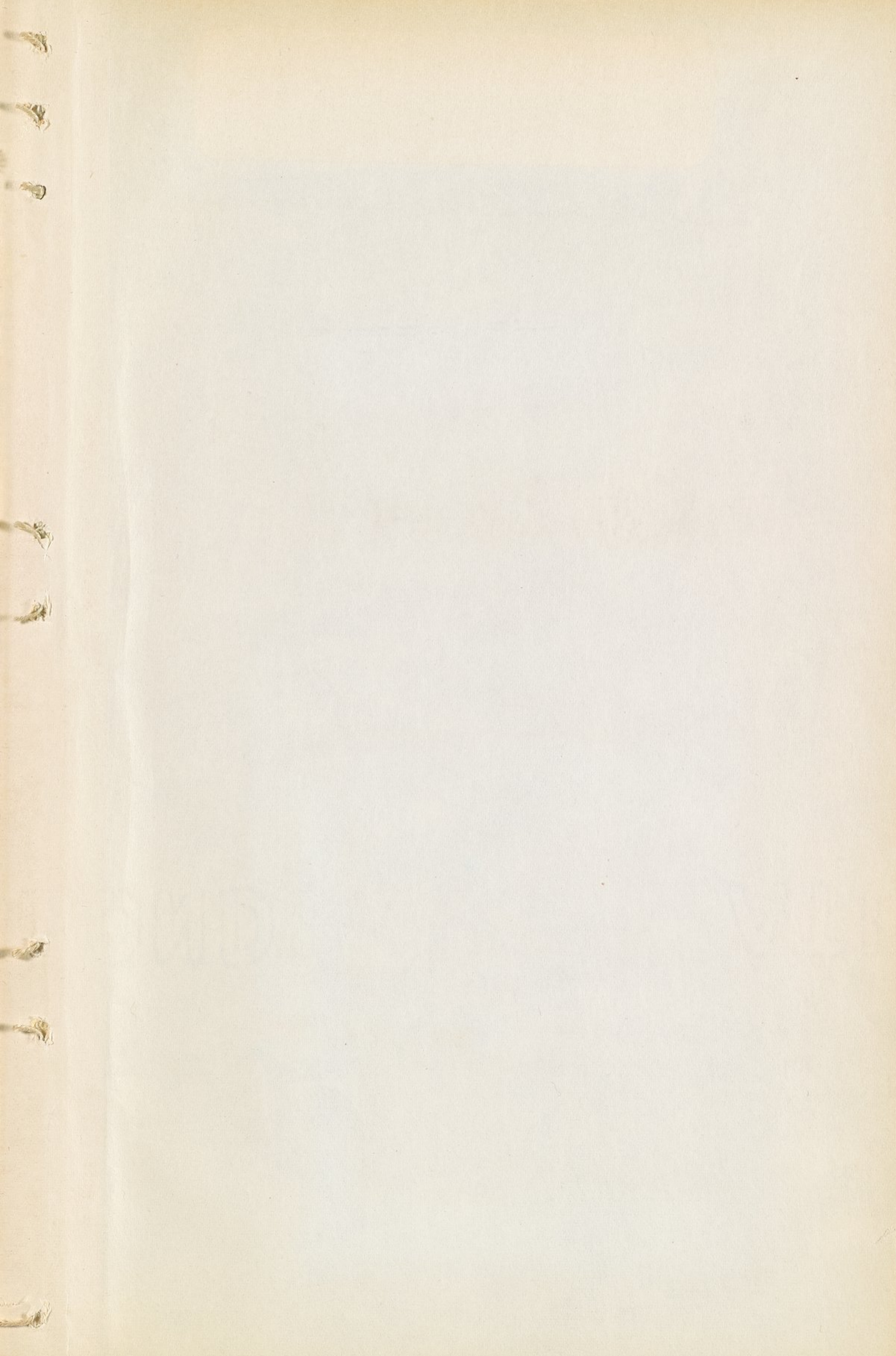


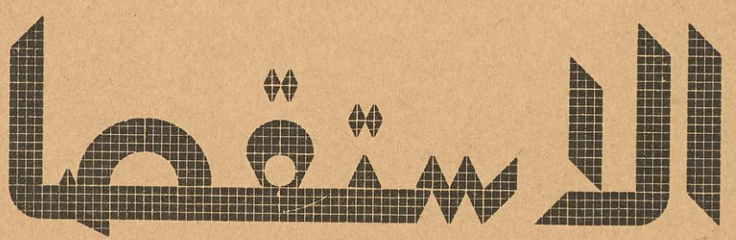
الله أكبر





الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



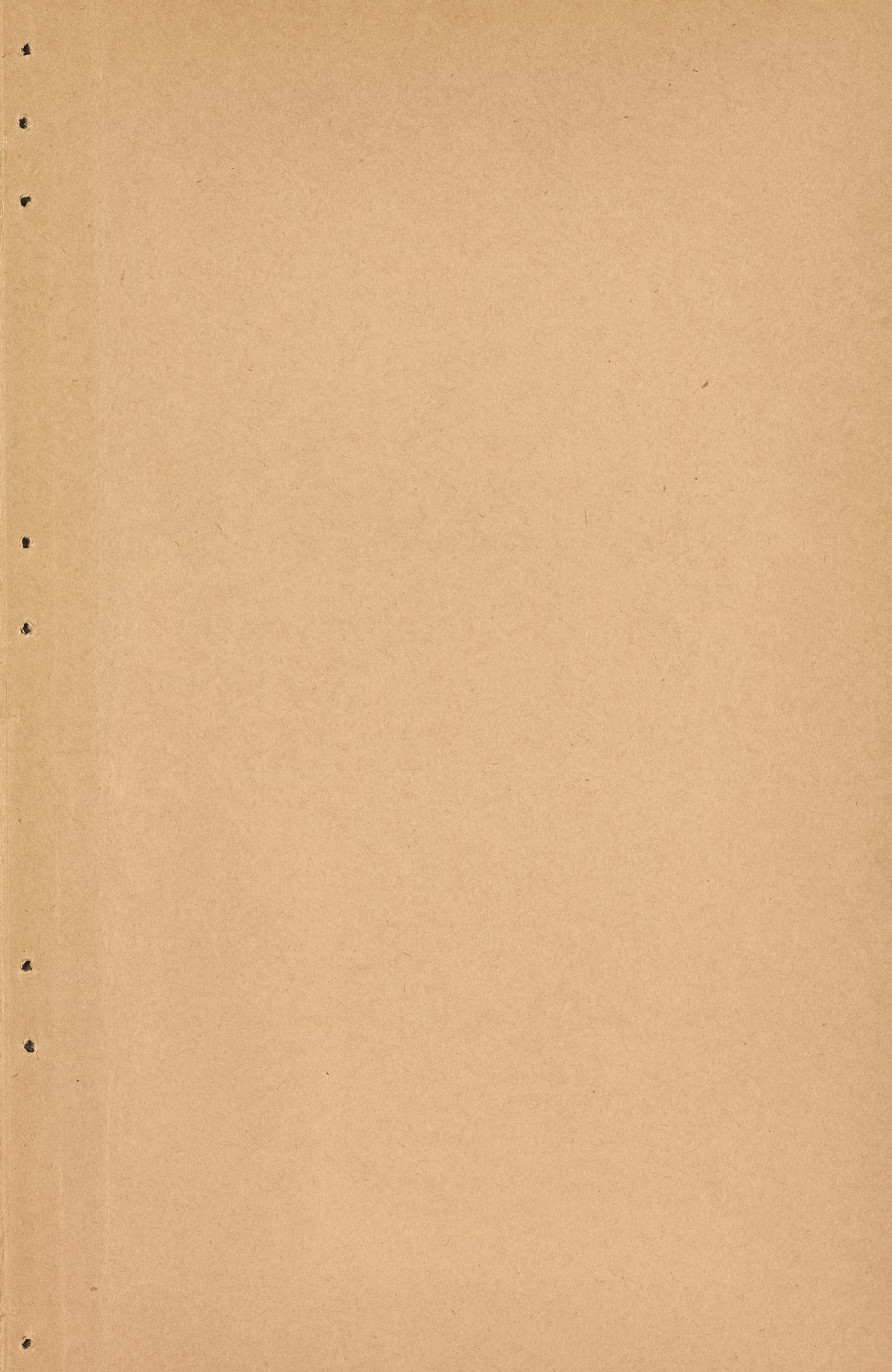
لأخبار دول المغرب الاقصى

الـدولـــة السعديـــة

الجزء الخامس

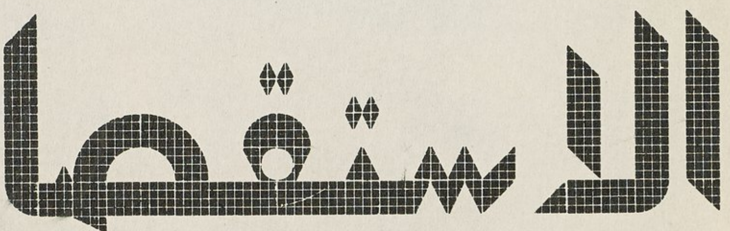
تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٥



الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

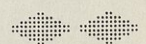
الدولـــة السعديـــة

الجزء الخامس



تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السعادة :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

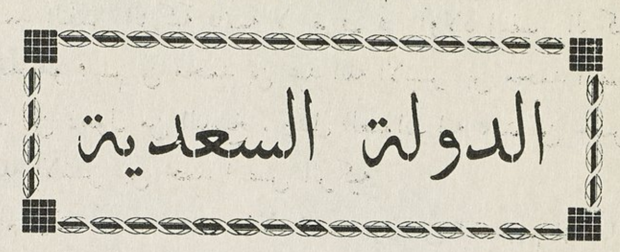


دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم



الدولة السعدية

الخبر عن دولة الاشراف السعديين من آل زيدان

وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون : ان أصل سلفهم من ينبع النخل، من أرض الحجاز ، وانهم أشراف من ولد محمد : النفس الزكية رضى الله عنه ، واليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون فى أول ملوكهم القائم بأمر الله مثلا : هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفة بن الحسن بن أبى بكر بن على بن حسن بن أحمد بن اسمعيل ابن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن حسن المثنى ابن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجلماسة، يجتمعون معهم فى محمد بن أبى القاسم المذكور فى النسب .

ـــ قالوا : والسبب فى قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب ، أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا ، فقيل لهم : لو أتيتم بشريف الى بلادكم كما أتى أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم ، وقد كان أهل سجلماسة جاءوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبى القاسم من أرض ينبع فى قصة ظريفة تأتى فى محلها ان شاء الله ، قالوا : فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد ، مضاهاة لاهل سجلماسة ، فعادت عليهم بركته .

واعلم أن هذا النسب الشريف المسرود آنفا فيه ـ كما قال اليفرنى ـ بتر بين

قاسم ومحمد النفس الزكية فانـه لا يعرف فى أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم ، وانما هو قاسم بن محمد بن عبد الله الاشتر بن محمد النفس الزكية ، ولعله سقط عن ذهول من الناسخ . وقيل الصواب انه قاسم بن حسن بن محمد ابن عبد الله الاشتر بن محمد النفس الزكية .

واعلم أيضا أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبـول وأثبتوه فى تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة فى أخبارهم . ومن الناس من يطعن فى ذلك ، ونقله بعضهم عن الشيخ أبى العباس المقرى صاحب « نفح الطيب » وانه صحح أنهم من بنى سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ، ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا النقل ضعيف لان الشيخ المقرى صرح فى نفح الطيب بشرف هؤلاء السادة فى غير موضع وهو من آخر ما ألف .

وممن طعن فى نسبهم المولى محمد (فتحا) بن الشريف السجلماسى أول ملوك السادة العلويين ، صرح بذلك فى بعض الرسائل التى كانت تدور بينه وبيـن الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها: «وقد اعتمدنا فى ذلك ، يعنى فى عدم شرفهم، على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم الا من بنى سعد بـن بكر » اه .

ويحكى شائعا عن الفقيه الورع المولى أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر السجلماسى - وكان من أهل الصلاح والدين - أنه كان ذات يوم جالسا مع المنصور السعدى فى بعض قصوره من حضرة مراكش ، وهمـا مجتمعان على خوان طعام ، فقال المنصور للشيخ أبى محمد : « أين اجتمعنـا يا فقيه؟ » يعنى فى النسب ، فقال أبو محمد : « على هذا الخوان » ويروى : «فى هذا المشور» فأسرها المنصور فى نفسه ولم يبدها له الى أن احتال عليه بما كان السبب فى اتلاف مهجته، فكان المنصور بعد دلك يدعو الشيخ أبا محمد فيجلسه على الرخام فى زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل ، وقد اتخذ المنصور ، فيما زعموا، لبدة صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد، فاذا رآه أبو محمد

جالسا معه تجلد واستحيى أن يقوم عن السلطان ويتركه ، ويستمران على المذاكرة فى مسائل العلم ، فعل ذلك به أياما حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكى من ذلك الى أن قضت عليه .

وأنكر هذا صاحب « نشر المثانى » ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة .

وجواب أبى محمد هذا من النوع البيانى المسمى : «بتلقى المخاطب بغير ما يترقب» على ما هو معروف فى كتب الفن ، وانما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جدهم قدم من ينبع أيضا كما قدم جد العلويين ، والعلويون ينكرون ذلك كل الانكار ويقولون: انهم لم يجتمعوا معهم فى قبيل ولا دبير .

قال اليفرنى: «لكن صحح لنا غير واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الانكار ، وان المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الامام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه اه .

قلت : وهذا هو الصواب اذ مستند من يطعن فى نسبهم عدم وضوحه ، ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته فى نفس الامر ، والا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على احوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والاجداد من لدن مبدئه الى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الاجيال ، فالتنقير عن ذلك عسير جدا ، ولذا وكل الشارع أمر الانساب الى أهلها ، وجعلهم مصدقين فيها ، اذ لا تعرف غالبا الا من قبلهم . فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكا ولا بلغوا من الشهرة الى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لاحد أن يدفعهم عنه الا بقاطع ، ولا قاطع كما علمت . نعم الحكاية المسوقة فى سبب دخولهم الى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الامور .

وأما تسميتهم بالسعديين فقد قال اليفرنى : « ان هذه النسبة لم تكن لهم فى القديم ، ولا وقعت بها تحليتهم فى ظهائرهم ولا فى سجلاتهم وصدور

رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترىء أحد على مواجهتهم به ، لانه انما يصفهم بذلك من يقدح فى نسبهم ويطعن فى شرفهم ويزعم أنهم من بنى سعد بن بكر كما قلنا ، وكثير من العامة واخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم انما سموا بذلك لان الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له » اه .

قلت: وانما نصفهم نحن بذلك لانهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف ، والله تعالى يلهمنا الصواب بمنه وفضله .

الخبر عن دولة الامير ابى عبد الله محمد القائم بامر الله وبيعته والسبب فيها

قال ابن القاضى فى «درة السلوك» : « لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة الى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله فنشأ على عفاف وصلاح ، وحج البيت الحرام ، وكان مجاب الدعوة ، ولقى جماعة من العلماء الاعلام والصلحاء العظام فى وفادته على الحرمين الشريفين ، أخبرنى بعض الفضلاء أنه لقى رجلا صالحا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه ، وكان قد رأى رؤيا وهى : أن أسدين خرجا من احليله فتبعهما الناس الى أن دخلا صومعة ووقف هو ببابها ، فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن ، وانهما يملكان الناس . ثم رجع الى المغرب وهو معلن بالدعوة ، فيقول فى كل محفل : ان ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه ، ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة ، فما زال الى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة » اه .

وقال صاحب «زهرة الشماريخ» ما صورته : «ان سبب قيام أبى عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو ، واستحكمت شوكة البرتقال ، وبقى المسلمون فى أمر مريج

لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام ، لان بنى وطاس فشلت ريحهم يومئذ فى بلاد السوس ، وانما كان لهم الملك فى حواضر المغرب ، ولم يكن لهم منه بالسوس الا الاسم ، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط ، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الاحوال وكثرة الاهوال وطمع العدو فى بلادهم ذهبوا الى الشيخ الصالح أبى عبد الله محمد بن مبارك الاقاوى نسبة الى آقة من بلاد السوس ، فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم ، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك، وقال: «ان رجلا من الاشراف بتاجمدارت(*)من درعة يقول: انه سيكون له ولولديه شأن، فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم » فبعثوا اليه وكان من أمره ما كان » .

وقال اليفرنى : « رأيت بخط الفقيه العلامة أبى زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبى محمد عبد القادر الفاسى ما صورته : ذكرلنا الوالد عن سيدى أحمد بن على السوسى البوسعيدى ان ابتداء دولة الشرفاء بالسوس أن بعض السادة وهو سيدى بركات توسط فى فداء بعض الاسارى، وأراد أن يكون مع النصارى اتفاق على أن لا يحبسوا أسيرا ، فكلمهم فى ذلك ، فقالوا له حتى يكون لكم أمير ، فان ملككم قد ذهب واضمحل . قال : ثم ان بعض أهل السوس ساروا الى قبيلة جسيمة (*) يكتالون الطعام فأخذتهم جسيمة وأكلوا متاعهم وبضاعتهم ، فذهبوا الى شيخهم ، وكان ذا حزم وتدبير ، فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق لهم شىء فلما رجعوا الى بلادهم قالوا: ان هذا الشيخ الرئيس هو الذى يليق أن نبايعه ، فاجتمعوا وأتوه وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع ، واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الامر للدين ، ودلهم على رجل شريف كان مؤذنا بدرعة فقال لهم : ان كان ولا بد ، فاقصدوا الشريف

(*) تاكمدارت من أعمال فزواطة بوادى درعة قاعدتها الان هى أمزرو وتحتوى على زاكورا وزاوية البركة وسرت وغيرها اه

(*) قبيلة من ناحية اكادير من جهة الجنوب على شاطىء البحر

الفلانى فانه يذكر أن ولديه يملكان المغرب » فقصدوه ، وحملوه الى بلادهم وبايعوه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده ، وبقى هنالك فى نحر العدو .

ويروى أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لايقوم الا بالمال ، احتال بان أمر أهل السوس ان يأتوه ببيضة لكل كانون ، فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لاتحصى ، لان الناس استهونوا أمر البيضة . فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتى بدلها بدرهم ففعلوا ، فاجتمع له من ذلك مال وافر ، فأصلح به شأنه وقوى به جيشه ، وكانت تلك أول نائبة فرضت فى دولة السعديين والله أعلم .

وقال ابن القاضى : « ان الامير أبا عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك بلده آقة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فاوضه فى شأنه ، ثم عاد الى مقره من درعة ، ثم فى سنة ست عشرة بعدها بعث اليه فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ، ودعوه الى توليته عليهم وتسليم الامر اليه ، فلبى دعوتهم ، وجاء الى قرية يقال لها تيدسى (*) قرب تارودانت . فبايعه الناس بها ، وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواء على الجهاد مجتمعة » اه .

وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقا غريبا ، ولا يخلو عن فائدة ، فلنذكر منه ما يقرب الى الصحة ، ويكون كالشرح لما مضى أو يأتى من أخبار هذه الدولة ، قال :

« لما كان السلطان أبو عبد الله الوطاسى ، يعنى البرتقالى ، أميرا بفاس ظهر فى درعة رجل شريف يعنى أبا عبد الله محمدا القائم بامر الله ، قال : وكان هذا الشريف من قراء القرآن ، ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول

(*) اسم لموضعين أحدهما بدرعة قرب تاكمدارت المتقدمة الذكر التى منها اصل السعديين ولعلها كانت مقرا لهم فيما سبق قبل الملك كما يفهم عن رسالة وجهها محمد الشيخ بن زيدان الى مولاى محمد بن الشريف السجلماسى العلوى تضمنت ما نصه: « واتنا من تيدسى احد القصور بوادي درعة الخ » وقربها من تاكمدارت يؤكد ذلك وتيدسى الاخرى توجد بالقطر السوسى قرب تارودانت ولا زال الموضعان يعرفان معا بهذا الاسم الى يومنا هذا وبالله التوفيق ه

ولم يكن من بيت الرياسة ، وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جيله وأخلاقهم وطبائعهم ، ورأى ما وصل اليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لايصعب عليه تناوله ، فأعمل فى ذلك فكره ومكره ، وصار يحض الناس على القيام بأمور دينهم والامتعاض لها ، وكان قد بعث ثلاثة من أولاده ، وهم : عبد الكبير ، وأحمد ، ومحمد الى الحجاز بقصد الحج ، وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بادارة الكلام ، فظهر لهم ناموس فى تلك البلاد ، وأحبهم الناس لا سيما أحمد ومحمد ، ولما رجعا من مكة أقاما بفاس ، وهى يومئذ دار الملك ، وترتب أحمد فى مجلس بالقرويين لتدريس العلم ، فاكتسب بذلك جاها ، وتقرب محمد الى السلطان حتى صار مؤدبا لاولاده ، وبقيا على ذلك مدة ، وهما فى ذلك كله يتحببان الى الناس ويسعيان فى مذاهب الشهرة ، والبرتقال فى أثناء ذلك ملح على الثغور واستلابها من أهلها ، ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية ، فدعا ذلك الاخوين أحمد ومحمدا الى أن ندبا السلطان ، وهو أبو عبد الله البرتقالى ، الى المناداة فى الناس بالجهاد اظهارا للنصح ، وهما يسران حسوا فى ارتغاء ، وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصحهما وقال لهما : « لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة » فأجاباه الى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة ، فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس فى نواحى المغرب الى الجهاد ويحضان الناس عليه ، ويخطبان بذلك فى المحافل ، ويعظان وتتبعا الحواضر والبوادى ، وتقريا الاحياء والمداشر والقرى ، الى أن وصلا الى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكراهما فى أمرهما ، وانهما قد أشرفا على المراد ، وكادا يلجان الملك من بابه ، لان أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم ، فحينئذ أخذ الاب وأولاده فى نشر معايب الدولة للعامة ، ويقررون ذلك بفصاحتهم ووجاهتهم ، وما أوتوه من القبول ، وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس ، واجتمعوا عليهم من كل جهة ، وصار حالهم ينمو شيئا فشيئا الى أن استبدوا على السلطان ولم يرجعوا اليه بعد » .

وقال فى «نشر المثانى» : «كان السبب فى قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم

بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت ، وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد . فاتفق أن خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الاعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد ، فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب ، وأقبل عليهما لاجل قيامهما بالجهاد، وأعطاهما عدة وخيولا كثيرة، فرجعا الى جهادهما، ثم عادا اليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع فى النصارى ونكاية وظهور، وصارا يكتبان الى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة ، فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لانفسهما » اه .

قال منويل : وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الاقصى ودرعة وأعمالهما ، وصاروا يرفعون اليهم زكواتهم وأعشارهم ، ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الاشراف الى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها ، ثم زحفوا الى آكادير لحرب البرتقال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم ، وكانوا يشيعون انهم لا قصد لهم الا فى الجهاد ومحاربة عدو الدين ، ومن هو سلم له من المسلمين اذ لم يتأت لهم اذ ذاك التصريح بخلع السلطان .

وفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة تجاوزوا جبل درن الى بلاد حاحة والشياظمة، ثم دخلوا بسيط عبدة ، وكان بآسفى رجل متنصر اسمه يحيى ابن تافوت (*) ، احتمى بالبرتقال من السلطان ، وكان معروفا بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتقال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفا له .

ولما زحف الاشراف الى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان ، كان الظهور فيهما ليحيى، لكن أبو العباس أحمد الاعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكرا آخر وخطبهم ووعظهم وزحف الى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه الى أن انجحروا بآسفى وأغلقوه عليهم وأتيح لاحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب.

ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك، وظهر

(*) صوابه تعفّفت كما رأيته مكتوبا فى احدى رسائله المطبوعة بأصول التاريخ المغربي.

له ان ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه ، وحقق له ذلك مافعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لابيهم من نفوذ الكلمة بالسوس .

وكان فى هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشنتوف وكان مستبدا على الوطاسى ويبذل له شيئا تافها يتقيه به ، ولما مر به هؤلاء الاشراف فى أول أمرهم داعين الى الجهاد أحسن اليهم غاية ، ولما أوقعوا وقعة آسفى أبرموا أمرهم مع ناصر أبى شنتوف وأظهروا له المحبة والموالاة ، وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يدا واحدة وجندا واحدا عليه فأسعفهم ، وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن اليهم ، وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه فى خبز صغير يسمى : القريشلات فهلك للحين ، وصفا للاشراف مراكش وأعمالها اذ كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا اليهم ، ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الامير واستخلف أخاه محمدا الشيخ .

ولما اتصل الخبر بالوطاسي وانهم استولوا علي مراكش . أقلقه ذلك ، ومن مكر أحمد انه بعث اليه يقول : ما أنا الا واحد من عمالك ، وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبذله لك مضاعفا ، ومع ذلك لم يطمئن اليه . ثم هلك الوطاسى وولى مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب ، فصارت فاس للوطاسى ومراكش وأعمالها لابى العباس الاعرج ، وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ ، وأما عبد الكبير فانه كان استشهد قبل هذا فى حرب البرتقال قرب آسفى .

ولما رأى أبو العباس الوطاسى استفحال أمر الاشراف وانهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لابيه عزم على حربهم ، فجمع عسكرا عظيما وزحف الى مراكش فتحصن أحمد الاعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهره على عدوه ، وفى أثناء حصار الوطاسى لمراكش اتصل به الخبر بان أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض اخوته فرجع الى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر الى مراكش بعسكر أعظم من الاول ، وفى هذه المرة برز اليه الاشراف خارج

البلد ، ثم تقدموا اليه فكان اللقاء على أبى عقبة من تادلا ، ووقعت بينهم حرب هائلة ، لان الوطاسيين كانوا يرون أن هذه الحرب هى الفيصل بينهم وبين عدوهم والاشراف كذلك . وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الاحمر سلطان الاندلس المخلوع وأبلى بلاء حسنا حتى قتل ، وكان الظهور للاشراف ورجع الوطاسى مفلولا الى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه ، وبعد هذه الوقعة استولى الاشراف على تافيلالت ، وملكوا آكادير وآسفى وآزمور ، لان البرتقال كانوا قد تخلوا عنها ، ثم عن قريب حدث بين الاخوين النفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا ، وكانت الكرة على أحمد ، وفر ابنه زيدان الذى كان عضد أبيه فى الحروب الى تافيلالت فاستولى عليها ، واقتطعها عن عمه محمد الشيخ . ثم زحف الشيخ الى فاس فحاصرها الى أن قبض على الوطاسيين وغربهم الى درعة » اه كلام منويل .

ثم نرجع الى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرنى وغيره.

اخبار الامير ابى عبد الله القائم فى الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه

لما استتب أمر الامير أبى عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس الى مقارعة البرتقال وجهاده ، ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده ، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصمدوا معه الى النصارى وناوشوهم الحرب، فأتاح الله للامير أبى عبدالله الفتح والنصر، ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر ، وأخرج حية الغى من جحرها ، وأعاد كلمة الاسلام الى مقرها ، فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته ، وزادهم ذلك محبة فى جانبه وتعظيما فى مكانته ، ولما فصل من جهاده عاد الى محله المذكور من تيدسى ، فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت الى ارتحاله عنها وعوده الى درعة ، فلم يزل مقيما بها الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع الى مكانه من تيدسى ، واطمأنت به دارها

وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها ، والله غالب على أمره .

عقد الامير أبى عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبى العباس الاعرج رحمهم الله تعالى

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التى رآها الامير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وانهما يملكان المغرب . وفى معنى ذلك أيضا ما يحكى شائعا أن ولدى أبى عبد الله المذكور ، وهما أبو العباس الاعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن فى مكتب ، وهما صبيان ، فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ ، فأول ذلك مؤدبهما بانهما سيكون لهما شأن . فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بان أمر المغرب صائر اليهما ، فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به فى البلاد السوسية الدار ، وطاب له بها المقام والقرار ، ندب الناس الى بيعة أكبر ولديه وهو الامير أبو العباس أحمد المعروف بالاعرج فبايعوه ، وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما نذكره ان شاء الله تعالى .

انتقال الامير ابى عبد الله القائم الى افغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله

ثم ان أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا اليه أمر البرتقال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم ، وطلبوا منه أن ينتقل اليهم هو وولده ولى العهد المذكور ، فأجابهم الى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس الى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة ، وترك ولده الاصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الامور

ويمهد المملكة ، ويباكر العدو بالقتال ويراوحه واستمر الامير أبو عبد الله القائم بمكانه من آفغال مسموع الكلمة متبوع العقب الى أن توفى به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفن هنالك بازاء ضريح الشيخ أبى عبد الله محمد ابن سليمان الجزولى رضى الله عنه الى أن نقل الى مراكش بنقل الشيخ المذكور على ما ياتى ان شاء الله .

الخبر عن دولة السلطان أبى العباس احمد الاعرج

ابن الامير ابى عبد الله القائم رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبى العباس الاعرج فيما حققه ابن القاضى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر . ولما توفى أبوه فى التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم واصفاق ، فاستقام أمره وصرف عزمة الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد، وتعبية الجيوش الى الثغور، وشن الغارات على العدو فى الآصال والبكور، فى أحواز تيلمست وآسفى وغيرهما . وكان النصارى قد خيموا بشاطىء البحر وعاثوا فى تلك السواحل ، فأجلاهم عنها وطهر تلك البقاع من رجسهم ، وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفى ذلك يقول البقاع مخلوف بن (*) صالح يمدحه :

فلله هذا الهاشمى وفضله * فلولاه صال الكفر أعظم صولة

(*) ابن على بن صالح كما فى « نيل الابتهاج » انظر ترجمته فيه وفى « الجذوة » .

دخول السلطان ابى العباس الاعرج مراكش واستيلاؤه عليها

لما كان من ايقاع السلطان أبى العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه، بعد صيته وانتشر فى البلاد ذكره ، وأهرع الناس اليه من كل جانب ودخلت فى طاعته سائر البلاد السوسية ، فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاتة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول فى طاعته، فأجاب داعيهم وانتقل الى مراكش ، فدخلها فى حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمرهما نذكره .

نقل الشيخ الجزولى رضى الله عنه من مدفنه بآفغال الى مراكش والسبب فى ذلك

قد تقدم لنا فى أخبار عمرو السياف أنه كان فى ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزولى هذا وأنه لما توفى الشيخ المذكور جعل جثته فى تابوت وصار يستنصر به فى حروبه مدة من عشرين سنة أو نحوها، ثم دفن بعد ذلك بآفغال وتقدم لنا أن الامير أبا عبد الله القائم لما توفى دفنه ابنه أبو العباس بازاء هذا الشيخ. ثم لما ملك أبوالعباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزولى اليها ، ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضا .

واختلف فى سبب ذلك فقيل : ان السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بتلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحده وينتصر عليه به فنقله الي مراكش ليأمن من ذلك ، وقيل : ان الحامل له على نقله ، انه ذكر له ان تحته كنز فتعلل للنبش عنه بانه قصد نقله الى الحضرة تبركا به والله أعلم ، وكان ذلك كله فى حدود الثلاثين وتسعمائة .

مجيء السلطان ابى عبد الله الوطاسى (*) الى مراكش

وحصاره للسلطان الاعرج بها ثم اقلاعه عنها

لما استولى السلطان أبو العباس الاعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبى عبد الله الوطاسى ، المعروف بالبرتقالى ، فاقبل فى جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر ، ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة ، وزحف الوطاسى الى الحضرة فنصب الانفاض عليها ووالى الرمى عليها أياما ، واشتد الامر على الناس فكان من ذهابهم الى الشيخ الغزوانى وخروجه الى باب الخميس وقوله عند اصابة الرصاصة له انها خاتمة حربهم ما قدمناه فى أخبار الوطاسيين مستوفى . ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين انما يكون فى تادلا وأعمالها على ما مر . والله أعلم .

خبر آسفى والثغور

رأيت فى تواريخ الفرنج أن البرتقال خرجوا من آسفى سنة ألف (*) وخمسمائة وثلاثين مسيحية ، وهذا التاريخ يوافقه من سنى الهجرة سنة

(*) الذى حاصر مراكش هو ابو العباس الوطاسى لان اباه ابا عبد الله مات قبل هذا التاريخ على ما عند المؤرخ كمور فى تأليفه المعنون : « بتاريخ استيلاء الشرفاء على المغرب » .

(*) قرر البرتقال اخلاء آسفى فى السنة التى ذكر المؤلف ووقع خلاف بينهم فى ذلك وبقى الامر موقوفا الى سنة ١٥٤١ ميلادية الموافقة لعام ٩٤٨ ﻫ فتم اخلاؤها حينئذ نهائيا لما افتتح المسلمون حصن فونتى عنوة ولما اخليت امر السلطان ابو العباس الاعرج بحراستها و تحصينها راجع صفحة ٢٧٩ وصفحة ٢٨١ من كتاب تاريخ المغرب تأليف... كواساك دوشافربيير HISTOIRE DU MAROC PAR COISSAC DE CHAVREBIERE

ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وهى وسط دولة السلطان أبى العباس . وزعم هذا المؤرخ أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ، ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث الى الجديدة بعد ما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار ، قال: وبقيت ستى عشرة سنة وهى مخربة الى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ يعنى السعدى الآتى ذكره .

وفى «النزهة» : ما يقرب من هذا فانه قال بعد ذكر ايقاع السلطان أبى العباس بنصارى السواحل ما نصه : ويقال ان النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبى أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفى وآصيلا من غير قتال » . ثم نقل هذا الخبر فى محل آخر عن ابن القاضى منسوبا الى أبى عبد الله الشيخ وسيأتى ذكره فى محله . وأظن أن الاخلاء كان متكررا والله أعلم . وعلى كل حال ، فذكر آصيلا هنا غير مناسب اذ هى يومئذ فى جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصاراها يخرجون فرارامنها خوفا من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم ؟ ثم كان بعد هذا بين أبى العباس السعدى ، وأبى العباس الوطاسى من الحرب والسلم ما تقدم بيانه ، كوقعة آنماى ، ووقعة أبى عقبة وغيرهما مما لا فائدة فى اعادته .

حدوث النفرة بين الاخوين السلطان ابى العباس الاعرج
ووزيره ابى عبد الله الشيخ ومانشا عن ذلك

كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستفحال الامر بالمحل الذى وصفناه قبل ، وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنا منه وكان تحت طاعته واقفا عند اشارته ، وكان السلطان أبو العباس يستشيره فى أموره ، ويفاوضه فى مهماته ، ويستعين بنجدته فى الزحوف والمعارك ، ويستضىء برأيه فى الحوادث الحوالك ، وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأى حازما شهما، فكانت كلمتهما واحدة ، وأمرهما جميعا،

الى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأفضى الحال الى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين ، وانصرفت كل طائفة الى متبوعها وصاحب أمرها ، وتقاتلا مدة ، وكانت جل القبائل السوسية صاغية الى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله الى آفغال حسبما مر ، فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبى العباس فقبض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ، ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم فى الجرايات والنفقات ، وأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان وزيرا ، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة .

وفى «نشر المثانى» : أن قبض الشيخ على أخيه أبى العباس الاعرج كان سنة احدى وخمسين وتسعمائة والاول أصح . ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده فى حكم الثقاف الى أن قتل (*) يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتى ان شاء الله . وكانت دولته من يوم بويع الى أن قبض عليه أخوه ثلاثا وعشرين سنة ، وكان من حجابه : محمد بن على الانكراطى اليملالى ، ومحمد بن أبى زيد المنزارى ، ومن كتابه : سعيد بن على الحامدى رحمهم الله .

امر زيدان ابن السلطان ابى العباس وما كان منه

قال صاحب «درة الحجال» : اختلف الناس هل بويع لزيدان بن الاعرج بعد وفاة أبيه أم لا وقال شارح «زهرة الشماريخ» : كان زيدان بن أبى العباس بسجلماسة وبويع له بها فلم يتم امره وبقى الى أن توفى سنة ستين وتسعمائة .

(*) بل بعد قتل اخيه بثلاثة ايام لما وصل الخبر بذلك لمراكش .

الخبر عن دولة السلطان ابى عبد الله محمد المهدى المعروف بالشيخ
ابن الامير ابى عبد الله القائم بامر الله

كانت ولادة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة، ويلقب بالشيخ وبآمغار ، وهو الشيخ بالبربرية ، ويلقب من الالقاب السلطانية: بالمهدى. لقبه به غير واحد من أئمة عصره، ونشأ فى عفاف وصيانة، وعنى بالعلم فى صغره ، وتعلق بأهدابه ، فاخذ عن جماعة من الشيوخ ، وبلغ فيه الى درجة الرسوخ .

فتح حصن فونتى وآسفى وآزمور وما قيل فى ذلك

لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بأمر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه الى جهاد العدو الذى بثغوره وحصونه ، وأرهف حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه ، فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحى دابرهم وحسم آفتهم .

قال ابن القاضى : « كان الشيخ رحمه الله ماضى العزيمة قوى الشكيمة عظيم الهيبة، كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة غالية، فعد قواعد الملك وأسس مبانيه ، وأحيى مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة ، وكان له سعد وبخت عظيم فى الجهاد ويد بيضاء فى الاسلام ، فتح حصن النصارى بالسوس يعنى : حصن فونتى، بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة، وكان منصورا بالرعب حتى تركوا له آسفى وآزمور وآصيلا من غير قتال ولا ايجاف عليهم» اه . ونحوه فى تاريخ البرتقاليين، زاد مؤرخهم أن ذلك كان باذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا فى أخبار الاعرج والجواب عنه ، وكان فتح فونتى سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما فى النزهة ، وفتح آسفى سنة ثمان وأربعين

بعدها كما فى المرآة ، وعند البرتقاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجرى .

وفى «الدوحة»(*) «لما أخلى النصارى آزمور تسارع اليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس ، والشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى دفين تانسيفت قرب مراكش ، فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتى مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع اليها العدو فاذا به قد رجع واقتحمها عليهم وأسرهم الى أن افتكهم المسلمون ».

قال منويل : « كان فداؤهما بالفى ريال ومائتى ريال بالتثنية فيهما » ، ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج ، وكان أسيرا عند امرأة نصرانية ، ناولته كتبا للمسلمين وقالت له : « هذه كتب كانت عندى ولا حاجة لى بها فخذها اليك » ، فأخذها وخرج بها فى قفة على رأسه فكان من جملتها . كتاب «تنبيه الانام» الموضوع فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور » اه .

بناء حصن آكادير

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى « فى كتابه: «المنتقى المقصور»: كانت للامير السلطان أبى عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها أنه أول من اختط مرسى آكادير بالسوس الاقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتى على مقربة من آكادير المذكور وكان له فى اختطاطه رأى مصيب وفراسة تامة » اه .

(*) صوابه : النزهة

استيلاء السلطان ابى عبد الله محمد الشيخ على مراكش

وتجديد البيعة له بها

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالامر قد أقام بالبلاد السوسية مثابرا على جهاد العدو الى أن قلع عروق مفسدته منها، وكانت مراكش فى هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول فى دعوته ، اتقاء للوطاسيين وارتياء فى أمره الى ماذا يأول ، واستمر الحال الى سنة احدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا الى وادى نول . والله غالب على أمره .

نهوض السلطان ابى عبد الله محمد الشيخ لحرب بنى وطاس

واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له فى ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره . وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره . فجمع الجموع وتقدم بها الى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلدا بلدا ومصرا مصرا الى أن أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فانه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير .

٢٢

حصار السلطان ابى عبدالله الشيخ حضرة فاس
ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانشريسى رحمه الله

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصارا طويلا، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له: لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الوانشريسى يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد: «بيعة هذا السلطان ، يعنى أبا العباس الوطاسى، فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا الموجب شرعى، وهو غير موجود»، وزعم بعضهم أن السلطان المذكور كتب الى أهل فاس يقول لهم: «انى ان دخلت فاسا صلحا ملأتها عدلا وان دخلتها عنوة ملأتها قتلا » فأجابه ابن الوانشريسى بابيات أغلظ له فيها منها قوله :

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا خصك المولى بفضل ولا أولى

كذا فى «النزهة» . قلت : وهذا البيت من أبيات قديمة والوانشريسى انما تمثل به لا غير . فقد ذكر العلامة (*) ابن خلدون فى أخبار بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب قلعة نكور لاول الفتح أن عبيد الله المهدى العبيدى صاحب افريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه الى أمره وكتب له فى أسفل كتابه :

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفى قاهرا لسيوفكم وأدخلها عنوا وأملأها قتلا

فأجابه سعيد بن صالح بابيات من نظم شاعره الطليطلى نصها :

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت الا جاهل ومنافق تمثل للجهال فى السنة المثلى

(*) اصل ما ذكره ابن خلدون فى « مسالك البكرى » فقد ذكر القصة والشعر عند كلامه على قلعة نكور .

وهمتنا العليا بديـــن محمـــد　　وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فلعل الشيخ كتب لاهل فاس بالبيتين الاولين والوانشريسى كان مطلعا على القضية فأجابه بجوابهما .

ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الوانشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محلته محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشاءين وينقل عليه كلام ابن حجر فى «فتح البارى» ويستوفيه لانه شرط المحبس، فقال له ابنه «يا أبت انى قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة .» فقال له الشيخ: «أين وقفنا البارحة؟» قال «على كتاب القدر!» قال «فكيف نفر من القدر؟ اذا اذهب بنا الى المجلس» فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين ، أحد أبواب المسجد المذكور ، فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ باحدى عضادتى الباب فضرب أحدهم يده فقطعها ، وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة .

قال الشيخ المنجور فى فهرسته : واشتهر عن الفقيه الصالح أبى عبد الله محمد ابن ابراهيم المدعو بأبى شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد فى المنام بعد مقتله فسأله عن حاله فأنشأ يقول :

لقد عمنى رضوان ربى وفضلـه　　ولم أر الا الخير فى وحشة القبر
وانى أسأل الاله بفضلـــه　　ليحفظنى يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذاك من أمور عسيـرة　　كنشر الكتاب والمرور على الجسر



٢٤

استيلاء السلطان ابى عبد الله الشيخ على فاس
وقبضه على الوطاسين وتغريبهم الى مراكش

ثم ان السلطان أبا عبد الله الشيخ جد فى حصار فاس وألح عليها بالقتال الى أن ملكها واحتوى عليها .

قال فى «الدوحة»: «لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له : « اشتر منى فاسا بخمسمائة دينار » فقال له السلطان : « ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شىء لم تأت به الشريعة » فقال: « والله لا دخلتها هذه السنة » فبقى أشهرا والامر لا يزداد الا شدة ، فقال ابن السلطان ، وهو الامير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لابيه : « يا أبت افعل ما قال لك الشيخ أبو الرواين ، فانه رجل مبارك من أولياء الله تعالى . » ولم يزل به حتى أذن له فى الكلام معه ، فكلمه الامير عبد القادر ، فقال له : « ادفع المال » فدفعه اليه ، فقال له : « عند تمام السنة يقضى الله الحاجة وأمرى بامره سبحانه. » ثم ان الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة ، ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور فى الظهور الى أن انقضت السنة فدخل فاسا كما قال » اه .

وقال صاحب «الممتع» :والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الاسباب فى تمكن السلطان المذكور من الملك واخراج بنى وطاس عنه ، فانه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادى : « ياحران جىء . فانى قد أعطيتك الغرب! » وذلك قبل ظهور السعديين ، ولم يكن الناس يدرون ما يقول حتى ظهر الحران . وهو : أحد أولاد السلطان أبى عبد الله الشيخ ،وهو لذى كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد الا ما فتح له على يده .

وكان دخول السلطان الشيخ الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين الى مراكش عدا

أبا حسون منهم فانه فر الى الجزائر مستجيرا بتركها حسبما مر .

وقال اليفرنى : « لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم ، فحملوا أنفسهم على التأدب با داب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعنى حتى رسخ فيهم ذلك » والله أعلم .

نهوض السلطان ابى عبد الله الشيخ الى تلمسان واستيلاؤه عليها

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركى على تلمسان ، وانقراض دولة بنى زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس فى التاريخ المتقدم تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط ، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع انهم أجانب من هذا الاقليم ودخلاء فيه ، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم ، لا سيما وقد فر اليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله ، وهو أبو حسون الوطاسى، فرأى الشيخ من الرأى واظهار القوة فى الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدأوه فنهض من فاس قاصدا تلمسان فى جموعه الى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر ، وقتل فى محاصرتها ولده الحران ، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمدى الاولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، ونفى الترك عنها ، وانتشر حكمه فى أعمالها الى وادى شلف ، واتسعت خطة مملكته بالمغرب ، ودانت له البلاد ، ثم كرت عليه الاتراك وأخرجوه من تلمسان ، فعاد الى مقره من فاس، ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها، فأقام مرابطا عليها أياما فامتنعت عليه ، وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها الى الترك على مانذكره .

٢٦

امتحان السلطان ابى عبد الله الشيخ ارباب الزوايا و المنتسبين والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند اشاراتهم، والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترى أن بيعة والده أبى عبد الله القائم لم تنعقد الا بهم، ولا ولج بيت الملك الامن بابهم ، فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبى محمد الكوش ، فاخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله الى فاس .

وفى «الدوحة» : «لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لابى على الحسن بن عيسى المصباحى دفين الدعادع التى على وادى مضى. من عمل القصر : «ألا تخشى من هذا السلطان؟ » ،فقال : «انما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما ، والباقى متروك لمن طلبه » .

وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراء بنى مرين ويتهمهم بها . وبعث خديمه يوما الى الشيخ أبى عثمان سعيد بن أبى بكر المشترائى دفين مكناسة يطالبه بشىء من ذلك فوجده جالسا بناحية زاويته يضفر الدوم واذا بطائر، لعله اللقلاق سلح أمامه فما رفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتا متطاير الريش ، فلما رأى الخديم ذلك فزع وولى هاربا. قاله فى «الممتع» والله تعالى أعلم .



وفادة الامام ابى عبد الله الخروبى من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها

لما كان من السلطان أبى عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن على الخروبى الطرابلسى نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور فى شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد ، فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة احدى (*) وستين وتسعمائة فى هذا الغرض ، فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته ، الا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه .

وفى «المرآة» : « أن أبا عبد الله الخروبى قدم المغرب الاقصى مرتين فى سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاوسط والمغرب الاقصى، فاخذ عنه كثير من أهل المغرب الاقصى ، وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله » وفى قدمة الخروبى هذه الى مراكش أنكر على الشيخ أبى عمرو القسطلى دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذى يريد الدخول فى طريق القوم ، وقال: «انه بدعة»(*) فقالوا له : «ان الشيخ الجزولى كان يفعله» فقال لهم: «لعله باذن ، والاذن له لا يعمكم ، فان الاذن للنبى يعم أتباعه ، والاذن للولى لا يعم اتباعه» وأنكر عليه مسائل كثيرة ، وبعث اليه رسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها * رحم الله الجميع بمنه . وتوفى الخروبى هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم .

(*) الذى فى « النزهة » سنة تسع وخمسين وهو الصواب .

(*) انظر «ممتع الاسماع» فقد اشبع القول فى مسألة حلق شعر التائب .

* راجع فهرسة المرغيثى تجدها هناك . قال فى «الممتع» وقد اجاب ابو محلى الثائر الشهير الخروبى عن رسالته منتصرا لشيخه القسطلى اه .

٢٨

قدوم ابي حسون الوطاسي بجيش الترك
واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه على بني وطاس وفرار أبي حسون الى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها الى أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني ، فاستولى على فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ، ونفى أبا عبد الله الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى .

عود السلطان ابي عبد الله الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل الى مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون ، فاستنفر قبائل السوس ، وجمع الجموع ، وزحف الى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ ، فقتل أبا حسون واستولى على فاس ، وصفا له أمر المغرب ، وقد تقدمت هذه الاخبار مستوفاة في محلها ، وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة .

وفي «الدوحة» : أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة ، وعود السلطان الشيخ اليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضا ، والله تعالى أعلم .

٢٩

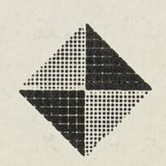
مقتل الفقيهين ابى محمد الزقاق و ابى على حرزوز و السبب فى ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس فى هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضى الجماعة بفاس أبى محمد عبد الوهاب بن محمد بن على الزقاق لانه اتهمه بالميل الى أبى حسون .

ويحكى أنه لما مثل بين يديه قال له : « اختـــر بأى شىء تمـــوت » فقال له الفقيه : « اختر أنت لنفسك ، فان المرء مقتول بما قتل به » فقال لهم السلطان : « اقطعوا رأسه بشاقور » فكان من حكمة الله وعدله فى خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضا كما سيأتى .

وفى كتاب «خلاصة الاثر» : أن الشيخ الزقاق كان يقول : « من قتل سوسيا كان كمن قتل مجوسيا » فلما قبض عليه الشيخ قال له : « أنت زق الضلال» فقال له : « لا والله ، بل أنا زق العلم والهداية » ثم قتله .

وأمر أيضا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبى على حرزوز المكناسى لكلام بلغه عنه ، وانه كان يذكره فى خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد اليه ، ويقول فى خطبته: «جاءكم أهل السوس الاقصى البعاد » ثم يذكر الشيخ ويقول : « واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم، ولبئس المهاد . » فى كلام غير هذا . وكان مقتل الفقيهين المذكورين فى ذى القعدة سنة احدى وستين وتسعمائة .



ترتيب السلطان ابى عبد الله الشيخ امر دولته وما قيل في ذلك

قال اليفرنى : « كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعا بتدبير أمر الرعية مستيقظا فى أموره حازما غير متوقف فى سفك الدماء » قال : « ويحكى أنه لما دخل فاسا دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق باخلاقهم . » وذكر ان ملك السعديين انما تأنق على يد رجل وامرأة ، فأما الرجل : فقاسم الزرهونى، فانه رتب للسلطان أبى عبد الله الشيخ هيئة السلاطين فى ملابسهم ودخولهم وخروجهم وآداب أصحابهم ، وكيفية مثولهم بين أيديهم وأما المرأة : فالعريفة بنت خجو فانها علمته سيرة الملوك فى منازلهم وحالاتهم فى الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك ، فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة ، وازداد فى عيون العامة رونقا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية، لان أهل البادية مسترذلون فى عيون أهل الحاضرة ، قالوا : ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الاقامة بفاس .

قال فى «المنتقى» : ومن مآثره: أنه بنى جسر وادى سبو، وجسر وادى أم الربيع . وتقدم بناؤه حصن آكادير . والله تعالى أعلم .

وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة

قد تقدم لنا فى صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء فى أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك ،وعلى القول بأنها فتحت عنوة فهى خراجية كما هو مقرر فى كتب الفقه ، وتقدم لنا أيضا أن أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المومن بن على ، وتبعه بنوه على ذلك . وقفا نهجهم بنو مرين وفى الظهير الذى كتبه السلطان أبو زيان المرينى لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك . ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضا .

وقول اليفرنى : ان أبا عبد الله الشيخ أول من أحدث النائبة بالمغرب يحمل على أنه أول من أحدثها على الوجه الآتى بيانه ، وذلك أنه لما صفا للسلطان أبى عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بنى وطاس منه التفت الى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا ، فمن ذلك : أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة فى لسان العامة بالنائبة ، ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا ، حتى أرباب الزوايا و المنتسبين ، ومنهم أولاد الشيخ ابى البقاء خالد المصمودى ، مع ما كان لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت فى بلاده . وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة. وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع نوائب ، وكانت تفرض فى زمان الشيخ على الكوانين ، وتوظف على حسب السكان ، وتدفع باعيانها ، وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ، ولما جاء المنصور من بعدهم قوم تلك الاعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم ، ثم ازداد ذلك الى أن خرج الامر عن القياس واتسع الخرق على الراقع ، والله لا يظلم مثقال ذرة .

مراسلة السلطان سليمان العثمانى للسلطان ابى عبد الله الشيخ
وما نشأ عن ذلك

قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبى عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الاوسط ، وانه غزاهم مرتين ، وقدم الامام أبو عبد الله الخروبى ساعيا فى الهدنة فلم يرجع بطائل . وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا: «لابدلى أن أغزو مصر واخرج الترك من أجحارها »وكان يطلق لسانه فى السلطان سليمان العثمانى ويسميه بسلطان الحواتة. يعنى لان الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر فى البحر ، فأنهى ذلك الى السلطان سليمان فبعث اليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما فى «النزهة» .

وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال : لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية الى السلطان سليمان العثمانى واستيلاء السعديين على ملك المغرب

الاقصى كتب الى الشيخ يهنئه بالملك ، ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب، وبعث اليه بذلك رسولا فى البحر ، فانتهى الى الجزائر ومنها قدم الى مراكش فى البر . ولما وصل الى السلطان أبى عبد الله الشيخ أنزله على كبير الاتراك فى محلته صالح باى المعروف بالكاهية ، وكان هؤلاء الاتراك قد انحاشوا الى الشيخ من بقايا القادمين مع أبى حسون ، فضمهم اليه وجعلهم جندا على حدة، وسماهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين ، وهو لفظ تركى معناه العسكر الجديد . ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى أنفه وابرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه ، فطلب منه الجواب ، فقال: « لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر ان شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب » فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه الى أن وصل الى سلطانه وكان من أمره ما نذكره .

قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثمانى

واغتيالهم للسلطان ابى عبد الله الشيخ رحمه الله

لما خرج رسول السلطان سليمان العثمانى من عند السلطان أبى عبد الله الشيخ ووصل الى الجزائر ركب البحر الى القسطنطينية فانتهى اليها ، واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الاعظم ، وأخبره بما لقى من سلطان المغرب ، فانهى الوزير ذلك الى السلطان سليمان فأمره أن يهىء العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها ، واتفق رأيهم على أن عينوا اثنى عشر رجلا من فتاك الترك وبذلوا لهم اثنى عشر ألف دينار ، وكتبوا لهم كتابا الى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ ، ووعدوه بالمال والمنصب ان هو نصح فى اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه .

وفى «النزهة» :« أن صالحا هذا كان من ترك الجزائر جاء فى جملة الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ » والله أعلم . ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر اليه عن توجيه العمارة ، وقال : « هذا أمر سهل لا يحتاج فيه الى تقويم عمارة ، وهذا المغربى الذى أساء الادب على السلطان يأتى رأسه الى بين يديك» فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة فى البحر الى الجزائر ، ومنها يتوجهون الى مراكش فى البر ؛ ففعلوا ، ولما وصلوا الى الجزائر هيأوا أسبابا واشتروا بغالا وساروا الى فاس فى هيئة التجار، فباعوا بها أسبابهم ، وتوجهوا الى مراكش ، ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة فى أمرهم الى أن توجهت اه .

وفى «النزهة» :أن هؤلاء الاتراك خرجوا من الجزائر الى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم ، ورغبوا فى خدمة الشيخ والاستجار به . ثم ان صالحا الكاهية دخل على السلطان أبى عبد الله الشيخ وقال يامولاى: «ان جماعة من أعيان جندالجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا فى جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم ان شاء الله السبب فى تملكها » فامره بادخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسانا وأجساما عظاما فأكبرهم ، ثم ترجم له صالح كلامهم ، فافرغه فى قالب المحبة والنصح والاجتهاد فى الطاعة والخدمة ، حتى خيل الى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر ، فامره باكرامهم وان يعطيهم الخيل والسلاح ، ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل ، فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك فى ذلك .

وصار الشيخ يبعث بهم الى أشياخ السوس مناوبة فى الامور المهمة ليتبصروا فى البلاد ويعرفوا الناس . وكان يوصى الاشياخ باكرام من قدم عليهم منهم ، واستمر الحال الى أن أمكنتهم فيه الفرصة، وهو فى بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له: آكلكال بظاهر تارودانت، فولجوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسس ، فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه ، واحتملوه فى مخلاة ملأوها نخالة وملحا وخاضوا به أحشاء الظلماء وسلكوا طريق درعة

وسجلماسة كأنهم ارسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد ، ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس، وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتى مراكش أبو الحسن على بن أبى بكر السكتانى . والكاتب أبو عمران الوجانى .

ولما شاع الخبر بان الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقى منهم بالمغرب أغلق اخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الاموال واستعدوا للحصار ، ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر الى تارودانت للاخذ بثار أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة، ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بان أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع الى فاس لثائر قام بها . ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا فى اتباعه ليلا والعيون موضوعة عليهم بكل جهة الى ان شارفوا محلة السلطان الغالب بالله فعطف عليهم ، ولما لم يمكنهم الرجوع الى تارودانت تحيزوا الى الجبل وبنوا به قياطنهم، وجعلوا عليها المتارزات من الاحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة ، فقاتلوا الى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير ، وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفا ومائتين . وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا الى الجزائر وركبوا البحر منها الى القسطنطينية ، فاوصلوا الرأس الى الصدر الاعظم ، وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يجعل فى شبكة نحاس ، ويعلق على باب القلعة فبقى هنالك الى أن شفع فى انزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم ، وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعديين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتى . وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة. ولما بلغ خبر مقتله الى خليفته بمراكش القائد أبى الحسن على بن أبى بكر آزناك بادر بقتل أبى العباس الاعرج المخلوع وأولاده ذكورا واناثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه . ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلى الولى الشهير بمقربة من ضريح الشيخ الجزولى وهى القبة التى قرب الضريح المذكور تسمى قبور

الاشراف ، وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ فانهم حملوا جثته الى مراكش، فدفنت بها قبلى جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها الى الآن، ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات :

حى ضريحا تغمدته رحمات — وظللت لحده منها غمامات
واستنشقن نفحة التقديس منه فقد — هبت من الخلد لى منها نسيمات
بحر به كورت شمس الهدى فكست — من أجلها السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى قنصا — وأثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك أطواد العلا صعقا — وارتج من بعدك السبع السموات
وشيعت نعشك المزجى الى عدن — من الملائك ألحان وأصوات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضا — تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق فى التاريخ منه حلى — دار امام الهدى المهدى جنات

بقية أخبار السلطان أبى عبد الله الشيخ وسيرته

كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى ونشأ فى عفاف وصيانة وعنى بالعلم فى صغره وتعلق باهدابه ، فأخذ عن جماعة من الشيوخ ، وبلغ فيه درجة الرسوخ ، حتى كان يخالف القضاة فى الاحكام ، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ، وقع ذلك منه مرارا ، وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه .

وقال فى «المنتقى» : « كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمه الله أديبا متفننا حافظا حدثنى شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقى الشيبة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شيخى أبى الحسن على بن هرون أحفظ منه للمقطعات الشعرية وكثيرا ما ينشد :

الناس كالناس والايام واحدة — والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن فهما جدا ، حافظا لصحيح البخارى ، ويستحضر ما للناس عليه ، ويقول فى شرح ابن حجر : « ما صنف فى الاسلام مثله » عارفا بالتفسير وغيره ، وكان يحفظ ديوان المتنبى عن ظهر قلب ، وكان يحض على المشاورة ويقول : « لا سيما فى حق الملوك » وينشد قول المتنبى :

ومن جهلت نفسه قدره   رأى غيره منه ما لا يرى

وكان يقول : « ينبغى للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصلح بطول أمله ، »وكان يقول : « من طول أمله أخذ تلمسان وسبتة وغيرهما » انتهى .

وقوله انه كان يحفظ ديوان المتنبى ، سببه ما ذكره فى الدوحة قال : أخبرنى الوزير المعظم أبو عبد الله محمد بن الامير أبى محمد عبد القادر بن السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف قال : « لما غدرت قبيلة المنابهة بجد السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبامحمد عبد الله ابن عمر بذلك فكتب اليه يقول : « أين أنت من قول أبى الطيب المتنبى :

غاض الوفاء فما تلقاه فى عدة   وأعوز الصدق فى الاخبار والقسم»

قال : « فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبى حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد » اه . وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغرى الفقيه الفرضى الحاسب ، فقيه درعة وعالمها ، وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس، ولما عاد الى درعة سأله فقهاؤها كيف وجدت أهل السوس ؟ فقال :«وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوى ، وفقراءهم على عظيم الدعاوى ، وعامتهم على كثير المساوى » .

ومن أشياخ السلطان المذكور: الامام الشهير شيخ الجماعة بالصقع السوسى أبو الحسن (*) على بن عثمان الثاملى ذكره فى «المنتقى» وأثنى عليه ، ومن أشياخه : علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليستنى ، أخذ عنه علوما منها التفسير . قال المنجور : « وكنت أنا قارئه بين يدى أمير

(*) صوابه ابو على الحسن

٣٧

المؤمنين أبى عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له » قال : « ولما توفى الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التى توفى بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المرينى ، فخرج السلطان الينا وهو يبكى بصوت عال يفزع من سمعه ، حتى رأينا منه العجب وما سكت الا بعد مدة ، لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم وحضر جنازته » ، وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة ، وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء .

ومن وزرائه : الرئيس أبو الحسن على بن أبى بكر آصناك الحاحى ، وأبو عمران موسى بن أبى جمدى العمرى وغيرهم .

ومن قضاته بفاس : أبو الحسن على بن أحمد الخصاصى ، وبمراكش : أبو الحسن على بن أبى بكر السكتانى رحم الله الجميع .

وكان للسلطان أبى عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء ، ومن أنجبهم أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان ، ومنهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله ، وأبو مروان عبد الملك الغازى ، وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بعد أبيهم ، ومنهم : الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفى فى حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة .

وفى «نشر المثانى» : أنه قتل مخنوقا بأمر أخيه، عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فالله أعلم . ومنهم عثمان وعبد المومن ، وعمر وغيرهم .

قال المنجور فى فهرسته : « حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبى عبد الله الشيخ ، وقد حضر عنده أولاده الصناديد الامراء : المولى محمد الحران، والمولى عبد القادر ، والمولى عبد الله ، فدخل شيخنا الامام أبو عبد الله اليستنى فلما نظر اليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح :

فقلت عسى أن تبصرينى كأنما ... بنى حوالى الاسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم » .

■

٣٨

الخبر عن دولة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله

ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله كما رأيته مرقوما على الرخامة التى على قبره فى رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، وكان رحمه الله أدعج العينين ، مستدير الوجه عريضه ، أسيل الخدين ، مشرف الوجنتين ، ربعة للقصر ، ونشأ فى عفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ، وأخذ بطرف صالح من العلم ، وكان ولى عهد أبيه، وكان يلقب من الالقاب السلطانية: بالغالب بالله لقبه به غير واحد من الائمة . ولما وافته الانباء بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد .

وذكر صاحب «زهرة الشماريخ» : أن الفقيه الميقاتى المعدل بمنار القرويين أبا عبد الله المزوار ، وكان بصيرا بعلم الاحكام والحدثان ، بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب ، وقد ابهار الليل واسود ديجوره ، رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط ، وكانت بينه وبين ابنه أبى محمد عبد الله وصلة ، فأسرع فى الذهاب اليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقا فاستأذن الموكلين به فى فتحه فأبوا ، فقال لهم : « انى جئت الى الخليفة ، يعنى خليفة السلطان ، فى أمر مهم عنده ، وان لم تعلموه بمكانى الساعة لحقكم منه غدا ما تكرهون ، فانذروا الخليفة المذكور به فحمل اليه ، وسأله عن قضيته ، فاخبره بما رأى ونعى اليه أباه ، فلم يكذب فى ذلك وتهيأ واستعد ، فلم تمض الا أيام قلائل حتى وافته الانباء بمقتل أبيه فى تلك الساعة التى قال له المعدل المذكور ، فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها ، فاستوسق له الامر وتمهد له ملك أبيه . وكان ذلك كله فى المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة .

مجيء حسن بن خير الدين التركى الى فاس ورجوعه منهزما عنها

قال ابن القاضى : لما ولى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه الى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله .

وفى سنة خمس وستين وتسعمائة ، فى جمدى الاولى منها ، غـــزاه حسن بن خير الدين باشا التركى صاحب تلمسان فى جيش كثيف من الاتراك ، فخرج اليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من وادى اللبن من عمالة فاس ، فكانت الدبرة على حسن ، فرجع منهزما يطلب صياصى الجبال الى أن بلغ الى باديس ، وكانت يومئذ للترك ، ورجع الغالب بالله الى فاس لكنه لم يدخلها لوباء كان بها يومئذ ، ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لامر نقمه عليه فقتل فى السنة المذكورة . والله تعالى أعلم .

بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك

قال اليفرنى : « وفى عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين من مراكش ، والسقاية المتصلة به التى عليها مدار المدينة المذكور ، والمارستان الذى ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة» قلت : وهذا المارستان هو الذى بحومة الطالعة قرب السجن ، وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء ، قال : وهذا السلطان هو الذى جدد أيضا بناء المدرسة التى بجوار جامع ابن يوسف اللمتونى، وليس هو الذى أنشأها كمايعتقده كثير من الناس بل الذى أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن المرينى رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة فى رحلته ، وشاع على الالسنة أن السلطان الغالب بالله توصل الى بنائها بصناعة الكيمياء ، وان الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السملالى علمه

اياها حين تلمذله كما سيأتى .

قال اليفرنى : « وهو كذب ، فان المنقول عن الشيخ المذكور انكارها ، وما كان ليفتح على مسلم بابا عظيما من أبواب الفتنة وسببا بليغا من أسباب المحنة ، لان هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن ، وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها لوجوه ثلاثة ؛ أولها : انها من المستحيلات كما ذكره ابن سيناء مستدلا عليه بقوله تعالى : « لا تبديل لخلق الله » وكما انه ليس فى قدرة المخلوق أن يحول القرد انسانا والذئب غزالا كذلك ليس فى قدرته أن يصير الرصاص فضة ، والنحاس ذهبا يعنى ، لان ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال . ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها: «أتنكر ما تشاهده فى الصبغ وتصيير الجسد الاحمر أصفر والابيض أسود؟ فقال مانعها : « لاأنكر ذلك ، لان الصبغ ليس تغيير أصل ، وانما أنكر أن ثوب الصوف الابيض ترده صناعة الصبغ قطنا أو حريرا أحمر أو أخضر ، وأما الصبغ فلا شك أن النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف . ثانيها : سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة فى الخارج كما ذهب اليه أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله اذ قال : «ثلاث متفق على وجودها فى الغالب ، وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغارب : الكيمياء ، والعنقاء ، والغول . وأخبارها كلها على وجه السماع والاسنادات وحكايتها كالموضوعات عن العجماوات والجمادات». ثالثها : سلمنا أنها موجودة فى الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها .

وقد سئل عنها الشيخ أبو اسحق التونسى رحمه الله فقيل له : «أحلال هى اذا كانت خالصة؟ » فقال: «لو دبر النحاس أو غيره من الاجساد حتى صار ذهبا خالصا لاشك فيه فمتى لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاسا أو جسدا من الاجساد فدبرته حتى صار ذهبا كما ترى لكان غاشا مدلسا. » قال :« ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس ، ويقول : فكما دبرته حتى صار ذهبا فكذلك يدبره غيرك حتى يرجع الى أصله . فمن لم يبين فيها فهو داخل فى قوله عليه

الصلاة والسلام : « من غشنا فليس منا » فتكون صناعتها حراما » وقيل لبعض الفضلاء : « لم لم تتعلل بهذه الصناعة فانها تسلى الخاطر ؟ » فقال : « قيل للحمار « لم لم تجتر ؟ » فقال : « أكره مضغ الباطل » وانشد :

فقلت لاصحابى هى الشمس ضوءها قريب ولكن فى تناولها بعد»

اه ما نقله اليفرنى ملخصا مهذبا ، وهو الحق الذى لا عوج فيه ولا أمت . ثم قال : وبالجملة فماشاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لاأصل له، ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة فى جامع الاشراف بعد ما بنى مدة ويقال : ان موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم .

فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها

تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم ، وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط ، ولما توفى مختطها الامير أبو الحسن على بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها. قال فى «المرآة» : ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن السلطان محمد الشيخ السعدى بجيوش عمه السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله ، وصاحب شفشاون يومئذ الامير الفاضل أبو عبد الله محمد بن الامير أبى الحسن على بن موسى بن راشد ، فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن اليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون فى مسلك وعر صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثانى من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة ، وساروا الى ترغة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور . واستقر الامير أبو عبد الله بالمدينة المنورة الى أن مات بها رحمه الله .

٤٢

حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة

قد قدمنا ما كان من بناء البرتقال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية ، وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز اليها السلطان الغالب بالله جيشا كثيفا، واستنفر لها قبائل الحوز ، وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادى المخازن ، وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل ، واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن تودة العمرانى ، وجعل اليه أمر الحرب ، وابن السلطان صورة ، فزحف اليها وحاصرها أربعة وستين يوما وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها .

وفى «النزهة» : « ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التى قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل فى الغد بقيتها ولا يبقى للكفر بها أثرا فكتب اليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها ، فتراجع النصارى اليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها» اه.

وقد وقفت فى التاريخ البرتقالى الموضوع فى أخبار الجديدة، واسم مؤلفه لويز مارية ، على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها، وتتبع الوقائع فصلا فصلا ويوما يوما ، وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة ، فكان من جملة ماقال : «انه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ فى تجهيز الجيوش اليهم أتاهم بعض المتنصرة » قال : « وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم ، وكانوا عازمين على التوثق من هذا الجاسوس فافلت منهم فعلموا ان اظهاره للتنصر كان مكيدة ، ثم أخذوا فى الاستعداد واشتروا من عند قائد آزمور ألفى سيف هكذا زعم » قال : « وفى اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين الى حوز الجديدة» وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربى الذى قدمناه قال: «فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفا والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف

بالبلدروش وكانوا يومئذ جندا للسعديين ، وكان معهم عشرون مدفعا عشرة كبيرة ، وعشرة صغيرة ، وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميمونا ، وكان معهم العلم الكبير الابيض ورايات أخر ملونة ، وتقدموا الى الجديدة فحاصروها حصارا شديدا وحاربوها حربا هائلة ، وصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفا كاشفا . وكانت الجديدة يومئذ فى غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغى وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات ، وملكوا المتارزات التى كانت حول السور بعد أن هلكت عليها نفوس من الفريقين ، ثم صنع النصارى للمسلمين عندها مينا البارود مرتين ، ففى الاولى كانت المينا تسعة براميل نفط منهن سبعة فأهلكت خلقا من المسلمين والنصارى وفى الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور فنفطت بالمسلمين وأتلفت منهم عددا فبعضهم طار فى الهواء وبعضهم ارتطم تحت التراب .

وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلا عظيما واعترف النصارى لهم بجودة الرمى بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكرى على السور اختطفته رصاصة فى أخير موضع من بدنه من الرأس أو الصدر . »

قال لويز المؤرخ: «ولقد قدم فى بعض الايام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم : أرونى كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم ، قال : فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره ، وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب الى منزله ، فعوضه منه المسلمون القبر » قال : « فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور الا فى النادر ، ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج الى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم وما مدة الاقامة » قال : « فخرجوا فى فلك لهم ليلا وساروا حتى بلغوا ساحل طيط ، وهى يومئذ خالية ، وكان بقربها محلة لقائد آسفى فلما طلع الفجر تقدموا الى البر وأرسوا فلكهم الى جانب بعض الاحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الاسفار اذا برجل

من محلة آسفى أتى على فرسه الى شاطىء البحر لبعض حاجاته فلم يرعه الا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه ، وجعل بعضهم فم مكحلته فى صدره ، فلم يملك المسلم من نفسه شيئا، ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه الى الفلك أسيرا ، ولججوا به فى البحر ، ولما بعدوا عن البر شيئا ما رمى أحدهم الفرس برصاصة فقتله ، ثم أسرعوا الى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فاخبرهم بانهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فان لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك» . قال : «وكان ارتحال المسلمين من الجديدة فى سابع مايه العجمى من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيدا وأحدثوا فى كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك باشارة باباهم صاحب رومة » .

ومما حكاه هذا البرتقالى فيما كان يجرى بين أهل آزمور وبينهم من الحرب ، وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة : أنه كان بآزمور امرأة حسناء وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويز الا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودى(*) لان الحروف التى ذكر تقرب منه ، قال : فامتنعت عليه فراودها أياما واشتد كلفه بها فلم تزدد عليه الا تمنعا فبعث اليها ذات يوم يرغبها فى نفسه ، ويدلى عليها بمآثره التى من جملتها الشجاعة . حتى قال لها : «وان شئت أن آتيك برأس أعظم نصرانى بالجديدة وأشجعه فعلت» ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له : « ان أتيتنى به تزوجتك » فذهب الرجل المذكور الى قائد آزمور ولم يسمه لويز وعرض عليه أن يكتب الى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بان يعين من جانبه رجلا من شجعانهم ليبارزه ان شاء ، فاجابه

(*) الذى فى الترجمة الافرنسية مولاى حدو ولعل المترجم هنا رأى كلمتى مولاى ، وحدو متصلتين خطا فظنهما كلمة واحدة مستقلة وتوهم ان المؤرخ البرتقالى لم يحسن النطق بها وأن أصل الكلمة الحقيقى ميلودى والعذر له فى ذلك لان الحروف التى فى مجموع مولاى و حدو قريبة من لفظة ميلودى مع انهما كلمتان مستقلتان فى الحقيقة احداهما مولاى والثانية حدو ه.

القائد الى مراده ، وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة، وهذا الموضع هو الذى كانت تقف فيه رسل آزمور اذا قدمت لغرض ، فخرج اليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به الى صاحبه ، فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم ما فيه فقام رجل منهم وقل: «أنا صاحبه» وهذا الرجل سماه لوزير ، وقال « كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتلىء الاعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور قبل ذلك فكتب صاحب الجديدة الى قائد آزمور انا قد أجبناك الى ما دعوت ، وقد أعجبنا ذلك ،وها نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التى تكون فيها الملاقاة ، فاتفقا على يوم معلوم ، وفى ذلك اليوم سار قائد آزمور فى أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور الى الجديدة ، فانتهوا الى الموضع الذى جرت العادة أن يقف فيه المسلمون ، وخرج قائد النصارى فى جماعته ، وشرطوا للمبارزة وكيفتها شروطا منها : أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقى الا المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين ، ومنها أن مساحة الموضع الذى يكون فيه مجالهما خمسون شبرا وسطا من الفريقين ، وان من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقا للآخر ، وأعطوا خطوطهم بذلك . ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا الى النصرانى ففتشاه لينظرا ماعليه من السلاح وما معه ، لان من جملة الشروط أن لا يتبارزا الا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصرانى سواهما » قال لويز : « وكان صاحبهم المذكور يحسن الضرب بكلتايديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل الا باليمين فرضى ، ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا الى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا غير أنه قد علق على ذراعه تمائم كثيرة مخروزة فى الجلد فقال له الشاهدان : « لابد أن تنزع هذه التمائم لان صاحبنا ليس عنده شىء من هذا ! ، وأيضا فيمكن أن تقيك هذه التمائم بعض الوقاية » فقال لهم: «لاأنزعها لان مثل هذا لا يتقى به فى الحرب، ولايغنى فى الظاهر من السيف والرمح شيئا وانما فيها أسماء الله ولا يحسن بى أن

أطرحها فى هذه الحالة التى أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب منى مع اسم الله تعالى وربما يكون سببا فى خذلانى » فرجع النصرانيان الى قائدهما وأخبراه بالقضية فقال: «لابد من نزعها» فعادا اليه، وزعم لويز أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدلان : « ان الحق مع النصارى لانا كشفنا صاحبهم كشفا تاما ، وراوده القائد أيضا ، فاصر على الامتناع معتذرا بما سلف ، ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون الى بلدهم ولم يكن براز » قال لويز : « وعد النصارى ذلك غلبا وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود » قال : « وكان سور الجديدة مكسوا بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين » .

قلت : من تأمل وأنصف علم أن الفشل انما هو من جانب النصارى لان تلك التمائم من حيث الظاهر لا تغنى شيئا ، وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى ، بل ولا يسلمونه ، فلم يبق الا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء . ثم قال لويز : « وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فأبلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محاله من الشجاعة» اه ، « والحق ما شهدت به الاعداء » وانما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها ، ولما اشتملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الايمانية فنسأله سبحانه وتعالى أن يعلى منار الدين ويكبت كيد الجاحدين والمعتدين آمين .

وفى سنة سبعين وتسعمائة ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى قضاء فاس فطالت مدته .



٤٧

وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبى العباس احمد بن موسى السملالى رضى عنه الله

حكى صاحب «الممتع» : « أن السلطان أبا محمد عبد الله الغالب بالله قال للاستاذ أبى عبد الله الترغى(*): «انى أجد فى نفسى ارادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لى شيخا» فذهب يطوف على مشايخ المغرب ، وكانوا اذ ذاك متوافرين، حتى أتى على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الجزولى ، ثم السملالى ، فوجده شيخا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع ، حسن الاخلاق ، باهر الكرامات ، واضح الطريقة، جامعا لمحاسن الخلال والاوصاف، فرجع اليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه ، حتى أتى على الشيخ المذكور، فقال : « وهو ولى ، ثم ولى ، ثم ولى ، ثم ولى » سبعا فقال له :«كأنك تدلنى عليه، وانه مطلوبى، وأنه المقدم على غيره» فقال له : «لا أدلك عليه ولا عندى ما أعرف به تقديمه، غير أن هذا الذى ظهرلى» فازمع السلطان الغالب باللهالرحلة اليه ، فلما بلغ الشيخ المذكور مجىء السلطان اليه خرج يتلقاه ، وقد هيأ له النزل وما يصلحه، وأعد له مايناسبه من الاطعمة الرفيعة النفيسة، وقدم اليه الثمر الجيد واللبن الحليب ، ولما خرج للقائه أتاه بعضهم بفرس ، وكان من عادته أن لا يركب ، واذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه ، بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع ، ففعل ذلك . ولقى السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث فى ضيافته ثلاثة أيام ، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة الى الله تعالى ، وسأله مع ذلك تمهيد الملك ، واعتذر اليه بانه لا يمكنه العيش بدونه ، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض اذا هو تخلى عنه، فقال الشيخ: « يا عرب، يا بربر ،يا سهل ، يا جبل ، أطيعوا السلطان مولاى عبد الله ، ولا تختلفوا عليه » . ثم بعد الثلاث انصرف السلطان الى محله ، فبقى مدة وهو مسكن ممهد الملك فى عافية .

(*) الترغى بالتاء المثناة ثم الراء والغين نسبة الى ترغة مرسى قديمة على نحو اربعين كيلومترا من تطوان. انظر ترجمته فى « الممتع » صفحة ١٣٠

ثم أتى الترك الى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيرا ، ولم يهنأ له عيش ، فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم . فقال : « دعونى منكم حتى أستقى من رأس العين » ثم ابرد بريدا الى الشيخ . فلما انتهى اليه سمعه يقول : « ياترك ارجعوا الى بلادكم ، ويامولاى عبد الله هناك الله فى بلادك بالعافية » فتقدم الرسول وسلم على الشيخ ، وبلغه سلام السلطان ، ثم انقلب من فوره بعد ما ورخ وقت سماع مقالته . فلما بلغ الى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فاذا الخبر قد ورد على السلطان بان الترك قد ارتحلوا وانصرفوا الى بلادهم ، واذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة .

ثم ان الشيخ قدم مراكش فى بعض الايام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى فرغب اليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ، ويصنع لهما طعاما وشرط على نفسه أن لا يطعمهم الا الحلال ، ولا يطعمهم ما فيه شبهة ، وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه ، ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه ، فلما خرج قيل له : « ما لك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف ان لا يطعمكم الا الحلال ؟ » فقال له : « من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة » اه .

ومما ينخرط فى هذا السلك : أن السلطان المذكور كان له اعتقاد فى الشيخ أبى عمرو القسطلى ، وكان يعظمه غاية ، وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقى بها الحر تبركا بها ، ولما توفى الشيخ أبو عمرو المذكور ، وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، حضر السلطان المذكور جنازته وحثا التراب على قبره بيده .

ومن أخبار السلطان المذكور : أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسين المغارى كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فارسل اليه السلطان المذكور : « اما أن تخرج عنى أو أخرج عنك » فقال الشيخ ابن حسين : « بل أنا أخرج » وخرج من فوره الى تامصلوحت فكان من أمره ما كان .

استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب في ذلك

قد تقدم لنا فى أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولواعلى وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة ، واستمروا بهما الى أن انتزعهما الترك من أيديهم . ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك فى الاستيلاء على المغرب الاقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور الهبطية وسد أنقابها دونه .

قال فى «النزهة» : ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لاينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة ، يعنى البوغاز ، وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس ، ويخليها لهم من المسلمين ، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلا اليه، فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها ، ونبشوا قبور الاموات وحرقوها ، وأهانوا المسلمين كل الاهانة ، ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد ، وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين، فلماكان بوادى اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم » اه .

وذكر اليفرنى انه وجد هذه الاخبار فى أوراق مجهولة والله تعالى أعلم .

فتنة الفقيه أبى عبد الله الاندلسى ومقتله

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الاندلسى ،نزيل مراكش ، متظاهـرا بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيرا من العامة فتبعوه ، وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضى الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهرى ، ويتفوه بمقالات شنيعة فى الدين ، فأمر السلطان الغالب بالله بقتله : فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه ، ووقعت فتنة عظيمـة بمراكش بسببه الى أن قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة . وكان ذلك أواسط ذى الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة (*).

ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم

قال فى «الدوحة» : « كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا فى محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة ، قال : « وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له : ابن عبد الله فانـه تزندق وذهب مذهب الاباضية على ما حكى عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الاهواء من الحواضر ، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية » قال : « ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة ، وسمعت بعض الفضلاء يقول:انه قد ظهر ذلك فى حياة الشيخ

(*) الصواب ان ذلك وقع سنة ٩٨٤ انظر « درة الحجال » فى ترجمة ابى عبد الله الاندلسى ص ١٦٧ وفى « الدوحة » ص ٨١ : وكان قتله بامر من السلطان محمد المتوكل بن الغالب لا من الغالب كما عند المؤلف.

أبى العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال : « من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة ، والموت على غير ملة » .

قال صاحب «الدوحة» : «ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين ، وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ فى شىء، وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة فى أئمتهم ، وانما أصحاب الشيخ كأبى محمد الخياط ، والشيخ الشطيبى ، وأبى الحسن على بن عبد الله دفين تافلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين ، والا فالائمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة » اه .

وقال فى «المرآة» ما نصه : والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية ، وكان كثير التلقين ، فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبى: «أهنت الحكمة فى تلقينك الاسماء للعامة حتى النساء » فقال له : « قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فقنعنا منهم بان نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر» قال الشيخ الخروبى: «فوجدته أوسع منى دائرة » .

قال صاحب «المرآة» : « وانتسبت اليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو برىء من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى مقتدى به فى العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه ، وقد أظهروا شيئا من ذلك فى حياته فتبرأ منهم ، وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم » قال: « وحدثنى شيخنا أبو عبدالله النيجى أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث الياصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع فى نفسه من ذلك شىء فقيل له: «ان الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه » فقال : «أنا تائب الى الله ،كفى فى طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه» وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه الا فى دولة السلطان الغالب بالله كما مر ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش
وما وقى الله تعالى من شرها

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبى العباس الاعرج وأخيه أبى عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسليمن وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة ، فحدثتهم نفسهم الشيطانية بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه ، فحفروا فى خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملأوها من البارود ووضعوا فيها فتيلا تسرى فيه النار على مهل كى ينقلب الجامع باهله وقت الصلاة .فنفطت المينا وانهدت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور ، وانشق مناره شقا كبيرا ولازال ماثلا به الى الآن ،وكان ذلك مبلغ ضررهم ،وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا . وكان ذلك سنة احدى وثمانين وتسعمائة .

وفاة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى فى شرح «درة السلوك» : «توفى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه » اه . وهذا الغم هو الداء المسمى عندالعامة بالضيقة ، أعاذنا الله منه ، وذكر غيره أنه توفى فى شوال بسبب تكلفه للصيام فعدت عليه العلة المذكورة . وشاع على ألسنة الناس أنه بات يصلى ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته ميتته وهو ساجد ، وذلك كذب ، ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الاشراف وقبره معروف . ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الابيات :

أيا زائرى هب لى الدعاء ترحما فانى الى فضل الدعاء فقيـــر
وقد كان أمر المؤمنين وملكهم الى وصيتى فى البلاد شهيـر
فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة ولم يغن عنى قائد ووزيــــر
تزودت حسن الظن بالله راحمى وزادى بحسن الظن فيه كثير
ومن كان مثلى عالما بحنانــه فهو بنيل العفو منـه جديـر
وقد جاء ان الله قال ترحمــا انى ما يظن العبد بى سيصير

وحكى أن ابنه اباعبد الله المعروف بالمسلوخ لما قرأ هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له: «ان فى قولك : ملقى بحفرة دسيسة وتلويحا الى الحديث: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» فهلا قلت ببلقع أو نحوه» ·

بقية اخبار السلطان الغالب بالله وسيرته

كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بأحوال الملك وتأن فى الامور ، ولما ولى الخلافة ألان الجانب وخفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا ، وانتعش الناس حتى كان يقال: ثلاث عينات هم عيون الزمان: السلطان المولى عبد الله، والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين المغارى ، والشيخ أبو السرور عياد السوسى .

قال اليفرنى : ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمسانى الى قاضى الجماعة أبى مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى يقول فيه : « ولا شك أن مولاى عبد الله مجمع على عدالته وبيعته » وقد أخبرنى الثقة من أصحاب الشيـخ الجامع أبى العباس أحمد بن موسى السملالى أنه قال : « مولاى عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان » وقد اشتهر بين الانام وعلى ألسنة الخاص والعام أن السلطان الغالب بالله كان عدلا صالحا ووقع فى الرسالة التى كتب بها

ابن أخيه السلطان أبو المعالى زيدان بن منصور الى الفقيه أبى زكرياء يحيى ابن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى ما ظاهره يخالف ذلك ، ويؤذن بانه كان كغيره من الملوك ، ونص المحتاج اليه من تلك الرسالة مخاطبا للفقيه المذكور يقول : « وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى السملالى كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته، وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه ، وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه ، وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه، وكان المولى المذكور يعزل ويولى ويقتل، وكان شرد منه الى زاويته المرابط الاندلسى وولد آصناك وأمثالهم ، وكان الشيخ يقدم الشفاعة فيشفع ولا يتعقب ، ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته . وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره ، ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة ، وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء ، وعبد الكريم بن الشيخ ، وعبد الكريم بن مؤمن العلج ، والهبطى ، والزرهونى ، وعبد الصادق بن ملوك ، وغيرهم ممن لا يحضرنى ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا فى شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب ، وكان فى عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ، والشرقى ، وأبو عمرو القسطلى ، وأبومحمد ابن ابراهيم التامنارتى،والشيظمى، وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم ، فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ، ولا سمع منهم ما يقدح فى ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع اليهم فى تدبيره» اهـ القدر المحتاج اليه من الرسالة المذكورة .

قال اليفرنى : « ومثل هذا ما ذكر بعضهم : أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه ، ومثله ما ذكر عنه ايضا: أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك ، ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة

وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا ، قال : « وهذه أمور شنيعة ان صح أنه فعلها ولست أدخل فى عهدتها لانى انما رأيتها فى أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظنى انها من وضع بعض أعدائهم لحطه من قدرهم واخراجه اياهم من النسب الشريف ، ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة ، فلذا تجنبت منها كثيرا من الاخبار التى لاتظن بأولئك السادة رحمهم الله ، فقد قال الشيخ تاج الدين السبكى رحمه الله فى طبقاته : « ان المؤرخين على شفا جرف هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به » قال : « فعلى المؤرخ أن يتقى الله تعالى » . اه الا أن الملوك لا يستغرب فى حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم ، ويستهونوا عظائم الامور لتطيعهم الرعية ساعة ، كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى ، والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله » . اه كلام اليفرنى رحمه الله .

ومن وزراء السلطان الغالب بالله : ابن أخيه الامير الاجل الاديب الاحفل أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء وألطفهم مسلكا وأخفهم روحا . وله عارضة فى النظم والنثر .

ذكر الاديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسى فى كتابه: «الاعلام بمن مضى وغبر، من أهل القرن الحادى عشر» ما صورته: «قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدى من مراكش الى فاس ، ومعه الفقيه قاضى الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى ، والفقيه الامام أبو العباس أحمد المنجور ، فلما تبدت لهم معالم فاس الجديد ، « وتلظى للشوق فى جوانحهم أوار » ، « وأبرح ما يكون الشوق يوما ، اذا دنت الديار من الديار » وأنشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالا :

أخلائى هذا المستقى وربوعه	وهذى نواعير البلاد تنوح
وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى	وتلك منازل الديار تلوح

فقال القاضى الحميدى ارتجالا :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد	بهن غوان طرفهن جموح
يمسن كأملود من الروض يانع	شذاهن من حول الديار يفوح

فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالا أيضا :

ويرفلن فى الحلات يختلن فى الحلى	وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر	لاقبال حب طال منه نزوح

ولما بلغت الابيات الى الاستاذ أبى العباس أحمد الزمورى قال مذيلا :

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها	كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تحلت ربوع المستقى بجمالها	وأنت الى تلك القباب تروح

وبعضهم جعل البيتين الاولين للمولى الاديب أبى محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى ، وكان كاتبا للوزير المذكور ، ويجعل موضع أخلائى أمولاى ، والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم ، والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف :

ونظيرهذاماذكره الاديب المذكور فى اعلامه المذكور . قال : كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف فى بعض الاسفار ، وأرسلت السماء بغيثها المدرار ، فقال الوزير المذكور :

لله أشكو غداة السفح اذ ركضت	أيدى المطايا وحادى الريح يحدونا

فأجابه الكاتب المذكور :

والغيم فى الافق قد أرخى ذوائبه	بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الوزير :

حتى استوى الماء والآكام واستترت	معالم الرشد لاخريت يهدينا
فظلت الخيل فى الامواج سابحة	سبح السلاحف نحو الدار يهوينا

فقال الكاتب :

والنفس في قلق لبين مألفها	والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير :

كاننا لم نبت والوصل ثالثنا	حتى غدا الطير فوق السرح يفشينا

وأخبار هذا الوزير ونوادره كثيرة ، وهو الذى أخرج بنى راشد من مدينة شفشاون حسبما مر ، وكانت وفاته فى العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة .

ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضا : القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج الجنوى ، وعبد الرحمن بن تودة ، وقاسم الزرهونى ، وأحمد الهبطى . ومن ولاة مظالمه : أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسى ، وهو والى الشرطة وكان فقيها مشاركا .

وذكر بعضهم : أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالى كان فى بعض قدماته على السلطان الغالب بالله (*) قد انحشر الناس لزيارته بزاويته ، فوقف أبو عمران المذكور يذود الناس عنه ويقول : « رحمكم الله من زار خرج » فسمعه الشيخ فقال له : « لا تقل ذلك وقل : من جار خرج » ومن كتاب السلطان المذكور : محمد بن عبد الرحمن السجلماسى . ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما . ومن قضاته بمراكش : الفقيه قاضى الجماعة أبو القاسم بن على الشاطبى ، وبفاس أبو عبد الله العوفى ، وأبو مالك عبد الواحد الحميدى رحمهم الله .

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد المتوكل على الله

ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله

لما توفى السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس ، وكان ولى عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش ، واستأنفوا له البيعة،

(*) الذى فى « الفوائد ان الموفود عليه هو السلطان محمد الشيخ بتارودانت والذى كان يذود الناس هو صاحب شرطته الامير ابو زكرياء ابن الغازى انظر ذلك فى النصيحة التى وجهها المؤلف ابو زيد التنامرتى لابى حسون المعروف بابى دميعة لما قام بالسوس اهـ.

وكتبوا بها اليه ، فوصلت اليه وهو بفاس أوائل شوال سنة احدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره .

قال ابن القاضى : أمه : أم ولد ، وكنيته : أبو عبد الله ، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة : بالمسلوخ لانه سلخ جلده وحشى تبنا كما سيأتى .

وكان مما وقع فى أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبى غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء ، وذلك يوم الاربعاء منتصف جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وفى هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعادع على وادى مضى من عمل القصر ، فانه حمل بعد استشهاده الى الموضع المذكور فدفن بازاء قبر أبيه فى الروضة التى هنالك .

واستمر أمر أبى عبد الله المتوكل منتظما الى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة ، فقدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك فنثر سلكه وبدد ملكه على ما نذكره . ويقال : انه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبدالملك ففرا منه الى ناحية الترك على ما سياتى . قالوا : وكان السلطان المذكور فقيها أديبامشاركا مجيدا قوى العارضة فى النظم والنثر ، وكان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال بأحد ، ولا متوقفا فى الدماء عسوفا على الرعية ، ومن شعره قوله :

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... فى وجهها عسجدفى وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا ... فان تأخير أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضا قوله :

ساروا فسار فؤادى اثر ظعنهم ... وخلفونى نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل وردا وريحانا

وكان خليفته بمراكش : القائد ابن شقراء ، وحاجبه : أحمد بن حمو الدرعى ، وكتابه : يونس بن سليمان الثاملى ، وعلى بن أبى بكر ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك المعتصم بالله
ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله

كان أبو مروان عبد الملك بن أبى عبد الله الشيخ السعدى ، وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد : بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما ، فلما توفى وولى الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد الى تلمسان خوفا على أنفسهما منه ، فاقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة ، ولحق بهما أخوهما عبد المومن فصار ثالثة الاثافى ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ، ومنها ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية متطارحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثمانى رحمه الله ، فامده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتى .

ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع الى بقية أخبار السلطان أبى مروان المعتصم بالله لانها تنبنى على ذلك فنقول : اعلم أن أمر بنى أبى حفص أصحاب تونس كان قد مرج فى هذه المدة وتداعى الى الاختلال ، وكان خير الدين باشا التركى المقدم ذكره فى أخبار تلمسان قد استولى على تونس فى حدود الاربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن ابن محمد الحفصى ، ففر الحسن المذكور الى طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها الى تونس ، فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادى ، وتقدموا الى تونس فملكوها ، وانهزم خير الدين الى الجزائر ، وشارك النصارى الحسن بن محمد فى امرة تونس ، واستباحوا أهلها قتلا وأسرا ونهبا ، يقال : انهم قتلوا من أهل تونس الثلث ، وأسروا الثلث ، وأبقوا الثلث ، وكل ثلث ستون ألفا هكذا عند صاحب « الخلاصة النقية » . ثم ملكوا الموضع المسمى : بحلق الوادى وليس هناك واد عذب وانما هو جون دخل من البحر فى البر وعليه مرسى تونس ، ثم بنى النصارى فى الحلق المذكور حصنا عاديا أقاموا فى بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة ، بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد .

ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو : حميدة . وملك الحضرة مدة وقاتل

نصارى حلق الوادى فامتنعوا عليه ، ثم غزاه على باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها ، فذهب أحمد الى طاغية قشتالة مستغيثا به شأن أبيه من قبله ، هذا كله ونصارى الحلق لازالوا متمكنين منه أى تمكن ، فأمد الطاغية أحمد المذكور باسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه .

ولما وصل الاسطول الى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة فى الحكم ، فأنكر أحمد ذلك وأنف منه ، وذهب الى صقلية فبقى بها الى أن مات وحمل الى تونس . وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضى بالمقاسمة ودخل بالنصارى الى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصرانى بها، وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع ، وارتبطت خيل العدا بالجامع الاعظم والقيت مافيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبى محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه الا الرمل حماية من الله له ، وحاشا أن تعدو الارض على جسد مثله، وأرسل محمد بن الحسن الى الناس بالامان واستمالهم النصرانى بعدبكاذب الرفق ، فأقاموا بدار مذلة وهوان .

واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثمانى فأعظمه ، وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال : كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية ، وهى اصطنبول ، غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، ووصلوا الى حلق الوادى فى الرابع والعشرين منه ، وكان حيدر باشا صاحب القيروان ، ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم ، فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصو صبوا عليه ، وتقدموا الى الحصن الذى بحلق الوادى فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الاولى من السنة المذكورة ، أعنى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ،واستلحموا من به وغنموا ما فيه ، والتجأ محمد بن الحسن الحفصى وأنصاره من النصارى الى البستيون ، وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس ، فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه عنوة . وقتلوا من به ، وامتلأت

أيديهم من المغانم ، وطهر الله بهم البلاد ، وكانت احدى الوقائع الجليلة القدر ، الباقية الذكر ، وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه الى السلطان سليم فاعتقله في يد قاة أحد حصونه حتى هلك ،وانقرضت بمهلكه دولة بنى أبى حفص التى هى بقية الموحدين .

اذا علمت هذا ، فاعلم ان استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر ، لان وفاته كانت فى آخر رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة كما مر ، وفتح تونس كان فى جمادى الاولى من السنة المذكورة . ووقع فى «النزهة» : أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وهو غير صواب ، والله تعالى أعلم .

مجيء السلطان أبى مروان عبد الملك بن الشيخ السعدى بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

اعلم انه وقع فى «النزهة» وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا فى ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفى أبوهما وولى أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فاقاما بها مدة ثم انتقلا الى الجزائر ، فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثمانى فى أن يمده بجيش ليملك المغرب ، فتثاقل عنه العثمانى الى أن بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح ، وعاد اليه بالبشارة فاسعفه ، وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدما على وفاة الغالب بالله كما مر ، اللهم الا اذا كان عبد الملك وفد على العثمانى مستعديا على أخيه الغالب بالله ، وفى أثناء ذلك توفى وولى ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحا ، وأما ما فى «النزهة» مما يقتضى تأخر فتح تونس عن وفاة الغالب بالله فغير صواب كما مر .

ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول : لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد

المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر ، فركبا البحر الى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثمانى رحمه الله ، ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية ، وزعم بعضهم أن التى كانت معهما مسعودة الوزكيتية ، وهى أم أحمد منهما ، فانتهيا الى القسطنطينية وتعلقا بكبراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم ، ودخلت أمهما داره ، وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغـرب ، ويقوموا فيه بدعوته ، فتثاقل عنهم مدة الى أن كان الغزوالى تونس فكتب السلطان سليم الى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبله ، فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتى ، وهو صاحب الجزائر ، أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه ، فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم فى جملة مراكب الجزائر . هكذا وقع فى سياقة هذا الخبر ، وهو يقتضى أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية ، فلعلهما عادا اليها من عند السلطان سليم الى أن سافرا فى جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم ، ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح الى السلطان سليم ، فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما فى الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهما التى تركاها هنالـك ، فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما . فكان من قدر الله تعالى ان هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم ، ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا للمركبين أثرا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا الى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث .

واتصل خبرهما بالصدر الاعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس ، وقصا عليه الحديث من البدء الى التمام ، فأعلم السلطان سليما بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه ، وسألهما عن كتاب الفتح فقالا : ان امير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما الى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك».

ولما رأيا من السلطان سليم تنزلا واهتزازا لكلامهما طلبا منه فى بشارتهما أن يبعث معهم العساكر الى الغرب، وشفعا فى انزال رأس والدهما ودفنه فقبل شفاعتهما ، ثم أمر بهما الى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما ، وبعث اليهما بالام التى كانت هنالك وأرجأ أمرهما الى قدوم الخبر اليقين ، وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح ، وظهر صدق عبد الملك وأحمد ، فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالا وسلاحا وزادا وكتب لهما فرمانا للدولاتى صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الاقصى .

ولما قدما على الدولاتى بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا علينا الرجال وعليهما المال ، وهذه عادتنا مع السلطان، ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الاغا والوكيل وأهديا اليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه فى وجهتهما تلك الى أن يبعثابه اليهم من المغرب ، فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج اليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه الى أن يرجع، وأشهدوا عليهما بذلك فى دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به ، ثم نهض عبد الملك وأخوه الى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما ، وكتب عبد الملك الى شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم الى أن كان من أمره ما كان .

وساق اليفرنى هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال : « لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه الى السلطان العثمانى فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فاعطتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها فى بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها الى المغرب ، فأعطاها ذلك، فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان الى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آبائه فطالبه أهل الجزائر بالراتب ، فقال لهم :أسلفونى وعلى القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة ، وكان عددجيش الترك أربعة آلاف » .

وقال فى شرح «الدرة» : «ان عبد الملك طلب من رئيس الترك أن يعينه بحصة منهم توصله الى تخم بلاده ليدخلها اذ الجند كله جند أبيه لا يمكن

أن يقاتلوه ويضربوا فى وجهه لتعظيمهم اياه فاسعفه على مراده ، وأرسل معه عصابة وحصة قليلة ، فأقبل بهم حتى انتهى الى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس ، فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه ، ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الاندلس سعيد الرغالى الى عبد الملك ، وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده ويعد طائعهم ، ويوعد عاصيهم ، فلما سمع المتوكل بما فعله جند الاندلس فت ذلك فى عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنا منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالى ، فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه واقامة ملك عمه ، ويقال: ان بعض الجند لما سمع بان القائدجرمونوأولاد عمراننزعوا الىعبدالملك أيضا جاء الى المتوكل وقال له : « ان القائد ابن شقراء قد غدر وفر الى عبد الملك » وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه ، فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزما ، وانتهبت خزائنه ، وأوقد فيها النار ، ونفط ما كان بها من البارود حتى رئ من رؤوس الجبال .

ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فاخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه الى مراكش لا يلوى على شىء فلحق بـه القائد ابن شقراء بوادى النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له فى القول ولامه على عدم التأنى والتثبت ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

استيلاء السلطان ابي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل الى مراكش تقدم عمه أبو مروان الى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الاحد سابع ذى الحجة سنة ثلاثوثمانين وتسعمائة من باب الفتوح ، وبعد أن دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياما ثم طمحت نفسه الى اتباع ابن أخيه الى مراكش ، ولما عزم على النهوض اليه طالبه الترك بان

يردهم الى بلادهم وأن يعطيهم المال الذى اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم : البقشيش فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية ، واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله ، فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الانفاض ، منها النفض الكبير الذى له عشرة أفواه، وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم ، وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ، ثم رجع الى فاس .

وفى هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى لامر نقمه عليه وأودعه السجن ، فبعث الفقيه المذكور أولاده الى الشيخ الصالح أبى النعيم رضوان بن عبد الله الجنوى يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله ، فكتب اليه الشيخ أبو النعيم يحضه على الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وسلم والاستمساك بحبله لانه باب الله الاعظم فقبل القاضى اشارته ، وتوجه الى ربه بكليته ، فاتاه الفرج من حينه ، رحم الله الجميع بمنه.

نهوض السلطان ابى مروان الى مراكش واستيلاؤه عليها
وفرار ابن اخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان أبا مروان نهض من فاس فى جنده الذى أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف اليه من جند ابن أخيه وتقدم الى البلاد المراكشية قاصدا حربه وتشريده عنها ، ولما سمع ابن أخيه بخروجه اليه وقصده اياه تهيأ لملاقاته وسار الى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادى شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضا على المتوكل ، وفر برأس طمرة ولجام ، وأجفل كعادته اجفال النعام ، وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبى مروان يومئذ ، فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه الى مراكش فر عنها الى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن أخيه ، وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع

عشر ربيع الثانى سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أياما ، ثم خرج فى طلب ابن اخيه فعميت عليه انباؤه وسقط بين سمع الارض وبصرها ، فعاد أبو مروان الى مراكش فاقام بها الى أن كان من أمره ما نذكره .

استخلاف السلطان ابى مروان لاخيه ابى العباس احمد على فاس واعمالها

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم اليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها ، فأجابه الى ذلك وولاه عليها ظنا منه أن أمر المغرب قد صفا له ، وان المتوكل لا يعود اليه ، وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى حاضرا للطلبة والعطية ، فانكر ذلك ولم يره صوابا ، وقال : « لاينبغى لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما ، فغاظ ذلك أحمد وظن انه من سوء رأى عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه ، فأعرض عن مقالة الوزير المذكور ، وذهب الى فاس خليفة عليها ، وبقى السلطان أبو مروان بمراكش .

وفى هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لاخيه أحمد برسالة يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من عبد الله المعتصم بالله ، المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيده الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من املائه أيده الله ونصره ، الى أخينا الاعز الاحظى بابا أحمد حفظه الله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فاعلم أنى لا أحب أحدا بعد نفسى كمحبتى لك ، ورغبتى فى انتقال هذا الامر بعدى اليك لا لغيرك ، غير أنى أعتاد منك التراخى فى الامور حتى انك لا تبالى بعظيم الامر ولا تعتبره ، الى أن يتطرق الى ما لا يتلافى جبره ، من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهد أركانه ، ويبلغ العدو معها مناه

ومراده، من ذلك التراخى اهمالك أمر الجند الذى بالعرائش ، واغفالك له مع ما يترادف عليك فى كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المئونةوالبارود والرصاص الذى لا يستقيم لهم أمر فى مقاومة العدو دون ذلك ، وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة ، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث اليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذرا فى هذه المسألة التى لا تحتاج الى الاهمال ، ولا بد ولا بد ، فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب آصيلا فى خمس عشرة مائة من النصارى ، وتمنيت أن لوحركتك الهمة للاقتحام عليه فى مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ، ويرجع ساعة رؤيته الى عادته من الذل والفرار ، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة ، فان الساعة لا تقتضى الا الحزم ، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم ، والسلام » اه .

ظهور ابى عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه الى مراكش واستيلاؤه عليها

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره عن مراكش يجول فى جبال السوس ويتنقل فى قبائلها وأحيائها الى أن اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتأشب عليه مايشبه انيكون جيشا فاستهوتهم منه الاضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم الى مراكش . فسمع به السلطان ابومروان فخرج للقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقا غير طريقه، وفجا غير فجه ، وقصد مراكش فدخلها* باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الا أنه لم يتمكن من القصبة، لان السلطان

(*) سنة ٨٤ وفى هذه السنة كانت فتنة أبى عبد الله الاندلسى ومقتله كما ذكره المؤلف فيما سبق . انظر الدوحة صفحة ٨١ .

أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم فى نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه الى أن وافى الحضرة ، فحاصره بها وكتب الى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها ، فأتاه به أحمد مسرعا .

ولما انتهى الى مراكش اجتمع بالوزير أبى فارس الوزكيتى فقال له : « أوقفت على الرأى ؟ أول الفكرة آخر العمل ! » فبانت لاحمد نصيحته وزال ما كان يختلج بصدره عليه .

ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم المتوكل شيعته من أهل مراكش وفر الى السوس فبقى أهل مراكش متمادين على الحصار الى أن اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فادخلوه من بعض الاسوار والانقاب ، ولما فر المتوكل الى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور ، منها : وقعة تينزرت التى أنشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن على بن منصور الشيظمى البيتين اللذين قالهما فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما :

هو الغيث والبحر الغطمطم فى الندى ... وليث اذا جد الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه ... ويقصر عنه فى الثبات ثبير

فأجابه أحمد المنصور ببيتى أبى فراس الحمدانى وهما :

ونحن أناس لا توسط عندنا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومنها الوقعة التى بعدها باساطين المنصور وهو فى نحو ثلاثة آلاف ، والمتوكل فى نحو ستين الفا ومع ذلك هزمه المنصور

قلت : كان أحمد المنصور هذا مجدودا ، محظوظا مسعودا ، بحيث أربت سعادته على شجاعته ، وما كان أخوه عبد الملك يسرى الا فى ضوء طلعته ويمن نقيبته ، فلذا كان يقدمه فى الحروب ويستكفى به فى نوازل الخطوب ، ومن سعادته ما اتفق له فى ذهابه الى العثمانى بخبر الفتح وتقدمه قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببا فى استيلائهما على المغرب ،

وستسمع فى أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال ان شاء الله . وأما أمر المتوكل فانه بعد توالى الهزائم عليه فر الى جبل درن وتوغل فى قنه ثم فر منه الى باديس فاقام بها مدة ثم ذهب الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بعظيم البرتقال ، والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال .

الغزوة الكبرى بوادى المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدى لما دخل طنجة قصد طاغية البرتقال ، واسمه سبستيان ، بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء ، وهو طاغيتهم الاعظم ، وليس قائد الجيش فقط على ماهو المحقق فى تواريخهم ، وتطارح عليه وشكا اليه ما ناله من عمه أبى مروان المعتصم بالله وطلب منه الاعانة عليه كى يسترجع ملكه . وينتزع منه حقه ، فاشكاه الطاغية ولبى دعوته وصادف منه شرها الى تملك سواحل المغرب وأمصاره ، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه ، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج الى بلاد الاسلام .

ومن المتواتر فى تواريخ الافرنج : ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتقال وتوريطها فى بلاد المغرب وقبائله ، فصم عن سماع قولهم ولج فى رأيه ، وملك الطمع قلبه ، وأبى الا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة فى جيش ، قال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور» : « عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا » ، وقال أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة «المحاسن» يقال : ان مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل فى عددهم ثمانون ألف مقاتل . وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه ، قال بعضهم : وكان عدد الانفاض التى يجرونها مائتين ،

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين ، وادارة رحى الهوان على الدين ، فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا ، وبلغت القلوب الحناجر ، واتقدت بها نيران الهواجر ، وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال الى بلاد الاسلام رسالة بعث بها الى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوى رأيه يغمض عليهم بها فى نكث بيعته ونقضها ، ومبايعة عمه من غير موجب شرعى ، وقال لهم : « ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين » وقد قال العلماء : انه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه » . وتهددهم فيها وأبرق وأرعد . وقال : « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وسمى النصارى : أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى ، فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله ، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا : «الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وارساله ، والرضى عن آله وأصحابه ، الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به ، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله .

وبعد ، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدى عن كتابه الذى استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة ، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب ، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب ، فقولك : خلعنا بيعتك التى التزمناها ، وطوقناها أعناقنا وعقدناها ، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع ، وانما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه ، وعلى سبيل الحق وتحقيقه ، وسنشرح لك ذلك ونبينه ، ونسطره لك بالادلة الشرعية التى ترقيه وتزينه ، نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة ، وترك لك من الاموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لاحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم ، فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى

الله حق جهاده ، حتى استخلصوا من أيدى الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده ، وأسسوا لدين الله قواعد وأركانا ، وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا ، فلما وصل ذلك اليك ألقت اليك العباد أعنتها ، وملكتك أزمتها ، غير مبدلين ولا مغيرين ، ولا باغين ولا منكرين ، الى أن قام عليك عمك بحجته التى لا يمكنك جحدها ، حسبما ثبت كما يجب عقدها ، فخرجت مبادرا له بدفعها ، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها ، وحامل راية عهدها ، وعمك فى فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك ، أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك ، فما هوالا أن جرى القتال ، وحضر النزال ، رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص ، وجنودك تناديك ولات حين مناص ، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها ، وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها ، وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك : لمن تركتنا والى من تكلنا ؟ فلم تلتفت اليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الاموال والعدد الوافرة والرجال والاسوار المرتفعة المانعة ، والمدينة المشهورة الجامعة ، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد الى الحريم والاولاد ، والطارف والتلاد ، ولادافع عن الضعفاء والمساكين الاالله تعالى الذى قال فى مثلهم: «ومن أصدق من الله قيلا »،« لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا،»فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضى مهملين الا النظر فى أمرهم ، واعمال الفكر فى التدبير على أنفسهم ، فبينما هم على ذلك اذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته ، سالكا فى ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته ، حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر ، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر ، اذ كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ، ومولانا محمد الشيخ واخوانهم ، لايتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع ، فقاتله على ذلك حتى تم له الامر وانتظم ، فعهد لوالدك الذى كان أكبر أولاده، فلم ينازعه أحد فى ذلك الى أن الفى والدك رحمه الله ذلك ، وعهد اليك فلم ينازعكم أحد ، فأبى الله الا الحق فاعطى ملكه لعمك الذى هو أكبركم بعد أبيك ، فان سلمت هذا فأى

حجة تدلى بها وأى طريق تعتمد عليها؟ وان أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد ، اذ لا حجة حينئذ لجدك فى القيام على عمك ، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له ، فلم يبق الا التغلب الذى تدلى به فى مسئلة عمك وفى قيامه عليك ، فان كنت تريدأن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين فى السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك ، اذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلم يبق بينكم الا : « والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا » فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله ،وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك اذ هو أكبركم فى هذا التاريخ .

فان قلت : ان ما عقده الجد غير صحيح ، قلنا : فقد ذكر الامام الماوردى رحمه الله ورضى عنه فى كتاب الاحكام السلطانية له فى باب عقد الخلافة: أن عبد الملك بن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه أحد فى ذلك .

فان قلت : فعل عبد الملك ليس بحجة ، قلنا : سكوت العلماء على ذلك وهم ماهم فى زمانه هو الحجة، اذ لايمكن أن يسكتوا على باطل، واقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذى هو حجة الله فى أرضه، وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة» قال القاضى: أبو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب «اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم » : «يعنى لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذى تقلده من أمرهم » وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : « مامن أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» . وفى «الاكمال» نفسه قال القاضى : « والذى عليه الناس أن القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم أن يتفقوا على امام يبايعونه ، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود » . فلما أسلمتهم وأضحوا

بغير امام وعمك يدلى بحجته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ، وأيسوا من رجوعك اليهم ، وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الا على وجه المكابرة ، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية .

فان قلت :كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك قلنا : انما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعى لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها ايه . ثم وصلت الى مراكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادى والامصار ، وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار ، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور ، وأنواع الفرح والحبور ، فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شىء، فأما أسوارها ورحابها فهى كما قيل : تربة الولى ، ومدرج الحلى ، وحضرة الملك الاولى ، والبرج النيرالجلى ، فحللتها وتمكنت من اموالها وخزائنها ، ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا ، ولا خرجوا عليك فى سلطانك ولا أنكروا ، فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنودا لايجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافظ ، فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول ، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول ، فما كان من حديثك الا أن وقع القتال وحضر النزال،بادرت هاربا محكما للعادة،تاركا للرؤساءمن أجنادك والقادة ، فحلت بهم الخطوب والرزايا ، واختطفتهم أيدى المنايا ، فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ، ثم أسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ، ولا قال لك أحد لست بعلها فعملوا على القتال معكوالتمنع باسوارها الحصينة ، والحصار داخل المدينة ، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك ، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها ، ومن داهية ما أعضلها . ولولا فضل الله ولطفه

ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت اليهم أيدى السفلة من الفسقة فاى حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأى كلام لك بين الرجال يا هذا ؟ ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها فى لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج ، واطمأنوا وسكنوا ، ثم هربت للجبل عند صاحبه (*) فصرتما فى نهب أموال الرعية وسفك دمائهم ، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن ، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين فى الامن والامان فانت وهم فى استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل .

ان هو مستوليا على أحد الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة » ثم خربت العامر ، وأفسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الاقصى ذلك أيقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت ، كما قيل ، : « فى خلف كجلد الاجرب » .

فان قلت : ان أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه ، قلنا : لم يطعن فى خلافة أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه من تخلف عنها من اهل الشام ، وفيهم من قد علمت من الناس ، والاجماع على صحة بيعته: وسمى من تخلف عنها: باغيا لقول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار : «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية رضى الله عنه ، والحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ، ولا يعد خلاف من خالفه خلافا وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين ، والاخذ

(*) المقصود به هو الشيخ ابو عبد الله بن محمد واسعدون الذى التجأ اليه المتوكل بعد فراره انظر «الدوحة» صفحة ٨٤ « وطبقات الحضيكى » فى حرف الميم « والممتع» «والصفوة»وقد ذكرت ترجمته فى هذا المؤلف الاخير استطرادا فى ترجمة تلميذه سيدى احمد المعروف بالشيخ و كانت وفاة ابن واسعدون هذا عام ٩٨٧ بعد غزوة وادى المخازن بسنة.

فى التخليط العظيم على المسلمين ، فانك اتفقت معهم على دخول آصيلا ، وأعطيتهم بلاد الاسلام ، فيالله ويالرسوله لهذه المصيبة التى أحدثتها ، وعلى المسلمين فتقتها ، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » .قال أبو حيـان رحمه الله : أى لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم وفى كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلى رحمه الله: أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى رحمه الله استفتى علماء زمانه رضى الله عنهم ،وهم ماهم ، فى استنصار ابن عباد الاندلسى بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم رضى الله عنهم بردته وكفره ، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد فى عقدها ابتداء ، وانه متى طرأ الكفر وجب العزل ، وناهيك بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالسمع والطاعة » وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلى فى وجوب خلعك ، وسقوط بيعتك ، فلم يبق لك الا منازعة الحق سبحانه فى حكمه ، « ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » .

وأما قولك : فى النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذى لا يخفى . وقولك : رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وان الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثانى : انك استعنت بالكفار على المسلمين. وفى الحديث : أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم . فوجده بحرة الوبرة « موضع على نحو اربعة اميال من المدينة » فقال له : « يامحمد ، جئت لانصرك » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ان كنت تؤمن بالله ورسوله» فقال: « لا أفعل » فقال له عليه الصلاة والسلام : « انى لا

أستعين بمشرك » وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم فى الاستعانة بهم انما هو على المشركين بان نجعلهم خدمة لا زبال الدواب لا مقاتلة ، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديما :«لسان العاقل من وراء قلبه »وفى قولك:يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وفى ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله

وقولك : فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ايه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت ففى الحديث : « يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به فى النار سبعين خريفا

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان . وأشرق عليهم شعاع الايقان، فمن قائل يقول: « لا دين الا دين محمد صلى الله عليه وسلم» ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء» ، ومن قائل يقول : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » ومن قائل يقول : « انما قصد التشفى بالمسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة » الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا . ورضى عنهم وبارك فيهم ، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان ، فلو لم يكن منهم الا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا فى صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب فى الله والبغض فى الله من قواعد الايمان .

وقولك أيضا : متبرئا من حول الله وقوته ، فان لم تفعلوا فالسيف. فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط . أنبا سيفك هذا! وأنت مع المسلمين فى أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ، ثم زال نبوه الان بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها .

وأما ما نسبته لامام دار الهجرة فكفاك عجزا ان لم تعين لنا نصاجليا

نعتمد عليه فيما تحتج به الا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لامعربا بنصه .

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر، فهو مما نص عليه المالكية فى مختصراتهم التى ألفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك الى الحنفية اما قصور ، واما الغاء لمذهب مالك رضى الله عنه ، وهو النجم الثاقب .

وأما قولك : أنتم أهل بغى وعناد فلا نسلم لك ذلك الا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا . فأما اذ هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا ، على انك فى كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضى الله عنهم: «من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير» وذلك معزولزعيم العلماء القاضى أبى الوليد ابن رشد ، والقاضى أبى الفضل عياض ، وكيف لاتنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، وكيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شيء مما قصدوه ، أو بلغوا شيئا مما أملوه؟ على أن أكثر العلماء حكموابردتهم ففاتتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله .

وقد افتخرت فى كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» «ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون »وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيقاتل آخر هذه الامة الدجال » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألته الا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . والكل عليك واياك نعنى .

وما ذكرته عن عمك : فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله فى وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من

حملة القرآن مائة ختمة، وصحيح البخارى، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك ، وبلغه كتابك الذى كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها ، والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها، اذ لا اعتماد له أيده الله عليها ، وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك ، وقد قاتلك وأنت فى وسط المسلمين فى بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية ، فأى نحس وشؤم حلا بديار الروم، فان جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع الى الله أيها المسكين ، وتب اليه فانه يقبل التوبة عن عباده فى كل وقت وحين ، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة ان قبلتها، وموعظة ان وفقت اليها، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام » انتهت الرسالة .

وكان خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتقال وفصوله به من طنجة فى ربيع الثانى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، قال فى «المرآة» : « انهم لما خرجوا الى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم بالفحص ، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر ، وكانت آصيلا قد تصيرت اليهم قبل ذلك بأشهر ، يعنى بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم ، فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التى لا طاقة لهم بها ، وفشا النفاق لاجل السلطان محمد بن عبد الله الذى معهم ولاجل بعد صريخ المسلمين ، فان السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان اذ ذاك بمراكش ، فاستبطأوا وصول الخبر اليه ، ثم مجيئه بعد ذلك ، فلم يبق لهم تدبير الا الفرار ، والتحصن بالجبال وغيرها ، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى رحمه الله ، وكان اذ ذاك بالقصر ، لرجل من أصحابه: «نادفى الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فان عظيم النصارى

مسجون حيث هو ، حتى يجيء السلطان من مراكش ، وان النصارى غنيمة للمسلمين، ومن شاء فليعط خمسين اوقية فى النصرانى» يشير الى مبلغ قيمة النصرانى فى الغنيمة ، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك اكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا » اه .

وقال فى «النزهة» : « ان النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل ، فأعلم أهلها السلطان أبا مروان ، وكان بمراكش ، وشكوا اليه كلب العدو عليهم، فكتب السلطان أبو مروان من مراكش الى الطاغية : « ان سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك ، وجوازك العدوة فان ثبت الى أن نقدم عليك فأنت نصرانى حقيقى شجاع . والا فأنت كلب ابن كلب » فلما بلغه الكتاب غضب ، واستشار اصحابه هل نقيم حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا، فقال له محمد بن عبد الله : « الرأى أن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر » فأعجب ذلك الرأى أهل الديوان ولم يعجب الطاغية . وكتب السلطان ابو مروان لاخيه أبى العباس أحمد ، وكان نائبه على فاس وأعمالها ، أن يخرج بجيوش فاس واحوازها ويتهيأ للقتال،ثم كتب اليه ايضا فى شأن مؤونة الجيش كتابا يقول فيه : « من عبد الله المعتصم بالله المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك بن امير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أمره وأعز نصره الى أخينا الاعز الانجب بابا أحمد بن مولانا الوالد حرس الله كريم اخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فانا كتبناه اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والنعم الضافية ، هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وابلاغه الى مدينة سلا ، وقدر ذلك صحفة شعير ، وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب ، ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك ، وبايصاله الى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنه

والسلام » اه .

ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية ، وذلك بعد ما وصل الى القصر : انى رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل الى واحدة ، فرحل الطاغية من موضع يقال له : تاهدارت ، ونزل على وادى المخازن بمقربة من قصر كتامة ، وكان ذلك من السلطان أبى مروان مكيدة ، ثم ان الطاغية تقدم بجيوشه ، وعبر جسر الوادى ونزل من هذه العدوة فامر السلطان بالقنطرة أن تهدم ، ووجه اليها كتيبة من الخيل فهدموها ، وكان الوادى لا مشرع له سوى القنطرة ، ثم زحف السلطان أبو مروان الى العدو بجيوش المسلمين ، وخيل الله المسومة ، وانضاف اليه من المتطوعة كل من رغب فى الاجر وطمع فى الشهادة ، وأقبل الناس سراعا من الآفاق ، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل،فكان ممن حضره من الاعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى وغيره.

قال فى «المرآة» : « كان الشيخ أبو المحاسن فى ذلك اليوم فى أحد الجناحين ، وأظنه الميسرة ، من عسكر المسلمين فى مقابلة النصارى دمرهم الله ، قال : فوقع فى ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه الى أن منح الله المسلمين النصر ، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، والشيخ لم يتزلزل ، ولم يلتفت منذ توجه الى قتالهم حتى فتح الله عليهم » اه .

ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم الى بعض وحمى الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفى السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الاولى ، وكان مريضا يقادبه فى محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع على وفاته أحد الا حاجبه مولاه رضوان العلج ، فانه كتم موته ، وصار يختلف الى الاجناد ويقول : «السلطان يأمر فلانا أن يذهب الى موضع كذا ، وفلانا أن يلزم الراية ، وفلانا يتقدم ، وفلانا يتأخر » .

وقال شارح «الزهرة» : لما توفى السلطان أبو مروان لم يظهر الذى كان سائس المحفة موته ، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ، ويقول للجند :

« السلطان يأمركم بالتقدم اليهم » . وعلم أيضا بموته أخوه ، وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ، ولم يزل الحال على ذلك ، والناس فى المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب ، والاصطلاء بنار الطعان ، واحتساء كؤس الحمام الى أن هبت على المسلمين ريح النصر ، وساعدهم القدر ، وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر ، فولى المشركون الادبار. ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف فى رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار ، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتقال غريقا فى الوادى ، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا الا آثارها فخشعت نفوسهم ، وتهافتوا فى النهر تهافت الفراش على النار ، فكان ذلك من أكبر الاسباب فى استئصالهم ، وأعظم الحبائل فى اقتناصهم ولم ينج منهم الا عدد نزر وشرذمة قليلة .

وقال فى «المنتقى المقصور » : « كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى انها أشبه شىء بغزوة بدر . حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب اليدرى عمن يثق به أن الرجل من حاضرى ذلك المعترك كان يستبق الى النصرانى لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتا » اه .

وبحث فى القتلى عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم الى مصارعهم فوجد غريقا فى وادى المخازن ، وذلك انه لما رأى الهزيمة فر ناجيا بنفسه واضطر الى عبور النهر فتورط فى غدير منه وغرق فمات ، فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشى جلده تبنا وطيف به فى مراكش وغيرها من البلاد .

وممن وجد صريعا فى القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفى الشفشاونى صاحب « الدوحة » ، فانه كان هرب مع المسلوخ ، وكان من بطانته ، فدخل معه بلاد العدو ، فوجد بين جيف النصارى قتيلا ، وتكلم الناس فى أمره ، حتى قيل : انه وجد على شماله مستدبر القبلة ، وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامام الشهير أبى محمد عبد الله الهبطى رحمه الله فى منظومته التى نظم فيها أصحاب أبيه معتذرا عن ابن عسكر

المذكور ومشيرا الى توهين ما قيل فيه :

ومنهم الشيخ الذى لا ينكر محمد أخو الدهاء عسكر
وان يكن أتى بذنب ظاهر فعرضه من الشكوك طاهر
رأيته فى النوم ذا بشاره وهيئة حسنة وشارة

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، ويوافقه من التاريخ المسيحى اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة .

قال فى «المنتقى» وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثنى به بعض الميقاتيين .

وقال فى «المرآة» : وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب اذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة الا أن الغنيمة لم تقسم ، وانما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوى . وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره . وكنا نسمع أن البركة رفعت من الاموال من يومئذ .

وقد حضر الشيخ ابو المحاسن هذه الغزوة وابلى فيها بلاء حسنا وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشىء وبلغت قيمة النصرانى ما ذكره الشيخ ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبى مروان قبل هزيمة النصارى ، وكان مريضا ، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد .

وقد ساق منويل فى تاريخه خبر هذه الوقعة مساقا حسنا فقال : لما استولى عبد الملك السعدى المدعو عند أهل المغرب بمولاى ملوك على ملك المغرب ، وطرد ابن أخيه مولاى محمد المعروف بالاكحل يعنى : المسلوخ ، ذهب أولا الى اصبانيا، وتطارح على طاغية الاصبنيول فيليب الثانى فى أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل اشبونة وتطارح على طاغية البرتقال سبستيان فاجابه، وذهب الى خاله طاغية الاصبنيول فيليب المذكور آنفا وطلب منه الاعانة على ماهو بصدده، فوعده بان يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش ، لانه كان يرى انها تعدل سائر مراسى

المغرب ، ثم أمده بعشرين ألفا من عسكر الاصبنيول ، وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفا من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان ، ومثلها من الالمان ، ومن متطوعة الاصبنيول وغيرهم عددا كثيرا ، وبعث اليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى ؛ وبالف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء الى قادس .

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت اليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه فى الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل فى أرض المغرب فصم على ذلك كله ، وجاء الى قادس ومنها خرج الى طنجة .

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا الى بلاد المغرب ، وزحف اليهم السلطان عبد الملك فى عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفا وزيادة ، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا ، وقواد الجيش : أبو على القورى ، والحسين العلج الجنوى ، ومحمد أبو طيبة ، وعلى بن موسى ، وأخوه أحمد بن موسى، الذى كان عاملا على العرائش ، فجاء فى جمعه الى السلطان عبد الملك وانضم اليه ، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ، ثم استدعى النصارى الى القتال ، ونصب لهم علامته ، فاحجموا وكان قصدهم المطاولة ، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة ، وذلك لان محمد المسلوخ قد دس اليه من سمه .

قال منويل : ولما أحس عبد الملك بذلك ، وانه لا محالة هالك ، بذل نفسه للقتال ليموت فى الجهاد ، وكان المسلوخ يتربص كى يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة فى عسكر المسلمين ، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فألجأهم ذلك الى المناجزة ، ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين .

قال منويل: وكان امر هذا الرجل عجبا فى الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه ، كأنه يشير الى جيشه أن يسكتوا عن الخوض فى وفاته حتى يتم أمرهم ، ولا يضطربوا ، وكذلك كان ، فانهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لا كفاء له ، فكانوا يذبحونهم مثل الكباش

ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم ، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب ، وزادهم دهشا أن بعض طوابيرهم كان ينادى صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار فى بارود النصارى فنفط، وانهزموا الى وادى المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقى أسره المسلمون .

وزعم أن سبستيان هلك تحته فى ذلك اليوم أربعة أفراس ، وكان شابا حدثا، وقال لاصحابه: « ان ترونى ترونى أمامكم وان لم ترونى فانافى وسط العدو أقاتل عنكم» قال : وأبدأ وأعاد فى ذلك اليوم الى أن خر قتيلا ، وبقى مذكورا عند البرتقال يسمرون بأخباره ، وذكره شعراء الاوربا فى أشعارهم ، ولا زالوا يذكرونه الى الآن .

وخلفه فى ملكه الطاغية الريكى البرتقالى فهو الذى ولى بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى أن هلك الطاغية الريكى، وتولى على البرتقال طاغية الاصبنيول فيليب الثانى ، فصار ملك الدولتين معا ، وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة الى أشبونة ، ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربى والعجمى موافقا لما مر فهذا ما ذكره فى هذه الوقعة .

قال فى «النزهة» : توفى السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ فى زوال اليوم المذكور ، وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتى ان شاء الله .

قال فى «درة الحجال» : « فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد ، وهم : أبو مروان بن الشيخ ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ ، والطاغية سبستيان ، وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور » اه .

قلت : وفى اهلاك الثلاثة واقامة الواحد اشارة واضحة لاهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد فى ذلك اليوم والله تعالى اعلم .

ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم ، أعنى القائم بالامر بعد سبستيان لان التحقيق انه كان الاعظم يومئذ لما مر ، بعث الى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده الى فاس كما سيأتى يلتمس منه الفداء فيمن بقى بيده من

الاسارى ، فأجابه الى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة . وذكر بعضهم أن الاسارى لما ذهبوا الى بلادهم قال الطاغية : « لم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل ان يصل ملكهم ؟» فقالوا له:« امتنع من ذلك الامير الذى كان علينا » . فامر بهم فاحرقوا جميعا .

مضحكة : قال فى « النزهة » : « ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله » اه .

وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخى الفرنج النجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بانها كانت سبب هلاك البرتقال وتلاشى دولتهم وبطلان كرسى سلطنتهم حتى استضافهم اليه طاغية الاصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتقال قتلوا فى ذلك اليوم ما نصه : « وكانت يعنى الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤما . وبالجملة فقد قتل فى ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسى سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثانى ملك اصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها » اه كلامه . الا أنه ذكر أن السبب فى استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتقال هو تغلب الاصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ، ولعله تصحف عليه لفظ الاصطنبوليين بالاصبنيوليين ، اذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان انما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثمانى والله أعلم .

وقد ألم بهذه الوقعة أيضا لويز مارية فى كتابه الموضوع فى أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته فى السكوت عن مايكون من الظهور فى جانب المسلمين واشاعة ما يكون من ذلك فى جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال فى وصفها كلاما هذه ترجمته : « وقد كان مخبوءا لنا فى مستقبل الاعصار العصر الذى لو وصفته كما وصفه غيرى من المؤرخين لقلت

هو العصر النحس البالغ فى النحوسة الذى انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتقال وانطفأ مصباحهم بين الاجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل ابان الغنى والربح وذلك هو العصر الذى هلك فيه سبستيان فى القصر الكبير من بلاد المغرب » اه. فهذا كلام هذا البرتقالى قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هى ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الاعداء»

ولما تمت للسلطان أبى العباس المنصور البيعة بوادى المخازن طالبه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا اعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانهم جعلوها نهبى ولم يقتسموها على الوجه الشرعى كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه فى عطائهم .

ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات الى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب الى صاحب القسطنطينية العظمى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم فى نحرهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

بقية اخبار السلطان ابى مروان وسيرته

قال ابن القاضى : « كان سبب وفاة السلطان أبى مروان رحمه الله أنه سقى سما ، وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه ، واسمه رمضان العلج ، بعث الى بعض قواده أن يتلقاه بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه ، وقصد بذلك قتله ، وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله » اه . ولما توفى حمل الى مراكش فقبر بها ، وكانت مدة خلافته

أربع سنين ،ومن حجابه : القائد رضوان العلج . وكتابه : محمد بن عيسى ، ومحمد بن عمر الشاوى ، وقضاته : قضاة ولداخيه .

وكان يتزيا بزى الترك ويجرى مجراهم فى كثير من شؤنه. وكان يتهم بالميل الى الاحداث وربما كان يظهر ذلك ، وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كما مر ، وكانت له فيه محبة تامة ، وكان يظهر أنه ولى عهده ويرشحه لذلك كثيرا حسبما أفصحت عنه رسائله التى كان يبعث بها اليه .

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث :

ففى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة كان الوباء بالمغرب كما قدمنا .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلات منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الآبار .

وفى سنة احدى وستين وتسعمائة توفى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى من أولاد أبى السباع ودفن بزاويته على ضفة وادى تانسيفت من أعمال مراكش ، وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل .

وفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة توفى الشيخ الامام أبو محمد عبد الله ابن محمد الصنهاجى الطنجى المعروف بالهبطى ، وكانت وفاته فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن فوائده ما حكاه عنه فى « الدوحة » قال : « سألت شيخنا الامام أبا محمد عبد الله الهبطى عن الشيخ أبى محمد الغزوانى ، وكان من أصحابه ، فقلت له : ياسيدى ما لسائر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزوانى كأبى الحجاج التليدى وأبى البقاء اليالصوتى وأبى الحسن على بن عثمان وغيرهم يصرحون بقبطانية الشيخ وينسبونك أنت الى التقصيرفى حقه حيث لم تقل بما يقولونه ؟ » ، فقال لى رضى الله عنه : «قدعلمت معنى الشهادة فى الشرع ما هى » ، فقلت : « نعم » فقال لى : « كيف لى أن أشهد لاحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لى عنه فان فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له: «وأى شهادة تشهد فى الشيخ؟ » فقال لى : أشهد

أنه من العارفين بالله تعالى وانه كان يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال» انتهى
قلت : وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة ، وتجد كثيرا ممن عقله وراء لسانه يتقولون على الله فى غيبه ويخبطون خبط العشواء وينسبون المقامات والاحوال لمن ليس منها فى قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنه .

وفى سنة أربع وستين وتسعمائة فى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلى العظيم .

وفى سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهلـه وجباله ، وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها .

وفى سنة احدى وسبعين وتسعمائة توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبى فارس عبد العزيز التباع، والشيخ أبى العباس أحمد بن يوسف الراشدى ثم الملياني.

وفى سنة ست وسبعين وتسعمائة ليلة عيد الاضحى منها توفى الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجى ثم الفرجى الدكالى المعروف بالمجذوب الولى المشهور دفين مكناسة الزيتون، كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده الى مكناسة فمات بها .

وفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة بعد صلاة الجمعة من أول يوم مـن المحرم منها زلزلت الارض زلزالا شديدا وفزع الناس لذلك، وفى هذه السنة فى الحادى والعشرين من ربيع الاول منها توفى الشيخ ابـو محمد عبد الله ابن حسين من شرفاء بنى آمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله .

وفى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وذلك اواخر شوال منهـا الموافـق لاواسط مارس العجمى حدث بالمغرب جراد كثير ؟ وفى أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهودا، ثم ظهرت فى أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر فى الجو م نالناحية الشرقية تبعتها فى الارض أجناد الترك التى جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر . وفى أيام السلطان أبى مـروان

المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير فى برج العقرب وطلع أياما ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى اثره كان خروج البرتغال من طنجة ووقعة وادى المخازن كما مر ؛ والله تعالى أعلم بغيبه

الخبر عن دولة السلطان ابى العباس احمد المنصور بالله السعدى
المعروف بالذهبى واوليته ونشاته

كانت ولادة السلطان أبى العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبى عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وأمه : الحرة مسعودة بنت الشيخ الاجل أبى العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتى الوارززاتى ، وكانت من الصالحات الخيرات وستأتى بقية أخبارها .

وذكر فى «المنتقى» قال : مرض المنصور فى صغره مرضا شديدا حتى أيس منه ، فرأت أمه فى النوم شخصا يقول لها : أزيريه الشيخ أبا ميمونة فانما اصابته عين فازارته اياه فعوفى، وكان ابوه المهدى ينبه على انه واسطة عقد اولاده .

قال فى «مناهل الصفا» : حدثنى الشيخ المسن القائدابو محمد مؤمن ابن الغازى العمرى ان المنصور اقبل يوما فى حياة أبيه، وهو صبى والمجلس غاص بالاكابر، فاندفع يخترق الصفوف ، قال : فصاح بى المهدى اذ ذاك ، وأنا أصغر القوم ، نقال « يامؤمن ، ارفعه فسينفعك أو ينفع عقبك » فابتدرت حمله، وكان كذلك ، فان المنصور لما أفضت اليه الخلافة كان القائد مؤمن بن الغازى عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية .

ونشأ المنصور رحمه الله فى عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة لاهله عليه ، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم الى أن تم أمره . حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد ابن على الجزولى الدرعى أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن

السلطان أبى عبد الله الشيخ وأولاده ، قال : فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لانه كان أصغرهم سنا يومئذ » . فقال لى : « بقى منهم من لم تذكره » فقلت له « أحمد » فقال : « ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم» فكان كذلك .

وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالى : « لما أخذ المهدى البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جدا، وقال له : « ان الفائدة فيه » أو كما قال . وهكذا كان ينبه على أنه واسطة عقد أولاده : وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وأنواره تشرق ، قال : فوقع فى نفسى أن أسأله عن نصيبى من الخلافة فكاشفنى عليه الصلاة والسلام بما فى خاطرى ، وأجابنى بما حقق لى نيلها، ثم أشار لى بأصابعه الثلاثة الشريفة ضاما الابهام منها الى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين » اه .

وقال الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامنارتى فى كتابه «الفوائد الجمة باسناد علوم الامة » : « أخبرنى الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغى صاحب «الحسبة» بتارودانت أنه رأى فى منامه كأنه فى حلقة يسرد فيها صحيح البخارى بموضع من دار الخلافة بها ، وأبو العباس المنصور يومئذ بها ، وذلك قبل ولايته ، قال : فرأيت فى طرة الكتاب هذا اللفظ : «ورى الزند » فكنت أتأمل معناه فالتفت فاذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع فى نفسى أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له : ياسيدى ، ما معنى هذه الكلمة التى فى طرة هذا الكتاب؟ » فقال لى : « قل لمولاك أحمد : أنا الذى أوريت زندك ما دمت على الحق فان عدلت عنه فانا برىء منك». فقلت له: «ومن أنت ياسيدى؟» فقال لى : « رسول الله صلى الله عليه وسلم»، ثم لم يمض الا قليل حتى ولى الخلافة وحمدت سيرته ، قال أبو زيد : « وناهيك بزند أوراه النبى صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن ولاية الاسلام لا تنعقد الا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وقد اشتهرت المرائى بذلك » .

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب « ابتهاج القلوب فى مناقب الشيخ

المجذوب » : « أن الشيخ الصالح أبا عبد الله محمد الملقب بكدار ابن الشيخ أبى زكرياء يحيى بن علال المالكى البوخصيبى رأى النبى صلى الله عليه وسلم يوما فشكا اليه أولاد مطاع لما رآهم عليه من الفساد فى الارض ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يأتيهم أحمد » ، فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فأخذهم وفل جمعهم » اه . وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة .

وكان رحمه الله طويل القامة ممتلىء الخدين ، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة ، أسود الشعر ، أدعج أكحل ، ضيق البلج ، براق الثنايا ، حسن الشكل ، جميل الوجه ، ظريف المنزع ، لطيف الشمائل .

وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارى بوادى المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد ، ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمدى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادى المخازن ، ثم بعث الى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة ، وسارعوا الى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة .

قال الفشتالى : لما كانت وقعة وادى المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الامر للمنصور كتب الى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثمانى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شأفتهم، فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده : وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ، ثم تلته أرسال طاغية البرتقال ، وهو الريكى القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان ، وليس خاله وانما خاله طاغية الاصبنيو لفيليب الثانى الذى جمع المملكتين معا بعد هلاك الريكى المذكور وبعد وقعة وادى المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريص والعجل ، فعجب الناس منها عجبا

بليغاء وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وكان من جملة مافيها ثلاثمائة ألف دكات من ريال الفضة ، وأما الطرف النفيسة والاثاث الرفيع فشيء لايحصى ، ثم وردت ارسال طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آبائه ، وصنيديق مملوء من الدر الفاخر ، وقضب الزمرذ وغير ذلك ، وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعنى هدية البرتقالى وهدية الاصبنيولى أيهما أعظم ، ولم يهتد أهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت أرسال السلطان مراد العثمانى ومعهم هدية وهى : سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ، ثم قدمت أرسال طاغية افرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور ، والارسال تصبح وتمسى على أعتاب تلك القصور ، الى أن لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس اليه وحينئذ اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار .

وفى جمدى الاولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضا مخوفا وطال به حتى كادت الامور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبى عبد الله محمد الطبيب ، ولما أبل من مرضه أحسن الى الطبيب المذكور ونثر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى ، وكان يوم خروجه يوما مشهودا ، وفى ذلك يقول الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف بالنابغة:

تردى أذى من سقمك البر والبحر ... وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مسهدا ... وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التى ... أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها ... وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام فى كل بلدة ... يهنى ويدعى أن يطول لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها ... وعادت الى الايناع أغصانها الخضر
ولا غرو ان صامت على سمط الندى ... اذا اغبر وجه الارض واحتبس القطر
لبيت أبى العباس أنضت عجافها ... قديما فخافت أن يعاودها الضر
لئن صدئت بيض المعالى لقد غدت ... تسىء الكماة البيض واللدن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ... ويحميك رب العرش ما بقى الدهر

عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المامون

قال الفشتالى : لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحة أجمع رأى أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولى عهده ، وكان المنصور مهيبا لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البادىء لذلك القائد المؤمن بن الغازى العمرى لما له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور : « يامولانا ، الله تعالى حفظ الاسلام بابلالك من هذا المرض وعصم الدين بابقائه عليك وقد بقى الناس فى أيام سقمك فى حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ، ويشار بالخلافة اليه، لكان أولى وأليق بسياسة الملك ، وان ابنك الابر أبا عبد الله محمد المأمون حقيق بذلك ، وجدير بسلوك تلك المسالك ، لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة ، زيادة على ما هو عليه من التيقظ فى أموره والحزم فى شؤونه ، وقد ظهرت للناس محاسن سيرته ، وأطلعوا على جميل سريرته » فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به ، فقال له : « سوف أستخير الله فى ذلك فان يكن من عند الله يمضه» قلت : هذا الذى حكاه الفشتالى على لسان القائد مؤمن فى حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا ان شاء الله ، ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالبا ، لا سيما اذا كان من يعنونه بذلك مخدوما لهم ومنعما عليهم ، فلا ينبغى لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه الا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادى الى الصواب بمنه . ثم لبث المنصور بعد هذه الاشارة أياما يستخير ربه فى ذلك ويستشير من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح ، فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الاشارة ، جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس وغيرهم من أشياخ القبائل ووجوه الناس من أهل الحواضر والبوادى ، وأوصى

بالعهد لولده المذكور أبى عبد الله محمد المأمون ، وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة .

وكان المأمون اذ ذاك خليفة ابيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث اليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته ، ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب ، ولما بعث اليه خرج المنصور بعسكره الى تانسيفت خارج مراكش ثانى عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة ، ولم يزل بعسكره هناك متلوما ومنتظرا لقدوم المامون الى أن قدم غرة جمدى الثانية من السنة المذكورة، فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان ، ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافى القدم فعفر وجهه بين يدى والده ثم قبل رجله ، والمنصور على فرسه واقفا بين الصفين ، فدعا له بخير وأظهر الفرح بمقدمه ، وكان المأمون قد عبا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتبهم ترتيبا حسنا فى لباسهم وسائر أمورهم، فسر المنصور بذلك، وبعد أيام من بلوغه أمر به فاجلس فى سرادقه الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتى ، وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضرته ، وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال ، وغمر المنصور الناس بالنوال ، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع الى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذى قصده .

ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب فى ذلك

قال الفشتالى : لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الاجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ ، وهو ابن أخى المنصور ،وفر الى جبل سكسيوة وشق العصا ودعا الى نفسه ، فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم ، ونجم أمره وأثرت فى أذن الرعية جعجعته ، فبعث اليه المنصور قائده الزعيم أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فناوشه

القتال بجبل سكسيوة فهزمه ، وفر الى جبل هوزالة فتحزبوا عليه، وقويت بهم شوكته ، وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة الى أن ضاقوا به ذرعا فشكوا أمره الى المنصور فبعث اليه قائده الذى ذكر فلم يزل فى مقابلته ومقاتلته الى أن شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه الى الصحراء ، واستقر به الرحيل بها عند عرب الوداديا من بنى معقل فلم يزل عندهم الى ان هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره .

حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثمانى وتلافى المنصور لذلك

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الى السلطان سليمان العثمانى وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذى كان سببا فى تملكهما المغرب ، ولما صفا الامر لعبد الملك أهمل جانب العثمانى ولم يكاتبه بشىء ولا عرج عن ساحته، ثم لما ملك المنصور وكتب الى النواحى بخبر وقعة وادى المخازن كتب الى السلطان مراد فى جملتهم فبعث السلطان المذكور الى المنصور بالهدية التى تقدم ذكرها وكان المنصور استقلها وانف منها، فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته ، وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببا للنفرة ، وكان وزير البحر للعثمانى ، واسمه الرئيس على علوج ، يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القدح فى ولاية الترك والطعن عليهم ، وقال له فى ذلك : « قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك» ولم يزل يفتل له فى الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أذن له فى توجيه العمارة اليه ومنازلته والاخذ بآفاقه الى أن يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته ، ويقال : ان السلطان مرادا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة الى الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر فى البر الى المغرب ، فأخذ الوزير فى التأهب لذلك واتصل

الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل النجليز ، فارتحل الى فاس من حينه وشحن الثغور وملأ المراسى ، وكان على أهبة وكمال استعداد ، وبعث ارسالــه الى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيا لمافرط واعتذارا عماسلف .وكان من جملة أرساله القائد الانجد ابو العباس احمد بن ودة العمرانى، والكاتب الشهير ابو العباس أحمد بن يحيى الهوزالى ، فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى ، وبينما هم فى أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج فى أسطوله قاصدا ديار المغرب عازما على منازلة المنصور به ، فلما رآهم سقط فى يده ، وأيقن بخيبة مسعاه ، فرام صدهما عما قصدا اليه وأيأسهما من تدارك الامر ، وقال لهما : « ان الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض فى المسالمة ما بقى أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادى أظلم » فلم يـــزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة الى أن صرفه عن رأيه ورده معه ، وتـــرك الهوزالى يبلغ الرسالة والهدية ظنا منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام ، وابن ودة الذى كان عنده مظنة لكمال التدبير ومثافنة الملـــوك رده معه ، فلما انتهى الهوزالى الى السلطان مراد ودخل عليه أظهر من نبله ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور ، واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه ، ولا يفيد غلبة خصمه،فقبل السلطان مراد الاعتذار،وتقبل الهدية بقبول حسن ،وكتب مع الهوزالى الى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور ، فرجع بها الهوزالى يطير سرورا ، ولم يغب عن علوج الا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملـك ، فقرع لها علوج سن الندم ، وأسف على تفريطه فى الهوزالى وتركه ، وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالى الى المنصور يلومه على التراخى فى أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين الى مرسلهم ، وبعث معهم الفقيه الامام قاضى الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن عـــلى الشاطبى ، والقائد الانجد ابا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيظمى المريدى ، فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح ، ورتب الشاطبى كلاما بليغا أعرب فيه عن فضل الدولتين ، وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى المنصـــور

وحض فيه على اتحاد كلمة الاسلام ، وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه ، ثم بعد أيام أحسن اليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين الى مرسلهم.

وقال صاحب «خلاصة الاثر» : كان المنصور موادعا لسلاطين آل عثمان فيرسل اليهم بالهدايا فى كل سنة وكانوا هم يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد بن سليم كتب اليه أثناء مكاتيبه : « لك على العهد أن لا أمد يدى اليك الا للمصافحة ، وان خاطرى لا ينوى لك الا الخير والمسامحة » وكانت رسله دائما تأتى الى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الاديب محمد الامين الدفترى ، فقد ذكر صاحب « خلاصة الاثر » أن هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها الى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة ، وقد ذكر صاحب «خلاصة الاثر» فى ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره .

ولما تكامل هذا الغرض ، وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الارسال فى أحسن الاحوال عاد المنصور الى مراكش، وفى يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرىء البخارى بين يديه سردا على عادة الخلفاء فى ذلك ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة .

ايقاع المنصور بعرب الخلط والسبب فى ذلك

قد قدمنا فى أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ماكان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها. ولما أدبرت دولة بنى مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدى انحاشوا اليه وأظهروا الخدمة والنصيحة ، فلما جاء أبو حسون الوطاسى بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدى لابى حسون كما مر ، فلما غلب

المهدى على المغرب وصفاله أمره خلعهم من الجندية ، ووظف عليهم الخراج ، ومحا اسمهم من ديوان الخدمة . ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده، ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المنصورفرأى جلادهم يوم وادى المخازن وحسن بلائهم، فاختار النصف منهم ورده الى الجندية، وأبقى نصفهم الآخر فى غمار الرعية ونقلهم الى آزغار فاستوطنوه حينا من الدهر ثم عاثوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بنى حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور ، فضرب عليهم سبعين ألفا غرامة ، فلم يزدادوا الا عتوا وشدة، فأرسل اليهم ليبعثوا طائفة منهم الى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث اليهم القائد موسى بن أبى جمدى العمرى فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة . ثم حكم السيف فى رقابهم . واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم ، ولانت للغامز قناتهم .

استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه الى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف الى ذلك من القرى والمداشر ، اذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدى الملوك ولم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر الى ما يراد منهم ، فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم الى أمر الله فبعث اليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة ، والقائد أبا العباس أحمد بن الحداد العمرى المعقلى ، فى جيش كثيف فقطعوا اليهم القفر من مراكش ، وانتهوا اليهم على سبعين مرحلة منها ، فتقدموا اليهم أولا بالدعاء للطاعة والاعذار والانذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياما ، ثم كان الظهور لجيش المنصورفأوقعوا بهم وأثخنوا فيهم الى أن أذعنوا للطاعة. وصاروا فى حزب الجماعة ، وأنهى خبر الفتح الى المنصور فسر بذلك سرورا عظيما

وقال الشعراء فى ذلك وعم الفرح بلاد المغرب، وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور الى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره ان شاء الله .

تلخيص القول فى سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامى الى هذا التاريخ

اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بارض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السودانى فيه ، وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين ، ثم بعدها أمة أخرى يقال لها : مالى ، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال: كاغو، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضا : سغاى، ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم وهم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها . ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا الى آخر الشرق أمم لا يحصيهم الا خالقهم .

فأما أهل مملكة غانة فقد كانوا فى صدر الاسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هى غانة وهى : مدينتان على ضفتى النيل السودانى من أعظم مدن العالم وأكثرها عمرانا ذكرها صاحب « نزهة المشتاق » ، وصاحب «المسالك والممالك» وغيرهما .

وقال الفقيه الاديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى فى «شرح المقامات الحريرية» ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان والبها ينتهى التجار يعنى من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ودون ذلك . وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع فى غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين حملا يرجع منها بثلاثة أحمال أو

بحملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدثنى غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل . فاثمان أحمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يجعل فى مزود واحدفيطوون المراحل للخفة ، قال: «وغانة بلدمملكة السودان وانتشر الاسلام فى أهلها وبها مدارس للعلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والامن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدما للتسرى ويقيمون بها عند أميرها فى غاية الكرامة ، والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة فى خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الابدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الانوف وبياض الاسنان وطيب الروائح » اه .

وقال ابن خلدون : « كان فى غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببنى صالح » .

وقال صاحب « نزهة المشتاق » : « انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال : ولا يعرف صالح هذا فى ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد » اه .

ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم فى المائة الخامسة واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلى البربر ، وزحف اليهم الامير أبو بكر بن عمر اللمتونى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك فى أخبارهم ، فلما رجع الامير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الاتاوات وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام فدانوا به ، ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورون لهم واستعبدوهم وصيروهم فى جملتهم . ثم ان اهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الامم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدى أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان . ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى

ابن أبى بكر ، وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبى الحسن المرينى من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره . وكان مع السلطان منسا موسى المذكور الاديب الشاعر أبو اسحق الطويجن* الاندلسى الذى بنى له القبة المربعة العجيبة الصنعة البديعة النقش والتخريم التى أجازه عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما مر ذكره فى أخبار الدولة المرينية ، وكان منها أيضا السلطان مارى زاطة الذى هادى السلطان أبا سالم المرينى وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا : وكان هذا السلطان مسرفا مبذرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد أمر سلطانهم يختل حتى لقد انتهى الحال به فى سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذى كان من الذخائر الموروثة عندهم ، وهو حجر يزن عشرين قنطارا من الذهب العين منقولا من المعدن كذلك من غير علاج ولا تصفية بالنار ، فكانوا يرونه من أنفس الذخائر وأكبر الغرائب لندور مثله فى المعدن ، فعرضه منسا زاطة على تجار مصر المترددين الى بلده فاشتروه منه بابخس ثمن . ثم أصابته علة النوم وهو مرض يطرق أهل ذلك الاقليم كثيرا وخصوصا الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشى النوم عامة زمانه حتى لا يكاد يفيق ولا يستيقظ الا فى القليل من الاوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سقمه الى أن يهلك ، ودامت هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، ثم توارث بنوه الملك من بعده فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول ، وظهرت دولة آل سكية من أهل مملكة كوكو ويقال كاغو.

قال الامام التكرورى فى كتابه «نصيحة أهل السودان» : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تانيث ، وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلقى بمصر الخليفة العباسى ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه

---

* الطويجين تصغير طاجين هكذا ضبطه صاحب النفح انظر ترجمته ج ١ ص ٤٦١

السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امـــارة بلاد السودان ، وأن يكون خليفته هناك ، ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده ، وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهـاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطـى فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جملا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه ، فرجع الى السودان ونصر السنة وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسى فـى مقعده وملبسه وسائر أموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال ، وبرىء جسد الرشاد من الداء العضال ، وكان الحـاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين محبا للعلماء مكرما لهم يفسح لهم فى المجلس ويوسع عليهم فى العطاء ولم يكن فى أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته فى خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيئا خفيفا من المغارم وظفه عليهم، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطى شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكـورة الى أن اخترمته المنية ، فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد فاحسن ما شاء وتبـع طريقة أبيه الى أن لحق بربه ومضى لسبيله ، فقام بالامر بعده ولده اسحق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه ، ولم يكن فى أمره بالذميم ، واستمر حالـه على الانتظام الى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه ونثرت سلكه ، وانقرض عليه أمر آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان. وسنذكر كيفية ذلك

وأما مملكة التكرور وكانم فقال ابن خلكان ما نصه : « كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم وانما كانم اسم بلدة بنواحى غانة فسمى هذا الجنس باسم هذه البلدة، وتكرور اسم للارض التى هم فيها وسمى جنسهم باسم أرضهم » اه.

قلت: وكان من كانم الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الاسود الشاعر وهو الذى دخل على يعقوب المنصور الموحدى فانشده :

أزال حجابه عنى وعينى — تراه من المهابة فى حجاب

وقربنى تفضله ولكن — بعدت مهابة عند اقترابى

وأهل كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية فى المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالى مع بنى مرين .

قلت : ومن أهل برنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى العارف بالله تعالى أبى فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع فى مناقبه كتاب « الذهب الابريز » .

واتصل أمر أهل برنو على الانتظام الى أن كان من أمرهم مع المنصور ما نذكره ، وكل هؤلاء الامم كانوا على دين الاسلام قديما كما رأيت ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء كما علمته آنفا وتعلمه فيما بعد ان شاء الله تعالى .

قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السودانى فى تقييده المسمى « بمعراج الصعود » : «ان أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا وكنتى وبرنو وسغاى ما سمعنا قط أن أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كأهل مالى أسلموا فى القرن الخامس أو قربه وكأهل برنو وسغاى » اه . وقد علمت أن أهل غانة تقدم اسلامهم على هذ التاريخ والله تعالى أعلم . ولنرجع الى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول :

وصول هدية صاحب برنو الى المنصور بحضرة فاس
وما نشا عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته

كان المنصور رحمه الله مسعودا محظوظا كما أشرنا اليه سابقا ، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سببا فى مبايعته له والدخول فى طاعته . وكان من خبر ذلك ما حكاه فى « مناهل الصفا » قال : « وفى سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان ، وجلب فى هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسا السودان وطرفه ، وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين ، فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا حسنا وأبهة وجلالة ، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه ، وهو آفراك ، واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه الى باب المعسكر القبلى ، وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان ، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا وكرسى المملكة وسرير الخلافة منصوبا به ، والمهابة قد أخرست الالسن وأخشعت القلوب والابصار ، فجلس الرسول هنالك مليا ، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة فادى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله، ثم توجه به الى معسكر ولى العهد وتاج الاسلام وكافل الامة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء ، فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة ، واستدرج الى أن وصل

لقباب و لى العهد ومضاربه ، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود . ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيى وفدى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له فى حساب .

وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار ، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثمانى يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، ولما قرىء كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء والكتابة ، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة ، وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطرى توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلهما ركابا لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك ، فبلغت مملكة مالى عظيم السودان الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب ، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر . ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذ ذاك عن مراده وورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش ، فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود ، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء الى التى هى أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول فى دعوته النبوية التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد فى أقطار البلاد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، أن الجهاد الذى ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم

يستندوا فى أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله أمير المؤمنين بوصفه اذ هو الكافل لهذه الامة ، ووارث تراث النبوة ، وقيضه الله لحماية بيضة الاسلام، وخصه بالشرف القرشى الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام وأئمة السنة الاعلام ، وألزمهم القيام فى أقطارهم بدعوته ، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول ، وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء، ويوفى الغرض لئلا يخلو بشىء من الشروط التى شارطهم عليها أمير المؤمنين فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالى ونصها : « الحمد لله الذى أعلى لكلمة الحق منارا يسامى فى مطالعها النجوم ، وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم ، وحى على الفلاح بها داعى التوفيق الذى نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم ، وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنية العلوية التى صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعه ، واستبان الحق بتبلج الصباح فى مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعه ، ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التى هى بسيف النبوة المصلت مقطوعه ، وبلسان السنة مدفوعه ، وقوض بها مبانى الادعاء التى هى على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعه ، وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التى هى على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعه ، وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدى سيف الانفة والامتعاض ، وأشار للاعادى من بأسها المروع بلسان الحية النضناض، وفجر للمومنين ينبوع رحمتها الجارى على حصا عدلها الرضراض، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والاقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض ، وجلا بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التى ادلهم جوها وغيم ، وأسعد الوجود بيمنها الذى لبث فى أكناف مجدها وخيم ، وقضى لها بتراحم الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى بن مريم ، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة ، ونهج

للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعه ، وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه ، نبى الرحمة وشفيع الامه ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، أئمة الهدى ومصابيح الظلام ، والدعاء لمولانا الامام العلوى الهمام ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، نجل سيد المرسلين وخاتم النبيئين ، وسليل الوصى والسبطين ، وبعد ، فانه لما أذن الله فى ليل الجهالة أن ينجاب ، وفى شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب ، وفى العز الخلق الجلباب أن يعود الى الشباب ، وفى النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب ، وفى الامارة أن تستند الى السنة والكتاب ، وتتعلق من الشرع بأسباب ، تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العلوية ، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها ، وارتفع الى حيث السها والفرقدين منارها ، وتبلج بالاصباح نهارها ، ولاحت فى سماء المجد بدورها وأقمارها ، وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها ، وانتشرت فى الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها ، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها ، وفاض ببركتها على أكناف المعموريمها الزاخر وتيارها ، خلافة ينتمى الى النبوة عنصرها ، وتستنبط من رسالة الوحى أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وامامة على وليها والله نصيرها ، والسبط بدرها الذى حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذى اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، اماما ألقى الله له فى القلوب حبا جميلا ، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا ، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعى لخلقه وعباده كفيلا ، وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا ، مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله فى الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين ، والممنون بامامته المقدسة على العالمين ، بحر الندى والباس وعصمة الله للناس ، أمير المومنين المنصور بالله مولانا أبا العباس ، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين ، والائمة الطيبين الطاهرين ، وطيب بانفاس المغفرة لحودهم ،

أجمعين ، امام تهتز لذكره أعطاف المنابر ، وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر ، وتستضىء البلاد باكليل شرفه الزاهر ، وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ، أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه ، وخلد له ولا عقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامة ، ولما طلعت أيده الله على هذه الاصقاع الزنجية طلائع امامته النبوية وخلافته ، ولاحت فى سمائها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأنافته ، وتليت لمجده الآيات البينات التى تشهد له بتراث الرسالة، وتقضى له على الاسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة ، وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بامامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم ، كما قال عليه السلام : « لا تزال الخلافة فى قريش ما بقى منهم اثنان » وكما ورد فى صحيح الخبر : « ان الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار وفى الحبشة الاذان » ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان ، فلا ناكر ان ليس فى المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان ، فنهض بدليل الشرع انه امام الجماعة حقا المستوفى شروطها ، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الاسلام أن يحوطها ، وأن القائم بهذا الامر على الاطلاق غيره دعى ، ومحاوله دون اذنه المشروع بدعى ، فتعين لذلك أن الرجوع الى الحق فريضه ، واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقى فى الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة ، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضه ، فانتدب لهذه الآثار صحيح الاخبار وصرف الى رضى الله العناية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغايه ، الرئيس أبو العلاء ادريس أكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق ، على حضرة الاخلاص والتصديق ، وأخذت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتأييد صاحب ورفيق ، وروض الآمال أنيق ، وراح الراحة والاطمئنان عتيق ، الى تقلد أمام بيعة الجماعه أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا التى تؤسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان ، وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن ، وآثر أسعده الله أن يؤدى فرضها المعدود من فروض

الاعيان ، وحكمها الذى توجه به خطاب الشرع العام الى القاصى والدان ، وينشر سنتها المشروعة فى صقعه وما يليه من الاصقاع والبقاع بالسودان تقلدا يستضىء ان شاء الله بأنواره ، ويستشرف به للعز المكين على مناره ، ويخمد به المجهل جذوة ناره ، وتنتظم به فى اتباع الحق زمر أنصاره ، ويجتلى به صورة انسانه ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانه ، ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه ، ويقرع به لرضا الله باب القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوه ، ويعود له به الزمان للشباب والفتوه ، ويرفع به منار الامارة على قواعد الشرع الوثيقه ، ويعدل به فى كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقه ، وتتسنى له به وهى المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى ، الاسوة الحسنة بامامى بنى العباس السفاح والمنصور، ويحيى سنتهما التى نقلها ثقات الاعلام والصدور، فى مبايعتهما الامام الخليفة المهدى الاكبر سليل سيد المرسلين وجد مولانا أمير المؤمنين الذى رأى امام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق ، وفى منصب الامامة على شرطها أعرق ، وبسريرها ومنبرها أليق ، فتأكد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العزم والقصد ، وأنجز له فيما أراده صادق الوعد ، وساعد نيته الصالحة فيه السعد ، فبايعه أعلى الله يده على الامن والامانة ، والعفاف والديانة ، والعدل الذى يشيد للمجد أركانه ، مبايعة شايعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق ، وبجميع الايمان الصادقة الايمان ، أعطوا بها صفقة أيديهم ، ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم ، وامضوها على السمع والطاعة والانتظام فى سلك الجماعة امضاء يدينون به فى السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة ، والازمان المشتدة ، والتزموا شروطها طوعا ، واستوعبوها جنسا ونوعا ، بنيات منهم خالصة صادقة ، وعدة من الله لهم بالخير سابقة ، وسعادة بالحسنى لاحقة أبرموا عقدها ، وأحكموا وعدها وعهدها ، على حكم الكتاب والسنة والجماعة ، والاخذ بسنتها أعقابا عن أعقاب ، وأحقابا اثر

أحقاب ، الى يوم القيامة واقتراب الساعه ، لا يلحق عقدها الكريم فسخ ، ولا يعقبه بحول الله نسخ ، ولا يتطرق اليه نقض ولا نكث ، ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث ، وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضة ، والايمان اللازمة المغلظة هو وأتباعه اجماعا شرعيا ، وحتموه على أنفسهم حتما مقضيا، واعتقدوه اعتقادا أبديا ، وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفرادا وأزواجا ، ووحدانا وأفواجا ، وأشهدوا على الوفاء به بايمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة للصدور ، قائلين : بالله الذى لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات ، والخبير بالآجال والوفيات ، وبجميع الرسل الكرام والانبياء ، وملائكة الرحمن فى الارض والسماء ، وعلى انهم ان حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعى التغيير والتبديل ، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته ، ومستوجبون لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته ، وبعداء من رحمته ، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمته ، وانهم خالعون لربقة الاسلام، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام ، أعلنوا بهذا اعلانا تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضاء لله وللخلافة النبوية ، والامامة العلويه ، ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقية، واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشعه ، ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعه ، فى أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم ، بدأ وختاما ، وأن يمنحهم بركته التى تصحبهم حالا ودواما لا رب غيره ، ولا خير الا خيره ، أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء ادريس أسعده الله وأكرمه ، وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية » انتهى .

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه الى بلاده بجواب مرسله ، ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة ، وخاض القفر الى دار الخلافة ، فوصل الى بلاد تيكورارين وهناك اعترضته منيته فاعتل وهلك ، فأشخص أولوا الامر

الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه ، فوصلوا بها الى حضرة أمير المؤمنين بمراكش، وقدموا اليه رسالتهم وهديتهم فتقبلها بقبول حسن ، وتم السرور وعظم الحبور ، واستقامت للمنصور الامور .

بعث المنصور رسوله بالدعوة الى آل سكية وكيفية ذلك

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبى العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لاجله ردهم المنصور الى صاحبهم مكرمين، وانتخب رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة بأحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها ، وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو ، من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذى بتغازى بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح الى أقطار السودان، وظيفا، بأن يجعل كل من يحمل منه شيئا من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين لكل حمل ، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لان ذلك بحر لا ساحل له .

وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام لا لغيره ، وأنه ليس لاحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه ، وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول، وكانت من انشاء العلامة الاديب مفتى الحضرة المراكشية المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى ، لان كاتب الانشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى كان مريضا يومئذ ، ولما فرغ الشريف المذكور من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول فى مخاطبة اسحق سكية ولا كيف يمدحه ، وهل يتوغل فى المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير فى ذلك الى المنصور بما نصه : « أيدكم الله ونصر أعلامكم ان

مخاطبة هذا الرجل الذى هو فى مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تلعثم فيه لسانى ، ووقف عن خوض لجته بنانى ، لان النأى عن هذه المحجة قد مد بينى وبينها حجابا ، وأغلق فى وجهى بابا ، فلا آمن من أن أقتحم الوقوع فى تفريط أو افراط ، وخير الامور لو علمته الاوساط ، لكن لا سبيل الى معرفته الا بعد علم الطرفين ، والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ـ أيدكم الله ـ الصدر لمن هو به منى أقعد ، وتحاميت عقده لمن هو له أعقد ، أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم ، وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم، والا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقول القائل .

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه   لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان اسحق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل فى الجواب ، وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان ، فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها، ولما فتح تيكورارين وتوات قوى عزمه على ذلك ، وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره ان شاء الله .

مفاوضات المنصور الملأ من اصحابه فى غزو آل سكية
وما دار بينهم فى ذلك

قال الفشتالى رحمه الله : لما رجعت أرسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه والاحتجاج بانه أمير ناحية ، والمنصور أمير ناحية ، وأنه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأى والمشورة فاجتمعوا ، وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا ، فقال لهم المنصور : « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو وبعث

الجيوش اليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية ، ولان بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الاسلام ويشتد ساعد كتيبته ، مع أن صاحب أمرهم والمتولى لسلطنتهم اليوم معزول عن الامارة شرعا ، اذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى » فلما نثل المنصور ما فى كنانته وأبدى ما فى خبيئته وعرض ما فى عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء ، فقال لهم : « أسكتم استصوابا لرأيى أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى ؟ » فاجاب كلهم بلسان واحد ورأى متفق : « ان ذلك رأى عن الصواب منحرف وانه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك، وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحا تقصر فيها الخطا ، وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلا ، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا ، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمها ، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحدمنهم لشيء من ذلك ، ولا تعرضوا لما هنالك ، وما ذاك الا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها ، وحسبنا أن نقتفى أثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون أعقل من الاول » فلما قضى أولئك الاقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم ، قال لهم المنصور : « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى ، وفيلتم به رأيى فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندى ، أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق فى كل وقت ويخوضون فى احشائها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل ، وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقابلة الافرنج ومن بذلك الساحل من الاروام ، والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك وزادوا بحرب ابن غانية ، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليها

جملة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شىء ، وأيضا فان بلاد السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لانه تعب كثير فى نفع قليل، فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل ، فانه كم ترك الاول للاخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم». فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما فى وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رأيه ، وقالوا له : «قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ولم تبق لاحد ما يقول ، وصدق من قال:«عقول الملوك ملوك العقول» . فانفصل الجمع على البعث الى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور فى رأيه عليه . قلت : وفى كلام المنصور أمران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لان ذلك كان بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها واعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر ، الثانى ما قاله من أن البارود لم يكن فى تلك الدول الفارطة يعنى به لم يكن موجودا فيها بكثرة بحيث يستغنى به الجيش عن غيره ساعة القتال ، فلا يرد عليه أن ظهوره كان فى أوائل المائة السابعة لاول دولة بنى مرين كما مر اذ ظهوره فى تلك المدة كلا ظهور . والله تعالى أعلم بحقائق الامور .

استجازة المنصور لعلماء مصر رضى الله عنهم وتلمذه لهم

قالوا ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث الى علماء مصر يستجيزهم رغبة فى اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الاسد ، وممن أجازه: الامام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى الحسن البكرى رضى الله عنه ، ومن بعض فصول اجازته له قوله يمدح كتاب المنصور اليه ويثنى عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه : ولقد وصل الى المثل العديم المثال ، المزرى نظامه بعقود اللآل ، فاذا به السحر الا أنه الحلال ، ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن يمد الله كراما كاتبين فى زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله الى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه ، فما من خارق فى الامة الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه ، وأما ما شرفنى به من طلب الاجازة فالبيت والحديث له ، ولكن رب أب أرسل الى ابنه على يد عبده عطاء فقبله ، واليه بامره حمله ، وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم ، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العبد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الامر ، وكذلك مجاز أهل العصر اجازة عام بعام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه هو السبب فى تحصيل ذلك المرام وكتب تحريرا فى رابع عشر ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة ، محمد بن ابى الحسن الصديقى سبط آل الحسن » اه .

وممن استجازه المنصور أيضا من علماء مصر : الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصرى الشهير ببدر الدين القرافى صاحب «ذيل الديباج » فأجازه اجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله :

أجزت لمن تفضل واستجازا ... وبادر لاقتنا خير وحازا

وأبرز فى سلوك العلم حالا ... به من فضل مولانا يجازى

امام كامل غوث البرايا أمير المؤمنين حوى مجازا
وذلك بعد تشريفى بأمر وقصد للاجازة فاستجازا
فبادرت امتثالا قدر وسعى ومقتفيا مناهج من أجازا
وقد أبديت حقا لا محالا بما صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا امام بما أبداه من فضل مجازا
وأرجو منه يهدى لى دعاء لما أرجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغنى مراما بجنات أراها لى مفازا
وأشياخى يبلغهم رضاء ويوصلهم الى خير يجازا

تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المامون وما وقع في ذلك

قالوا : وفى شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على اخوته خصوصا لانهم كانوا فى البيعة الاولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسما لمادة النزاع بينهم ، فارتحل المنصور من مراكش الى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتى ليأتيه بولى عهده المذكور من فاس ، فتوافى القصد ان بتامسنا ، وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه ، وحضر الاعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذى هو مصحف عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيحان للشيخين ، وقرىء ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبدالعزيز الفشتالى، وبجنبه القاضىأبوالقاسم الشاطبى يفسر ما أشكل من لفظ الظهير .

ولما أخذ البيعة أخر أولاده الى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له ، ووقع فى رسالة السلطان زيدان لابى زكرياء بن عبد المنعم الامام بذكر هذه البيعة فقال : « انى حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب

سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له الا أنا ، فانه رضي الله عنه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتى وظهرت فى وجوههم لاجله الكراهية » اه .

ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلا من أولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى فى نفوسهم احن ولا تنطوى قلوبهم على ضغائن ، فعقد لابى فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائره وعقد لابى الحسن على مكناسة وما والاها ، وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لامر اقتضاه الحال، فنقل زيدان الى مكناسة ، ونقل أبا الحسن الى تادلا ، ولم يزالوا على ذلك الى أن كان من أمرهم ما نذكره فى محله ان شاء الله .

ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله

قالوا : وفى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له : الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان فى الابتداء أمره حائكا فتلبس بالزهد والصلاح ، واعتقدته العامة ثم استحال أمره الى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه الى مراكش وانقطعت مادة فساده فلم تبكه أرض ولا سماء.

بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهى بنت الشيخ الاجل أبى العباس أحمد ابن عبد الله الوزكيتى الورززاتى من الصالحات حريصة على اقتناء المفاخر راغبة فى فعل الخير، قال فى المنتقى: « وهى التى أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافا عظيمة وكان ذلك سنة خمس وتسعين وتسعمائة . قال : «وهى التى بنت جسروادىأم الربيع وغير ذلك» اه

قلت: المرقوم على رخامة قبرها انها بنت جسرين بلفظ التثنية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستانا من بساتين قصورها وهى فى حال الوحم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما فى نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها الى الآن فيقولون : عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان ، فى أسجاع غير هذه . ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر فى مثل هذا والله تعالى أعلم .

بعث المنصور ببيلة الرخام الى جامع القرويين من فاس حرسها الله

قال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور» : « ان المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة الى جامع القرويين من فاس مع كرسى من المرمر توضع عليه وزنهما معا مائة قنطار » قال : « وهى : الخصة التى تحت منار الجامع المذكور » وقال ابن القاضى المذكور فيما نقش برقبتها:

امام دار الهدى المنصور شيدنى ... بحر المكارم من أبناء عدنان
حزت الفاخر بالمنصور أجمعها ... ومن علاه سنام المجد أرسانى
من جاء يشكو الظما يوما وقبلنى ... أغناه ماقد همى من صوب أجفانى
لا تنكرن وجود الدمع من فرح ... فالعين تدمع من افراط سلوان
واشرب هنيئا من السلسال لاحرج ... معين دمع جرى من فيض خلجانى
فخر السلاطين من أبناء فاطمة ... أشاع صيتى الى أطراف عمان
وقد جرت مقلتى تحكى سحائبها ... كف الخليفة من أبناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما ... ما هيجت عاشقا ورق بأفنان
انشائى فى زمن التاريخ وافقه ... للدين والاجر بحر الجود سوانى

وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وتسعمائة فى ذى الحجة منها

سافر المنصور الى فاس وبينما هو فى الطريق وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وان زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطوانى كمن لهم مع جماعة من الفرسان فى موضع فخرج النصارى باولادهم وحشمهم فحال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها ، وسر المنصور بهذا الخبر ، وأنشده فى ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما :

هذه سبتة تزف عروسا نحو ناديك فى شباب قشيب
وهى بشرى وأنت كفؤ اللواتى كافأت بعلها بفتح قريب

وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة فى اليوم الثانى من ذى القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك على الفرار بانفسهم فتركوها يبابا وذهبوا ، وفى ذلك يقول أبو العباس ابن القاضى :

يا أيها المنصور أبشر بالعلا فالله أبلغ فى العدا المأمولا
أنضاكم سيفا لحتف عداته وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم من غير سيف لم يرى مسلولا
وأذيتم كيد الخبيث بهمة وفتحتم دار العدا آصيلا
أكرم به من مالك بل صالح أضحى لبارود العداة خليلا
لازال فى أنف الهدى شمماوفى عين العلاء يشاكل التكحيلا

وأشار بقوله لبارود العداة خليلا الى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلا فانهم حفروا تحت قصبتها وملأوا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيلا تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصرانىمنهم وأخبر المسلمين بذلك فنجاهم الله تعالى من مكيدة الوبال ، وكفى الله المؤمنين القتال، وقال فى ذلك أيضا الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالى شعرا ذكره صاحب « نشر المثانى » فانظره .

وكان فى زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة فى قتال العدو ومنهم : أولاد النقسيس التطوانيون ، ومنهم : أولاد

أبى الليف من أهل بلاد الهبط ، قال فى « المرآة » : « لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة على ما كان عليه،ومن شدة نكايته فى العدو الكافر الطنجى وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعى به الى المنصور فأمر برحيله الى فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم فى سجن ، فأقاموا بفاس مدة لا أدرى هل هى سنة أم أكثر الا أنى كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا اذ ذاك صغير ، ويعنى بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله » ، قال : « فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوما المقدم عمر لاخيه كبيره المقدم محمد : لو زرنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فان الناس كثيرا ما يقصدونه فى المهمات » فقال له : « لا أتحرك فقد غلب اليأس » فسار المقدم عمر وحده فلما وصل الى الشيخ قال لـه : « قنطتـم » قال : « نعم ياسيدى » فقال له الشيخ : « غدا يخلى سبيلكم ان شاء الله » فرجع الى أخيه وأخبره ، فلما كان من الغد بعث اليهم القاضى أبو محمد عبد الواحد الحميدى فلما أتوه قال لهم:أبشروا بالسراح والرجوع الى الوطن ان شاء الله ، فانه قد قرىء الآن بين يدى السلطان بعض الغزوات التى ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها ، فقال السلطان أو غيره : « ترى هل بقى فى هذا الزمان من يماثلهم» فقالوا: قد بقى من يفعل فعلهم ، وها هم أولاد أبى الليف المغربون هنا يفعلون مثل ذلك » فقال السلطان سرحوهم الى بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا فى سبيل الله فرجعوا الى بلادهم وفعلوا الافاعيل فى عدو الدين الى أن استشهد المقدم محمد فى ربيع الثانى سنة اثنتين وألف » اه .

غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها اسحق سكية رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته فى غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقى المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى الى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوى عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج اليه الجيش من آلة السفر ومهماته ، وأمر القواد أن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون اليه من ابل وخيل وبغال ، وان من أتى بجمل ضعيف يعاقب ، واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التى تحملها والبارود والرصاص والكور ، وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائظ والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء ، وألف النجارون ذلك فى البر الى أن تألف ، ثم خلعوه وشدوه أحمالا ، واستمر الحال الى أن استوفى المنصور أمر الغزو فى ثلاث سنين ، ثم أمر باخراج المضارب والمبانى لوادى تانسيفت فخرجت الاحمال والاثقال من مراكش فى اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجملتها عشرون ألفا ، ومعهم من المعلمين البحرية والطبجية ألفان ، فالمجموع اثنان وعشرون ألفا ، وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة ، فاختار منهم من يعلم نجدته ويعرف كفايته ، وتخير من الابل كل بازل وكوماء ، ومن الخيل كل عتيق وجرداء ، ثم نهضوا فى زى عظيم وهيئة لم ير مثلها ، وذلك فى محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وكتب المنصور الى قاضى تنبكتو الفقيه العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر اقيت الصنهاجى يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة .

ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوى ، ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافى فقطعوها فى مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان ، فأراحوا بها أياما ، ثم صاروا

قاصدين دار اسحق سكية ، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم ، وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال : أنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل .

وقال الفشتالى : ولم يقنع بالجيوش التى جمع حتى أضاف اليها أشياخ السحرة وأهل النفث فى العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنا منه أن ذلك يغنيه شيئا، وهيهات، ويرحم الله أبا تمام اذ قال فيما يقرب من هذا الحال :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الارماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر، وكانت سلاحهم انما هى الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأ ، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الادبار . وحق عليهم البوار ، وحكمت فى رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن اخوانكم فى الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون فى كل وجه ، وفر اسحق فى شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه ، وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الاموال والمتاع ، وكان ذلك منتصف جمدى الاولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، ويقال : ان جؤذرا لم يدخل مدينة كاغو وانما تحصن بها اسحق فحاصره جؤذر فيها ، وكتب الى المنصور بخبر الفتح وبعث اليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك، وامتدت العساكر المنصورة فى بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبى وتغنم الى أن راسل اسحق الباشا جؤذرا فى تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة فأجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه، ثم كتب الى المنصور

بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الارض فاتفق رأى الامراء على الرجوع والاقامة بتنبكتو الى أن يأتى جواب المنصور، فرجعوا وأخذ جؤذر فى انشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها فى النيل، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرا خفيفا وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا، وهو أخو جؤذر وقلده أمر العساكر كلها، وعزل جؤذرا عنها وأمر محمودا أن يبقيه معه، وكتب الى أمراء العسكر يعاتبهم ويوبخهم على ما فعلوه مع اسحق من الصلح ، ويؤكد عليهم فى الرجوع الى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الاخرى ، وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر فى زمان الحر فى وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدرى وقطع القفر فى خمسين مرحلة. أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الالف فأراح بها ثلاثا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا فى النيل وسار السواد الاعظم فى البر الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك اسحق سكية ، وكان اسحق لما رجعت عنه العساكر الى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت ، فلما بلغه رجوع العساكر الى كاغو قصدهم فى جموعه ، ولما التقى الجمعان لم يكن الا مقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابل فى الجو وهدير الطبول ، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون الى أن غشيهم ظلام الليل ورجعوا بالغنائم والسبى فاستراحوا ثلاثا ، ثم أمر محمود أخاه جؤذرا أن يقيم بمدينة كاغو عامرا لها ، ويترك معه عددا من العسكر يكون ردءا لهم ، وسار هو فى اتباع اسحق الى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر فى فل من قومه فعبر النيل الى العدوة الاخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره فى السفن وسار خلفه الى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل اسحق القفر فهلك فيه ، ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذى كان ينازعه فى الملك فانه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف الى محمود باشا فنهض اليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه ، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كليا ،

وكتب بخبر الفتح الى المنصور .

ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيدا من الاعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب ، وأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الاسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابقت الخيول ، وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم ، وأجازهم بما تحدث الناس به دهرا ، وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت الى جميع الآفاق ، وكان مما قيل فى ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فقال :

جيش الصباح على الدجا متدفق ... فياض ذالسواد ذلك يمحق

وكأنه رايات عسكرك التى ... طلعت على السودان بيضا تخفق

لاحت وأفقهم ليال كله ... كعمود صبح فى الدجا يتألق

نشرت لتطوى منه ليلا دامسا ... أضحى بسيفك ذى الفقار يمزق

أرسلتهن جوائحا وجوارحا ... فى كل مخلبها غراب ينعق

وسرت فكان دليلهن اليهم ... مشحوذ عزمك والسنان الازرق

لهى الليالى قد جلى أحلاكها ... نور النبوة من جبينك يشرق

صعقت بهن رعود نارك صعقة ... رجت لصيحتها العراق وجلق

سحقا لاسحق الشقى وحزبه ... فلقد غدا بالسيف وهو مطوق

رام النجاة وكيف ذاك وخلفه ... من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق

جيش أواخره ببابك سيله ... عرم وأوله بكاغو محدق

لم يشعروا الا وأسوار الردى ... ضربت عليهم من قناك وخندق

كتب الاله على عداتك أنهم ... قنص لسهمك غربوا أو شرقوا

ضلت ملوك ساجلوك على العلا ... سفها وشأوك فى العلا لا يلحق

أن يشبهوك ولا شبيه يرى لكم ... فى الخلق أين من اللجين الزئبق

بشر ملوك الارض أنك فاتح ... بالمشرفى على الولا ما غلقوا

وبقاصل لك ذى الفقار مفرق ... ما جمعوه وجامع ما فرقوا

دامت طيور السعد وهى غوارد ... بالمشتهى لك والمسرة تنطق

ما دام أصل علاك فى صحف الثنا أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورى بهما هذا الشاعر وسيأتى الكلام عليهما . وكان محمود باشا لما استوسق له الامر هنالك بعث بنصف جيشه الى المنصور مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لا يحصى ، من ذلك : ألف ومائتان من متخير الرقيق الجوارى والغلمان ، وأربعون حملا من التبر ، وأربعة سروج ذهبا خالصا ، وأحمال كثيرة من اليانبور وقطوط الغالية وغير ذلك ، ولما وافت المنصور سر بذلك سرورا عظيما وأمر بعمل المفرحات فى بلاد المغرب وبتزيين الاسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام، ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر ، وانتظمت الممالك السودانية فى سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصرقال الفشتالى: فكلمة المنصور نافذةفيمابين بلاد النوبة الى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله ،والله يؤتى ملكه من يشاء ، ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل اليه من التبر ما يعيى الحاسبين ، ويحير الناظرين ، حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى ، والدينار الوافى، وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولاجل هذا لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى أيامه والامور كلها بيد الله .

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض ما ثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره . وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف ، ومن المستفيض انها ريئت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت : « غفرلى ، بسبب انى كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع فى الاذان فرددت على ثيابى اعظاما لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لى ذلك فغفر لى » .

وفى سنة احدى وألف أتى بالفيلة من بلاد السودان الى المنصور، وكان يوم دخولها لمراكش يوما مشهودا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت الى فاس فى رمضان سنة سبع وألف . قال فى «نشر المثانى» : كان دخول الفيل الى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف وبعث المنصور مع الفيل الى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس فى ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس . »

قال بعضهم : « وبسبب دخول هذه الفيلة الى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لان أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع ، فشاعت منهم فى بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب ، وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم ، فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ، ومتوقف ، والعلم فيها عند الله سبحانه » قاله اليفرنى .

قلت : من تأمل أدنى تأمل فى قواعد الشريعة وآدابها علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام ، لانها من الخبائث التى حرمها الله تعالى على هذه الامة المطهرة ، وبذلك وصفها فى الكتب السالفة اذ قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم

بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » .

وبسط هذا المقام : ان تعلم أن الله تعالى اختار هذه الامة من بين سائر الامم قال تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها ، قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التى هى من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد ، ثم اذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ فى الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن ، واجتناب كل خبيث أمكن ، فشرع أولا الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن. وحظر من مقاربة الصلاة وما هو فى معناها حال الخلو عنها ، ثم شرع ثانيا الطهارة الصغرى المتعلقة باطراف البدن زيادة فى الاعتناء بها لانها تبرز فى غالب الاحوال فيعلق بها من الاقذار مالا يعلق بغيرها ، وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة عند عروض كل حدث مستقذر حتى الريح والسبب الداعى الى خروجه ، ثم ندبه الى استعمالها عند القيام الى كل صلاة من الصلوات الخمس.

ثم انا اذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعى غاية النظافة وتنفى كل قذر وان قل ، فشرع الغسل فى أعضاء الوضوء مكررا ، وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعا لما يعلق به من الغبار ، وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيف كالمضمضة والاستنشاق ثلاثا تطييبا للنكهة ، وشرع مسح الاذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين ازالة لما بداخلهما من تلك الفضلة، مع أن الحى ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة، أوليس فى هذا دليل واضح على أن الحكمة فى هذا كله انما هو المبالغة فى النظافة وتطييب الرائحة والنكهة اذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب، وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيدا عن القذر بكل وجه ، ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام الى كل صلاة وقال : لولا أن أشق على أمتى لامرتهم بالسواك عند كل صلاة » كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر

وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة فم المؤمن ونكهته حتى فى حق الصائم الذى « خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك » هذا كله فى حال الصلاة .

وأما خارجها فقد علم من الشرع علما ضروريا أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له . ومن هذا المعنى: ما حرم الله تعالى على هذه الامة من تناول المستقذرات كالميتة والدم وسائر النجاسات اذ علة حرمة الاشياء وتناولها اما كونها مستقذرة كالنجاسات اجماعا ، وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعى رضى الله عنه ، أومضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعض الاعضاء منه ، أو محترمة : اما لذاتها ، كالادمى ، أو لكونها ملكا للغير وهو ظاهر . فالشارع له غرض أكيد فى اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها من المستخبثات ، وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعملون فى حوائطهم فاذا حضرت الجمعة أتوا الى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاغتسال عند كل جمعة ، ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها ، وحبب الى النبى صلى الله عليه وسلم من دنيانا النساء والطيب ، وندب أمته الى استعماله فى المشاهد العامة مثل الجمع والاعياد ونحوها ، وخصال الفطرة انما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه » دفعا للسرف والخيلاء ، ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والاقذار الى غير هذا مما لو استقصى لطال ، ودل دلالة قطعية على أن المطلوب من العبد أن يكون نظيفا طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانبا لكل خبيث مستقذر ، وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس ، وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر من من رائحة أفواه شربة الدخان ، ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ ، وهذا النتن من أقبح العيوب فى نظر الشرع حتى انه جعل الخيار لاحد الزوجين اذا كان صاحبه أبخر ، فاذا لانشك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة فى الفم أو الانف من أعظم المحظورات لانها تصدم غرضا كبيرا من أغراض الشارع وتضاده وتنفيه ، وأقول لو كان نتنها يعلق بعضو من الاعضاء غير الوجه

لكان هينا لكنه يعلق بالفم والانف اللذين وضعهما الحكيم العليم فى وسط الوجه الذى هو أشرف الاعضاء ، فأى مضمضة وأى استنشاق وأى سواك يزيل ذلك النتن الذى يرسخ فى أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخا لا يماثله شىء

ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا: ان فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة هذا الى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى أنه اذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يبالى بما يصدر منه ، ومن دخول الشك فى صيامه لان بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمكث فى حلقه الى طلوع الفجر وما بعده ، لان جلهم اذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم ، وبالجملة ، فلا يستعمل ذلك الا من لا خلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين وهو قادح فى الشهادة والامامة والله تعالى الموفق بمنه .

نكبة الفقيه ابى العباس احمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والائمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتى سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم الى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الاول ، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم ، وربما وشى اليه بهم ، فكتب الى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش ، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد بن عمر بن

محمد آقيت المدعو : بابا ، صاحب «تكميل الديباج» وغيره من التآليف .وكان فيها أيضا الفقيه القاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما ، وحملوا مصفدين فى الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم .

قال فى «بذل المناصحة» : « سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول : أنا أقل عشيرتى كتبا وقد نهب لى ست عشرة مائة مجلد » وكان القبض عليهم فى أواخر المحرم سنة اثنتين وألف ، ووصلوا الى مراكش فى أول رمضان من السنة المذكورة ، واستقروا مع عيالهم فى حكم الثقاف الى أن انصرم أمد المحنة ، فسرحوا يوم الاحد الحادى والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك .

ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بنى العباس ومن يتشبه بهم ، فقال الشيخ : « ان الله تعالى يقول «وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب » وأنت قد تشبهت برب الارباب فان كانت لك حاجة فى الكلام فانزل الينا وارفع عنا الحجاب » فنزل المنصور ورفعت الاستار ، فقال له الشيخ : « أى حاجة لك فى نهب متاعى وتضيع كتبى وتصفيدى من تنبكتو الى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقى ؟ » فقال له المنصور : « أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم فى بلادكم من أعيانها فان أذعنتم أذعن غيركم » فقال الشيخ أبو العباس : « فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فانهم أقرب اليك منا » فقال المنصور : « قال النبى صلى الله عليه وسلم: «اتركوا الترك ما تركوكم» فامتثلنا الحديث »فقال أبو العباس: «ذاك زمان ، وبعده قال ابن عباس : « لاتتركوا الترك وان تركوكم » فسكت المنصور وانفض المجلس .

ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس اليه للاخذ عنه ،ولم يزل بمراكش الى أن مات المنصور لانه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ، ولما توفى أذن ابنه زيدان لآل آقيت فى الرجوع الى

بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش ، وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق الى رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله فى العود اليها ، وله فى ذلك شعر على طريقة الفقهاء . ولما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى : «ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد» على ما جرت به العادة من قراءتها عندوداع المسافر فيرجع سالما ، فانتزع الشيخ ابو العباس يده بسرعة وقال: «لاردنى الله الى هذا المعاد ولا رجعنى الى هذه البلاد » ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها الى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله .

تتمـــة

قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الاخذ بدين الاسلام من لدن قديم . وانهم من أحسن الامم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة ، وهذا الامر شائع فى جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى بلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة وبيعهم فى أسواق المغرب حاضرة وبادية ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هـــو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية ، وهذا لعمر الله من أفحـــش المناكر وأعظمها فى الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاســـلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انما هو الاسلام ، والحكم للغالب ، ولـــو فرضنا أن لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بان المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين . والاصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدع لخلاف الاصل ، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم فى الباعة مطلقا مـــن

الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بما ليس فيها ، وفى باعة الرقيق خصوصا مما هو أكثر من ذلك ، كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين ، والزمان كما علمت وأهله كما ترى، ولايعتمدأيضا علىقول ذلك العبدنفسه أو الامة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الاغراض والاحوال فى ذلك ، فان البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون الا بما لا يقدح فى صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الامة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان ، فيهون عليه أنيقر على نفسه بالرقية كى ينفذ بيعه عاجلا الى غير ذلك من الاغراض ، وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم ، وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الاماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب فى اغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون ، وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل ، وكيف يجوز له التسرى باناثهم ، وفى ذلك ما فيه من الاقدام على فرج مشكوك .

وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه : فى كتاب « الحلال والحرام» من «أحياء علوم الدين»(١) نصه : اعلم أن كل من قدم اليك طعاما أو هدية أو أردت ان تشترى منه او تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه ، وليس لك أيضا أن تترك البحث فتأخذ كل مالا تتيقن تحريمه ، بل السؤال واجب مرة ، وحرام مرة ، ومندوب مرة ، ومكروه مرة ، فلا بد من تفصيله والقول الشافى فيه : هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة» ثم أطال رضى الله عنه فى تقرير ذلك ، وصرح بأن البائع اذا كان متهما على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله . فاذا كان هذا فى الاموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الابضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله .

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا فى تقييده الموضوع فى هذه المسئلة،

المسمى «بمعراج الصعود» تفصيلا ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل: موشى وبعض فلان وغيرهم : وقال : ان كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه » . وكذلك ذكر ولى الدين ابن خلدون : « ان وراء النيل قوما من السودان يقال لهم لملم » قال : « وهم كفار ويكتوون فى وجوههم وأصداغهم » قال : « وأهل غانه والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم فى الجنوب عمران يعتبر » الى آخر كلامه ، لكن هذا التفصيل الذى ذكره الشيخ أبو العباس انما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم ، فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فيح وقفار لا يعمرها الا الريح ، فمن الذى يحقق لهم ذلك ، وقد قلنا انه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم ، وأيضا فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم الى الا ن على أن الناس اليوم لا يلتفتون الى ذلك أصلا ، ومهما رأى أحدهم العبد أو الامة يسمسر فى السوق الا ويقدم على شرائه غافلا عن هذا كله لايسأل الا عن عيوب بدنه لافرق فى ذلك بين أسود أو أبيض وغيرهما ، بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الاحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم فى الاسواق جهارا من غير نكير ولا امتعاض للدين ، وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا ومسمع ، وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فانا لله وانا اليه راجعون على ما دهينا به فى ديننا .

فالحاصل أنه لما كان الاصل فى الناس هو الحرية كما قلنا ، وعلم تواترا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون ، واستفاض عن أهل العدل وغيرهم انهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلما وعدوانا ، ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف فى أن الاقدام على شراء هذا الصنف محظور فى الشرع والمقدم عليه مخاطر فى دينه ، وأما وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفى شرعا فى جواز الاقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة

بما احتف بها من القرائن المكذبة لها، وليستفت المرء قلبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وان أفتوك » فانه متى رجع الى قلبه فى هذه المعضلة الا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال ، ثم تنزل عن هذا كله ونقول : لو لم يكن فى ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان فى هذه الامور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذى هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الامام مالك رضى الله عنه ما يقتضى وجوب التخلى عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين ، فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد، لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعى الذى كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبى الناشىء عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله تعالى ، وسوق الناس الى دينه الذى اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذى شرعه لنا نبينا صلى الله عليه وسلم وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتوفيق انما هو بيد الله « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله

قال فى « مناهل الصفا » : كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لاهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم، فان كلا من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيا به ذكره ، ولم يكن لاهل البيت فى ذلك المعنى شىء تزداد به حظوتهم مع أنهم أحق الناس بالمجد والسؤدد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لان البناء كما قيل :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

ان البناء اذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشأن

قلت : هذا اعتذار بارد كما لا يخفى .

ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة ، واتصل العمل فيه الى سنة اثنتين وألف . ولم يتخلل ذلك فترة . وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة ، فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن على ما قيل .

وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالى رحمه الله « فى المناهل »

وأما جبصه وجيره وباقى أنقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها أن فلانا دفع صاعا من جير حمله من من تبكتو وظف عليه فى غمار الناس .

وكان المنصور مع ذلك يحسن الى الاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم فى العطاء ويقوم بمؤن أولادهم كى لا تتشوف نفوسهم وتتشعب أفكارهم .

وهذا البديع دار مربعة الشكل وفى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة واحتف بها مصانع أخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك أن هذا البديع من أحسن المبانى وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسى ذكر غمدان ، ويبخس الزهراء والزاهره ، ويزرى بقباب الشام واهرام القاهرة ، وفيه من الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكر ويدهش النظر وكل رخامة طلى رأسها بالذهب الذائب ومره بالنضار الصافى وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة ، وجعل فى أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد موشى من عمل صنعاء وتستر ، وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيه المحاسن ، وأجرى بين قبابه ماء غير آسن ، وبالجملة فان هذا البديع كان من المبانى المتناهية البهاء والاشراق

المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنة الدنيا وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف :

كل قصر بعد البديع يذم ... فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر أشم
ان مراكشا به قد تباهت ... مفخرا فهى للعلا الدهر تسمو

وبه من الاشعار المرقومة فى الاستار ، والابيات المنقوشة فى الجهات ، على الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول ، وعلى كل قبة ما يناسبها ، وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بثمالة من ذلك الحوض ونخوض فى بحار تلك البدائع بعض الخوض ، اذ فى ذلك عبرة لمن اعتبر ، وترويح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غبر ، فمن ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية لان فيها خمسين ذراعا بالعمل من انشاء الكاتب البليغ أبى فارس عبد العزيز الفشتالى على لسان القبة المذكورة .

سموت فخر البدر دونى وانحطا ... وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا
وصغت من الاكليل تاجا لمفرقى ... ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها ... نثير جمان قد تبعته لقطا
وعديت عن زهر النجوم لاننى ... جعلت على كيوان رحلى منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى ... خليجا على نهر المجرة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت ... اليه وفود البحر تغرف ما أنطا
ينضنض ما بين الغروس كأنه ... وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليه من دوح الرياض خرائد ... وغيد تجر من خمائلها مرطا
اذا أرسلت لدن الفروع وفتحت ... جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم اذا سرى ... كما مال نشوان تشرب اسفنطا
يشق رياضا جادها الجود والندى ... سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا
وسالت بسلسال اللجين حياضه ... بحارا غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسط وسطاه دمية ... هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا

حكت وحباب الماء فى جنباتها … سنا البدر حل من نجوم السماوسطا

اذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها … على جسمها الفضى نهرا بها لطا

توسمت فيها من صفاء أديمها … نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا

اذا اتسقت بيض القباب قلادة … فانى لها فى الحسن درتها الوسطا

تكنفنى بيض الدمى فكأنها … عذارى نضت عنها القلائد والريطا

قدود ولكن زادها الحسن عريها … وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا

سمت صعدا تيجانها فتكسرت … قوارير أفلاك السماء بها ضغطا

فيالك شأوا بالسعادة آهلا … بأكنافه رحل العلا والهدى حطا

وكعبة مجد شادها العز فانبرت … تطوف بمغناها امانى الورى شوطا

ومسرح غزلان الصريم كناسها … حنايا قباب لا الكثيب ولا السقطا

فلكن به ما طاب لا الاثل والخمطا … ووسدن فيه الوشى لا السدر والارطا

ثراه من المسك الفتيت مدبر … اذا مازجته السحب عادبها خلطا

وان باكرته نسمة ينسرى بها … الى كل أنف عرف عنبره قسطا

أقرت له الزهراء والخلد وانثنت … أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا

جناب رواق المجد فيه مطنب … على خيرمن يعزى لخيرالورى سبطا

امام يسير الدهر تحت لوائه … وترسى سفائن العلا حيثما حطا

وفتاح أقطار البلاد بفيلق … يفلق هامات العدا بالظبى خبطا

تطلع من خرصانه الشهب فانثنت … ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا

كتائب نصران جرت لملمة … جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا

اذا ما عقدن راية علوية … جعلن ضمان الفتح فى عقدها شرطا

فما للسما تلك الاهلة انما … سنابكها أبقت مثالا بها خطا

يطاوع أيدى المعلوات عنانها … فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا

يد لامير المؤمنين بكفها … زمام يقود الروم والفرس والقبطا

أدار جدارا للعلا وسرادقا … يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال أيضا مما كتب بداخل القبة المذكورة :

جمال بدائعى سحر العيونا … ورونق منظرى بهر الجفونا

وقد حسنت بقوسي واستطارت　　سنا يعشي عيون الناظرينا
واطلع سمكي الاعلى نجوما　　ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوى من دخان الند ألقى　　على أرضى الغياهب والدجونا
علوت دوائر الافلاك سبعا　　لذاك الدهر ما ألفت سكونا
فصغت من الاهلة والحنايا　　أساور والخلاخل والبرينا
تكنفنى حياض مائحات　　أمامى والشمائل واليمينا
يقيد حسنها الطرف انفساحا　　ويجرى الفلك فيها والسفينا
تدافع نهرها نحوى فلما　　علاه البحر فى غدا دفينا
وقد نشر الحباب على سماها　　لآلى تزدرى العقد الثمينا
فخرت وحق لى لما اجتبانى　　لمجلسه أمير المؤمنينا
هو المنصور حائز خصل سبق　　وبانى المجد بنيانا مكينا
وليث وغى اذا زأر امتعاضا　　يروع زئيره هندا وصينا
اذا أمت كتائبه الاعادى　　بعثن برعبه جيشا كمينا
يدير عليهم من كل حرب　　تدقهم رحى أو منجنونا
امام بالمغارب لاح شمسا　　بها الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذى القصور الغر بدرا　　تلوح بأفقهن مدى السنينا
تحف بكم عواكف عند بابى　　ملائكة كرام كاتبينا
لك البشرى أمير المؤمنين ادخلوها مع سلام آمنينا

وقال أيضا مما كتب فى بهوها بمرمر أسود فى أبيض :

لله بهو عز منه نظير　　لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد　　قد نضدتها فى النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها　　وشى وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة　　قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصاعد نده نوأ ففى　　أنماطه نور به ممطور
شأو القصور قصورها عن وصفه　　سيان فيه خورنق وسدير
فاذا أجلت اللحظ فى جنباته　　يرتد وهو بحسنه محسور

وكأن موج البركتين أمامه ... حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة ... ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معلا ... يسرى الى الارواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها ... وأساود يعلو لهن صفير
ودحت من الانهار أرض زجاجة ... وأظلها فلك يضىء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع ... يطفو عليها اللؤلؤ المنثور
ياحسنه من مصنع فبهاؤه ... باهى نجوم الافق وهى تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه ... حيث التفت كواكب وبدور
ولدسته الاسمى تخير رصفه ... فخر الورى وامامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة ... وأقله فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة ... رميت بجحفلها اللهام الكور
وجرى الى أقصى العراق لرعبها ... جشين على جسر الفرات عبور
نجل النبى ابن الوصى سليل من ... حقن الدماء وعف وهو قدير
بحر الندى لكنه متموج ... سيف العلا لكنه مطرور
طود يخف لحلمه ووقاره ... ولجيشه يوم النزال ثبير
دامت معاليه ودام ومجده ... طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر ... يغدو عليه بها مسا وبكور
ما زال منزل سعده يرتاده ... نصر يرف لواؤه المنشور
وجرت به مرحا جياد مسرة ... وأدار كأس الانس فيه سمير

وقال بعض الكتاب مما نقش فى عضادتى باب القبة الخمسينية المذكورة

يا ناظرا بالله قف وتأمل ... وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل ... السر فى السكان لا فى المنزل

وقال بعض الكتاب ايضا مما طرزت به الاستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحى الاربع من القبة الخمسينية وتسمى هذه الاستار عند أهل المغرب بالحائطى ففى الجهة الاولى :

متع جفونك فى بديع لباسى ... وأدر على حسنى حميا الكاس
هذى الربا والروض من جرعائها ... لم تغتذى بالعارض البجاس
انى لروض أن يروق بهاؤه ... مثلى وان يجرى على مقياسى
فالروض تغشاه السوام وانما ... تأوى الى كنفى ظباء كناس

وفى الجهة الثانية :

من كل حسنا كالقضيب اذا انثنى ... تزرى بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبى ... ونظرت من شزر الى الكناس
وجررت ذيلى بالمجرة عابثا ... فخرا بمخترعى أبى العباس
ما نيط مثلى فى القباب ولا ازدهت ... بفتى سواه مراتب وكراس

وفى الجهة الثالثة :

ملك تقاصرت الملوك لعزه ... ورماهم بالذل والاتعاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة ... ليث الحروب مسعر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها ... قطب الجمال أخو الندى والباس
ملك اذا وافى البلاد تأرجت ... منه الوهاد بعاطر الانفاس

وفى الجهة الرابعة :

واذا تطلع بدره من هالة ... يعشى سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلت كلها ... أبهى من الاعياد والاعراس
لا زال للمجد السنى يشده ... ويقيم مبناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وكللت ... درر الندى فى جيده المياس

وقال ابو فارس الفشتالى مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعه على القبة الخضراء من بديع المنصور ، وكان انشأها فى جمدى الاولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة :

باكر لدى من السرور كؤسا ... وأرض النديم أهله وشموسا
واعرج على غرفى المنيف سماؤها ... تلق الفراقد فى حماى جلوسا
واذا طلعت بأوجها قمر العلا ... لا ترتضى غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها لما اجتلت ... منى على بسط الرياض عروسا

واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما ... وردا تخير من بديعى خيسا
ملك أرى كل الملوك ممالكا ... لعلاه والدنيا عليه حبيسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة ... تلقى برايتها طلائع عيسا

وقال ايضا مما كتب فى بعض المبانى البديعة :

معانى الحسن تظهر فى المغانى ... ظهور السحر فى حدق الحسان
مشابه فى صفات الحسن أضحت ... تمت بها المغانى للغوانى
بكل عمود صبح من لجين ... تكون فى استقامة خوط بان
مفصلة القدود مثلثات ... مواصلة العناق من التدان
تردت سابرى الحسن يزرى ... بحسن السابرى الخسروانى
وتعطو الخيزرانة من حماها ... بسالفة القطيع البرهمانى
لمجدك تنتمى لكن نماها ... الى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذى يزن ويعنو ... لها غمدان فى أرض اليمانى
غدت حرما ولكن حل فيها ... لو فدكم الامان مع الامانى
مبان بالخلافة آهلات ... بها يتلو الهدى السبع المثانى
هى الدنيا وساكنها امام ... لاهل الارض من قاص ودانى
قصور مالها فى الارض شبه ... وما فى المجد للمنصور ثانى

وقال مما نقش فى بعض الابواب :

هذى وفود السعد نحوى ترتمى ... وطلائع البشرى لبابى تنتمى
وسمت الى عفاة عرفك مثل ما ... يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بمصراعى السعود بشائرا ... لاحت على الشرفات مثل الانجم
وأوان صنعى أن تقول ولا تبل ... ببديع أحمد جنة المتنعم

وقال الفشتالى لما عرضت عليه هذه الابيات استحسنها الا أنه كره لفظة جنة وتغير منها كثيرا ، وقال الوزير الاديب أبو الحسن على بن منصور الشيظمى مما كتب على مباح قبة الزجاج :

ان شئت تاريخ اكمال البديع فقل ... ايوان أحمد ايوان السعادات

وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد ابواب البديع :

باب أتى كبراعـة استهـلال وكأنما اقصر القصيد التـالى
ولذاك سمى بالبديع وجاء بـال اغراق والتجنيس والايفـال
وأتى التمام فقلت فى تاريخـه بيتا بلا عقد ولا اشكـال
صرح على تقوى من الله ابنـى فى طالع للسعد والاقبـال

وقال أيضا فى تمام البديع مهنئا :

يـا مليكـا ملكـه فيمن ملـك كطلوع الفجر من بعـد الحلك
تم هذا القصر فاسكنه على حسن حال بدوام الملك لـك

وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف ، وفى تاريخه يقـول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع :

الحسن لفظ وهذا القصر معنـاه ياما أميلـح مـرآه وأبهـاه
فهو البديع الذى راقت بدائعـه وطابق اسم له فيه مسمـاه
صرح أقيمت على التقوى قواعـده ودل منه على التاريخ معنـاه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكـلاه تاريخه من تمام قل هو الله

قال فى نفح الطيب : « اخترع المنصور من المصانع ثلاثـة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن ، وهى : البديـع ، والمسرة ، والمشتهى ؛ وفيهما يقول المنصور موريـا :

بستان حسنك أبدعت زهراتـه ولكم نهيت القلب عنه فما انتهـى
وقوام غصنك بالمسرة ينثنـى يا حسن رمـان بـه للمشتهى » اه

قال اليفرنى : والذى ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبـار المغرب ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذارى الاندلسى حسبما رأيته فى السفر الثانى منه : « أن أول من أنشئ المسرة التى بظاهر جنان الصالحـة عبد المؤمن بن على كبير الموحدين » قال : « وهوبستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة » .

قال ابن اليسع : « وماخرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش » اه ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها ، وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها ، وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وينوه بقدره ، وفى ذلك يقول أبو فارس الفشتالى:

هذا البديع يعز شبه بدائع	أبدعتهن به فجاء غريبا
أضحى الغزالة حسنه حسدا له	أبدى عليها للاصيل شحوبا
وانقضت الزهر المنيرة اذ رأت	زهر الرياض به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا	أنجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت فى كل الفخار لغاية	أدركتهن وما مسست لغوبا
فانعم بملكك دام فيه مؤبدا	تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطريز حلته صنع مهرجانا عظيما ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد ، وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل ذلك ، وكان ممن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح فى الوقت فقال له المنصور مباسطا : «كيف رأيت دارنا هذه يافلان؟» فقال له : « اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب » فوجم لها المنصور وتطير منها . وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور فالله أعلم .

قال اليفرنى : وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى اسمعيل ابن الشريف فانه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه ، وفرق ما كان به من جموع الانس ، وعاد حصيدا كأن لم يغن بالامس، حتى صار مرعى للكلاب والمواشى ووكرا للصدى والبوم ، وحق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه، ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شىء من أنقاض البديع ، ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخى الاندلس: أن الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر، وهى من عجائب الدنيا ، مر عليها فى أيام المنصور بعض أهل البصائر وهى فى نهاية

العمران والازدهاء بسكانها ، فقال : « يادار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار » قال : « فضرب الدهر ضرباته وسلط عليها أيدى العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها الى العراق .

قال اليفرنى : ولما دخلت البديع مقفلى من الرحلة ورأيت ما هالنى أنشدت أبياتا أنشدها الشيخ محيى الدين بن عربى فى كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع ... وما أن بها من ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت أحيانا وحينا ترجع
فخاطبت منها طائرا متفردا ... له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا! تنوح وتشتكى ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وأنشدت ما أنشده ابن الابار فى تحفة القادم :

قلت يوما لدار قوم تفانوا ... أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا ... ثم ساروا ولست أعلم أينا

ثم قال اليفرنى رحمه الله :

لطيفة : تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر ، وهذا القدر هو الذى بقى فيه البديع قائما ، فانه فرغ منه سنة اثنتين وألف ، وشرع فى هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف ، فمدة عمره مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق فسبحان من دقت حكمته ، وجلت قدرته ، وعمت رحمته ، لا اله الا هو الحكيم العليم .

ثورة الناصر بن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله

كان الناصر هذا فى حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلا ونواحيها ، ولما توفى أبوه المذكور وقام بالامر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلا عنده سائر أيامه الى أن قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر : فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن اليه ، فلم يزل عنده فى ارغد عيش الى ان توفى المعتصم يوم وادى المخازن. وأفضى الامر الى المنصور ففر الناصر الى آصيلا ، وكانت للنصارى يومئذ ، ثم عبر البحر منها الى الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة الى ان سرحه الطاغية الى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين واحداث الشقاق بينهم ، فخرج الناصر بمليلية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف ، وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا اليه يزفون ، فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب بأسره لذلك .

وذكر اليفرنى فى « الصفوة » : « أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتابا الى الشيخ الصالح أبى عبد الله محمد بن على بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاغية له ، فوقع الكتاب فى يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه ، ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين » .

ثم أن الناصر خرج من مليلية قاصدا تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت اليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم ، فتألبوا عليه وتمالأوا على اعزازه ونصره، ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم : «ان النصارى يغرمون حتى على البيض» . ولما سمع المنصور بخبره أقلقه ذلك، وتخوف منه غاية، لان الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النفوس اليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية ،

قال فى « ابتهاج القلوب » فى ترجمة الولى الصالح أبى الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بابى الشكاوى دفين شالة : « انه كان سائرا يوما على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم : « يافقراء أتسمعون ما تقول بغلتى ؟ انها تصيح بالنصر لمولاى الناصر وكذلك الشجر والحجر وانى أرى غير ذلك » فكان الامر كما قال ؛ اهتز لقيام الناصر كل شىء ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر » اه

ثم ان المنصور بعث اليه جيشا وافرا فهزمهم الناصر واستفحل أمره وتمكن ناموسه من القلوب، فأمر المنصور ولى عهده المأمون بمنازلته فخرج اليه من فاس فى تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب ،ومر على وجهه فاحتل بالجاية ، بلدة من عمل بلاد الزبيب ، فلحق به ولى العهد فلم يزل فى مقاتلته الى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به الى مراكش . وكان ذلك سنة خمس وألف ، وقيل سنة أربع وألف.

قال فى « نشر المثانى » : « كان مقتل الناصر وادخاله مقطوع الرأس الى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الاصح »

وذكر الشيخ أبو على اليوسى فى «المحاضرات» ما نصه : « حدثوا عن صلحاء تادلا: أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الصومعى : « ان الناصر يدخل تادلا » يعنى دخول الملك فلما بلغ الخبر الى الشيخ أبى عبد الله محمد الشرقى التادلى قال: « مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها» فكان الامر كذلك فانه هزم فى نواحى تازا ثم قطع رأسه وحمل الى مراكش فدخل تادلا فى طريقه » اه .

ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء فى ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوى قال :

تهنا أمير المؤمنين فقد جرت ... بسطوتك الاقدار جرى السوابق
أضاءت لك الايام واحلولكت على ... عدوك وارتجت رؤوس الشواهق
وذاك الذى قد خيب الله سعده ... تردى فلم تنفعه نصرة مارق
فكان كما قد قيل لكن رأسه ... أتى سابقا والرجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم فى الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوبا منكوس الرأس :

لقد طمح المهر الجموح لغايـــة تقطعُ أعناق الجياد السوابق
جرى فجرت رجلاه لكن رأسه أتى سابقا والرجل ليست بسابق

وكتب المنصور بخبر هذا الفتح الى الآفاق .

فمما كتبه للشيخين الامامين أبى عبد الله محمد زين العابدين البكرى ، وأبى عبد الله محمد بدر الدين القرافى رسالة يقول فيها ما نصه :

«من عبد ربه المجاهد فى سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسنى ، الى الفاضل الذى اعتجر بالتقوى وهو زين العابدين ، وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين ، والسالك الذى برز فى الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقـة ففات شأو السابقين ، والعارف الذى تجرد عن رعونة الاهـواء النفسانية ، فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافى ، السيد بدر الدين القرافى ، والشيخ العارف الواصل ، السر الكامل ، سلالة العلماء ، سبط الفضلاء ؛ أبى عبد الله زين العابدين بن الشيخ السامى المقام ، قطب المشايخ الاعلام ، فخر علماء الاسلام ، الشهير البركة فى الانام ؛ أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن الصديقى ، أبقاكما الله وأرواحكما تتعطر برياحين الانس فى حضرة القدس ، وتتنسم النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج الانس ومعارج النفس ، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد حمد الله مفيض انوار عناية احمد على صاحبه الصديق ، مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق ، والصلاة والسلام عـلى سيدنا محمد الذى اختار لمرافقته صاحبه فى الغار والعريش والطريـــق ، والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق ، وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق وببركتهم انتسق لنا الفتح انتساق الاسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك ، فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله ، وصنع الله لها مفعم السجال وواسع المجال ، وعزمتها الماضية تبعث الى العدا رسل الاوجال ، والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور ، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهر ،

١٤٨

هذا وأنه اتصل بعلى مقامنا كتابكما الذى صدحت على أفنان البلاغة سواجعه ، وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ، ولطفت فى كل معنى من المعانى أفانينه ومنازعه ، وتألفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه ، وأينعت بأزهار العناية الربانية اباطحه الفيح وأجارعه ، ومعه المنظومات التى سحت بالحكم ديمها ، ورسا فى البلاغة قدمها ، وربا فى منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها ، وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا فى مطلعها ، والبدر ليلة تمامه اعجابا بها وتنويها بمهديها ، وابتهاجا بالخوارق التى أطلق الله على لسان مبديها ، والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تنفق فيه على الدوام ان شاء الله نفائس بضائعكم ، وتنمو فيه مع الايام سعود مطالعكم ، وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم ، وتستوضح فيه على المحبة الصميمة اماراتكم الواضحة وعلاماتكم ، فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر ، وتشتد الاواخى والاواصر ، بعز الله ومنه ، ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى ، واهداء المسرة الكبرى ، اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذى هو اليوم العدو الكبير للاسلام ، وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام ، لما أنس من تلقاء جنابنا نار العزم تلتهب منا التهابا ، وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا ، وهممنا قد همت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول ، وعلم أن الحديث اليه يساق ، والى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق ، رام خذله الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت به فى عضدنا الاقوى ، وعزمنا الذى بعناية الله يزداد ويقوى ، فرمى بمخذول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه ، وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما اليه ، الى مليلية احدى الثغور المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التى الى كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة من بعدنا ، الامير الاجل الارضى ، صارم العزم المنتضى ، وحسام الدين الامضى ، أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وصل الله لرايته التأييد والظهور ، والعز الذى يستخدم الايام والدهور ، فالتف عليه من اغتر بأباطيله الواهية البناء ، من أوباش العامة والغوغاء ، ومن قضى له من أجناد تلك

الناحية بالشقاء ، جموع تكاثر الرمل ، وتفوت الحصا والنمل ، لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته ، اذ صدقته منيته ، فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التى اليه ، وبعساكر تلك الممالك التى ألقينا زمام تدبيرها فى يديه ، فما راع الشقى الا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الاجدل ، وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود وتفلق الصخر والجندل ، فاستولى عليه بحمد الله للحين ، وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغر محجل ، وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل ، فاستأصلتهم الشفار ، وحصدت هشيمهم المصوح ألسنة النار ، وقبض على الشقى فى يوم كان شفاء للصدور ، ومنتزها لحملة السيوف وربات الخدور ، وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم ، والمن الجسيم ، لولدنا أعزه الله عز وجل فى خاصة أجناده ، ونهض وحده باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون ، وأجنادنا فى اوطارنا لاهون ومفتنون ، فلم يحتج الى انجاده من قبلنا ولا امداده ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، وعرفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التى سرت الاسلام ، وساءت بحمد الله عبدة الاوثان والاصنام ، وتعلموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ آراء الحزم ، وأعمال عوامل الجزم الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التى عادت عليه أسفا ولهفا ، واعادة ما كان أسلف من ذلك ان شاء الله بالمكيال الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا ان شاء الله بأدعيتكم الصالحة فى أوقات الاجابة ، وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خضوع وانابة ، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس ، وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس ، حتى ينطق لسان الدين فى أرضها بكلمة الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس ، وشرق بريقه فغص وخنس ، فبيده الحول والقوة ، وعنايته العناية المرجوة ، ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ، ثم الاتحاف بديوان الشيخ

والدكم التماسا لجميل بركاته ، وتمسكا بما سبق من الاجازة العامة فى سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته ، وهذا موجبه اليكم ، والسلام الاتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته ، فى ربيع النبوى سنة خمس وألف »اه .وهذه الرسالة من املاء المنصور على ما قيل .

ومما كتب به أيضا بخط يده الى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبى المحاسن حسن بن أبى نمى بن بركات ما نصه :

من عبد الله المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أحمد أمير المومنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسنى الى الاصالة التى تبجبجت من ذؤابة هاشم فى صميمها ، وتوغلت من غرفات حرمة الله بين زمزمها وحطيمها ، وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاريجة وشميمها ، اصالة السلطان الاثيل الاثير الاسنى الاسمى الازكى السلطان حسن بن أبى نمى أبقاكم الله والبيت ذو الاستار تتفيأون ظلاله ، وتلثمون من الحجر الاسود الاسعد خاله ، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أعز هذه المثابة العلوية ، الامامية النبوية ، العزيزة الانصار ، السامية المحتد والنجار ، الساحبة أذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامى المقدار ، سكان الحمى والذين تبوأوا الدار ، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى أطلع شموس الهداية الساطعة الانوار والرضا عن آله الذين تتضاءل لمجدهم السامى المنار الشموس والاقمار ، وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى المنصورى الحسنى بنصر تجتنى الفتوح من قضب رماحه ، وتجرى الاقدار على وفق اقتراحه ، فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال فى ميادين السجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور ، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور ، بعز الله وعنايته . هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذى ليس بعاف ولا محيل ، وهب له من محارم الله نسيم يميل ،

وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل ، مد الى على مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله ، ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مرتحله وحله ، يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد والمصدر ، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر ، فحملناه هذه العجالة لترعوا له ان شاء الله عنها الحق المعتبر ، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر ، وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر ، ومما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الاحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس ، وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس ، حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس ، وشرق بريقه فغص وخنس، فذلك دعاء لا يرد لانه جرى من أهله فى محله ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى.

وقوله حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله .

ذكر احتفال المنصور بالمولد الكريم واعتنائه بسائر الاعياد

قال الفشتالى : « كان ترتيب المنصور فى الاحتفال بالمولد النبوى الكريم أنه اذا طلعت طلائع شهر ربيع الاول صرف الرقاع الى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين فى الاسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ، ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين من كل ما يبارى النحل فى نسج أشكالها لطفا وادماجا فيصوغون أنواعا من الشمع التى تحير النواظر ولا تذبل زهورها النواضر فاذا كان ليلة المولد تهيأ لحملها وزفاف كواعبها الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون فى أجمل شارة

وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها، فيمكثون الى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رؤوسهم كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن ، وهى عدد كثير كالنحل ، فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الاعناق ، وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الاطبال والابواق ، وأصحاب المعازف والملاهى حتى تستوى على منصات معدة لها بالايوان الشريف فتصطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة ، وأمامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدمى وحمر جليت فى ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع الحسك والمباخر ما يلهى المحزون ويدهش الناظر ، ثم دخل الناس أفواجا على طبقاتهم فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع فى ذلك باختصار ، فاذا فرغ اندفع القوم فى الاشعار المولديات ، فاذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششترى وأشعار الصوفية ، ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين ، فاذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة ، فيتقدم قاضى الجماعة الشاطبى بلبل منابر الجمع والاعياد فينشد قصيدة يفتتحها بالتغزل والنسيب ، فاذا تم تخلص لمدح النبى صلى الله عليه وسلم ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولى عهده، فاذا قضى نشيده تقدم الامام المفتى المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال ، فاذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن على بن منصور الشيظمى، ثم تلاه الكاتب أبوفارس عبد العزيز الفشتالى ، ويليه الكاتب محمد ابن على الفشتالى ، ويليه الاديب محمد بن على الهوزالى النابغة ، ويليه الاديب الفقيه أبو الحسن على بن أحمد المسفيوى ، فاذا طوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فاذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم ، هكذا كان دأبه فى جميع الموالد ، ولا يحصى ما يفرغ فيه من انواع الاحسان على الناس » اه من كتاب « مناهل الصفاء » .

وقال صاحب « النفحة المسكية » «فى السفارة التركية» : وهو العلامة

المشارك أبو الحسن على بن محمد التامجروتى : « حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لايوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المشيد . المحتوى على قباب متقابلة عالية وقد مد فيها من فرش الحرير ، وصفت النمارق وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب على كل باب قبه وحنية سرير ، ودار على الحيطان حائطيات الحرير التى هى كأزهار الخمائل مارئيت قط فى عهد الاوائل ، وتلك القباب مرفوعة الجوانب، على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤس بالذهب الذائب ، مفروش جلها بالمرمر الابيض مخططا بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب ، فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وأصناف الاجناد ، فيخيل لكل منهم أنه فى جنة النعيم ، والسلطان جالس فى فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار ، وترمقه الابصار بالتعظيم والاكبار، ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر ، وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الاجناد والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة وأوتى بأنواع الطعام فى القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والاوانى التركية والهندية،وأوتى بالطسوس والاباريق وصب الماء على أيدى الناس ، ونصبت مباخر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضةوالذهب واغصانالريحانالغض فرش بها البساط ورش من ماء الوردوالزهر، وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن اليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير . واذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول ، وهذه سيرته دائما » اه .

وهكذا كانت سيرته فى شهر رمضان عند ختم صحيح البخارى وذلك أنه كان اذا دخل رمضان سرد القاضى وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة البخارى وهى عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا فى كل يوم سفرا الا يوم العيد وتاليه ، فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخارى وتهيأ له السلطان أحسن تهيىء ، الا أن العادة الجارية عندهم فى ذلك أن القاضى

يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر ، ويتفاوض مع الحاضرين فى المسائل ، ويلقى من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون فى المذاكرة فاذا تعالى النهار ختم المجلس ، وذهب القاضى بالسفر فيكمله سردا فى بيته ، ومن الغد يبتدىء سفرا آخر ، وهكذا والسلطان فى جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع .

قال الفشتالى : « وكان المنصور يعطى أموالا لذوى الحاجات عند انقضاء رمضان ، ويقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء ، وكل من ختن منهم أعطى أذرعا من كتان وحصة من الدراهم وسهما من اللحم » اه .

وأما ترتيب جيش المنصور وعادته فى أسفاره فسنذكرها فى الفصل بعد هذا ان شاء الله ، ولنذكر بعض القصائد الميلادية التى أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الاشارة اليه ، فمن ذلك قول القاضى أبى القاسم بن على الشاطبى رحمه الله :

ما بال طيفك لا يزور لماما … وبمنحنى الاحشا ضربت خياما
أيعيش فيك عواذلى لسلوهم … وأموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من أدمعى … أو ليس نهر السائلين حراما
ما ذقت ماء لماك فى سنة الكرى … الا انتبهت فكان لى أحلاما
عرض اذا حدثت عن بان الحمى … فحديث قلبى بالاجارع هاما
أروى حديث الرقمتين مسلسلا … عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلق من جيب النسيم تحية … أضحى الهوى بردا لها وسلاما
ياجيرة العلمين دعوة شيق … للذيذ عيش بالغضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد … ألف الاقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثار أهل نجدانهم … سلبوا الفؤاد وأدنفوا الاجساما
فى كل غرب دموع عينى مشرق … لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رثت الى … انسانها فى لجة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقا لمن … وقفت عليه صلاتها وسلاما
خير الانام محمد الهادى الذى … أردى الضلال وجب منه سناما

كنز العوالم سـر طينـة آدم ولحفظ ذاك السر جاء ختامـا
وأجل أرسال الاله ومـن بـه قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده اعدادهـم فلـذا تقدم فى الحساب اماما
أسرى الى السبع الطباق فأقبلت زمر الملائك وفده اعظامـا
فى ليلـة غصت بأمـلاك السمـا فتسير خلف ركابه وأمامـا
ياخير من بهر المعاند شأنـه عجزا فغص بريقه افحامـا
أعيى جلالـك أن يحيط بوصفه وصف البليغ وأخرس الاقلاما
صلى عليك الله مـا زار الحيا روضا ففتح زهـره الاكمامـا
ما لـذتى فى مـدح غير مخلصا الا بمدحـى مـن بنيـك امامـا
خير الورى وامامها المنصور مـن فى ظل دولته الانام أنامـا
أضفى على الارضين ظل مهابـة فحمى بها حام العبـاد وسامـا
وسما على الدنيا عقاب تنوفـة فانقض يفترس الاسود بهامـا
قـل للملوك هبـوا لمالككم فـدى وخذوا لانفسكم لديه ذمامـا
هذا الذى يحيى البلاد بعدلـه ويعيدها نشرا وكن رمامـا
هذا الذى وعد الاله بأنـه يطوى البلاد ويفتح الاهرامـا
يا مشبه المهدى فى آرائـه حزما وفى عزماته اقـداما
أنت الذى ببنيه أبنـاء العلا أرسى البلاد ووطد الاسلاما
فكأنها من حولك الاشبـال فـى غاب الوشيج تبوأت آجاما
وأمينها المأمون عضب سنامهـا علم اناف على الهضاب سنامـا
وأجـل مضطلـع تخيره الـورى بعد الامام فقدموه امامـا
وحباه أحمد عهد أمة أحمـد فوفى فكان لرعيه المعتامـا
لا يعدون النصر سيفـك انـه سيف يحوط الدين والاسلامـا
خذها ينم على العبيـر مديحهـا ويفض عن مسك الختام ختامـا

وقال العلامة مفتى الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف الفيلالى :

أرقت وشاقتنى البروق اللوامـع وذكرى خليط هيجتها المرابـع

مرابع عفتها الرواسمس والسما … تراق من الاشواق فيها المدامع
كأن لم تكن من قبل قدما أو اهلا … اذ السلك منظوم وشملي جامع
تذكرني عهد الاجازع واللوى … وأين اللوى مني وأين الاجازع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة … وجفن الردى عنا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالبزل والليل دامس … أنازعها الشكوى بها وتنازع
أسائلها عن جيرة بان حيهم … وضمت هواهم بعد ذاك الاضالع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم … ولاح لهم برق من الغور لامع
يخبر عن دار الرسول وقربها … عراص بها للوحي فاضت ينابع
ديار بها حل الحمى سيد الورى … وهبت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل … ويا خير من تثنى عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما … وأنت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي … لاهواله كل النبيين جازع
فآدمهم والكل تحت لوائكم … وليس لنا والله غيرك شافع
فجازاك رب العرش ما أنت أهله … جزاء به يشجى المناوي المخادع
وجازى اماما قد نمته اليكم … أصول وآباء كرام فوارع
سميك وابن السبط حقا ومن له … عوارف في أعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائف مفردا … اليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام ولي العهد بعدك صارما … يخب الى نيل العلا ويسارع
هو الآمن المؤمون من كل فتنة … لفيض الندى من راحتيه تدافع
ففيك أقول والنصوص شواهد … أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا … وفاضت بحور للعلوم هوامع

أشار بهذا الى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الامة أمر دينها » .

وحمله بعض الائمة على ان المجدد من الملوك ، وقيل من العلماء ، وقيل من الاولياء والصواب الاطلاق .

وقال الوزير القائد أبو الحسن على بن منصور الشيطمي رحمه الله تعالى :

من بعد أهل قبا وأهل كداء ... شوقى يزيد وعز ذاك عزائى
ولى الشفاء بقربهم وهم جلا ... ما فى الخواطر من صدى وصداء
لكنه بعد المزار فأين من ... تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم ... ذات السنا والرند والاضواء
وشدا بهم حادى الركاب فكاد أن ... تدع القلوب جسومها بفضاء
ياسعد لو ان الزمان مساعدى ... ومجيب داعى البعد بعد ندائى
لركبت حرفا كالهلال منافرا ... للهمز الا فى المنادى النائى
وتجبت أحياء الفلا وطويتها ... طى الملا بنجيبة فوداء
تختاض فى جوف الظلام كأنها ... سر تولج فى ضمير حجاء
وتخال فى لجج السراب سفينة ... تجرى القلوع بها بريح رخاء
هل أنزلن بها المحصب من منى ... وأزور بعد معاهد الزوراء
فأحط عنها الرحل ثم مخيما ... فى ظل أحمد بغيتى ومنائى
وامرغ الخدين ملتثما ترى ... وطئته رجلا خاتم النبئاء
محيى الهدى ماحى الضلالة والردا ... بالبيض والخطية السمراء
صلى عليه الله ما نسخ السخا ... لؤما وما أجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام وآله ... أكرم بهم من سادة فضلاء
أكرم بوارث مجده وعلائه ... سبط الرسالة غرة الابناء
خير الخلائف أحمد المنصور من ... حاز الكمال وشرط كل علاء
الصارم الهندى فى يمنى الهدى ... والكوكب الوقاد فى الظلماء
يا أيها الملك الذى بسيوفه ... حاط الهدى وبرأيه الوضاء
ذخر الاله لك الفتوح وصانها ... كالزهر فى الاكمام والاوعاء
لابد من فتح يروقك واضح ... كالصبح يدرأ فى نحور عداء
وستملك الحرم الشريف وينتمى ... للوائك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد أتت منقادة ... بظبى بنيك السادة النجباء
وتقر عينا بالخليفة منهم ... وزر البرية عدة الامراء
بمحمد المأمون خير من ارتقى ... درج الكمال ودب للعلياء

فرع سيحكى أصله ولقد حكى ... بمقاصد قد سددت ودهاء

وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى رحمه الله تعالى :

هم سلبونى الصبر والصبر من شأنى ... وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى

وهم أخفروا فى مهجتى ذمم الهوى ... فلم يثنهم عن سفكها حبى الجانى

لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسى ... فشوقهم أضحى سميرى وندمانى

وان غادرتنى بالعراء حمولهم ... كفى أن قلبى جاهد اثر أظعانى

قف العيس واسأل ربعهم أية مضوا ... أللجزع ساروا مدلجين أم البان

وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا ... ملاعب آرام هناك وغزلان

وأين استقلوا هل بهضب تهامة ... أناخوا المطايا أم على كثب نعمان

وهل سال فى بطن المسيل تشوقا ... نفوس ترامت للحمى قبل جثمان

واذ زجروها بالعشى فهل ثنى ... أزمتها الحادى الى شعب بوان

وهل عرسوا فى دير عبدون أم سروا ... يؤم بهم رهبانهم دير نجران

سروا والدجا صبغ المطارف فانثنى ... بأحداجهم شتى صفات وألوان

وأدلج فى الاسحار بيض قبابهم ... فلحن نجوما فى معارج كثبان

لك الله من ركب يرى الارض خطوة ... اذا زمها بدنا نواعم أبدان

أرحها مطايا قد تمشى بها الهوى ... تمشى الحميا فى مفاصل نشوان

ويمم بها الوادى المقدس بالحمى ... به الماء صدا والكلا نبت سعدان

واهد حلول الحجر منه تحية ... تفاوح عرفا ذاكى الرند والبان

لقد نفحت من شيح يثرب نفحة ... فهاجت مع الاسحار شوقى واشجانى

وفتت منها الشرق فى الغرب مسكة ... سحبت بها فى أرض دارين أردانى

وأذكرنى نجدا وطيب عراره ... نسيم الصبا من نحو طيبة حيانى

أحن الى تلك المعاهد انها ... معاهد راحاتى وروحى وريحانى

وأهفوا مع الاشواق للوطن الذى ... به صح لى آنسى الهنى وسلوانى

وأصبوا الى أعلام مكة شائقا ... اذا لاح برق من شمام وشهلان

أهيل الحمى دينى على الدهر زورة ... أحث بها شوقا لكم عزمى الوانى

متى يشتفى جفنى القريح بنظرة ... يزج بها فى نوركم عين انسانى

ومن لى بأن يدنـوا لقاكم تعطفـا ودهرى عنى دائما عطفـه ثـانى
سقى عهـدهم بالخيف عهد تمده سوافح دمع من شؤونى هتـان
وأنعـم فى شط العقيـق أراكـة بأفيائها ظل المنى والهوى دانـى
وحيا ربوعـا بين مـروة والصفا تحيـة مشتاق لهـا الـدهر حيران
ربوعا بها تتلو الملائكـة العـلا أفانين وحى بين ذكـر وقـرآن
وأول أرض باكـرت عـرصاتها وطرزت البطحـا سحـائب ايمـان
وعرس فيهـا للنبـوة موكـب هو البحر طام فوق هضب وغيطان
وأدى بها الروح الامين رسالـة أفادت بها البشرى مدائح عنـوان
هنا لك فض ختمها أشرف الورى وفخر نزار من معد بن عـدنان
محمـد خير العـالمين بأسرهـا وسيد أهل الارض الانس والجان
ومن بشرت بالبعث من قبل كونـه نوامس كهان وأخبـار رهبـان
وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت سماء ولا غاضت طوافح طوفـان
ولا زخرفت من جنة الخلد أربـع تسبح فيهـا أدم حـور وولـدان
ولا طلعت شمس الهدى غب دجية تجهم من ديجورها ليـل كفران
ولا لحقت بالمـذنبين شفـاعـة يـذود بهـا عنهـم زبـانى نيران
له معجزات أخرست كل جاحـد وسلت على المرتاب صارم برهـان
له انشق قرص البدر شقين وارتوى بماء همى من كفـه كل ظمآن
وأنطقت الاوثـان نطقـا تبرأت الى الله فيـه من زخارف ميـان
دعا سرحـة عجما فلبت وأقبلت تجر ذيول الزهر ما بين أفنـان
وضاءت قصور الشام من نوره الذى على كل أفق نازح القطر أودانى
وقد بهج الانـوا بدعوتـه التى كست أوجه الغبراء بهجة نيسان
وأن كتاب الله أعظـم آيـة بها افتضح المرتاب وابتأس الشانى
وعدى على شأو البليـغ بيانـه فهيهات منه سجع قس وسحبان
نبى الهدى من أطلع الحق أنجما محـا نورهـا اسداف أفك وبهتان
بعـزتهـا ذل الاكـاسرة الالى هـم سلبوا تيجانهـا آل ساسان
وأحرز للـدين الحنيفى بالظبـا تراث الملوك الصيد من عهد يونان

ونقع من سمر القنا السم قيصرا … فجرعه منه مجاجة ثعبان

وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعا … يناغى الصدا فيهن هاتف شيطان

وأصبحت السمحا تروق نضارة … ووجه الهدى بادى الصباحة للرانى

أيا خير أهل الارض بيتا ومحتدا … وأكرم كل الخلق عجم وعربان

فمن للقوافى أن تحيط بوصفكم … ولو سجلت سبقا مدائح حسان

اليك بعثناها أمانى أجدبت … لتسقى بمزن من أياديك هتان

أجرنى اذا أبدى الحساب جرائمى … وأثقلت الاوزار كفة ميزانى

فأنت الذى لو لا وسائل عزه … لما فتحت أبواب عفو وغفران

عليك سلام الله ما هبت الصبا … وماست على كثبانها ملد قضبان

وحمل فى جيب الجنوب تحية … يفوح بمسراها شذا كل تربان

الى العمرين صاحبيك كليهما … وتلوهما فى الفضل صهرك عثمان

وحيى عليا عرفها وأريجها … ووالى على سبطيك أوفر رضوان

اليك رسول الله صممت عزمة … اذا أزمعت فالشحط والقرب سيان

وخاطبت منى القلب وهو مقلب … على جمرة الاشواق فيك فلبانى

فياليت شعرى هل أزم قلائصى … اليك بدارا أو أقلقل كيرانى

وأطوى أديم الارض نحوك راحلا … نواجى المهارى فى صحاصح قيعان

يرنحها فرط الحنين الى الحمى … اذا غرد الحادى بهن وغنانى

وهل تمحون عنى خطايا اقترفتها … خطى لى فى تلك البقاع وأوطان

وما ذا عسى يثنى عنانى وان لى … بآلك جاها صهوة العز أمطانى

اذا صد عن زوارك الباس والعنا … فجود ابنك المنصور أحمد أغنانى

عمادى الذى أوطأ السماكين أخمصى … وأوفى على السبع الطباق فأدنانى

متوج املاك الزمان وان سطا … أحل سيوفا فى معاقد تيجانى

وقارى أسود الغاب بالصيد مثلها … اذا أضرب الخطى من فوق جدران

هزبر اذا زار البلاد زئيره … تضاءل فى اخياسها أسد خفان

وان اطلعت غيم القتام جيوشه … وارزم فى مركومه رعد نيران

صببن على أرض العداة صواعقا … أسلن عليهم بحر خسف ورجفان

كتائب لو يعلون رضوى لصدعت صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل أروع معلم وكل كمى بالردينى طعان
اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا هدتهم الى أوداجها شهب خرصان
من اللاء جرعن العدا غصص الردى وعفرن فى وجه الثرى وجه بستان*
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت تؤدى الخراج الجزل أملاك سودان
امام البرايا من على نجاره ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
دعائم ايمان وأركان سؤدد ذووهم قد عرست فوق كيوان
هم العلويون الذين وجوههم بدور اذا ما احلولكت شهب أزمان
وهم آل بيت شيد الله ملكه على هضبة العلياء ثابت أركان
وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فروع ابن عم المصطفى ووصيه فناهيك من فخرين قربى وقربان
ودوحة مجد معشب الروض بالعلا يجاد بأمواه الرسالة ريان
بمجدهم الاعلى الصريح تشرفت معد على العرباء عاد وقحطان
أولئك فخرى ان فخرت على الورى ونافس بيتى فى الولا بيت سلمان
اذا اقتسم المداح فضل فخارهم فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان
امام له فى جبهة الدهر ميسم ومن عزه فى مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمة يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع فى أفق المعالى خلافة عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوق الاسرة وارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق وشاهدت كسرى العدل فى صدر ايوان
وان هزه حر الثناء تدفقت أنامله عرفا تدفق خلجان
أيا ناظر الاسلام شم بارق المنا وباكر لروض فى ذرا المجد فينان
قضى الله فى علياك أن تملك الدنا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانك تطوى الارض غير مدافع فمن أرض سودان الى أرض بغدان

---

* المراد به سبستيان ملك البرتقال لكنه عربه فقال بستان

وتملاها عـــدلا يرف لــواؤه ... على الحرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا ... ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم ... أتاك استلابا تـاج كسرى وخاقان
ولو نشر الاملاك دهرك أصبحت ... عيـالا على علياك أبنـاء مروان
وشايعك السفاح يقتـاد طائعـا ... برايتـه السوداء أهـل خـراسان
فما المجد الا ما رفعت سماكـه ... على عمدى سمر الطـوال ومران
وهاتيـك أبكار القـوافى جلوتهـا ... تغـازلهن الحـور فى دار رضوان
أتتـك أمير المـؤمنين كأنهـا ... لطائم مسك أو خمـائـل بستـان
تعاظمن حسنا أن يقـال شبيهها ... فرائـد در أو قـلائـد عقيـان
فـلا زلت للـدنيا تحوط جهاتهـا ... وللـدين تحميـه بملـك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيـز مـؤزرا ... تقاد لك الامـلاك فى زى عبدان

انتهت القصيدة الفريدة .

قال فى نفح الطيب : « أخبرنى ناظمها أنه أراد بقوله : « ونافس بيتى فى الولا بيت سلمان » قبيلة سلمان التى منها لسان الدين ابن الخطيب ، اشارة الى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله ، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسى رضى الله عنه » انتهى .

وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولـذا لم يذكر فى المنتقى من الامداح المنصورية غيرها ، وقد أثنى عليها فى « نفح الطيب » جـدا ، وتتبع ما قيل فى هذا الاحتفال ، واقامـة المولد العديم المثال ، من الامـداح يفضى الى الطول وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق .

ذكر سيرة المنصور فى ترتيب جيوشه وحالات أسفاره

قال الفشتالى : « كانت السيرة على عهد أبى عبد الله المهدى وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب فى الجيش والمأكل والملبس وغير ذلك ، ولما ولى المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح اليها فى سائر شؤونه لما رأى منها فى بلاد الترك حيث كان بها ، فكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفا مع العوائد . فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتى العرب والعجم ، واصطفى من العجم موالى رباهم بنعمته وأشملهم درور احسانه ، منهم : مصطفى باى ، ومعناه بلغة الترك : قائد القواد ، ويختص به قائد الاصباحية ؛ وكان برسم حراسة الباب العالى . ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الاموال . ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج ؛ والباشا جؤذر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس . وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج . وتليهم طائفة أخرى منها بختيار ، وبغا . ثم ان جيش العجم من الاتراك والعلوج قسمه الى أقسام ؛ منها البياك : وهم أهل القلانس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه . والسلاق : أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ويناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيفون اليها وقت الحزام أجنحة طوالا يؤلفونها أيضا من ريش النعام الباقى على أصل خلقته ويركزونها فى الجعاب المنوطة بالقلانس من أعلى الجباه ويرسلونها الى وراء ويقف هؤلاء خلف البياك . وبلبلدروش . وهم أهل اللقاقيف وهى رماح قصيرة غليظة العصى مغشاة بالحديد ومرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتى كل سنان منها اضلاع مستقيمة ، ويقف هؤلاء خلف السلاق · والشنشرية . وهم أهل الطعام وضعا ورفعا لا غير وقائدهم بختيار من سبى وادى المخازن . والقبجية : وهم أهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها

وقائدهم مولود المشاورى ، وطائفة من هؤلاء تحرس ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بالدار ، ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسى والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالايوان وتعاهد انماط الجلوس وكنسها . والشواش: وهم الذين يتولون ضبط الجيوش فى المصاف فى حرب أو سلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر .

قال الفشتالى : « وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول ، فاذا خرج فى يوم عيد أو ملاقاة أو تهنئة خرجوا متزينين وكل قائد يقف عند مبدا انبعاث حبل جيشه تحت ألوية محفوفا بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم : بالبكباشات ، فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه ، وهكذا يمتد الى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المومنين ، وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه الى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل الى ذلك لو أراده » .

قال الفشتالى : « والترتيب الذى جرى به العمل فى عساكر النار أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين ، ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالى من المعلوجى ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل فى زمرتهم ، وهذان يسيران صفين متساويين لاستواء مرتبتهما ، وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء، غير ان الموالى يكونون فى الميمنة لمزية الولاء ، وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان ، ويتقدم قائدهما محمود قائد الموالى ، وجؤذر قائد الاندلس ، وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بلكباشات . ثم يتصل بهذين العسكرين الدخالة العظيمة المؤلفة من البياك والسلاق وبلبدروش فتسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفا متساوية ، فأما البياك فيلون ركابه يحفون به يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه اليزنية المنصوبة أمامه ، ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه أقربهم درجة لقائدهم ابرويز، واذا مشى المنصور الى جامع المنصور من جهة قبور الاشراف أو للمشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله ابرويز بنفسه ، ثم يسير

عن يمينهم وشمالهم السلاق ، ويسير عن يمين هؤلاء وشمالهم بلبدروش أهل اللقاقيف ، وتتكيف من الجميع صورة تزرع الرعب فى القلوب ، وتسير الجنائب فيما بين سماطى هذه الدخلة مجنوبة صفا صفا الى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودها صنف يدعون السراجة ركبانا ، وكانت جنائب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية ؛ وجيش الاصباحية الذى الى نظر بيلاربـاى ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب الذى يرفع اللواء العظيم الابيض المدعو باللواء المنصور ، علامة على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه؛ وهناك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة . وأمامه الطبل العظيم الذى يسمع دويه من مسافة بعيدة ؛ ومن خلفه الطبول الاخر معها الغيطات ـ واحدتهاغيطة ـ يتولى النفخ فيها قوم من العجم أساتيذ يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها على شيء دون الحرب ، فانها تشجع الجبان وتقوى جأش الخائف ، حكمة فيلسوفية ؛ وهناك مزامير أخر وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنباط مما أحدثه أيضا فى دولته وزادت به دولته فخامة وضخامة ؛ ثم يردف هذه الالوية والآلات من خلف أمير المومنين موكبه العظيم . فهذا ترتيب جيش المنصور انتهى باختصار من كتاب « مناهل الصفا » ، وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعدية كما زعم بعضهم ، بل كان ذلك موجودا فى الدول القديمة شرقا وغربا .

قال اليفرنى : « وما ذكره الامام الفشتالى من توافر أجناد المنصور وتكاثر جيوشه هوكذلك ، وقد أولعت العامة فى ذلك بأخبار واهية ، وزعموا ان المنصور خرج مرة الى الرميلة بظاهر مراكش ولم تعلم اصحابه بخروجه، فحين علموا بخروجه تبعوه خفافا وثقالا فامر بعد ما معه هنا لك من الجيش فوجد ثمانين ألفا ، فقال : « ياسبحان الله ، قد خاطرنا بأنفسنا حيث ركبنا فى هذا العدد » يستقله ؛ ولا يخفى ما فى هذا الكلام من الافراط ، والذى ذكره الشيخ أبو العباس أحمد أفقاى الاندلسى فى كتابه المسمى بـ « رحلة الشباب الى لقاء الاحباب » ما معناه قال : ان جزيرة الاندلس التى استردادها

من أيدى الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش فى أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفا ، فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها فى الحين اه بالمعنى » اه كلام اليفرنى .

وأما بيان حالة المنصور فى السفر فقد قال شارح « زهرة الشماريخ » : « ان المنصور كان قليل الاسفار ، وانما سافر الى فاس مرتين لا غير ، وانما كان متفرغا للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته » . قال اليفرنى : « وبه يعلم أن ما شاع على الالسنة من أنه كان يمكث بفاس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم » .

وكان المنصور اذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن فى التهيئة ما شاء . قال صاحب النفحة المسكية : « كان له قصر من عود مسمر بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة ، وقد احدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان ، وزخرفة بنيان ، وفى داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضا وسودا وحمرا وخضرا كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش وملىء بأبهى الفرش ، وللسرادق الذى هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثم ينتهى منها الى القصر الذى فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكية التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين » اه .

ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالى فى المناهل قال : « خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين بأغمات » ، قال : « فأخرت وراءه فلحقنى المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا فى أخريات الناس فأنشده :

أبا فارس بان الخليط وودعوا ،

فقلت :

ولوا وحسن الصبر منى شيعوا

فقال :

وغرد حادى البين وانشقت العصا   وكاد فؤادى للنوى يتقطع

فقلت :

الى الله أشكو فرقة منهم وقد تجرعت من كأس النوى ما تجرعوا

ثم زدت :

لئن شرد السلوان عنى بعدهم ففى صحبة المنصور أنسى أجمع

ثم قال :

تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع

فقلت :

سياج به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الامامة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات فى شارة حسنة ، فلما بلغ أغمات مكث فيه يومين وفى الثالث نهض الى زيارة الامام أبى عبد الله الهزميرى ، وعاج على ضريح الشيخ سيدى عبد الجليل ووقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما تيسر وفرق أموالا على ذوى الحاجات على يد القاضى الشاطبى ، والفقيه الامين ابى الحسن على بن سليمان الثاملى ، وكان معه الفقيه القاضى أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه ؛ وكان الحميدى لوذعيا خفيف الروح ، وفى هذه السفرة صدرت منه الابيات التى تبارى فى معارضتها شعراء الدولة ، وقد ذكرها فى النزهة فلتنظر هنالك »

ومما يتعلق بأخبار الحميدى المذكور : أن المنصور سافر مرة الى تارودانت ومعه جماعة من الاعيان كالقاضى الحميدى وأبى العباس المنجور وغيرهما ، فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أخبيتهم ، فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة ، ويقال ان هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالى الروداني ، فوطىء على طنب من أطناب خباء القاضى الحميدى فصاح القاضى « من هذه البقرة التى قوضت على خيمتى ؟ » متهكما بالرجل ! فألقى اليه الرجل قرطاسا فيه أبيات وقال : « البقرة من لا يجيب عن هذه » ونص الابيات :

الى بابك العالى مسائل ترتقى تفطن لهن يا حميدى واصدق

فما الحكم فى الاوزاغ هل ساغ أكلها وما الحكم فى موتى المجانين فانطق

وهل جاز للمسبوق بعد تشهد دعاء اذا ما رام اكمال ما بقى

وما وزن ليس يا أديب وأصله — وما جمع قلة لصاع فحقق
وما وزنه شمر ولاتن وائتنا — بجمع سواء والمقيد أطلق
وبين لنا (من) فى أعوذ بربنا — من ابليس والتخمين فى الكل فاتق

فبدا للحميدى ما لم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب ، فرفعت القضية الى المنصور فاستغربها وقال : « هذا رجل من أهل البادية فضح قاضى قضاة الحواضر » وأمر المنجور فأجاب عنها ، يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل ، ونص الجواب :

جوابك فى الاولى اباحة أكلها — بمذهبنا فاجزم بذاك وصدق
كذا ابن حبيب فى الخشاش أباحه — لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل فى الاوزاغ يحرم أكلها — وذلك فى الكافى ليوسف فاتق
ومستقذر يحكى المخالف منعه — وأنكره التنبيه فافهم ودقق
ورجح ما يحكى المخالف بعض من — له العزو للتحقيق لا للتشدق
وميت مجنون جرى خلف حكمه — بعلم كلام لا تكن غير متق
وتحقيقها ان الجنون الذى طرا — يصير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعد البلوغ طروه — وحينا يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة اثر الصلاح وقوعه — وحينا بعصيان الكبيرة يلتقى
وحينا يدوم للممات وتارة — يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد — وفاق امام فى المناجاة فارتق
وليس له فعل كقال وأصله — بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاعا فى القليل بأصوع — وأصؤع بهمز الواو فانهج ونمق
وان شئت فاقلبه فيرجع آصعا — لضابط تصريف فللعلم شوق
وصاع كعام عينه فرع ضمة — وتحريكه فتح فزنه وحقق
وجمع سواء فالذى منه جامد — بأسوية علم يقاس ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه — سواسية ثقل فبالحق فانطق
ومقصد (من) فى العوذ بدء لغاية — فابليس مبدأ العوذ عند الموفق

انتقاض ولى العهد محمد الشيخ المأمون على ابيه المنصور وما آل اليه أمره فى ذلك

كان المأمون كما تقدم ولى عهد أبيه المنصور ، وكان خليفته على فاس وأعمالها سائر مدة أبيه ، وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل ان المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال الا قال : « جعل الله فتحه على يد الشيخ » رجاء ان يقوم بالامر بعده ، فلم يساعد القدر وخرج الامر كما قال القائل :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فأساء المامون السيرة وأضر بالرعية .

قال اليفرنى: «وكان فسيقا خبيث الطوية، مولعا بالعبث بالصبيان، مدمنا للخمر سفاكا للدماء ؛ غير مكترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها . ولما ظهر فساده وبان للناس عواره ، نهاه وزير أبيه القائد أبو اسحق (*) ابراهيم السفيانى عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته ، فأعاد عليه اللوم فلج فى مذهبه ؛ ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور . ومما انكر عليه انه قبض على كاتب أبيه أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن عيسى وهو مؤلف كتاب : «الممدود والمقصور من سنا السلطان المنصور» ووظف عليه أموالا وابتزه ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الالوان . فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لابيه كتب اليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه ، فما زاده التحذير الا اغراء ؛ فلما رأى المنصور انه لم يكترث بأمره ولم ينزجرعن قبائحه عزم على التوجه الى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعا له ، فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لاصحابه ، وكان عدد

(*) بل ابو سالم كما في الدرة

جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفا كلهم بكساوى الملف والحرير على أحسن شارة وأكمل زى ، وعزم انه ان بلغه خروج ابيه من مراكش أن يتوجه فى أصحابه الى تلمسان ويستجير بالترك ؛ فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش ، وكتب الى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل ، وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما ، وقال له : « قد سوغتكه ولا أطالبك فيه » ومراده بذلك أن تسكن نفرته ويرجع اليه عقله ؛ فأظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يؤم سجلماسة ، فما انفصل عن فاس بشىء يسير حتى ندم ورجع اليها ، وعاد لما كان عاكفا عليه ؛ فبعث اليه المنصور أعيان مراكش وعلمائها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق ، ولم يألوا جهدا فى نصحه ، فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم ، مغمور الذهن بخلاف قولهم ، الا أنه أظهر الرجوع عما كان عازما عليه من الفرار عن أبيه ، وأقصر فى الظاهر عن بعض تلك المساوى . فرجع الوفد الى المنصور وقالوا له : « انه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وانه واقف عند الامر والنهى » ؛ فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم : « لعل هذا اطفاء لنار الشحناء وكذب لاصلاح الباطن » وصمم على المكر بالشيخ ، فكتب اليه كتابا طويلا يلومه فيه على بعض الاشياء وفى ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة ، ونص الكتاب :

«من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين ابن أمير المومنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أوامره وظفر عساكره ، الى ولدنا وولى عهدنا الامير الاجل الافضل الاكمل الاعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله ؛ أما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد الا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة . هذا ، والذى أوجبه أسعدكم الله وكلاكم انه بلغنا انكم قد استخدمتم هناكم جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخى على بن محمد وأخى على بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم فى اعطياتهم نحو خمسة آلاف ، والى هذا اى مصلحة ظهرت لك فى

استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض ، بل ما فى ذلك الا الفساد البين لان هذا الذى تعرضتم له لا يفى بـه المغرب ولا يقوم معه بكم شيء ، ومسئلة هؤلاء أولاد طلحة ان كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليدنا فى ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم ان بيننا وبينكم فى هذه المسئلة فرقا من وجـوه ، منها : ان مراكش ليست كفاس ، وان خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك ، وأيضا هـؤلاء الناس أنا أعرفهـم وكنت فى بلادهم ، وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها منى وأنا هناك فوعدتهم اذ لا يمكننى وأنا ببلادهم الا مساعفتهم ، فلما جاءوا اليوم وطالبونا بالوعـد لم يمكن الا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمناهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة، وكنت فى ذلك على خطأ اذ كان الاولى ان كنا حاسناهم وتركناهم من الخدمة. وأما أنت ففى مندوحة عن هذا كله لانه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به ، ويمكنك أن تحيلهم على اذننا ومشورتنا فنكفهم عنك بالشرط الذى شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها . وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم من استخدمنا ، والى هذا فالذى نؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمـة ولا تستخدم منهم حتى فارسا واحـدا أصلا من الذين ذكرنا لك ومن غيرهـم من كافة أولاد طلحة ، وأمرناك أن تتنصل لهم فينا وتقول لهم : ان السلطان منعنى من استخدامكم هنـا وتقرأ عليهـم كتابنا الواصل اليكم صحبة هـذا لتتفادى منهم ، ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره ، بـل تحسن اللقاء بهـم وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم .

والذى شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبرا عليـه هو ما وجدناهم قد أطلعوا عليـه ، اعنى أولاد طلحـة على بن محمد وغيره ، من أحوالكم وأخباركم وألفيناهم قد توصلوا من ذلك الى ما لم يتوصل اليـه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا ، لان أهل بلادنـا أحياء ما لهم بحث الا فى مصالح أنفسهم ، هؤلاء انما ينتقدون ويبحثون عن الغرة وعورات المملكة . فـاذا بكم تتخذونهم بطانـة وأصدقاء وتطالعونهـم

بأحوالكم وأموركم مع ان القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين أظهرهم وما يطلعون عليه تحتاج تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا بأنفسهم عليه . وأيضا لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا الا خيرا فالقوم عرب لا يتحفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا يتمالكون قولا ولا نطقا ؟ وبالجملة ، فقد أحرقتنا هذه المسئلة وتفطرت لها أكبادنا ، وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بأن الناس كانوا يتحفظون فى أقل الامور أن يطلع عليها الاجانب وان كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب . وهل ما عندكم علم بأن أخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جدا أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر فى المجلس منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بازائه لئلا يكون عيب فى ذكر ذلك بمحضره ، فعليه شاور القائد دحو بن فرج — كان بازائه — فقال له : « هذا رجل براني فلا تطلب شيأ قدامه » على أن منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما اليهم من خواص الخدام أهل بساطنا محبة وقربا لانه أسلف معهم خدمة عظيمة ، فقد كان عدوا للترك وبينه وبينهم أرواح ، وحضر مع أخينا بابا حمو الحران جميع ما كان فى تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الاوسط ، ثم مع بابا عبد القادر كذلك ، وشرب معهم الحلوة والمرة . ولما جاء من تلمسان جاء بأولاده منها راحلا كما جاء منها بابا عبد الله بأولاده ، وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد ؟ وما زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن بلغ الى ان قلدوه حاضرة تازا ثم بلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الا لاقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم ، ومع بلوغه الى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعا حتى انه فى دخول صالح رئيس مدينة فاس رحل بأولاده مع السلطان الى هنا كما فعل أهل هذه البلاد ، وحين دخلنا نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضا مع صاحب الجبل الى مراكش ، ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب ابدا فى الحديث والقديم ؟ ثم ان الناس استبعدوا أن يطلبوا أقل المسائل بمحضره ، وقالوا انه برانى فضلا عن هؤلاء

الذين ما زالوا الى اليوم فى بلاد العدو يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطالعوهم على اموركم ويتوصلوا الى المعرفة بأحوالكم فما تمالكنا لهذه المسئلة ولا وجدنا عليها صبرا . ومن جملة الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور أن على بن محمد كان يتكلم يوما معنا وأخذ يثنى عليكم فى نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخائكم عند الحاجة ، ثم قال : «الا أن الخيل ليست عنده لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية لان القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه» وهى التى غاظتنى وقلت : كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور حتى أننا ما وجدنا الا الرد عليه وعكس ما عرفنا انهم اعتقدوه وقلنا اللهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لاننا فهمنا منهم ذلك ، ولهذا أجبته وقلت له : ان ولدنا لم يعطهم شيأ وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين بأكل المال وعدم المخزنية ، ولو أعطى تلك القبائل لحشرها عليه لان أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف ، وعند أولاد أبى عزيز نحو ألف ونصف ، وعند الغربية وعند اولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبى رأس وعند أحمر وعند المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبو ، وجعلت اعدد له قبائل السوس وقبائل مراكش وأحصى له خيلهم بما بهته ، وقلت له : لو أنصفهم لحرك منهم معه ستة عشر ألفا أو أكثر ، ويكون قد ملأ بهم تلك البلاد ، وسال عليها من سيل العرم لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية ، ولو وجه اليهم المحركين والرماة لأتوه أيضا بلا خلاص . والى هذا نوصيكم على المحافظة من أولئك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا. واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا ان الخلط رجعوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف ، وكنا انتشبنا معهم بالعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار ؟ وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمحوا فيه مع ان هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسماع فقط ولا طويلة عهد حتى تنساها ، بالامس شاهدت وباشرت ورأيت فما الذى أنساك فعلهم وما

زال جرحهم الآن لم يبرأ ، لان خروج القائد مؤمن الخارج الآن ما كان الا اليهم . والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى فى هذه المسئلة ؛ وقد سمعنا أيضا أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخميس الى دار الدبيبغ ، وكأنكم نسيتم أيضا ما عمل أولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد فى البلاد حتى ينزلوا تلك المنازل ؛ والى هذا فساعة وصوله اليكم تقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصا : أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذى كان أبوه حاجبا عند المرينى فهو أصل الفساد ، ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا . وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف رام ليستوفى لكم الغرض فى هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به ، لان بقاء الرماة هنا لك ما فيه الا الاشتغال بالفساد فى المدينة فتحتاج أن تتولاهم بالقتل كل يوم باطلا فكان خروجهم انذاك دفعا لمضرتهم وجلبا للمصالح بهم ؛ وحتى الكاتب اللائق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لان كتبكم تأتى بخط سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخط الكرينى وهو جاهل ، مع انك لما كنت خليفتنا وولى عهدنا كنت بصدد ان يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى ، وكل من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب اليك ويكون أيضا ممن يوثق به فى المحافظة على أسراركم، والى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وصاحب مشورك وصاحب المظالم كما هنا هو عندنا السيد على بن سليمان ، واعلم ان مما تحتاج ان ننبهك عليه مسئلة القواد الذين يريدون أن يحملوك أثقال أولادهم مثل ما فعلت فى أولاد القائد بركة (*) واخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية ، فنؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحدا فما أعطيناه سلا الا ليرفع فيها أولاده واخوته وكذلك الحكم فى أمثاله ممن أعطيناه عملا وقلدناه قيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامهم فى الرماية اهل الجبال من أهل

(*) لعله الذى تنسب اليه عين بركة الداخل ماؤها لمدينة سلا .

الصحفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحدا والا فاعلموا أنكم ما أردتم حينئذ ان يغرموا لكم ولا يعطوكم شيأ ، وان أردتم الخدمة فهاهم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش ، فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم ، واذا لم يكن من هؤلاء وكان ولابد من غيرهم فمن أهل فاس سكان الحاضرة ، وأما من عداهم فلا ؛ على ان الرماة أهل السوس هاهي هنا عندنا كثيرة ، فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم اليك ونضيفهم الى خدمتك ، ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هذه الامور كلها فصلا فصلا مع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولابد ولابد ، وهذا موجبه اليكم ، والله يحرس بمنه علاكم والسلام . وفى مهل جمدى الاولى من عام أحد عشر وألف » اه .

ثم لم يلبث المنصور أن بعث الى ولده زيدان – وكان خليفته على تادلا – يأمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تاقبلات ، وكل من وجدوه قاصدا للغرب من ناحية مراكش بردونه ، وأرسل مولاه مسعود الدورى على طريق سلا يفعل مثل ذلك ، وخرج المنصور من مراكش* فى اثنى عشر ألفا أوائل جمدى الاولى سنة احدى عشرة وألف ، وجد السير ، فلم يمض الا أيام قلائل حتى نزل بالدوح ، موضع قريب من فاس ، والشيخ فى جميع ذلك لا شعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه ؛ فبعث يوما عيونه يرصدون له من قدم من مراكش ، ويكشفون عن الخبر ، فما راعهم الا الاباطح تسيل بأعناق الجياد ، وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الاودية والوهاد ، لانهم كانوا قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور للسابلة . فرجعوا الى الشيخ مسرعين ، والرعب يفت فى أعضادهم ويطفىء جذوة عزائمهم ، فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا ، فعلم أنه محاط به فلم يمكنه الا الفرار ؛ فركب من حينه وفر الى زاوية الشيخ الصالح أبى الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورغة . وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفى قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما فى المرآة . فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الاحداث

* بعد ان استخلف عليها ولده ابا فارس

وقرناء السوء ، فبلغ خبره المنصور فبعث اليه الباشا جؤذرا مع القائد منصور النبيلي ، وحلف لهما بأغلظ الايمان ان لم يأتياه بـه ليمكرن بهما ويجعلهما عبرة ؛ فذهبا اليه فامتنع من الدخول فى يدهما ، وانعزل فى أصحابه حتى ناوشوه القتال ، وتراموا بالنبال ، ثم قبضوا عليه وأتوا به الى المنصور فى خبر طويل ، فأمر به الى مكناسة فسجن بها .

ودخل المنصور دار الملك من حضرة فـاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير اراقة دم ، وتصدق فى ذلك بأموال عظيمة ، وكتب بذلك الى ولده أبى فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله له من الظفر والنصر ، ونص الكتاب .

« الى ولـدنا الاجل الارضى الاكمل الاسعد الاصعد الامجد الاسمى الاسنى بابا أبى فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكـم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، فكتابنا هذا اليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقى ولا شيء الا ما جرت به الاقدار ،وحكم به الفاعل المختار ، وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار ، وهى قضية أخيكـم التى ثارت الى بها صروف الدهر من مكمنى ، وطلعت على من مأمنى ، الا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولا ، ثم شفانا آخرا لله الحمد دائما والشكر واظبـا ، وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم السوء ان الحـال كان انتهى فى معالجة أمره الذى تجاوزنا فى وجوه الخير اليه حد الاستقصا ، وأتينا فى محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجح بما لا يحصى ، الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وأبحنا له التوجه اليهما بجملته وجمعه ، رجاء أن تسكن بالانتباذ اليهما نفرته ، وتطمئن نفسه ويثوب اليه قلبه الطائر، ويراجعه أنسه الحائر ، فأظهر أولا التوجه اليهما ، ونهض مرتحلا عن فاس موريا بالقدوم عليهما ، ثم بدا له على الحين فكر راجعا الى فـاس ، ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس ، وثاب لنفسه السكون والاستئناس ، فاذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر ، فأبدى ما أضمر ، فما كان الا ان طرأ عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك أن أقلع ليلة الخميس خامس

عشر شهر تاريخه اقلاعا أزعجه من الدار فريدا ، وطارت به النفرة الى أن حل بزاوية الشيخ ابى الشتاء وحيدا،فتلاحق به من جيش رماته اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم ، وعدد من كثرته لا يريم ، فبادرت حينئذ بتجهيز جؤذر باشا من غير اغفال فى خمسمائة صبائحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك فى خمسمائة فارس ، ثم أردفناه ببعوث أخر نألبت اليه وتنائلت عليه تناهز الالفين ورماة بابا زيدان حفظه الله فأحدقت به من كل الجهات ، وملكوا عليه الفجاج والثنيات ، ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة نفرته بالتسكين ، وما يخشن من أحواله بالتليين ، بارسال المرابطين تجاهه بمواثيق تهنيه ، وعهود تؤنسه وتقرب أمانيه، رجاء أن يثوب اليه ثائب استبصار ، أو يخطر له خاطر اقلاع عما هو عليه واقصار ، وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشر نارا ، ويزينون له عقوقا ونفارا ، فدهمتهم حينئذ عساكرنا المظفرة بالله فى مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيمة فخدمت النار من وقت الظهر الى العصر فأظهر الله تعالى فئة الحق على فئة الباطل . وقضى بما جرى به القضاء المحتوم الحكم العادل ، وكتبناه اليكم وقد حصل فى القبضة كما سبق به القضاء والقدر، وجعل بمكان الاحتياط عليه من مكناسة فكانت مشيئة الله فى ذلك من احدى العجائب والعبر ، وعرفناكم أسعدكم الله لتستشعروا صنع الله فى هذه الداهية التى فجئت بها الايام ودهمت ، والغاشية التى اعتكرت وادلهمت ، وتقدروا ما صنع الله فى ذلك من حسن العاقبة حق قدره ، وتشكروه فهو الجدير بجميل حمد كل لسان وشكره ، ونسأله تعالى أن يجعلكم فى حيز الكفاية ، وجانب الوقاية حتى لا تساؤا بقريب مأمون ، ولا ببعيد مظنون ، وفى ليلة الثلاثاء الموفى عشرين من جمدى الاولى عام أحد عشر وألف » اه .

ثم ان أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت الى أعيان مراكش الذين قدموا مع المنصور ترغب اليهم فى أن يشفعوا لولدها عند أبيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما فى باطنه عليه ، فتقدموا الى المنصور وقالوا له : « ان الشيخ قد صلحت حالته ، وتاب مما كان عازما عليه ، وانه ندم على ما فرط منه »

فقال لهم : « اذهبوا الى مكناسة واختبروا أمره كافيا ، وانظروا هل رجع عن أباطيله ، وتنصل من أضاليله » : فلما أتوه وجدوه أخبث مما تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفه اللسان ، فلما جلسوا اليه فى محبسه لم يسألهم الا عن اصحاب بطانته وقرناء السوء من اهل غيه، ولم يظهر الاسف الا على تلك العصابة ورآهم أهل الاصابة .

وكان من الاعيان الذين وجههم المنصور أولا وآخرا أولاد الشيخ ابى عمرو القسطلى، واولاد الشيخ ابى محمد عبد الله بن ساسى، واولاد الشيخ أبى زكرياء يحيى بن بكار وغيرهم . فلما رجعوا الى المنصور من مكناسة سألهم عن الخبر فنافق بعضهم وقال : « وجدناه تائبا نادما على ما صدر منه » وتكلم بعض اولاد الشيخ ابن ساسى فقال : « لا والله لا داهنت فى حق الله ولا واجهت الامير بالخديعة ، ان ولدك لا نأذن لك أن تؤمره على اثنين ولا تحكمه على عيال الله فانا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة لم يندم على ما فرط منه » فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد ، فقال لهم المنصور : « افتونى فى أمر هذا الولد ؟ » فلم يجبه أحد الا باشاه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى فانه قال له : « الرأى أن تقتله ، فانه لا ينجبر أمره ولا يرجى صلاحه وقد رأيت ما صنع » فلم يعجب المنصور ذلك وقال : « كيف أقتل ولدى ؟ » ثم بعث الى مكناسة يأمر بالتضييق على الشيخ والزيادة عليه فى ذلك . ثم خرج المنصور فنزل بمحلته فى ظهر الزاوية قاصدا مراكش بعد ان استخلف ابنه زيدان على فاس وأعمالها ، وقد كان كتب الى ولده أبى فارس خليفته على مراكش برسالة أجابه فيها عما كتب به اليه فى شأن الوباء الذى ظهر بالسوس ومراكش هل يفر منه أم لا ونصها :

« من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيز نصره أوامره وظفر عساكره ، وأسعد بمنه موارده ومصادره ، الى ولدنا الاجل الافضل الاكمل الاعز الابر الاسعد الامجد الارضى بابا أبى فارس ، وصل الله تعالى عنايتكم ووالى بمنه رعايتكم وسلام عليكم ورحمة الله . اما بعد ، فكتابنا هذا

اليكم من حضرتنا العالية بالله المدينة البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية ، ونعم اللـه المتوافية ، لله الحمد وله المنة ، وانه اتصل بعلى مقامنا كتابكم الاعز عشية يوم الثلاثاء فكتبنا اليكم صبيحة يوم الاربعاء ، ولـولا انه وصـل يوم الديوان ما كنا نؤخر كتب الجـواب لكم عن ساعة وصولـه فى اليوم بنفسه حرصا منا بذلك على المبادرة بوصوله ا'ليكم فى الحين ؛ والى هذا أسعدكم الله ان أول ما تبادرون به قبل كل شىء هو خروجكم اذا لاح لكم شىء مـن علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد ، ويبقى فى القصبة وصيفنا مسعود مع القائد محمد بن موسى بن أبى بكر ، وتتركوا مائة رام تثقون بها من رماتكم مع أصحاب السقيف وتتكلون على الله وتخرجون بالسلامـة ، ثم لا تعملوا كعملنا فى الاقتصار على الرميلة والتقلب بهـا ، بـل لا تزيدوا اذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ، ثم اطووا المراحل الى ان تنزلوا بسلا وتدخلوها دخول هناء وعافية ان شاء الله ، وهناك يكون لقاؤنـا بكم لقاء يمن وسعادة ان شاء الله ، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق اسعدكم الله فلازموه، واذا استشعرتم منـه حرارة وتخوفتموهـا فاستعملـوا من الـوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه . وأمـا ولـدك حفظه الله فلما كان من سن الشبيبة بحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فهاهى الشربة المعروفة النافعـة لذلك قد تركناها كثيرة هناكم عند التونسى ، فيكون يستعملها هو والابناء الصغار المحفوظون بالله ، حتى اذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قـدر الحاجة فيعود اليها والله تعالى بمنه وبحرمـة صفوة خلقه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم يتولى حمايتكم جميعـا ويحلكم من جميل كلاءته ورعايته حصنا منيعا ، وأن يعافى البلاد والعباد بمنه وفضلـه ؛ والسلعة أسعدكم الله تبادرون بارسالهـا الينا ، وكذلك القائد مسعود النبيلى تعزمون بارساله الى حيث أمرناه بالمقام من خنق الـوادى بالسوس وطريق تاحظيشت ؛ واعلم أسعدكم الله ما قط أرضانـا أن أمرها يتم ، وقبـل عقلنا الكريم ان أهل درن يتجرون بسببها ، ولكن هـذا سبب يكون حجة عليهم ان شاء الله، وأنتم تحاولون اسعدكم الله سلوك الناس على بويباون على العادة،

١٨٠

وتجهدوا فى أن تكون ان شاء الله سابلة ، وأولائكم أعنى أهل طريق تاحظيشت يسكت عنهم حتى نصل بخير وعافية لتلكم البلاد ان شاء الله . ومسألة ايسى التى كتبت لكم من خنق الوادى على الزرع وانـه ما عندهم ما يكفيهم منـه سوى شهر فلقد كنا كتبنا لكم أسعدكم الله على حمل الزرع اليهم على البحر، فان كان قد تيسر ذلك فيكون قد بلغ اليهم وان لم يكن ذلك قد تيسر فلتأمر ايسى هذا بالتدبير على الزرع ولو بالشراء والزموه عهدته وشددوا عليه فى آمره ، وخالنا القائد حمو بن محمد الذى استأذنكم فى الخروج عن ذلكم المرض من المحمدية(*) فاذا تفاحش فلا عليه فى الخروج ويلتحق بأهل تلك المحلة بخنق الوادى ويترك فى القصبة أهل الاندلس مع قائدهم . ومسئلة مؤمن بن منصور مع هكسيمة التى ذكرتم أسعدكم الله ا نمؤمنا قد تثاقل بدمنات بسبب مرض ألم به حتى جاء به شاوش ، وان أخاه ذلكم المفسود بعث اليـه يلتقى معه بتامصلوحت فعلى بركة الله والحاضر بصيرة ، وهذا موجبه اليكم ، والله يصل بمنه رعايتكم والسلام . وفى يوم الاربعاء رابع عشر رمضان المعظم عام أحد عشر وألف ، عرفنا الله خيره وبركته . وبعـد أن كتبنا لكم هـذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم عما تحتاجون الى الجـواب عنه ، والبطاقـة التى ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو ولد خالكم أو غيرهما لا تقرأ ولا تدخل دارا بل تعطى لكاتبكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمنها ، ولاجل ان كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحها الا بعد أن تغمس فى خل ثقيف وتنشر حتى تيبس وحينئذ يقرؤها ويعرفكم بمضمنها اذ ليس يأتيكم من السوس ـ والله سبحانه أعلم ـ ما يوجب الكتمان عن مثل كتابكم ؛ وقد طالعنا كتاب ولد خالكم أحمـد بن محمد الصغير وصح عندنا من فحوى كلامـه ما ذكرتم عنه من أنه أكثر من خبر الوباء ليجده ذريعة للخروج من السوس ، والذى تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم بمراكش ، وان ذلك لا

(*) المحمدية هى تارودانت نسبة الى محمد (فتحا) الشيخ بن القائم بأمر الله، وغالب السكة السعدية ضرب بها

يرضينا منه ، وكيف يروم الخروج من موضع عيناه له من غير أمرنا لاسيما مع غيبتنا عن البلاد ، وانه ان فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ، ثم لا يعود أبدا اليها ، الا ان تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه فى الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخنق الوادى . وأما ما ذكرتم عن محمد بن عبد الرحمن الوردى فقد طالعنا الجريدة التى جرد لكم وتصفحناها ورأينا أن جل ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا ، والذى نأمركم به فى مسئلته أنكم تحاولون فى رده لموضعه فانه بذلك الموضع أليق من أخيه بكثير ، وكل ما يمكنكم من أغراضه المسطرة فاقضوه له ، وما لا يمكن عدوه به عند قدومنا ان شاء الله . وأما أمر أخى أحمد بن الحسن الذى عيناه لجباية درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك انه كما ذكرتم ، ولكن انما وقع الاختيار عليه لامرين : الاول الذمة لانه بماله ولا نخشى ان شاء الله على مالنا ، الثانى ان خراج درعة سهل معلوم ، ولعله يكره هذه الولاية ويحب الجلوس بداره ويغرى من يتكلم فيه عندكم ، فان كان من ذكره لكم مثل مسعود أوتاودى فاتهمه ؛ وقد طالعنا فى جريدتكم انكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام ، وهذا الذى ذكرتم ما نعلم انا كتبنا لكم عليه قط ، وانما كتبنا لكم على الزرع تحملونه فى البحر برسم المحلة التى هناكم بخنق الوادى ، فان كان هو هذا فنحن أردناه للمحلة ، وان كان غيره فعرفنا بقضيته ، فان زرع المعاصر انما يلزم اليهود والنصارى المكترين للمعاصر ، وفيها أيضا ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة ، وانكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الامر لانكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الاصلاح الذى أمرنا به فعرفنا لنكون على بصيرة من ذلك ؛ وفيها أيضا مسئلة أولاد طاحة فدبروا عليهم اما من عند ايسى أو غيره حتى لا يرجعون الينا شاكين . وولد ابراهيم بن الحداد الى الآن لم يصل ، وزمام الاسرى وصل . واما الدراقة التى ذكرتم فها السلتة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا ، فوجه ليوسف العبد حتى تكلمه ومره يخرجها من عنده وركبها فى موضعها،لا تركب التى عندكم

بل تمسكونها لانفسكم . واعلم انى تركت عند اولئك المعلمين أعنى معلمى
بركاضو سلاتى برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها ، وحيث يفرغون
من الدراقة اجمعهم عليها كى نجد ذلك طالعا ان شاء الله فانا قد أمرنا بنسج
درارق تلكم السلاتى*. هذا، والمراد أن نجد السلاتى قد فرغ منها ان شاءالله.
وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما ، وحاول
ان تسقفوا ذلك البلاط الذى يوالى سور القصبة من قصر الخيل والقبة التى
فيه لنجده كاملا ان شاء الله عند قدومنا عليكم ، وحتى سوارى الرخام
ركبوها فى تلك الجهة اذا سقفتم ، ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الاشغال فى
الموضعين المذكورين . وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير
ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزداد ألمه ، بل انظر له من
يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله .
أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه فى ذهابه وايابه لداره والمسرة ، وأوصوه
أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله . وأوصيكم أيضا اذا ظهر
المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا
وراءكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله . وامر يوسف
العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج اليه من الترياق
الجديد الذى كان بقبة المشور ويدخل على أيديكم لدارنا ، واستدعوا أم المال
قهرمانة الدار واعطها اياه برسم أهل دارنا ، وأمرها أن تعطيهم اياه فى كل
رابع من اليوم الذى يأكلونه فيه ، وهى أيضا تأكل منه ، والعبد يوسف أيضا
يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعنى مسعود بن مبارك ، والله
سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذى لا
تضيع لديه الودائع ، وأنتم فى أمان الله وحفظه ، والله سبحانه خليفتى عليكم
أنتم فى يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، والسلام الاتم عائد عليكم ورحمة الله
تعالى وبركاته ، ونسلم على ولدنا الاعز الارضى بابا عبد الملك ، وعلى ابنتنا
الرضية سيدة الملك ونحن فى غاية الاشتياق والتوحش لها جمع الله بكم الشمل

---

* لعل العبارة فيها قلب وأصلها : بنسج سلاتى تلكم الدرارق .

جميعا آمين، بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله خير آل والسلام» اه

قال مؤلفه عفا الله عنه : قد وقع فى كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان الى التنبيه عليهما ، الاول : اذنه لولده أبى فارس فى الخروج من مراكش اذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيأ يسيرا وهذا الامر محظور فى الشرع كما هو معلوم ومصرح به فى الاحاديث ، والثانى : أمره أياه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وانما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس فى الخل ، وهذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم فى تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة ، وقد اتفق لى فيها كلام أذكره هنا تتميما للفائدة ، وذلك انه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا سفر الى حضرة السلطان المولى أبى على الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الاول من السنة المذكورة ، ومررنا فى طريقنا على المحب القائد الانبل أبى عبد الله محمد بن ادريس الجرارى بثغر الجديدة ، وهو يومئذ متول لعملها ، فأجل قدومنا على عادته حفظه الله فى محبة العلم ومن ينتمى اليه ، وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت ، وكانت السنة سنة وباء ، فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى فى أمر الكرنتينة من حبس المسافرين وشذاذ الآفاق عن المرور بالسبل والدخول الى الامصار والقرى ومنع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم ؛ وحصل التوقف تلك الساعة فى حكمها الشرعى ما ذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه ، ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوى المصرى فى اخبار باريز فرأيته ذكر فى صدرها : انه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد المناعى التونسى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية بها العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد البيرم فى اباحة الكرنتينة وحظرها ، فقال المالكى بحرمتها وألف فى ذلك رسالة ، واعتماده فى الاستدلال فيها على ان الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء . وقال الحنفى باباحتها ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا . فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لى النظر فى حكم هذه الكرنتينة وظهر لى أن

القول باباحتها أو حرمتها منظور فيه الى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمه الله، ثم يوازن بينهما وأيتهما رجحت على الاخرى عمل عليها، فان استوتا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم فى أصول الفقه، ونحن اذا امعنا النظر فى هذه الكرنتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة، اما المصلحة فهى : سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء، وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة، لانه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وانه مهما استعملها أهل قطر أو بلد الا ويسلمون لا دائما ولا غالبا بل الكثير أو الاكثر انهم يستعملونها ويبالغون فى اقامة قوانينها ثم يصيبهم ما فروا منه كما هو مشاهد؛ ومن زعم ان السلامة مقرونة بهذا دائما أو غالبا فعليه البيان اذ البينة على المدعى، فنتج من هذا أن مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة، واذا كانت كذلك فلا يلتفت اليها شرعا بل ولا طبعا لانها حينئذ من قبيل العبث. وأما المفسدة فهى : دنيوية ودينية، أما الدنيوية فهى الاضرار بالتجار وسائر المسافرين الى الاقطار بحبسهم وتعويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم، واما الدينية فهى تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح فى توكلهم وايهام ان ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه، وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشىء يكون أو لا يكون، فان العامة – لقصورافهامهم – قدتذهب اوهامهم معهذه الظواهر فيقفون معهاويقعون فى ورطة ضعف الايمان عياذا بالله فان قلت: هذا الكلام فيه ميل الى سوء الظن بالعامة وهم جمهور الامة. قلت : ليس فيه ميل الى سوء الظن بهم وانما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ما شاؤا أو يفعل بهم ما يضرهم فى دينهم ودنياهم مع ان سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لاسيما فى المذهب المالكى، ولامر ما جاءت الشريعة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد ونحوها ورد الاسباب والمسببات كلها الى الله تعالى. مع ما فى استعمال هذه الكرنتينة من الاقتداء بالاعاجم والتزيى بزى الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم الى الاصابة والحكمة كما

قد يصرح به الحمقى من العوام . فأما اذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهى الفتنة والعياذ بالله ؛ فاى مفسدة اقبح من هذه ؟ فالحاصل ان الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها ، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير . وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلانى فى تفسير سورة النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى : « ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم » ما نصه : « دل ذلك على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب » اه . وهو يقتضى بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأى وجه كان ، ولا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذى ليس فيه مفسدة شرعية ، كعدم القدوم على الارض التى بها الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة فى ابانه المنقولة عن أئمة الطب ، اما بالوجه الذى يشتمل على مفسدة أو مفاسد كهذه الكرنتينة فلا . هذا ما تحرر لنا فى هذه المسئلة والله أعلم .

ولما وقف على هذا الكلام اخونا فى الله العلامة الاستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى وهو اليوم قاضى حضرة مراكش كتب الى ما نصه : « وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التى لا تفى بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة فى الجهات المتعددة ، ولا يخالف فى هذا الحكم الا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق الا الضلال » ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك ، تركناها اختصارا والله تعالى الموفق بمنه .

١٨٦

وفاة المنصور رحمه الله

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع الى مراكش ، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص الى أن دخلت سنة اثنتى عشرة وألف فانتشر الوباء فى بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به على ما نذكره .

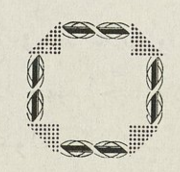
قال صاحب الاصليت وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسى المعروف بأبى محلى : « كنا نسمع أن السلطان المنصور اذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس لا يرجع الى مراكش ، وذاع هذا الخبر فى الناس قبل نزوله فكان الامر كذلك ، ثم لا أدرى من أين للناس بذلك ، هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الاشبه والله أعلم » قال : « ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضا لكن بعد الوقوع والنزول ، ان دخول رايات أبى العباس المنصور فى حياته للسودان واستيلاءه على سلطانها سكية فى دار امارته كاغو مع تنبكتو وأعمالها ، كل ذلك من امارات خروج الامام المهدى الفاطمى؛ وكذلك الوباء المنتشر فى هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء فى سائر البلاد حتى الآن ، وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران اما على يده أو باذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر » اه .

وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدى عميرة يوم الاربعاء حادى عشر ربيع النبوى سنة اثنتى عشرة وألف ، ودخل الى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفى هنالك ليلة الاثنين الموالى لتاريخه ، ودفن بازاء مقصورة الجامع الاعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور ، وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة عليه مفتى فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار

قال اليفرنى : « كانت وفاة المنصور بالوباء » وقال الشيخ أبو محمد عبد الله بن يعقوب السملالى فى شرحه لجامع شامل بهرام : « كان بالمغرب وباء

استطال به من سنة سبع الى سنة ست عشرة وألف ، وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الاعيان ، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله » ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره . قال اليفرنى : « وبه تعلم أن ما شاع على الالسنة من ان المنصور سمه ولده زيدان باشارة من أمه الشبانية فى باكور أوائل ظهوره ، وقطع عنه الاطباء الى أن هلك ، وان المنصور لما أحس بذلك قال : استعجلتها يازيدان لا هناك الله بهـا ؟ أو كلاما هذا معناه » : قالـوا : وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية ، فانه انهزم فى زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له ، لان المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به ما شاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة » اه : ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه الى مراكش فدفن بها فى قبور الاشراف قبلى جامع المنصور من القصبة ، وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيـل ، ومما نقش على رخامة قبره هـذه الابيات :

هـذا ضريح من غـدت	بـه المعـالى تفتخـر
أحمـد منصور اللـوا	لكـل مجـد مبتكر
يـا رحمـة الله اسرعـى	بكـل نعمى تستمر
وباكرى الرمس بما	ء من رضـاه منهمـر
وطيبـى ثـراه من	نـد كذكره العطر
وافـق تاريخ الـوفـا	ة دون تفنيـد ذكـر
مقعـد صـدق داره	عنـد مليـك مقتدر



١٨٨

بقية اخبار المنصور وبعض سيرته

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازما يقظا مشاورا فى مهمات الامور ، وكان قد اتخذ يوم الاربعاء للمشورة ، وسماه يوم الديوان ، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأى فيما ينوب من جلائل الامور وعظيم النوازل ؛ وهنالك يظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول الى السلطان، قالوا : ومن حزمه انه كان متطلعا لاخبار النواحى بحاثا عنها ، غير متراخ فى قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطىء بالجواب ، ويقول : « كل شىء يقبل التأخير الا مجاوبة العمال عن رسائلهم » . وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم الا فى أوقات مخصوصة .

قال الفشتالى : « ولقد كنا بالباب يوما - يعنى معشر الكتاب - قبل أن يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبى عبد الله محمد بن على الفشتالى بأن ولدا له فى النزع فلم يملك نفسه أن ذهب الى داره ، فخرج المنصور على اثره فسأل عنه ، فقيل انه ذهب الى داره ، فاستشاط غضبا وبعث اليه فجىء به مزعجا ، وما شككنا فى عقوبته ، فلما مثل بين يديه قال له : « ما الذى ذهب بك ؟ » فذكر له أمر ولده وانه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب ، فرق له وقال : « ان امراض الصبيان قلما ينجع فيها الا طب العجائز، ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن » .

ومن حزمه انه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقا ، فاذا سقط ووقع فى يد عدو أو غيره لا يدرى ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه ؛ فكان اذا جهز أحد أولاده ناوله خطا من تلك الخطوط يفك بها رسائله اليه ويكتب عنوانه كذلك .

ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقى فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد فى خط المشارقة ، ومما وقع له فى ذلك : أنه بعث بطاقة

بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبى عبد الله ابن عيسى يستدعى منه كتابا ، فبعثه ابن عيسى اليه وبعث معه بهذين البيتين :

شقتنى كؤس السرور دهاقا   خطوط أتتنى فى مهرق
رأت كف أحمد فى الغرب بحرا   فجاءت اليه من المشرق

وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها ، وزاد الامر على ما كان عليه فى عهد أبيه حسبما مر ، وكانت الرعية تشتكى ذلك منه ونالها اجحاف منه ومن عماله ، وكان غير متوقف فى الدماء ولا هياب للوقيعة فيها . قال اليفرنى : « وتتبع ما وقع فى ذلك يناقض المقصود من الاغضاء عن العورات والستر على الفضائح ، وقد ألمعنا لك بما يكون دالا على ما وراءه » . وذكر أن بعض عمال المنصور عدا على امرأة من دكالة وأخذ منها أموالا فقدمت المرأة على المنصور بمراكش تشكو له ما نالها من عامله ، فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت الى أولادها بالباب وقالت لهم : « انصرفوا فانى كنت أظن ان راس العين صافية فاذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها » .

ويحكى أن الفقيه القاضى أبا مالك عبد الواحد الحميدى قد سافر فى جمع من فقهاء فاس وأعيانها الى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هى العادة ، فمروا فى طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا فى سلسلة واحدة ، وفيهم امرأة أخذها الطلق وهى فى كرب المخاض ، فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم ؛ فبقى ذلك فى نفس القاضى ، فلما جلس الى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه ، فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياما ، ثم ان القاضى تلطف فى القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة ، فقال له المنصور : « لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجىء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام فى أمن ودعة ، فان أهل المغرب مجانين مارستانهم هى السلاسل والاغلال » .

ولقد وفد القاضى المذكور على المنصور فى بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب الاغانى

من أهل فاس ، وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة ، فأخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصعة أعطاه اياها المنصور ، وبعضهم قال أعطانى كذا ، وقال الآخر أجازنى بكذا ؛ مما لم يعط مثله للقاضى وشيعته من الفقهاء ، فقال القاضى : « لئن بلغت فاسا لأردن أولادى الى صنعة الموسيقى، فان صنعة العلم كاسدة ، ولولا ان الموسيقى هى العلم العزيز ما رجعنا مخفقين، ورجع المغنى بشبابة الابريز » فنقل الى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام .

وذكر أبو زيد فى الفوائد ما صورته : « عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة فى ضيعة له فشكاه الى المنصور ، فقال له : « كم تساوى ضيعتك ؟ » قال : « سبعمائة اوقية » قال : « خذها وقل لخالى الموعد بينى وبينك الموقف الذى لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان » فرجع صاحب الضيعة وأبلغ الى العامل كلام المنصور ، فأمسك برأسه ساعة ثم قال له : « ألحق بضيعتك » وغرم له كل ما أكل منها » اه .

وقال فى المناهل : « كان للمنصور مصانع اخترعها ومآثر خلفها منها : المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس ، أحدهما خارج باب عجيسة ، والآخر قبالته بباب الفتوح ؛ وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون ، وهما من الاتقان بحيث لا يعرف قدرهما الا من وقف عليهما ، وكان الشروع فى بنائهما يوم الاثنين الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وتسعمائة. ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح ، وهما أيضا فى نهاية الوثاقة والحسن . ومن ذلك معاصر السكر فانه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة . قال الفشتالى : « وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر فى أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة » وقد تقدم انه كان يشترى الرخام من النصارى بالسكر ؛ ومن مآثره البيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور ، وقد تقدم الخبر عنها . وقال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور» : « ان اللباس المسمى بالمنصورية ـ وهو لباس من الملف ـ لم يكن مستعملا قبله ، وهو أول

من اخترعه واضيف اليه فقيل المنصورية » .

وكان فى مدة المنصور من الاحداث أنـــه :

فى سنة سبع وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول ، قال فى المرآة : « لما انتهب الناس غنيمة وادى المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ ».وفى هذه السنة ايضا أصاب الناس فى بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه ، وكان الرجل لا يزال يسعل الى أن تفيض نفسه فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة .

وفى سنة احدى وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوى نسبة الى جنوة من بلاد الفرنج ، كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية ؛ وسبب اسلام والده ما حكاه أبو العباس الاندلسى فى رحلته : انه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم ، ثم بادر باخراج الفرس ؛ ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا : « ان المسيح جاء البارحة على فرسه الى الكنيسة وراث فيها » فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى فى شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل ، فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر الى بلاد الاسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم ، فنشأ مثلا فى العلم والولاية ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم . وكان رضى الله عنه يقول : « خرجت من بين فرث ودم » ؛ أخذ الطريقة عن أبى محمد الغزوانى وقدم عليه مراكش ثم عاد الى فاس فمات بها فى السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح .

وفى سنة خمس وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ العلامة الامام أبو العباس أحمد بن على المنجور ، كان متبحرا فى العلوم خصوصا أصول الفقه ، أخذ عن اليسيتنى وأبى زيد سقين العاصمى وأبى الحسن بن هرون وأبى مالك الوانشريسى وغيرهم .

وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ أبو الشتاء الشاوى دفين جبل آمركو من بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكنى بأبى الشتاء لان الناس قحطوا ولجأوا اليه فسقوا فى الحين ، وهو من أصحاب الشيخ الغزوانى . ويقال : ما لقيه الا مرة بقبيلتهما الشاوية فعينه ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان .

وفى ثامن عشر ربيع الثانى سنة ثلاث وألف توفى القاضى أبو محمد عبد الواحد بن احمد الحميدى ودفن بروضة الشيخ أبى زيد الهزميرى خارج باب مصمودة من عدوة فاس الاندلس وقد تقدمت بعض أخباره .

وفى سنة أربع وألف توفى الشيخ أبو الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بأبى الشكاوى دفين شالة وبها كان سكناه ، أخذ عن الشيخ المجذوب وأبى الرواين المحجوب وغيرهما ، وأولاده ينتسبون الى عيسى بن ادريس الحسنى دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم .

وفى سنة ست وألف توفى الشيخ الربانى أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعرى دفين تاستاوت من مشاهير الاولياء ، كان أول نشأته بمكناسة الزيتون ثم خرج الى البادية بعد أن صعبت عليه القراءة ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « انك لن تقرأ ولكنك شيخ » فخرج الى البادية وكان يظن انه يكون من اشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبى عمرو القسطلى ورجع الى باديته فبنى مسجدا فى الموضع الذى عين له شيخه لسكناه ، فيقال انه لما قيل له جعلت محرابه منحرفا عن القبلة اشار بيده الى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شىء قدير وكان الشيخ ابوعبدالله محمد الشرقى معاصرا له فقيل له: ان الشيخ ابن مبارك قال : « أهل زماننا محسوبون علينا » فقال : « اشهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك . وفى هذه السنة أيضا كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطال فيها ومات به جمع من الاعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور .

وفى سنة تسع وألف فى جمدى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس ،

ثم فى شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الاول تهدمت منه الدور والحوانيت ، وتهدم سد الوادى بفاس على وثاقته وأحكامه ، وهذا السد هو الذى كان جدده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى ، ثم جدده المنصور فى هذه المرة من أحباس القرويين :

وفى سنة عشر وألف توفى الشيخ العارف بالله الربانى أبو عبد الله ، ويقال أبو عبيد محمد (فتحا) الشرقى ابن الولى الصالح أبى القاسم الزعرى الجابرى ثم الرتمى (*) ، هكذا نسبه صاحب المرآة وغيره ، ورفع أبو على المعدانى فى كتابه « الروض الفائح » نسبه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبى عبد الله محمد الصالح ابن المعطى ما نصه : « ان الشيخ سيدى محمد الشرقى لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما عثرنا عليه ، أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت فى اجازاتهم وكذا فى تمليكاتهم » اه وهذا الشيخ ـ أعنى أبا عبد الله الشرقى ـ كان من أكابر أهل وقته ، يقال انه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الاولياء ، وبعث اليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته ، واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على أن وفد عليه زائرا ومدحه بقصيدة ذكر بعضها اليفرنى فى الصفوة ، وله مع أبى المحاسن الفاسى مراسلات ومواصلات ، ووقع بينهما كلام طويل انظر « ابتهاج القلوب » ؛ أخذ رضى الله عنه عن والده عن الشيخ التباع واعتمد على الشيخ الكبير أبى عبد الله محمد بن عمرو المختارى من أحواز

(*) وفى (نشر المثانى) عن الشيخ أبى عبد الله المسناوى فى نسب الشيخ المذكور السميرى هكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى تقييد لمؤلف الممتع : ما نصه : (هو من بنى جابر ثم من ورديغة ثم من الرتمة ثم من اولاد بحر ثم من أولاد سمير ، كلهم ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه) اه من خط مؤلفه

مكناسة ، وأخذ أيضا عن ابن مبارك الزعرى وأبى محمد بن ساسى ، وتوفى أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعيدان وقبره شهير نفعنا الله بـه وبسائر أهـل الله .



تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس

وأولـــــــه :

الخبر عن دولة السلطان أبى المعـالى زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

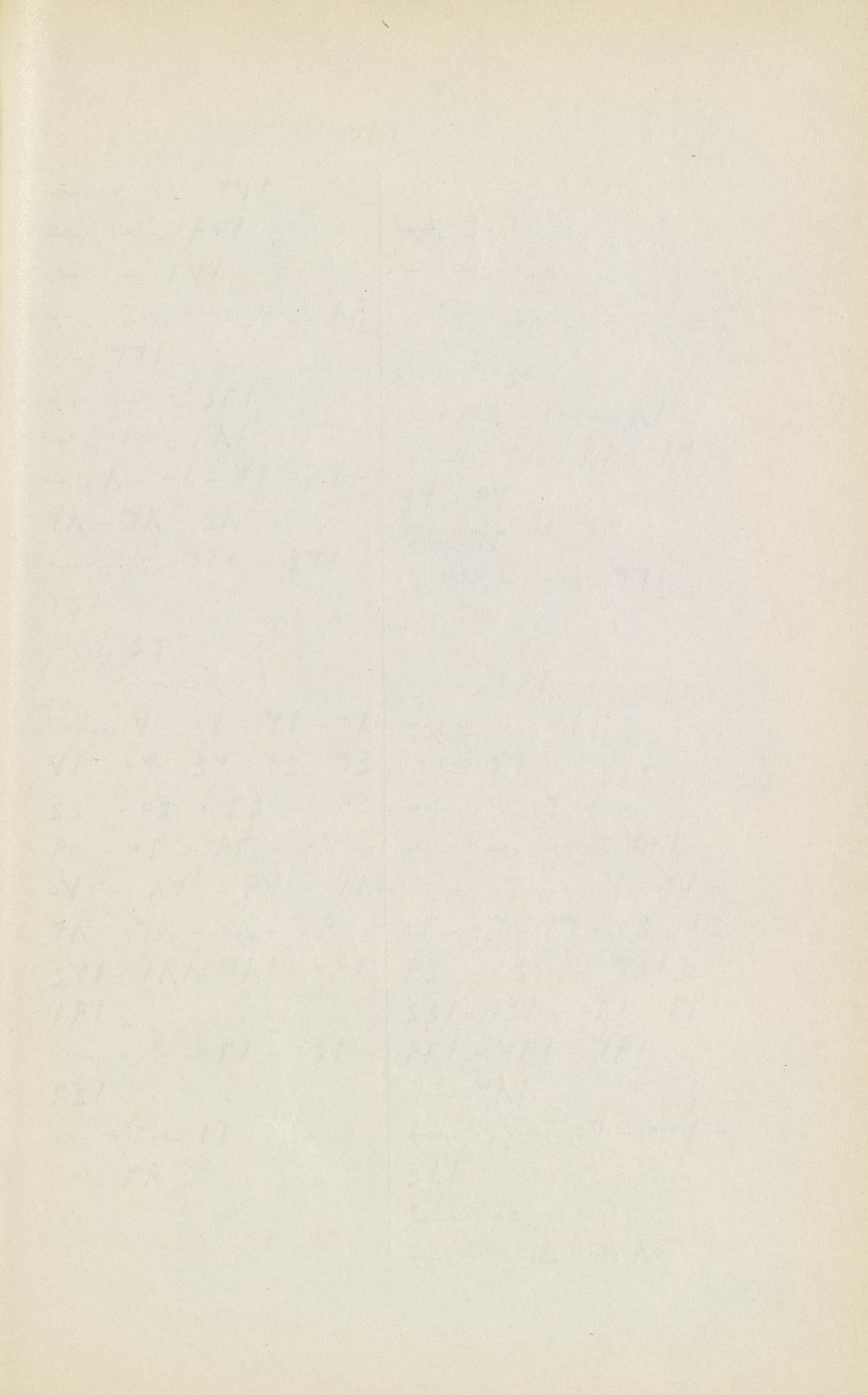
حرف (م)

حرف (ن)

حرف (ه)

حرف (و)

حرف (ى)



فهرس الاماكن

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ق)

حرف (ك)

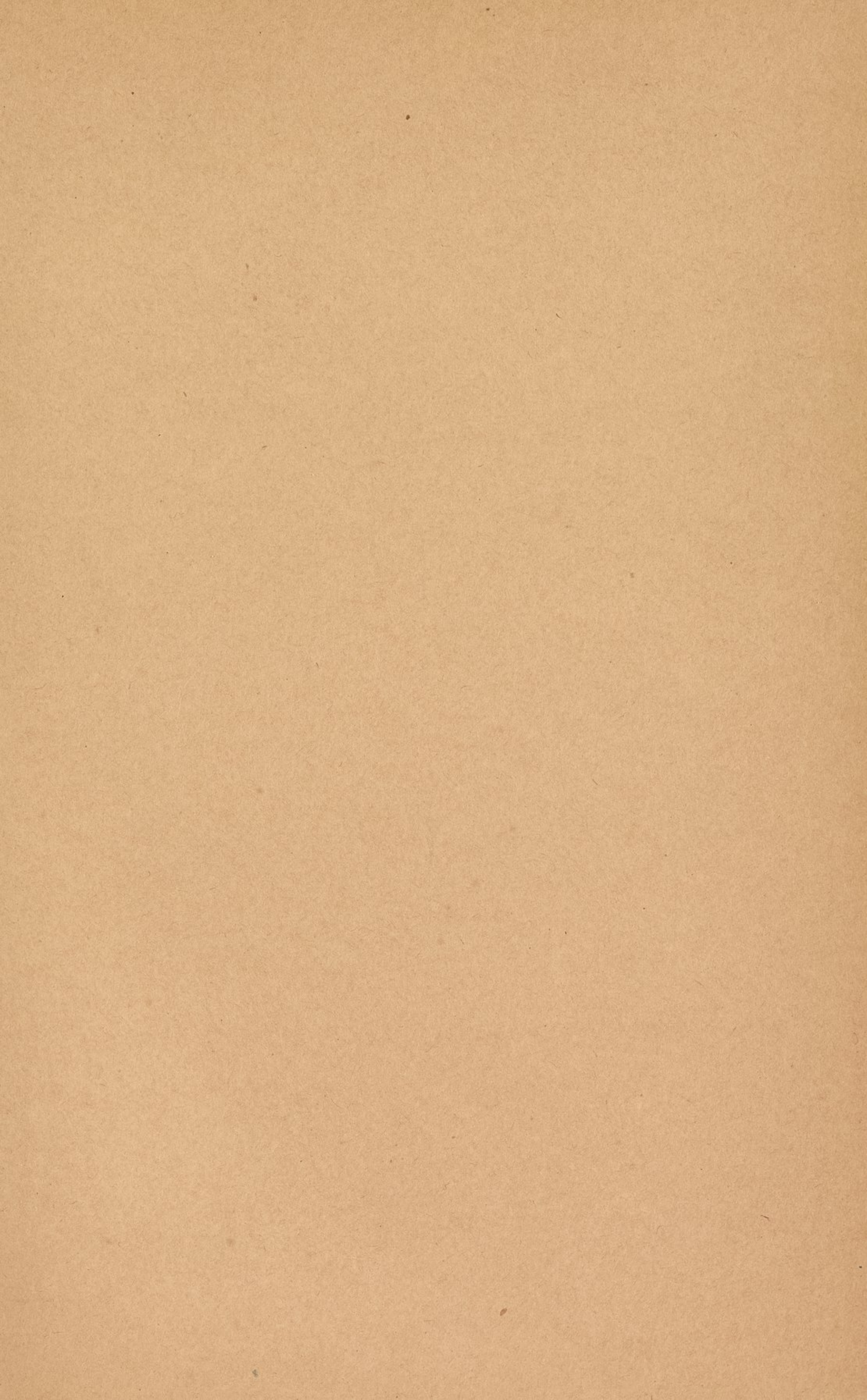
حرف (م)

حرف (ن)

حرف (و)

حرف (ى)





الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب

الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة السعدية

- القسم الثانى -

الجزء السادس

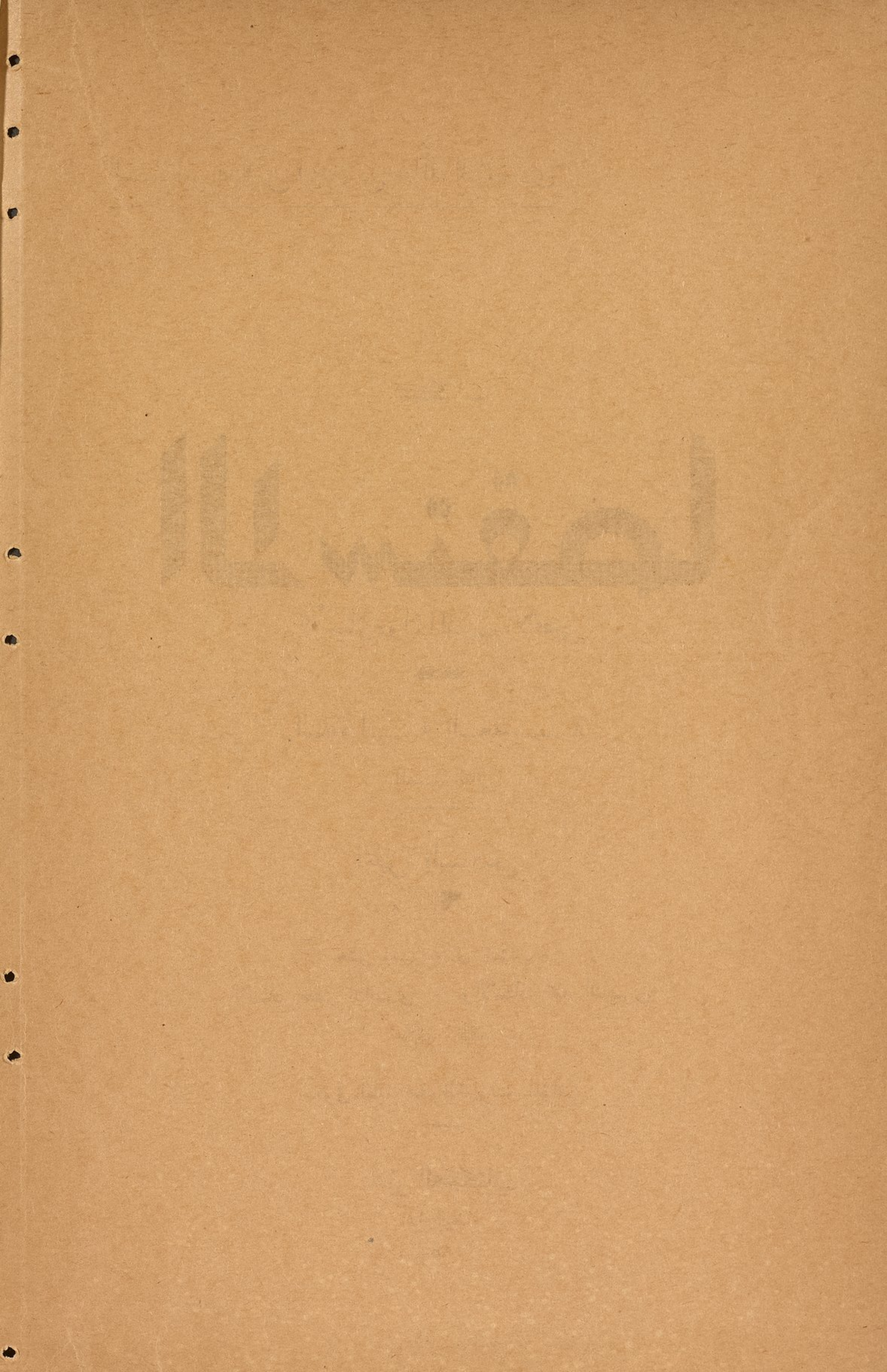
تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

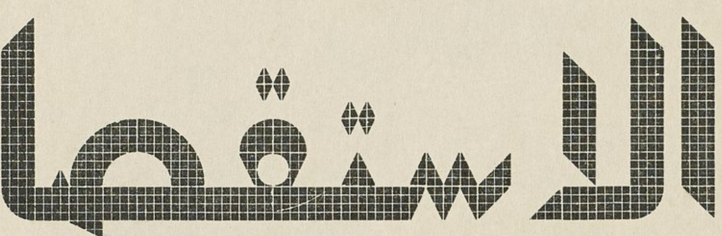
الدار البيضاء

١٩٥٥



الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الـدولـــة السعديـــة

- القسم الثانى -

الجزء السادس

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة السعدية

القسم الثانى

الخبر عن دولة السلطان أبى المعالى زيدان بن احمد المنصور

رحمه الله تعالى

لما توفى المنصور رحمه الله وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان ، وقالوا: ان المنصور استخلفه فى حياته ومات فى حجره، وكان ممن تصدى لذلك القاضيان : قاضى الجماعة بفاس ابو القاسم بن ابى النعيم ، والقاضى ابو الحسن على بن عمران السلاسى ، والاستاذ ابو عبد الله محمد الشاوى ، والشيخ النظار ابو عبد الله محمد بن قاسم القصار وغيرهم . ويحكى ان القاضى ابن ابى النعيم قام فى الناس خطيبا وقال : اما بعد ، السلام عليكم ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات اجتمع الناس على ابى بكر رضى الله عنه ، ونحن قد مات مولانا أحمد وهذا ولده مولانا زيدان اولى بالملك من اخوته. فبايعه الحاضرون يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الاول سنة اثنتى عشرة والف(*) . قالوا : وكان زيدان لما توفى والده كتم موته وبعث جماعة للقبض على اخيه الشيخ المسجون بمكناسة

(*) قال المؤرخ المجهول: بويع زيدان بعد وفاة ابيه وقبل دفنه، ونسب الخطبة الاتية للقصار وزاد فيها بعد قوله اجتمع الناس على ابى بكر ما نصه : فبايعوه واخذوا فى تجهيز رسول الله بعد ذلك ونحن كذلك نفعل. واظن هذه الرواية اقرب الى الواقع لان القصد بالخطبة هو تبيين السنة فى تقديم المبايعة على الدفن والا كانت من محض الاخبار بالمعلوم

فمنعهم من ذلك الباشا جؤذر كبير جيش الاندلس وحمل الشيخ موثقا الى مراكش حتى دفعه الى اخيه أبى فارس وكان شقيقا له ، فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من امره ما ياتى كذا قال بعضهم . وقال فى شرح «زهرة الشماريخ» : ان زيدان لما اشتغل بدفن والده احتال القائد ابو العباس أحمد بن منصور العلج فذهب بنصف المحلة الى مراكش نازعا عن زيدان الى ابى فارس ومر فى طريقه بمكناسة فاخرج الشيخ من اعتقاله واحتمله معه الى ابى فارس فسجنه فلم يزل مسجونا عنده الى ان كان من امره ما نذكره والله تعالى أعلم

انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لابي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة

كان المنصور رحمه الله قد فرق عمالات المغرب على اولاده كما مر ، فاستعمل الشيخ على فاس والغرب وولاه عهده ، واستعمل زيدان على تادلا واعمالها ، واستخلف ، عند نهوضه الى فاس ، ابنه ابا فارس على مراكش واعمالها وكان يكاتبه بما مر بعضه من الرسائل ، فلما اتصل بأهل مراكش وفاة المنصور وكتب اليهم أهل فاس بمبايعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس لكونه خليفة ابيه بدار ملكه التى هى مراكش ولان جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل الى ابى فارس لان زيدان كان منتبذا عنهم بتادلا سائر ايام ابيه فلم يكن لهم به كثير المام ولا مزيد استئناس ، مع أنه كان جديرا بالامر لعلمه وادبه وكمال مروءته رحمه الله الا ان السعد لم يساعده وقد قيل فى المثل قديما : « قاتل بسعد والا فدع » ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر فى ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضى فاس ابن ابى النعيم ، ومفتيها ابى عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث : «اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» وكانت بيعة

أبى فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الاول من سنة اثنتى عشرة والف ، وهو شقيق الشيخ المأمون ، امهما ام ولد اسمها الجوهر ، ويقال الخيزران ، واسم ابى فارس هذا : عبد الله وتلقب بالواثق بالله ، وكان اكولا عظيم البطن مصابا بمس الجن ويقال : انه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ ابى العباس السبتى وشيد مناره وشحن الخزانة التى بقبلى الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر كل ذلك رجاء ان تعود عليه بركة ذلك الشيخ بالبرء من تلك العلة ، وكان مع ذلك يميل الى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله

نهوض السلطان زيدان لحرب أبى فارس وانهزامه بام الربيع ثم فراره الى تلمسان

لما بايع اهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض اليه فخرج من فاس يؤم بلاد الحوز ، واتصل الخبر بابى فارس فجهز لقتاله جيشا كثيفا وامر عليهم ولده عبد الملك الى نظر الباشا جؤذر، فقيل له : ان زيدان رجل شجاع عارف بمكايد الحرب وخدعه وولدك عبد الملك لا يقدر على مقاومته فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان اقرب للرأى لان أهل الغرب لا يقاتلونه لانه كان خليفة عليهم مدة فهم آنس به من زيدان ، فأطلق أبو فارس اخاه المأمون من ثقاف السجن واخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا ، ثم سرحه فى ستمائة من جيش المتفرقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعث بهم الى كاغو من أعمال السودان ، وقال له ولاصحابه : « جدوا السير الليلة كى تصبحوا بمحلة جؤذر على وادى ام الربيع » فلما انتهى الشيخ الى المحلة المذكورة وعلم الناس به اهرعوا اليه واستبشروا بمقدمه . ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له : حواتة عند ام الربيع ففر عن زيدان أكثر

جيشه الى المأمون وحنوا الى سالف عهده وقديم صحبته ، فانهزم زيدان لذلك ورجع ادراجه الى فاس فتحصن بها

وكان ابو فارس قد تقدم الى اصحابه فى القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان فلما فر زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم اليه من جيش أهل الغرب وامتنع على اصحاب ابى فارس فلم يقدروا منه على شىء وانتعش امره واشتدت شوكته ثم سار الى فاس يقفو أثر السلطان زيدان

ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه اليه راود أهل فاس على القيام معه فى الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التى هى مقتضى بيعتهم التى أعطوا بها صفقتهم عن رضى منهم ، فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعته لقديم صحبتهم له . ولما ايس زيدان من نصرهم وقد ارهقه الشيخ فى جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجيا بنفسه ، وتبعه جمع عظيم من اصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شىء ، وذهب الى تلمسان فأقام بها الى ان كان من امره ما نذكره

واما الشيخ فانه لما وصل الى فاس تلقاه اهلها ذكورا واناثا واظهروا الفرح بمقدمه فدخلها ودعا لنفسه فاجيب واستبد بملكها ، ثم أمر جيش أهل مراكش ان يرجعوا الى بلادهم فانقلبوا الى صاحبهم مخفقين

وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستبداد بالامر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضى الجماعة أبى القاسم بن ابى النعيم ، ومفتيها أبى عبد الله محمد بن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفى أخيه ابى فارس : «ان اولاد الاماء لا يتقدمون فى الامر على اولاد الحرائر . » وكان ابو فارس والشيخ ولدى امة اسمها : الخيزران كما مر ، وزيدان امه حرة من الشبانات ، وعزم ان ينكل بهما ثم بعث بهما مع جيش مراكش الى أخيه ابى فارس ليرى فيهما رأيه فاما الشيخ القصار فتوفى رحمه الله على مقربة من مراكش بزاوية الشيخ ابن ساسى وحمل الى مراكش فدفن بقبة القاضى عياض وذلك فى اواسط سنة اثنتى عشرة والف ؟ وأما القاضى ابو القاسم فاجتمع بأبى فارس فقبل عذره وصفح عنه

ورده مكرما الى فاس هكذا ذكره بعضهم* وقيل : ان الذى بعث بالشيخ القصار الى مراكش هو السلطان زيدان على وجه يخالف هذا والله أعلم ؛

نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلاؤه على مراكش

ثم ان الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار اهلها فاستسلف منهم مالا كثيرا واظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ، ثم تتبع قواد ابيه فنهب ذخائرهم واستصفى اموالهم وعذب من اخفى من ذلك شيئا منهم ، ثم جهز جيشا لقتال اخيه أبى فارس بمراكش ، وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف ، وامر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد ابا فارس بمحلته فى موضع يقال له : اكلميم ، ويقال : فى مرس الرماد فوقعت الهزيمة على ابى فارس وقتل نحو المائة من اصحابه ونهبت محلته ، وفر هو بنفسه الى مسفيوة ، ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد «ومن يشابه أباه فما ظلم » حتى حكى انه زنى بجوارى جده المنصور واستمتع بحظاياه ، واكل رمضان وشرب الخمر فيه جهارا وعكف على اللذات والقى جلباب الحياء عن وجهه ، وكان دخوله مراكش فى العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف*

(*) وكانت عاقبة أمره القتل كما سيذكره المؤلف

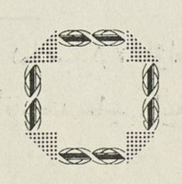
(*) ثم فر منها الى السوس فأقام عند حاجب ابيه عبد العزيز بن سعيدالوزكيتى كما سيذكره المؤلف

٨

مجىء السلطان زيدان الى المغرب واستيلاؤه على مراكش

وطـرده عبد الله بن الشيخ عنهـا

كان السلطان زيدان لما فر من فاس الى تلمسان كما مر أقام بها مدة وكان قد بعث الى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على اخويه فابطـأوا عليه وطال عليه انتظارهم ، فلما يئس منهم توجه الى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ، ثم انتقل عنها الى درعة ومنها الى السوس ، فكتب اليه أهل مراكش ، وقد ندموا على ما فرطوا فيه من امره والدخول فـى طاعته ، أن ياتيهم ولو وحده ، فتوجه اليهم ودخل عليهم ليلا فلم يفجـأ عبد الله بن الشيخ الا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبـوا معه وتقدموا الى قائدهم عبد الله اعراس الذى ولاه عليهم الشيخ فقتلوه ، وخرج عبد الله فارا بجموعه من اهـل فاس والغـرب ، فحاصرهم أهـل مراكش بين الاسوار والجنات ، وقتلوا من اصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة ، وامر زيدان بقتل كـل مـن تخلف عن عبد الله من جيشه ، فاتى القتل على جميـع مـن وجد بمراكش من جيش اهل فاس ، وذلك فى اواخر سنة خمس عشرة والف ، وفر عبد الله بن الشيخ ناجيا بنفسه حتى قدم على ابيه بفاس فى اسوأ الحالات ، مفلول العساكر مهزوم الجموع معتاضا عن جيش النصر بجيش الدموع



٩

عود عبد الله بن الشيخ الى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها

لما قدم عبد الله بن الشيخ على ابيه بفاس سليبا مهزوما قامت قيامته ورأى ان يهيىء عسكرا آخر ويجدد جمعا ثانيا فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته ، واستحيى ان يستسلف من التجار لانه كان استسلف منهم فلم يرد لهم شيئا : ولما اعيته الحيلة رجع على قواده فقلب لهم ظهر المجن ونهب اموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار ، فاجتمع له من ذلك اموال عريضة فرقها فى جيشه ، وتهيأ عبد الله للمسير الى مراكش ، وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من اخوانهم بها ونادوا بأخذ ثارهم حتى ان بعضهم خرج مع عبد الله من غير أخذ مرتب ولا جامكية ، فخرج عبد الله بجموع عديدة وجيوش حفيلة ، ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث اليه العلج مصطفى باشا فى جيوش كثيرة . قال فى شرح « زهرة الشماريخ » : كان بعث مصطفى باشا وخروجه من مراكش فى شعبان سنة ست عشرة والف ، فالتقى الجمعان بموضع يقال له تافلفلت(*) على طريق سلا فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراكش نحو التسعة آلاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس الى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى ، ثم توجه عبد الله الى مراكش فبرز اليه أهلها فى ستة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له : رأس العين ، فانهزم أهل مراكش ، وتقدم عبد الله بن الشيخ فاقتحمها بجيشه ، وفر زيدان الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فبقى متنقلا هنالك الى أن كان من أمره ما نذكره

(*) هى المعروفة بتيفلت اليوم بارض زمور

ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان الى مراكش

لما دخل عبد الله بن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الاولى ، وهربت شرذمة من أهل مراكش الى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية واتفق رأيهم على ان يقدموا للخلافة محمد بن عبد المومن ابن السلطان محمد الشيخ ، وكان رجلا خيرا دينا صينا وقورا فبايعه أهل مراكش هنالك ، والتفوا عليه ، فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور .
ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الادبار فخرج من مراكش مهزوما سادس شوال سنة ست عشرة وألف ، وترك محلته وانفاضه وعدته وجل الجيش ، واخذ على طريق تامسنا وامتحن اصحابه فى ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقية والخبزة من نصف رطل بربع مثقال ، ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مروا عليه من الخيام والعمود ويسبون البنات الى أن وصلوا الى فاس فى الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة،

وأما محمد بن عبد المومن فانه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل الغرب من جيش عبد الله بن الشيخ ، وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش ، ونقموا عليه ابقاءه عليهم ، وكانوا نحو الالف ونصف ، فكتبوا سرا الى السلطان زيدان بالجبل فاتاهم وخيم نازلا بظاهر البلد ، فخرج محمد بن عبد المومن الى لقائه فانهزم ابن عبد المومن ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها وصفح هو ايضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ . وذكر فى شرح «زهرة الشماريخ» : ان هذا الثائر بجبل جيليز اسمه أبو حسون من أولاد السلطان ابى العباس الاعرج والله أعلم ، ولعل هذا الصواب بدليل ما يأتى فى رسالة زيدان ان شاء الله

خروج جالية الاندلس من غرناطة وأعمالها الى بلاد المغرب وغيرها

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة واعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، وان أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطوها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف ، وان عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة ، وكان أهل الاندلس من أجل ذلك كثيرا ما يهاجرون من بلاد الكفر الى بلاد الاسلام أثناء هذه المدة السالفة ، غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم وأثر فيهم ذلك اثرا ظاهرا لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم ، فكانت تصدر منهم فى بعض الاحيان مقالات قبيحة فى حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم ، لا سيما اذا نالهم منهم بعض الظلم ، ولقد رأيت فى كتاب « المعيار » وغيره : سؤالات وفتاوى صدرت من علماء المغرب فى حق هؤلاء الصنف منهم ، وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جندا كبيرا ، وبهم فتح المنصور اقليم السودان ، واستمر الحال على ذلك الى أن كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها .

قال فى « نفح الطيب » : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها فى التنصر حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا الى أن كان اخراج النصارى اياهم أعوام سبعة عشرة وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان ، ووهران ، وخرج جمهورهم بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل منهم من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا قراها الخالية وبلادها . »اه

وقال صاحب «الخلاصة النقية فى امراء افريقية» ما نصه : « وفى سنة ست عشرة وألف قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس فاوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه وأباح لهم بناء القرى فى مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم » اه ثم قال فى «نفح الطيب» « وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر ، ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام » اه كلام نفح الطيب ، وقوله : وحصنوا قلعة سلا يعنى بها رباط الفتح اذ هى يومئذ مضافة الى سلا ومعدودة منها . والله تعالى اعلم

استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها الى العرائش ثم الى طاغية الاصبنيول

كان الشيخ بن المنصور عفا الله عنه على ما تقدم من قبح السيرة والاساءة الى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس ورفضته القلوب وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعا ، وكان قد بعث ابنه عبد الله مرة ثالثة الى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها فخرج عبد الله من فاس آخر ذى الحجة سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بوادى بوركراك فكانت الهزيمة على عبد الله وفر فى رهط من اصحابه وترك محلته بما فيها بيد السلطان زيدان ، فاستولى عليها ، وانضم اليه جيش عبد الله من أهل فاس وغيرهم ميلا اليه ورغبة فى صحبته . فعفا عنهم وتألفهم : واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب ، واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه فخاف الفضيحة وأصبح غاديا فى أهله وحشمه الى ناحية

العرائش ، فاحتل بالقصر الكبير وهناك لحق به ابنه عبد الله مهزوما من وقعة بوركراك ، وانضم اليهما أبو فارس بن المنصور ، فانه بعد فراره من مرس الرماد الى مسفيوة أقام بها مدة . ولما استولى السلطان زيدان على مراكش كما مر شدد فى طلبه ففر الى السوس ، ولما أعيت عليه المذاهب وزيدان فى طلبه لحق بشقيقه الشيخ فكان معه الى هذا التاريخ

ثم ان السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا الى فاس فانتهى اليها ونزل مخيما بظهر الزاوية ، ووجد لاصحاب الشيخ زروعا كثيرة فارسل مصطفى باشا عليها جيشه فانتسفوها ، ودخلت فاس فى طاعته ثم نهض الى ناحية القصر الكبير ناويا القبض على الشيخ وحزبه ، واتصل بالشيخ خبره ففر الى العرائش ، ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على السلطان زيدان ، وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته ، وذلك فى ذى القعدة سنة سبع عشرة والف

وانتهى مصطفى باشا الى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد الله وابو فارس فنزلا بموضع يقال له : سطح بنى وارتين ، فبلغ خبرهما الى السلطان زيدان ، فجاء حتى نزل قبالتهما بموضع يقال له : آرورات ، ففر من كان معهما الى السلطان زيدان ، ولما بقيا أوحش من وتد بقاع فرا الى دار اليهودى ابن مشعل من بلاد بنى يزناسن فأقاما بها

واختصر صاحب « المرآة » هذا الخبر فقال : كان السلطان ابو المعالى زيدان بن المنصور التقى مع ابن اخيه عبد الله بن الشيخ صاحب فاس برؤوس الشعاب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة سبع عشرة وألف فانهزم عبد الله بن الشيخ وفر الى محلة ابيه بالعرائش ، ثم رجع الى جهة فاس ، وانتهى الى دار ابن مشعل واستولى عمه السلطان زيدان على محلته وسار الى فاس فدخلها وأقام بها .» اه

وفى دخلة السلطان زيدان هذه الى فاس قبض على الفقيه القاضى أبى الحسن على بن عمران السلاسى رحمه الله قال اليفرنى فى

« الصفوة » : كان القاضى المذكور ممن أخذ عن الشيخ القصار وكان مع ذلك لما ولى القصار الفتوى والخطابة بجامع القرويين يسعى عند السلطان فى تأخيره حتى أخر، وولى هومكانه مدة يسيرة ثم اعيد القصار، وكانت بينهما شحناء عظيمة بسبب فتوى تنازعا فيها ، ثم أفضت الحال بالقاضى أبى الحسن الى أن قبض عليه السلطان زيدان بسبب أنه عثر له على كتاب كتبه الى بعض اخوته ينتقصه فيه ويوهن أمره ، فأوغر ذلك قلب السلطان عليه فسطا به وسجنه ونهب داره واثاثه ثم سقاه سما ، على ما قيل ، فكان فيه حتفه ، وقد حكى هذا الخبر فى موضع آخر من « الصفوة » مطولا فقال: كان القاضى أبو الحسن على بن عمران السلاسى شديد الانحراف عن الشيخ العارف بالله أبى زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسى سيىء الاعتقاد فيه ، ولم يزل يسعى به ويكيده ، فاتفق ان اجتمع بالشيخ فى بعض الليالى بعض من يتعاطى العلم فتكلموا فى مسائل من صفات الله فنقل كلام الشيخ الى القاضى على غير وجهه فانكر ذلك ، وركب من حينه الى السلطان زيدان ، وهو يومئذ بفاس ، منتهزا للفرصة فقال : «ان ههنا رجلا يعلم الناس البدع ويلقنهم آراء الفرق الضالة » فقال له السلطان :«من هو؟» قال : «فلان » قال : «أخو سيدى يوسف» ؟ قال : «نعم» قال : «سمعنا انه أعلم من اخيه » ثم بعث السلطان اليه ، وهو مستشيط غضبا لخبر بلغه من ثورة بعض أقاربه عليه فجاء الشيخ ابو زيد ولم يخلع نعله حتى بلغ بساط السلطان ، فسلم عليه ومد يده فصافحه ، ثم تكلموا فى المسألة فانقطع القاضى ولم يجد ما يقول . الا ان الناقل لم يحسن نقلها، فقال له الشيخ : «فهلا تثبت !» وكان بعض علماء مراكش حاضرا فبالغ فى عتاب القاضى ، وقيل للشيخ : «ما سبب الوحشة بينك وبين هؤلاء ؟» فقال : « لا شىء الا الاستغناء عنهم » فقالوا : « ياسيدى هذا وصف يوجب الحب » فما انفصل الشيخ عن السلطان حتى اطلع على ما يوجب القبض على القاضى فقبض عليه ونهب داره فى الحين ، فنزل الشيخ من فاس الجديد فلقى اثاث القاضى فى الطريق جىء به منهوبا ، وبقى فى السجن الى أن مات

مسموما رحمه الله . وكان الاديب الكاتب أبو عبد الله المكلاثى قد كتب اليه بابيات يقول فيها ما نصه :

أما لهلال غاب عنا سفور ... فيجلى به خطب دجاه تثور
فصبرا لدهر رام يمنحك الاسى ... فانت عظيم والعظيم صبور
سيظهر ما عهدته من جمالكم ... فللبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيى رسوم للمعالى تغيرت ... فللميت من بعد الممات نشور
أبا حسن انى على الحب لم أزل ... مقيما عليه ما أقام ثبير
ففى الفم ماء من بقايا ودادكم ... وذلك عندى سائغ ونمير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا ... وغنت باغصان الرياض طيور

قال منشئها : وقد انشدتها بين يديه بمحبسه فبكى حتى ظننت أنه سيهلك ثم افاق وقال : «لله الامر من قبل ومن بعد» فراجعنى رضى الله عنه بابيات يقول فيها :

تفتق عن زهر الربيع سطور ... فما هى الا روضة وغدير
هزمت من الصدر الجريح همومه ... فانت على جند الكلام امير
محمد هل فى العصر غيرك شاعر ... له معكم فى الخافقين ظهور
فانى على صفو الوداد وإننى ... سأشدو وقلبى بالهموم كسير
متى وعسى يثنى الزمان عنانه ... بنهضة جد والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب ... وتحدث من بعد الامور أمور
عليك سلام الله منى فاننى ... غريب باقصى المغربين أسير

وكانت وفاة القاضى المذكور رحمه الله فى جامع المشور فى مهل ربيع الثانى سنة ثمان عشرة والف

١٦

عود عبد الله بن الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها
ومقتل مصطفى باشا رحمه الله

لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها الى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فنهض اليها مزعجا ، واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا ، ولما اتصل خبر نهوضه بعبد الله بن الشيخ ، وهو بدار ابن مشعل، زحف الى فاس فيمن انضم اليه فبرز اليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس من ناحية باب الفتوح قال فى « المرآة » : وعرض لابى الحسن على بن يوسف الاندلسى المعروف بالبيطار غرض من أمور العامة كان يتردد فيه الى المحلة فركب اليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثانى سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فاجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا ، وفقد ابو الحسن بن البيطار . وقال فى «النزهة» : لما رحل زيدان الى مراكش بسبب ما بلغه من قيام بعض الثوار عليه ،هنالك قدم عبدالله بن الشيخ وعمه أبو فارس الى فاس فخرج مصطفى باشا لمقاتلتهما فعثر به فرسه وقتل وأخذت محلته باسرها ،وهلك ما لا يحصى من الناس ووقع النهب حتى انتهب من البقر التى تحلب نحو ستة آلاف ، ودخل عبد الله بن الشيخ فاسا مع عمه ابى فارس وذلك سابع عشر ربيع الثانى سنة ثمان عشرة وألف .



١٧

تلخيص خبر أبى فارس ومقتله رحمه الله تعالى

تقدم لنا أن أبا فارس بن المنصور بويع بمراكش وبعث أخاه الشيخ لقتال السلطان زيدان فنكث الشيخ عهده واستبد عليه ، ثم بعث اليه ابنه عبد الله فهزمه الى مسفيوة ثم فر منها الى السوس ، فأقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى ، ثم لما بالغ زيدان فى طلبه فر الى اخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ الى أن قتل مصطفى باشا ودخل عبد الله فاسا فاستولى عليها كما ذكرناه آنفا فاتفق رأى قواد شراكة على قتل عبد الله وتولية عمه أبى فارس ، فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبى فارس ليلا مع حاجبه حمو بن عمر فوجده على سجادته وجواريه حوله فاخرجهن وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه الى أن مات وذلك فى جمدى الاولى سنة ثمان عشرة والف ، هذا هو الصواب لا ما فى « نشر المثانى » على اضطرابه فأسف الناس عليه لانه كان يرده عن المناكر ويزجره عن كثير من القبائح ، وذكر فى « المنتقى » أبياتا من انشاء الكاتب أبى محمد عبد القادر بن أحمد بن القاسم الفشتالى مما كتب تطريزا على نجاد الواثق بالله أبى فارس المذكور وهى :

أتيه وأزرى بكل نجاد يروق على حلة اللابس
اذا كنت يوم الوغى محملا لعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى سليل الوصى أبى فارس

١٨

عود السلطان زيدان الى فاس واستيلاؤه عليها

ثم اعراضه عنها سائر ايامه

لما سمع السلطان زيدان ، وهو بمراكش ، بمقتل مصطفى باشا نهض الى فاس وجاء على طريق الجبل وكان نصارى الاصبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك باذن الشيخ كما سيأتى . وكان عبد الله بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيأوا لذلك وعزموا على النهوض اليها فما راعهم الا السلطان زيدان قد اقبل من ناحية ادخسان ، وقد أنزل بها محتله ، وتقدم الى جهة فاس وضرب بأنقاضه فانهزم الناس عن عبد الله ودخل شراكة فاسا فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد وامر المنادى ان ينادى بنصره ، فنزل المنادى الى ان بلغ باب السلسلة فقام فى وجهه بعض السياب من أهل العدوة وضربه فجرحه ورجع المنادى وبطل الامر فبلغ الخبر السلطان زيدان فأمر باطلاق السبيل فى أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ثم ندم فامنهم وسكن روعتهم ، ونزل زيدان بوادى فاس فخرج الناس للقائه ، وهو غضبان عليهم ، وقد استولى على فاس وتمكن منها ، فاخذ يسب اعيانهم وهم بقتلهم ولكن الله سلم

ثم ان العرب اجتمعوا عند قنطرة المهدومة فى نحو ثمانية آلاف فخرج اليهم زيدان ومعه عرب الشرق فانهزموا عنه ولم يبق معه الا رهط يسير فرأى زيدان امامه خيلا قليلة فقصدها فاذا فيها عبد الله بن الشيخ وقد رأى زيدان مقبلا اليه ففر ، مع ان زيدان انما قصد الفرار اليه من غير علم له به فاستتب أمر زيدان وتراجع اليه أصحابه ، ومن الغد رجع الى فاس فخرج اليه اهل فاس يهنئونه كبارا وصغارا فاتهمهم بانهم يستهزئون به فأمر بهم فسلبوا رجالا ونساء فكان بعضهم ينظر الى عورة بعض ، وكان عدد السلب نحو عشرة آلاف كسوة ودخل أصحاب زيدان

١٩

فاسا فنهبوها وفعلوا فيها الافاعيل ، ثم امر زيدان بتسكين الروعة والامـان وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة والف ، فلما كـان اليـوم الحادى عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء فخرج اليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من اصحابه نحو الخمسمائة ، وفر الى محلته التى ترك بادخسان ، وكان ذلـك آخر رجوع زيدان الى فـاس فانه لما اعياه امر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته الى ضبط ما خلف وادى ام الربيع الى مراكش واعمالها ، وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده ، وبقى عبد الله بن الشيخ يقطع الايام بفاس الى أن هلك ، وقـام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيابها على ما نذكر . وفى كتاب « ابتهـاج القلوب فـى أخبار الشيخ المجذوب » ما صورته : « تكلم الشيخ سيدى كـدار يـوما فى ملوك وقته فقال : «اما الشيخ معطى العرائش ، فان اهل الله قد دقوا أوتاده هنالك حتى يموت » فلم يتجاوز محله الى ان قتل به حوز تطاوين كما سياتى ، واما زيدان فانه لما اطلق السبيل فى أهل فاس ضربه مـولاى ادريس بركلة صيرته وراء ام الربيع فلم يتجاوزه بعد ذلك » اه



٢٠

استيلاء نصارى الاصبنيول على العرائش والسبب في ذلك

قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من انه فر الى العرائش ومنها ركب البحر الى طاغية الاصبنيول مستصرخا به على اخيه السلطان زيدان فابى الطاغية ان يمده ، فراوده الشيخ على ان يترك عنده اولاده وحشمه رهنا ويعينه بالمال والرجال حتى اذا ملك أمره بذل له ما شارطه عليه ولم يزل به الى ان شرط عليه الطاغية ان يخلى له العرائش من المسلمين ويمكنه اياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه ، وخرج حتى نزل حجر باديس فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة والف ثم تقدم فنزل ببلاد الريف

ولما سمع ذلك اهل فاس خافوا من شوكته وذهب جمع من علمائهم واعيانهم كالقاضى أبى القاسم بن ابى النعيم ، والشريف أبى اسحاق ابراهيم الصقلى الحسينى وغيرهما لملاقاته وتهنئته بالقدوم ، فلما وصلوا اليه فرح بهم وامر قبطان النصارى ان يخرج مدافعه وانفاضه ارهابا واظهارا لقوة النصارى الذين استنصر بهم ففعل حتى اصطكت الآذان وارتجت الجبال ، ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلما رأوه مقبلا امرهم الشيخ بالقيام له فقاموا اليه اجمعون ، وجازوه خيرا على ما فعل مع الشيخ من الاحسان والنصرة ، وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى ، وانكر الناس على اولئك الاعيان قيامهم للكافر ، وضربوا بعصى الذل حتى انهم فى رجوعهم الى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم واخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعا ما عدا القاضى ابن ابى النعيم فانه عرف بزى القضاء فاحترموه

ثم ان الشيخ انتقل الى القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فاقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه ان يقفوا معه فى تمكين النصارى من العرائش ليفى له الطاغية بما وعده من النصرة فامتنع الناس من اسعافه

فى ذلك ولم يوافقه على غرضه الا قائده الكرنى فانه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ اليها وامره ان يخليها ولا يدع بهـا احدا مـن المسلمين ، فذهب الكرنى المذكور وكلم اهلها فى ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبكون تخفق على رؤوسهم الوية الصغار

ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرنى الى ان دخلها النصارى واستولوا عليها فى رابع رمضان سنة تسع عشرة والف ، ووقع فى قلوب المسلمين من الامتعاض لاخذ العرائش امر عظيم ، وانكروا ذلـك أشد الانكار ، وقام الشريف ابو العباس احمد بن ادريس العمرانى ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش ، فانضاف اليه اقوام وعزموا على التوجه لذلك ففت فى عضدهم قائدهم حمو المعروف بابى دبيرة ، وصرف وجوههم عما قصدوه فى حكاية طويلة

وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وانكار الخاصة والعامة عليه اعطاءه بلدا من بلاد الاسلام للكفار احتال فى ذلك وكتب سؤالا الى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل فى بلاد العدو الكافر واقتحمها كرهـا باولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش ، وانهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك لهم اولاده رهنا على ذلـك ، فهل يجوز له ان يفدى اولاده من أيدى الكفار بهذا الثغر ام لا* ؟ فأجابـوه بان فداء المسلمين سيما اولاد أمير المؤمنين سيما اولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من يد العدو الكافر باعطاء بلد من بلاد الاسلام لـه جائـز

(*) كان ممن أفتى بالجواز الفقيه محمد بن قاسم ابن القاضى وقتلته العامة بالقرويين عند العشاء يوم الاثنين ٢١ حجة عام ١١٤٠ وسبب قتله ما اتهم به من موافقته على تمكين النصارى من ثغر العرائش اذ كان حضر مع من استدعى محمد الشيخ من العلماء لاجل ذلك، فتعلق بأغراض فاسدة وامور واهية لم يقبلها احد هـ قاله صاحب النشر ج ١ ص ١٥٦ وقد تأخر قتله عن الحادثة بسنين لان المأمون قتل سنة ١٠٢٢ ويظهر ان العامة كانت تحقد عليه فعلته وانتهزت فرصة الفتن التى توالت بعد ذلك بفاس فانتقمت منه والله اعلم

وانا موافقون على ذلك . ووقع هذا الاستفتاء بعد ان وقع ما وقع،وما اجاب من أجاب من العلماء عن ذلك الا خوفا على نفسه . وقد فر جماعة من تلك الفتوى كالامام ابى عبد الله محمد الجنان صاحب الطرر على المختصر ، وكالامام ابى العباس أحمد المقرى مؤلف «نفح الطيب» فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما ، وبسبب هذه الفتوى ايضا فر جماعة من علماء فاس الى البادية كالشيخ أبى على الحسن الزياتى شارح جمل ابن المجراد ، والحافظ ابى العباس أحمد بن يوسف الفاسى وغيرهما *

بقية اخبار الشيخ ومقتله رحمه الله وتجاوز عنه

ثم ان الشيخ ابن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه لمة من أهل الذعارة والفساد على شاكلته فنهض بهم الى تطاوين فاستولى عليها واخرج منها كبيرها المقدم المجاهد ابا العباس احمد النقسيس ، ولم يزل الشيخ يجول فى بلاد الفحص ويعسف اهلها الى ان ملته القلوب وتمالأ اشياخ الفحص على قتاله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته ، وتمليكه ثغر الاسلام للكفار ، ففتك به المقدم ابو الليف فى وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقى صريعا مكشوف العورة اياما حتى خرج جماعة من أهل تطاوين فحملوه مع من قتل معه من اصحابه كالدبيريين وبعض اولاده ودفنوهم خارج تطاوين الى ان حمل الشيخ الى فاس الجديد مع امه الخيزران فدفنا به ، وكان مقتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف

(*) وممن انكر على المأمون واغلظ له فى الملام الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابى الحسن المعروف بالحاج الاغصاوى البقال من اولاد الحاج البقال ، فانفذ المأمون اعوانه واتوا به الى فاس فقتله بها ضربا سنة ١٠١٧ ودفن بالسياج وبنيت عليه قبة اه . قاله التعارجى فى تاريخه ج ٤ ص ٢٦٢ . وراجع ترجمته فى النشر ج اول ص ١٠١ .

وقال منويل : انه وصل الى قرب تطاوين وبنى هنالك افراكا وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج الى عين ماء هنالك فاستلقى قربها فى نبات اخضر أعجبته خضرته فجاءه اناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشدخوا رأسه بصخرة فقتلوه . ويقال ان قتله كان باشارة الثائر ابى محلى الآتى ذكره وانه كتب الى المقدمين النقسيس وابى الليف يحضهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان شيئا كثيرا ، ومن جملة ما نهب منه نحو المد من الياقوت وبقى من اثاثه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة فاستولى عليه نصاراها من البرتقال لما قتل ، وكان للشيخ عفا الله عنه مشاركة فى العلم ويد فى مبادىء الطب أخذ عن أشياخ الحضرتين وله شعر متقارب ، ومن كتابه الاديب المتفنن ابو العباس احمد ابن محمد الغرديس التغلبى وكان من اهل الاجادة والتبريز فى صناعة الانشاء . قال الشيخ ابو محمد العربى الفاسى فى شرحه لدلائل الخيرات عند قوله « وكان لى جار نساخ » ما نصه : « وقد كان الشيخ الكاتب الرئيس ابو العباس أحمد الغرديس شيخ كتاب الانشاء بحضرة فاس رحمه الله استعار منى كتاب الانباء فى شرح الاسماء للاقليشى ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند رأسه ومعه كراريس منسوخة واخرى معدة للنسخ فقال لى : « انى اذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فاذا غلبنى ما بى امسكت » فقلت له : «ولم تتكلف هذا؟ » فقال : «انى عصيت الله بهذه الاصابع ما لا احصيه فرجوت ان يكون ما اعانيه على هذه الحال من نسخ هذا الكتاب خاتمة عملى وكفارة لذلك » فكمل الله قصده واتم الكتاب وتوفى من مرضه ذلك وقد طال به سنة عشرين والف » اهـ ولهذا الكاتب يقول الشاعر :

تمتعت ياغرديس والدهر راقد ... وأنت بفاس وابن حيون واجد
بسعدك راحت خيزران لقبرها ... «مصائب قوم عند قوم فوائد»

رياسة ولى الله تعالى أبى عبد الله سيدى محمد العياشى على الجهاد ومبدأ امره فى ذلك

هذا الرجل هو ولى الله تعالى المجاهد فى سبيله ابو عبد الله محمد (فتحا) ابن احمد المالكى الزيانى المعروف بالعياشى ، ونسبته الى بنى مالك بن زغبة الهلاليين ، وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب ، كان رحمه الله مستوطنا مدينة سلا ، وكان من تلامذة الولى العارف بالله تعالى ابى محمد عبد الله ابن حسون السلاسى دفين سلا ،

وكان ابتداء امر أبى عبد الله انه كان ملازما لشيخه المذكور من أقرب التلامذة اليه واسرعهم الى خدمته واولهم دخولا عليه وآخرهم خروجا عنه وكان مع ذلك كثير الورع قليل الكلام مديما للصيام وقراءة القرآن فكان الشيخ ابن حسون ملتفتا اليه ، ولم يزل الامر على ذلك الى ان شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه ، فاهدى له يوما بعض اشياخ القبائل فرسا فامر الشيخ باسراجه وقال : «اين محمد العياشى ؟» فقال : ها أنا ذا ياسيدى » فقال الشيخ : «اركب بحول الله فرسك ودنياك وآخرتك » فتقهقر تأدبا فحلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده ، وقال له : « ارتحل عنى الى آزمور وانزل على اولاد ابى عزيز ولا بد لك من الرجوع الى هذه البلاد وسيكون لك شأن عظيم» فودعه ابو عبد الله ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير ، فقصد ناحية آزمور ونزل حيث عين له شيخه المذكور ، وذلك لاول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة والف ، فلم يزل ابو عبد الله العياشى مثابرا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفا بوجوه المكايد الحربية بطلا شهما مقداما فى مواطن الاحجام وقورا صموتا عن الكلام ، فطار بذلك فى البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من التضييق على نصارى الجديدة ، وكانوا يومئذ

قد امر أمرهم ، ففرح بذلك قائد آزمور ، ولم يزل الامر على ذلك الى أن توفى قائد الفحص والبلاد الآزمورية فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له : سيدى محمد العياشى ، فكتب اليه بالتولية فقبل ، ونهض باعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده .

وكانت له مع نصارى الجديدة وقائع وضيق عليهم حتى منعهم من الحرث والرعى فبعث النصارى الى حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم ابا عبد الله المذكور لمضايقته لهم ، فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه على عزله ، واظهروا له انه مسموع الكلمة فى تلك النواحى ، وأنه يخشى على الدولة منه ، وكان ابو عبد الله العياشى كلما بعث بالغنائم وما يفتح الله به عليه من الاسارى الى مراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه ، فوغر بذلك قلب زيدان وحنق عليه ، فبعث اليه قائده محمد السنوسى فى اربعمائة فارس وامره بالقبض عليه وقتله ، والقى الله فى قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث اليه خفية : ان انج بنفسك فانك مغدور ، فخرج أبو عبد الله العياشى فى اربعين رجلا فرسانا ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين والف ولما انتهى السنوسى الى آزمور ولم يجد له أثرا أظهر العناية بالبحث عنه وعاقب شرذمة من أهل الفحص على افلاته تعمية على السلطان واقامة لعذره عنده،فقبل السلطان زيدان ذلك والله غالب على أمره .

٢٦

ثورة الفقيه ابي العباس احمد بن عبد الله السجلماسي

المعروف با ابى محلى

قال فى كتابه « اصليت الخريت » ما ملخصه : « كانت ولادتى سنة سبع وستين وتسعمائة بسجلماسة والذى تلقيته من ابى وكافة عمومتى أن اولاد ابى محلى من ذرية العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، واما جدنا الاشهر المكنى بابى محلى بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها ياء تحتية ساكنة مع كبير شهرته لا علم لى الآن بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله بعد البحث عنه ، قال : وبخطة القضاء اشتهر سبنا فنعرف باولاد القاضى وزاويتنا بزاوية القاضى ولم تزل بقية العلم فى دورنا وخصوصا دار أبى(*) » اه

وقال صاحب « البستان » : ابو محلى هذا اسمه احمد بن عبد الله وينتسب الى بنى العباس ويعرفون فى سجلماسة باولاد ابن اليسع أهل زاوية القاضى » انتهى . قلت : اما الانتساب الى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فقد انكر ابن خلدون وجود النسبة العباسية فى المغرب ، قال فى فصل اختلاط الانساب وما بعده ما نصه : « ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسى الى احد من شيعة العلويين » اه ثم قال ابو محلى فى الكتاب المذكور : « فلما نشأت فى حجر والدى بذل مجهوده فى تعليمى ، وقد كانت امى رأت وهى حامل بى وليا من اولياء الله تعالى احد شيوخ التربية ببلدنا ، وهو الشيخ ابو الحسن على بن عبد الله السجلماسى ، قد سقاها قدحا من لبن ، وأرجو الله صدق تأويلها بالعلم والدين وحق اليقين » قال : « وكان خروجى لطلب العلم بفاس فى حدود

(*) انظر الرحلة العياشية ج. ١ ص. ١٩

الثمانين وتسعمائة ، وانا يومئذ مراهق او بالغ الحلم ، لا همة لى الا فى العلم ، فاقمت بفاس نحو خمس سنين الى ان جاء النصارى الى وادى المخازن فدهش الناس ، واستشرت اخا من الطلبة فدلنى على الخروج الى البادية حتى ينجلى نهار الامن ، فخرجت الى كريكرة فحفظت فيها الرسالة، وقد كنت ما حصلت بفاس الا النحو ، ثم رجعت الى فاس بعد ان زال الدهش بهزيمة النصارى وولاية المنصور ، والنحو صنعتى ، وفى الفقه رغبتى .

وقد كنت فى الخرجة الاولى الى البادية زرت قبر الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه فطلبت الله عنده أن أكون من الراسخين فى العلوم بأسرها ، وتوبة يتقبلها فما دار على الحول الا وأنا بزاوية الشيخ أبى عبد الله سيدى محمد بن مبارك الزعرى، لا عن قصد ، لكونى اذذاك مولعا بالعلم، أما طريق الفقر فلا تخطر لى ببال لان المعتمد يومئذ فى فقراء الوقت اخلاق الضلال ، فكنت أشد الناس حذرا منهم الى أن انكشف الستر فرأيت ما رأيت ووعيت ، فصاحبت شيخى الذى لولاه مع فضل الله لهلكت، ولولا هدايته باذن الله لضللت ، أعنى أبا عبد الله مولاى محمد بن مبارك الزعرى القبيل الجرارى السبيل وهو رضى الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زعير بصيغة التصغير والنسب اليها زعرى على التكبير ، وهى قبيلة من عرب السوس بالمغرب الاقصى » قال: « فبقيت فى صحبة شيخى المذكور نحوا من ثمان عشرة سنة وما فارقته الا عن أمره اذ هو الذى وجهنى الى بلدى سجلماسة من غير اختيار قائلا لى : « صلاحهم فيك » ثم ناولنى عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب منى لشىء من ذلك ، وجعل فى رأسى قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع ، فلما استوطنت بلدى عن اذنه زرته منه احدى عشرة مرة ، وفى الاخيرة منها وذلك بعد مقفلى من الحجة الاولى التى كانت سنة اثنتين بعد الالف دعالى بقوله : « بلاك الله أكثر مما بلانى » فتأولتها باقبال الخلق كما ترى ، وقد صاح عندها صيحة عظيمة لم أر مثلها منه منذ صحبته ، اذ عادته كانت الطمأنينة ،

ولما توفى رحمه الله بقيت نحوا من ثلاث سنين عاطلا ، ثم تحلى النحـر
بدرر لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما أسدى وله الشكر فيمـا أولى »
ثم ذكر بقية أشياخه كالشيخ أبى العباس المنجور ، والشيخ أبـى العباس
السودانى ، والشيخ سالم السنهورى وغيرهم ممن يطول ذكرهم ، قال :
« ثم كملت الفائدة بعد المقفل من الحج فرجعت الى الديار المغربيـة ونزلت
بوادى الساورة ثم تحولت بجميع عيالى الى الوادى المذكور » هذا ملخص
أوليته منقولا من كتابه المذكـــور .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد التواتى رحمه الله تعالى فى رسالته
التى سماها « مقامة التحلى والتخلى من صحبة الشيخ أبى محلى » وهـى
رسالة طويلة مسجعة قال : « كان الفقيه أبو محلى فى أول أمره فقيها صرفا
ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الاحوال الربانية ولاحت
له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجا ، وقصدوه فرادى وأزواجا،
وبعد صيته وكثرت أتباعه » قال : « فلما سمعت بذلك ذهبت اليـه وجلست
عنده الـى ان وجدته يشير الى نفسه بأنه المهدى المعلوم المبشر به فى صحيح
الاحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء » اهـ

وقال الشيخ اليوسى فى « محاضراته » وقد تكلم على الدعوى الفاطمية
ما نصه : وممن ابتلى بها قريبا أحمد بن عبد الله بن ابى محلى التستاوتى
خاض فى الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق ، وألف فيها كتابا يدل
على ذلك ثم نزغت به هذه النزغة فحدثونا انه كان فى أول أمره معاشرا
لمحمد بن أبى بكر الدلائى ، وكان البلد اذ ذاك قد كثرت فيه المناكـر
وشاعت فقال ابن أبى محلى لابن أبى بكر ذات ليلة هل لك فى أن نخرج
غدا الى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ؟ فلم يساعفـه لمـا رأى
من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر ، فلما أصبحا خرجا ، فأما ابن ابى
بكر فانطلق الى ناحية النهر فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلق وأقام صلاتـه
وأوراده فى أوقاتها ، وأما ابن أبى محلى فتقدم لما هم به من الحسبة فوقع
فى شر وخصام أداه الى فوات الصلاة عن الوقت ، ولم يحصل على طائل ،

فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبى بكر : « أما انا فقد قضيت ما ربى وحفظت دينى وانقلبت فى سلامة وصفاء ومن أتى منكرا فالله حسيبه » أو نحو هذا من الكلام ، وأما أنت فانظر ما الذى وقعت فيه ، ثم لم ينته الى أن ذهب الى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدى المنتظر وانه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام واتبعوه » اه .

وصار ابن أبى محلى يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة ، ويشيع أنه الفاطمى المنتظر ، وان من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فموبق ، وربما كان يقول لاصحابه محرضا لهم على نصرته : « أنتم أفضل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لانكم قمتم بنصر الحق فى زمن الباطل ، وهم قاموا به فى زمن الحق» ونحو هذا من زخارف كلامه ، والى ذلك أشار الفقيه أبو زكريا يحيى ابن عبد المنعم الحاحى فى بعض قصائده معرضا بأبى محلى المذكور فقال :

يا أمة المصطفى الهادى أليس لكم ... فيمن مضى اسوة من سائر العلما
نسيتم دين خير الخلق وافترقت ... آراؤكم فغدا الاسلام منقسما
أتحسبون بأن الله تارككم ... سدى وخلقكم قد تعلمون لما
ناشدتكم بالذى فى العرض يجمعنا ... أما فطنتم ومالاه كمن فهما
بان مغربكم قد عمه سخط ... من المهيمن يا لله معتصما
ان قيل للناس ان الهرج يوبقكم ... قالوا الفقيه فلان قبلنا اعتزما
لو لم يكن جاز ما أفتى الامام به ... ولا أتاه ، ألا تبنوا الذى انهدما
ومن يقل قال خير الخلق قيل له ... ها صاحب الوقت يكفينا الذى علما
ونحن أفضل من صحب الرسول لنا ... أجر يضاعف فى أجفارنا نظما
وزخرفوا ترهات القول فانفعلت ... لهم نفوس عوام رشدها عدما

٣٠

نهوض ابن ابي محلى الى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليهما
ثم على مراكش بعدهما

كان ابو العباس ابن ابى محلى عفا الله عنه لما كثرت جموعه وانثال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذى شاع فى الناس ويقول : « ان أولاد المنصور قد تهالكوا فى طلب الملك حتى فنى الناس فيما بينهم وانتهبت الاموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم » ، ولما بلغه ما فعل الشيخ من اجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضبا وأظهر أنه غضب لله لا لشىء سواه فخرج يؤم سجلماسة ، وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير ، فخرج عامل زيدان لمصادمته ، وهو فى نحو أربعة آلاف ، وابن أبى محلى فى نحو أربعمائة ، فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان ، وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبى محلى باردا لا يضرهم ، ونفخ الشيطان فى هذه الفرية فسكنت هيبته فى القلوب ، وتمكن ناموسه منها ، ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة ، وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه ، وفيهم الفقيه العلامة أبو عثمان سعيد الجزائرى المعروف بقدورة شارح السلم ، وهو من تلامذة ابن أبى محلى كما ذكره فى الاصليت ، ولما بلغ خبر الهزيمة الى زيدان وانتهى اليه فلها جهز اليه من مراكش جيشا ، وأمر عليه أخاه عبد الله بن المنصور المعروف بالزبدة فسمع به أبو محلى فسار اليه فكان اللقاء بينهما بدرعة ، فوقعت الهزيمة على عبد الله بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف ، فقوى أمر ابن أبى محلى واشتدت شوكته ، وجمع بين سجلماسة ودرعة ، وكان القائد يونس الايسى قد هرب من زيدان لامر نقمه عليه وقصد الى أبى محلى ، فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهون عليه أمره ، وما زال به الى أن أتى به الى مراكش

فبعث اليه زيدان جيشا كثيفا فهزمه أبو محلى ، وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها ، وفر زيدان الى ثغر آسفى . وهم بركوب البحر الى بر العدوة هكذا فى « النزهة » .

وذكر لوزير البرتغالى فى كتابه الموضوع فى أخبار الجديدة : « أن نصارى الجديدة بعثوا الى السلطان زيدان بمائتين من مقاتلتهم اعانة له على عدوه من غير أن يطلب منهم ذلك ، فلما وصلوا اليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين ، لكنه أحسن اليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردهم مكرمين » هذا كلامه « والحق ما شهدت به الاعداء » وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله .

ولما دخل أبو محلى قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء ، وولد له هنالك مولود سماه زيدان ، ويقال : انه تزوج أم زيدان وبنى بها ودبت فى رأسه نشوة الملك ونسى ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك .

وفى « المحاضرات » للشيخ اليوسى رحمه الله ما صورته : « وزعموا أن اخوانه من الفقراء ذهبوا اليه حين استولى على مراكش برسم زيارته وتهنئته ، فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنئونه ويفرحون له بما حاز من الملك ، وفيهم رجل ساكت لا يتكلم ، فقال له : « ما شأنك لا تتكلم ؟ » وألح عليه فى الكلام ، فقال الرجل : « أنت اليوم سلطان فان أمنتنى على أن أقول الحق قلته » قال له : « أنت آمن فقل » فقال : « ان الكرة التى يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلفها وينكسر الناس وينجرحون وقد يموتون ويكثر الصياح والهول فاذا فتشت لم يوجد فيها الا شراويط » أى خرق بالية ملفوفة ، فلما سمع ابن أبى محلى هذا المثل وفهمه بكى وقال : « رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه » انتهى



٣٢

استصراخ السلطان زيدان بأبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحى

ومقتل أبى محلى رحمه الله

لما التف الرعاع من العامة على أبى محلى وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب الى الفقيه أبى زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد ابن عبد المنعم الحاحى ثم الداوودى مستغيثا به ، ثم وفد عليه بنفسه .
وكان يحيى بزاوية أبيه من جبل درن ، وله شهرة عظيمة بالصقع السوسى وله أتباع ، فأتاه السلطان زيدان وقال له : « ان بيعتى فى أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عنى ومقاتلة من ناوأنى ، » فلبى أبو زكرياء دعوته ، وحشر الجيوش من كل جهة ، وخرج يؤم مراكش فى ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف .

ولما انتهى الى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب اليه أبو محلى بما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبد الله الى يحيى بن عبد الله ، أما بعد ، فقد بلغنى أنك جندت وبندت ، وفى فم تانوت نزلت ، أهبط الى الوطاء ، ينكشف بيننا الغطاء ، فالذئب ختال والاسد صوال ، والايام لا تستقيم الا بطعن القنا وضرب الحسام والسلام »
فأجابه يحيى بما نصه : « من يحيى بن عبد الله الى أحمد بن عبد الله ، أما بعد ، فليست الايام لى ولا لك انما هى للملك العلام ، وقد أتيتك بأهل البنادق الاحرار ، من الشبانة ومن انتمى اليهم من بنى جرار ، ومن أهل الشرور والبؤس ، من هشتوكة الى بنى كنسوس ، فالموعد بينى وبينك جيليز ، هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزيز »
ثم زحف يحيى الى مراكش فى جموعه فنزل بقرب جيليز جبل مطل على مراكش ، وبرز اليه أبو محلى ، والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة فى نحر أبى محلى فهلك مكانه ، واندعرت جموعه ، ونهبت محلته ، واحتز رأسه وعلق على سور مراكش ، فبقى معلقا هنالك مع

رؤوس جماعة من أصحابه نحوا من اثنتى عشرة سنة ، وحملت جثته فدفنت بروضة الشيخ أبى العباس السبتى تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع . وزعم أصحابه أنه لم يمت ولكنه تغيب .

قال اليفرنى : « وحدثنى من أثق به من أهل وادى الساورة أن فيهم الى الآن من هو على هذا الاعتقاد »

وذكر الشيخ اليوسى فى « المحاضرات » : « أن أبا محلى كان ذات يوم عند استاذه ابن مبارك فورد عليه واردحال فتحرك وجعل يقول : « أنا سلطان أنا سلطان » فقال له الاستاذ : « ياأحمد هب انك تكون سلطانا ، انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » ووقع فى يوم آخر للفقراء سماع فتحرك أبو محلى وجعل يقول « أنا سلطان أنا سلطان » فتحرك فقير آخر وجعل يقول « ثلاث سنين غير ربع ، ثلاث سنين غير ربع » قال : « وهذه هى مدة ملكه » اه .

ويذكر انه لما طاف بالبيت فى وجهته الحجازية سمع وهو يقول : يارب انك قلت ، وقولك الحق ، « وتلك الايام نداولها بين الناس » فاجعل لى يارب دولة بينهم ، قالوا : « ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الامر الى ما أبرمته يد القدرة » وكان أبو محلى رحمه الله فقيها محصلا له قلم بليغ ونفس عال ، وله تآليف منها « الوضاح » و « القسطاس » « والاصليت » «والهودج » « ومنجنيق الصخور فى الرد على أهل الفجور » « وجواب الخروبى عن رسالته الشهيرة لابى عمرو القسطلى » وغيرذلك ، وقد وقعت بينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجيات نظما ونثرا كقوله :

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعى	بزور شعارا للفحول الاوائل
كدعواك فى بيت النبوة نسبة	وأنت دنىء من أخس القبائل
ووجهك وجه القرد قبح صورة	ورأسك رأس الديك بين المزابل

ويزعمون أن يحيى كان معاشرا لابى محلى أيام الطلب بالمدرسة

بفاس قال اليفرني : وحدثني صاحبنا القاضي ابو زيد السكتاني انـــه وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وابى محلى مـن الشعر فـى غــرض الهجــاء وغيــره .

وقد رمز تاريخ ثورة ابى محلى ووفاته ، الشيخ الفقيه ابو العباس أحمد المريدى المراكشى فقال : « قام طيشا ومات كبشا » ولا يخفى ما فيه بعـد افادة التاريخ من حسن التلميح وبديع التورية ، ولمـا قتل ابن ابى محـلى دخل يحيى مراكش واستقر بدار الخلافة منها والقى بهـا عصـا تسياره ، ورام ان يتخذها دار قراره ، فكتب اليه السلطان زيدان يقول : « أما بعد فان كنت انما جئت لنصرتى وكف يد ذلك الثائر عنى فقد ابلغت المـراد وشفيت الفؤاد ، وان كنت انما رمت ان تجر النــار لقرصك ، وتجعـل الملك من قنصك فأقر الله عينك به » والسلام . فتجهز يحيى للعود الى وطنه واظهر العفة عن الملك وانه انما جاء ليدافع عن السلطان الذى بيعتـه فـى عنقه ، وانقلب الى بلاده ورجع زيدان الى مراكش ، فاستقر بدار ملكـه وقد قيل : ان يحيى رام الملك وان اجناده مـن البربر لـم يساعدوه فـى قصـة طويلـة . والله اعلـم

بقية أخبار أبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحى
وما دار بينه وبين السلطان زيدان رحمهما الله

هو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى الداوودى المنانى وكان جده سعيد واحد وقته علما ودينا وهو الذى أحيا الله به السنة بالسوس ، وانتعش به الاسلام فيه ، وتوفى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فخلفه ولده ابو محمد عبد الله وجرى على نهجه وسبيله ، بل كان بعض الناس يفضله على أبيه ، وتوفى سنة اثنتى عشرة والف ودفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته . ولما مات جلس ولده ابو زكرياء يحيى موضعه وانتهج سبيله ، وكان فقيها مشاركا رحل الى فاس واخذ عن شيوخها كالمنجور وغيره ، وعن الشيخ العارف بالله ابى العباس أحمد الحسنى على ما وجد بخطه السوسانى الشهير بادفال دفين درعة ، وهو معتمده ، أخذ عنه كثيرا من الفنون واجازه فى علوم الحديث اجازة عامة ، وكان يحيى شاعرا محسنا ، وكانت له شهرة عظيمة بالصلاح ، وله أتباع كوالده وجده ، وتوجهت الى زيارته الهمم ، وركبت اليه النجائب الا أنه وقع له قريب مما وقع لابى محلى ، فتصدى للملك وخاض فى امور السلطنة فتكدر مشربه ، وقد قال بعض العلماء : « ان الرياسة اذا دخلت قلب رجل لا تقصر عن اذهاب رأسه » .ولذلك قال صاحب « الفوائد » (*) فى حقه :

---

[*] كتاب الفوائد الجمة باسناد علوم الامة ، وصاحبه هو الشيخ أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد بن ابراهيم بن أحمد الجزولى المعروف بالتنمارتى نسبة الى تمنرت واحة بجنوب الاطلس . تولى قضاء تارودانت وتوفى فى حدود السبعين وألف الموافق لسنة ١٦٦٠ . وقد نقل عنه اليفرنى الكثير فى النزهة . وتوجد منه نسخة الآن فى وقتنا هذا وهو سنة ١٣٥١ الموافقة لسنة ١٩٣٢ فى مكتبة قاضى تارودانت السيد موسى بن العربى . وأخرى بخزانتنا الناصرية بسلا .

« انه قام لجمع الكلمة والنظر فى مصالح الامة ، فاستمر به علاج ذلك الى ان توفى ولم يتم له امر » وكان يراسل السلطان زيدان ويكثر عليه ويجير عليه من استجا ربه ويروم الى مناصحته ابتغاء ، ويسر من ذلك حسوا فى ارتغاء ، وكان زيدان يتحمل منه امرا عظيما . فمما كتب به يحيى اليه ما نصه : «من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه آمين ، اللهم انا نحمدك على كل حال ، ونشكرك ياولى المؤمنين على دفع اللاواء والمحال ، ونصلى ونسلم على صفيك أفضل من شدت اليه الرحال، ونستوهبك يامولانا جميل لطفك وجزيل فضلك فى المقام والترحال ، عائذين بوجهك الكريم من مؤاخذتنا بسوء أعمالنا ياشديد المحال ، هذا وسلام الله الاتم ، ورضوانه الاعم ، ورحمته وبركاته على المولى الامام العلم المقدام ، العلوى الهمام ، كيف انتم وكيف احوالكم مع هذا الزمان الذى شمر عن ساقه لسلب الاديان ، والح فى اقتضاء هواه على كل مديان، فانا لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبعد ، فالباعث به اليكم فى هذه البطاقة امور ثلاثة مدارها على قوله صلى الله عليه وسلم : «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولخاصة المسلمين وعامتهم » فالاول : بيان سبب الركون الى جانبكم ، والثانى : الحامل على دفع مناويكم، والثالث : ملازمة نصحكم وتذكيركم والضجر مما يصدر منكم ومن اعوانكم للرعية ، أما الاول فله اسباب كثيرة منها : مراعاة الجناب النبوى الكريم فى أهل بيته ، ورضى الله عن ابى بكر الصديق القائل : « ارقبوا محمدا فى أهل بيته » والقائل : « لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى ان أصل من قرابتى »

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم المجد انكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

ومنها : نصح خاصة المسلمين الذى هو : الدعاء بالهداية لهم ورد القلوب النافرة اليهم ، ونصحهم بقدر الامكان مشافهة ومراسلة ومكاتبة ، وقد بذلنا الجهد فى الجميع اخلص الله القصد فى الجميع ، واما الثانى : فلما

جرى القدر بتغلب ذلك الانسان المتسلط على النفس والحريم والاموال وادخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس فى المذهب ، وتعدى خصوص الولاة الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ، ومد مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالايمان الينا فى الانفس والاموال ، فناشدناه ، كما تقرر فى فناوى الائمة رضى الله عنهم ، حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان ، فكان الامر كما قدر الله تعالى ، « ولله الامر من قبل ومن بعد » واما الثالث : فالكتاب والسنة والاجماع ، أما الكتاب فسورة : والعصر ، قائمة البرهان فى كل اوان وعصر . وقال تعالى فى قضية كليمه : « رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين » وقد استشهد به بعض العلماء فى برى قلم لكاتب بعض الامراء المتقدمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقوله جل من قائل : « وتعاونوا على البر والتقوى ،ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » واما السنة : فالحديث الاول ، قوله صلى الله عليه وسلم : « المعين شريك ،» وقوله : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان » وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغيير العملى اليكم حتى جذبتمونا اليه ، ودللتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه ، وقوله : «م ن اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله » وقد قال المواق فى شرحه على المختصر : « من اعان على عزل انسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم فهو شريك فى دمه ان سفك » ثم اتى بالحديث المتقدم استعظاما لذلك الامر الفظيع ، فانا لله وانا اليه راجعون ، على انا انخدعنا بالله حتى كنا نأمن بالقطع سفك الدماء اذ ذاك ، حيث كتبت الينا مرارا وأمنت وارسلت وكنت أتخوف من هذا الواقع اليوم بآزمور وآسفى ومراكش والغرب ، ولذلك كنت الحجت عليكم فى تقرير العهد حتى أتانى القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انه لسلطان تلمسان فى جرم صغير ، وقال لى : « أمرنى السلطان ان احلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه من تأمين كل من امنته ، وامضاء كل ما رأيته صلاحا للامة » ثم لم اكتف

حتى أتى القاضى فكتبت الى معه : « ان كل ما رأيت فيه الصلاح للامة أمضيته ، وانك امنت كل من امنته » ثم بعد استقرارك فى دارك كتبت الى كتابا : « انك باق على ما تعاهدنا معك عليه من الامور كلها على معيار الشريعة » فما راعنى الا وقد أخفرت فى ذمة الله وأمانى الذى عقدته للناس ، فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلد ، واخبار أخر ترد علينامن جهة السواحل، وان الناس تباع فيها للعدو دمره الله، ولم نر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه امور الثغور ، فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع ، او لم يبلغك فاعلمنا لله لتطمئن قلوبنا ، فانى أكاتبك فى ذلك فلا ارى جوابا ، فقضيت والله من الامر عجبا ، فان عددت ما من الله به عليك من رجوعك الى سرير ملكك واجتماعك بسربك آمنا من قبيل النعم فقيده بما تقيد به كما فى كريم علمك ، وان رأيته بنظر آخر فان لله ما فى السموات وما فى الارض ، واما الاجماع : فلم نر من العلماء من نهى عن نصح خاصة المسلمين وتنبيههم على ما يصلح بهم وبالرعية ، بل عدوه من الدين للحديث الاول وغيره ، واما ما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الانة القول فى مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعيا لذلك ، ولو بنصف ما خاطب به الائمة الاول اهل زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم ، وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك ولم نروه ، ويكفيكم نصح الفضيل وسفيان وامامنا مالك رضى الله عنهم ، لمعاصريهم من الولاة ومنهم من بكى وانتفع ، ومنهم من غشى عليه وتوجع ، ومنهم من ندم واسترجع ، الى غير ما ذكرنا على اختلاف الاعصار ، وتنوع الدول والاقطار ، فبذلك اقتدينا ، وبما كان عليه أشياخنا وأسلافنا لكم ولاسلافكم عملنا ، كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيدى عبد الله الهبطى لجدكم المرحوم بكرم الله ، فطمعت بنجح النصح ونفعه دنيا واخرى ، فهذا أصل قضيتنا معكم وهلم جرا ، والذكرى تنفع المومنين على كل الاحوال ، والحمد لله على كل حال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله خير آل ، وبتاريخ أواخر ربيع النبوى الانور كتبه عن اذنه رضى الله عنه عبد ربه محمد بن الحسن بن ابى القاسم لطف الله به

بمنه » اه فاجابه السلطان زيدان رحمه الله بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

من عبد ربه تعالى المقترف المعترف : زيدان بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد ، الى السيد أبى زكرياء يحيى بن السيد أبى محمد عبد الله ابن سعيد ، أعاننا الله واياكم على اتباع الحق ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد ، فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ، ثم اننا ان جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابى ربما غيركم ذلك وادى الى المباغضة والمشاحنة ، فيحكى عن عثمان رضى الله عنه انه بعث الى على رضى الله عنه واحضره عنده والقى اليه ما كان يجده من اولاد الصحابة الذين اعصوصبوا باهل الردة الذين كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصديق رضى الله عنه وهو فى كل ذلك لا يجيبه ، فقال له عثمان رضى الله عنه : ما أسكتك ؟ فقال : « ياأمير المؤمنين ان تكلمت فلا اقول الا ما تكره ، وان سكت فليس لك عندى الا ما تحب »ولكن لما لم أجد بدا من الجواب أرى أن اقدم لك مقدمة قبل الجواب ، فلتعلم ان الحجاج لما ولاه عبد الملك العراق وكان من سيرته ما يغنى اشتهاره عن تسطيره هنا ، فتأول ابن الاشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبيروامثاله من أولاد الصحابة رضى الله عنهم ، ولما قوى عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصرى لذلك فقال : « لا افعل فاننى ارى الحجاج عقوبة من الله فنفزع الى الدعاء اولى » قال بعض فضلاء العجم : يؤخذ من هذا ان الخروج على السلطان من الكبائر وجواز المقام تحت ولاية الظلم والجور ، وقد علمت ما كان من امر عبد الرحمن بن الاشعث وسعيد وامثاله ، وعلمت قضية أهل الحرة، لما اوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ولما بلغه الخبر أنشد:

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وشاع ذلك عنه وذاع ، وكان على عهد اكابر الصحابة وأولادهم ،

ولا تعرض أحد منهم لنكير عليه ، ولا تصدى لقيام ولا خاطبه بملام، واما ما يرجع الى جواب الكتاب فاما ما حكيت عن الصديق رضى الله عنه فى أهل البيت والاحاديث الواردة فيهم وأنه يجب تعظيمهم واحترامهم وتبجيلهم لاجل النبى صلى الله عليه وسلم ، فان كان يجب عليكم تعظيمهم فان تعظيمهم يجب على اولى واولى عملا بقوله تعالى : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى » واجرى الله تعالى عادته انه ما تصدى أحد لعداوة هذا البيت النبوى الا كبه الله لوجهه ، واما ما اوردتم من الاحاديث فى النصح فانى والله أحب أن تنصحنى سرا وعلانية مع زيادة شكرى عليه ، وأراها منك مودة واعدها محبة ، ولكنى افعل ما اقدر عليه ، لان الله سبحانه يقول : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ولهذا قال اكثر العلماء فى صدور تصانيفهم : « ولم آل جهدا فى كذا »لان النفوس الشريفة العالية لا تترك من فعل الخير والجد فى اكتسابه الا ما عز تناوله عليها وصعب اكتسابه

واما ما ذكرتم من امر ابى محلى وسيرته وما كان تسلط عليه ، أما ما كان من استنهاضكم اليه المرة بعد المرة وتكررت فى ذلك اليكم الرسل حتى اجبت اليه فلا نحتاج فيه الى اقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من اراد ان يشق عصاكم فاقتلوه كائنا من كان » والا فلو دخل الملك من بابه وبايعه أهل الحل والعقد واخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدنا المرحوم التى تظافرت عليها علماء المغرب واهل الدين المشاهير ، فلو كان وصل الى ذلك بمثل هذه الوسائط لم يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم ، لان السلطان لا ينعزل بالفسق والجور ، والا فان الصحابة فى زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم ، وما تصدى أحد للقيام عليه ولا قال بعزله ، والا فانهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشير ، واما ابو محلى فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك اعانتنا عليه لانك فى بيعتنا ، وهى لازمة لك ، فالطاعة واجبة عليك ، واعلم ايضا ان والدك أفضل منك بدليل : آباؤكم خير من ابنائكم الى يوم القيامة » وكان عمنا مولاى عبد الملك رحمه الله وسامحه على ما كان عليه واشتهر به

اعلانا ، وكان والدك فى دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا أنكر ولا عرض بما يسوء سلطان الوقت ولا سمع ذلك منه ، فان كان راضيا بفعله فهو مثله ، وان لم يرض فما وجه سكوته والوفادة عليه ؟ وقد تحققت وعلمت ان ولاية أحمد بن موسى الجزولى كادت تكون قطعية واشتهر امره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته ، وقد كان على عهد مولاى عبد الله برد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه ، وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه ، وكان المولى المذكور يعزل ويولى ويقتل ، وكان قد شرد منه الى زاوية الشيخ المذكور المرابط الاندلسى ، وولد آضاك وامثالهم ، وكان الشيخ المذكور يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته ، وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى امره ، ولا استعظم احد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة ، وكان قواد المذكور مثل : وزيره ابن شقراء وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطى والزرهونى وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لم يحضرنى ذكرهم ، لبعد عصرهم ، قد انغمسوا فى شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب ، وكان فى عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ومحمد الشرقى وابو عمرو القسطلى ومحمد ابن ابراهيم التامنارتى والشيظمى وغير هؤلاء من المشايخ واهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ، ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح فى ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع فى تدبيره اليهم ، ومثل من ذكر من الاولياء كان علامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ افريقية وبعض أهل المغرب عبد العزيز القسنطينى الشيخ المتكلم الصوفى صاحب «الآيات البينات» قد كان من سكان تونس ، وكان ملوك تونس ومن انضاف اليهم على الفساد الذى لا ينحصر واشتهر امرهم

حتى عرفوا به فى المشارق والمغارب ، ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدى لتغيير المنكر والامر بالمعروف حتى قبضه الله اليه

واما ما ذكرتم من ان من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله هذه حجة عليك لا علينا ، لانى ما سعيت فى قتل احد ، يعلم الله ، ولا قتل من قتل الا بأمر القضاة وأهل العلم ان كان . واعلم انه اذا كان هذا يكون وعيدا فى قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتى لا يقف القتل على المئين والآلاف ونهب الاموال وكشف الحريم الى غير ذلك ، أما تعلم ان فتنة أبى محلى قد هلك بسببها من النفوس والاموال ما لا يحصى عدده ولا يستوفى نهايته كاتب ، وكان كل ذلك على رقبته لانه هو المتسبب الاول الفاتح أبواب الفتنة لانه كان يقتل كل من انتمى الينا حتى قتل بسببه فى يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قتيل ، ولولا ابو محلى ما قتلواوأعظم فى حرمة النفوس من هذا الذى قلت قوله تعالى : « كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »

وليس فى قول المواق ما يحتج به على السلطان وانما هو فى أصحاب الخطط على الترتيب الذى كان على عهده مثل اصحاب الشرط ، كصاحب الشرطة الذى ينفذ أحكام القاضى ، وصاحب شرطة السوق الذى ينفذ الاحكام عن قاضى الحضرة ، وغير ذلك من الولايات

وولاية ابى محلى لا تعد ولاية حتى يعتبر عزله ، وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه عن الاشياخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة ، ولست ممن ينطبق عليه قوله : أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه » ولكن لماذا تحتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا اليك به فى يونس اليوسى ، وقلنا لك قال صلى الله عليه وسلم : « الحرم لا يجير عاصيا » قال الابى : « وهذا يحتج به على اهل الزوايا » واضربت عن الجواب وليس ذلك من

أدب الجدل ، ولكن اخبرنا عن الوجه الذى منعت به يونس اليوسى من
الشرع فان متاعنا عنده ، واماء اهلنا فى داره الى يوم الوقعة ، وترتب فى
ذمته للمسلمين من الاموال والدماء ما علمت ، فان كنت ممن يريد العدل
فهلا عدلت فيه ، فحينئذ نعلم انك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس
مذهبها ، لا جرم حينئذ نكون عند ما تريد ومع هذا لما أمسكنا زوجته
وكتبت لنا فيها سرحناها ساعة وصول خطابك من غير توقف ، فلو كنت عناديا
لعبثت بها عبثه هو باماء اهلى وأهل دارى ، على انى ما رددت شفاعتك منذ
عرفتك ، بعثت لى على ابراهيم بن يعزى فسرحناه لغرضك ، على انه ترتب
فى ذمته ما ينيف على خمسين الف اوقية ، وذلك المال انما يقال له :
بيت مال المسلمين ، وانما كان يجب تخليده فى السجن ، وأهل الحصن
أخرجناهم منه عن آخرهم وأنفذتم كتابكم بردهم فامرنا بردهم عن آخرهم،
وابن يعقوب اوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرك من
غير اذننا ولا مشورتنا ، وبعثنا مكانه فانفذت الكتاب فيه فرد لمكانه ، ما
هو الامر الذى سافرت كتبك فيه ولا اسرعنا فيه خفافا ؟ واما مسئلة أهل
آزمور فلما جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده ورددنا الخيل،
وقضية الحناشة : الناس فى شأنهم بالاجتهاد ، وقضية العرب : اعلم ان العرب
قد افسدوا الارض واستطالوا سواء هذه البلاد والغرب ، والذى يليق بهم
ما أفتى به سحنون فى عرب افريقية والمغرب ، ولو طالبناهم بمجرد العشر
مدة هذه الفتنة فى المغرب لاتى ذلك على اموالهم ، والناس قد خرجوا عن
أطوارهم ، واحبوا الفتن طلبا للراحة ، وانظر كتاب «الافادة» كذا للقاضى
واستطالتهم فيه عليه فى قضية شرعية مشروحة فى رسمها القديم ، على انهم
أضعف الناس قلوبا ، انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خرجوا
عن الطاعة ، وتساوى الشيخ والصغير فى ذلك ، فان كنت تصغى لمقالاتهم
واسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم ،

---

[*] الحناشة كانوا يبيعون أولاد المسلمين للنصارى .

وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر منهم لخديمكم ، ورأيت أن أقدم لك مقدمة أمام هذا ، وان كانت ادبية قيل لابن الرومى ، وهو على ابن العباس ، لم لم تقل كقول ابن المعتز :

كأن آذريوننا والشمس فيه عاليه مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فأجاب بأن قال : « لا يقدر أن يقول هو مثل قولى فى وصف الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها فوراء كالقمر

الا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر »

وقال : « كل منا وصف اوانى بيته » « ورب البيت اعلم بما فيه »، « واهل مكة أدرى بشعابها » « والصيرفى أعرف بنقد الدينار » وقصة الخضر والكليم صلوات الله على نبينا وعليهم فيها كفاية لمن يعتبر فى خرقه السفينة وقتله الغلام واقامته الجدار ، والكليم يرد عليه فى كل ذلك حتى أنبأه الله بسر مالم يعلم على أن علم الخضر فى علم موسى كحلقة ملقاة فى فلاة ، هكذا قال بعض العلماء ،وقال بعضهم كل منهم على علم خصه الله تعالى به ، ومن هنا جوز ابن عربى الحاتمى فى بعض كتبه ، واحسب ان ذلك فى « الفصوص » ان الولى الذى يتخذه الله ويصطفيه بمحبته يطلعه على علم لم يطلع عليه الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقال مشيرا الى نفسه : « أطلعنى الله على علم لم يطلع عليه آدم فمن دونه »

واعلم أن السلطنة لها اسرار لا بد منها وسياسة ينكر ظاهرها ، ولكن نرجع الى غرضك ومرادك ، اخبرنا : كيف تحب أن يسلك الناس فى العرب ؟ فان كنت تحب أن يسلك الناس فيهم مسلك مولاى عبد الله فالزمان غير الزمان والاسعار قد طلعت وبلغت النهاية ، والله تعالى قد بعث انبياءه وانزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان ، وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة واخذ العلم من افواه الرجال ، وادبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام على بعض ما اورد الناس فى الخارج : أما ما بنوا عليه فرضه فى صدر الاسلام والدول العظام فلا نطيل بذكره

لشهرته ، واما فى المغرب خصوصا ، فاول من فرضه عبد المؤمن بن على ، وجعله على اقطاع الارض بناء على ان المغرب فتح عنوة ، واليه ذهب بعض العلماء ، ومنهم من يقول : ان السهل فتح عنوة والجبل فتح صلحا ، فاذا تقرر هذا ، وعلمت ان اهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا ، وبقى السهل كله ارثا لبيت المال ، تعين أن يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو السلطان ، والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد ، وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم فى فرضه لاول الدولة الشريفة على حسب وفق ائمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين فى ذلك العهد ، فجرى الامر على السنن القويم الى ان هبت عواصف الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل ، وادالة مولانا الامام وضوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك ، وامتدت به الفتنة فى الجبل الى ان هلك مع النصارى فى الغزوة الشهيرة ، وجاء الله من مولانا المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال ، فقدر رضى الله عنه الاشياء حق قدرها ورأى ان المغرب غب تلك الفتن قد فغر فمه لالتهامه عدوان عظيمان : الترك ، وعدو الدين الطاغية ، فاضطر رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية ثغور الاسلام ، فدعا تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء ، وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج ، وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية ، والاجحاف بالرعية أمر يستنكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه فى سيرة عدله طول أيامه ، فلم يمكن له حينئذ الا أن أمعن النظر رحمه الله فى أصل الخراج فوجد بين السعر الذى بنى عليه فى قيمة الزرع والسمن والكبش الذى تعطيه الرعية منذ زمن الفرض ، وبين سعر الوقت أضعافا ، فحينئذ تحرى رحمه الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شىء بوجهه ، ودفع ما يساويه بسعر الوقت ، فاختاروا السعر مخافة أن يطلع الى ما هو أكثر ، فأجابهم اليه رضى الله عنه ، وعرف الناس الحق فلم ينكره أحد

من أهل الدين ، ولا من أهل السياسة ، ليت شعرى لو طلبنا نحن الرعية بسعر الوقت الذى طلع اليوم الى أضعاف مضاعفة ماذا تقولون، وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك . والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام الماوردى فى الاحكام السلطانية فى ضرب الخراج فقد استوفى الكلام فى ذلك

وأما ما تقضيه من العجب لتعطل أجوبتنا عنك فنحن نراجع أقل منك ، ولكن كتابك آكد مبناه على قصة أهل آزمور فانفذنا من أخرج الذى كان به واقصاه عنه وشرد من كان عنده فتوقف الجواب حتى رجع الخديم فحينئذ أجبناكم بما وصلكم ، وتعجيل الاجوبة وبطؤها فاعلم أن الذى يقتضى ذلك أمور ، منها أن يكون الامر الذى ورد الخطاب فيه منكم ما سمعت به ولا بلغنى فنتوجه للبحث عنه والفحص عن أسبابه فربما أوجب ذلك البطء بحسب الاماكن والبلدان فيكون جوابنا على أساس وبنيان ، وان كان عندنا خبر ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتأخر ، وقد وقع هذا منا غير مرة ، وكون تعطيله منشأه مامن الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكنا واجتماعنا بسربنا آمنين ، اعلم أن أهل هذا المغرب لما تمالأوا على وخرجت الى المشرق والتقيت بالترك والاروام وجالسونى وجالستهم وخاطبونى وخاطبتهم، فمنهم مشافهة ومنهم مراسلة، وكنت أيام مقامى فى أرضهم كمقامى على سرير ملكى ، لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلى ويمد كفه رغبة فى نعمتى ، وواسيت الجميع عطاء مترفا مع قلة الزاد والذخيرة ، وترفعت عن مواساة الاماثل والاكابر من العجم والعرب ، ولا ركنت لاحد ، بل تجودت بما قدرت عليه من الاخبية ، حتى جعلت محلة برماتها وخيلها ، فترامت على العجم بالرغبة ، وبسطوا أكف الضراعة فى المقام عندهم والدخول فى جملتهم ، وعرضوا على الاقطاعات السنية ، والبلادات الملوكية بلطف مقال وادب خطاب ، حتى قال لى القبطان مراد رئيس المجاهدين : « وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك باموالنا وأنفسنا ، وبمالنا من السفن حيث اردت وأحببت » وما

انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بخطى : انى أحمل أهلى وحاشيتى وأرجع اليهم الا ان تمكن لى الدخول فى الملك والغلبة على البلاد أو بعضها ، وقفلت من عندهم ولم يتعلق بثوب عفافى ما يشينه معهم ولا مع العرب ، ولا كان لاحد على منة ولا نعمة الا فضل الله سبحانه ، وكان فضل الله علينا عظيما .

ثم انى دخلت سجلماسة ، على رغم أنف أهلها وواليها ، ومنها دخلت السوس ، وجعلت ولى الله العارف به أبا محمد عبد الله بن المبارك واسطة بينى وبين أخى حتى اجتمعت بأهلى ومالى ، ثم بعث الى الترك باحد بلكباشات اسمه مصطفى صولجى الى السوس راغبين فى انجاز الوعد ، وجنحت للمسير اليهم فرأيت الاهل والاتباع قد عظم الامر عليهم واستعظموا الخروج ، فاسعفت رغبتهم فى المقام بالمغرب ، وشيعت الرسول قافلا الى قومه من سجلماسة عند الدخول الثانى لها ومغالبة أهلها عليها ، وعززته برسول من عندى اليهم بتحف وأموال ، ورد بها عليهم مع رسولهم ، ثم انى اقتحمت مراكش على أهل فاس على كثرة عددهم وعددهم وقلتى ، ففتح الله ، ثم خرجت الى السوس مرة اخرى وأوقعت بولد مولاى أحمد الشريف وجموع مراكش ، وقد تعصبوا عليه لانهم شيعة جده ، ففضته على رغمهم ، ونازلته بالسهل والحزن حتى امكن الله منه ، وحكم بينى وبينه ، ثم نجم الغوى أبو محلى وغلبت على الرأى ، وقد قال من هو أفضل منى مولانا على كرم الله وجهه : « لا رأى لمن لا يطاع » ودخل هذه البلاد وخرجت أنا الى السوس ريثما تجتمع قبائلنا فى المكان الذى كان اجتماعهم فيه الى أن بلغتهم ، وقصد اليهم أبو محلى فقاتلوه ورحل عنهم بعد أن أثخنوا فيه بالقتل ، ثم وافيتهم فكان الحرب بيناسجالا ، فهل سمعتم خلال هذه الاحوال انى احتجت الى أحد فيما قل أو جل ؟ وهذا كله بحيث لا يخفى عليك ، اللهم الا ان تعدوا الوفادة التى وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا ادرى ، على أنى ما قصدتك لطلب دنيا ، لانى كنت أسمع ما انت عليه من متانة الدين والصلاح والاقبال على طاعة

الله والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا غرو أن من كان هذا وصفه كان جديرا بان يقصد للدعاء ولاصلاح القلب ، ولا شك أننا نزلنا دارك وحللنا بمكانك ، ولما وقع الاجتماع بك جرت المذاكرة فى أبى محلى وغيره حتى كتبت الكتاب الذى علمنا عليه ، وهاهو بخط يدك ، فان نسينا بعض ما فيه ولا فعلنا فاخبرنا به ، نستدركه ، وهذه مراكش التى ذكرتم قد كنت فيها كما ذكرتم ، ووقفت على عبد المؤمن بن ساسى وعدته مرة اخرى فى مرضه ، وهل قصدته لطلب دنيا أو عرفته لاجلها ؟ ومحمد بن أبى عمرو لما وقفت على المدرسة التى من بناء مولاى عبد الله وقفت عليه فى داره ، وكل ذلك انما نفعله تأكيدا للمحبة وزيادة فى المعرفة بالله ، ولو علمت أن ذلك يعد عيبا ويظن أنه نوع من الاحتياج ما كنت والله لاقف على أحد ولو أنه يملكنى الدنيا بحذافيرها ، لان الخير والشر بيد الفاعل المختار ، فهو أولى بالاضطرار اليه ، وأما سربى فما تروع قط حتى يأمن ، وأما من كان بالدار التى ذكرتم فانماهم أهلى ومتروك أعمامى . وهذه الدار التى ذكرتم فهانحن ننتقل عنها الى بعض البلاد الغربية البحرية كما قلت لك ذلك مشافهة ساعة قلت لى ينبغى للاشراف بناء بالجبل لوقت ما ، وحكيت ذلك عن والدك ، وأما ما أخبركم به القاضى أيام ورودى الى السوس وقت بلغنى كتابكم الذى نصه : قد اجتمعت اناس وفسدت النيات وتعينت المطامع وأردنا تدبيركم ، لان الملوك أهل التدبير والمراد رجوعنا لاوكارنا من غير وصمة تلحق الجانبين ، فكلما حمل فهو عنى والتزمته الى الآن الا ما طرأ علينا فيه النسيان ، فذكرونا به فانا لا نخرج عنه . واما يمين المصحف وانى حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا أحلف لاحد الى لقاء الله ، أما علمت أنى حضرت بيعة الشيخ المأمون صاحب الغرب سامحه الله ، وحضر اولاد السلطان واستحلفهم له الا أنا رضى الله عنه، فانه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله » وعظم ذلك على اخوتى ، وظهرت فى وجوههم لاجله الكراهية، ولكن الذى قلت لعبد الصادق أحلف للمرابط فانى

أوفى لك به ، ولا زلت علـى ذلك لان الذى كنت تقول فى ذلك الوقت :
أخاف أن تقع فى أهل مراكش والاكابر ونحوهم مثل حكومة عبد القـادر
ونحوها . أما أهل مراكش فما تعرضنا لاحد منهم حتى تركنا متاعنا لاجلكم،
كولد المولوع وغيره، وهذا الميدان والشقراء فابعث من رضيت ينادى فيهم ،
من له حق علينا ننصفه منه ومن خدامى أيضا ، وان كنت سمعت قضيـة
منصور العكارى ، فالعكارى نزل أهلنا فى خيمته عنـد وقعة رأس العـين
فلما أرادوا الطلوع الى الجبل تركوا أكثر مالهم فى خيمته مع بعض الخدم
خوفا من غائلة البربر لما كان وقع منهم لاهل بابا أبى فارس فأخذ سماطـا
من ذهب يزيد على ستين ألف أوقية ، وكان أيـام أبى حسون معه وفـى
جملته حتى مات القائم فبذل حجته بانجاز عشرين ألفا والباقى حتى يؤديه
على سعة ، وطلب منا أن يتعمل ويتولى بعض الخطط لينتفع ويجمع بعـض
ذلك فصرفناه ، حتى اذا جاء أبو محلى ووقع ما وقع طالبناه بمتاعنا وهـو
لا يسعه انكاره ، وهكذا عبد الكريم الذى فـى زاويتك بنفسه يعلـم أن
اخوته أخذوا لى سلعة فى وسط حلتهم وأنا بين بيوتهم تزيد على خمسيـن
ألفا ، وأخذوا الابل ،وهانحن سكتنا عنهم ولا طالبناهم بها ، وأيضا قال لك
انظر ما فعل باخوتى وصرت تكاتبنا وانت لا علم عندك بأصل المسألـة ،
وأما الاموال فان الله سبحانه قد وسع علينا من فضله وعندنـا مـا يكفـى
الخامس والسادس من الولد ، وعرفنا الناس وعرفونـا وعاملناهم وعاملونا ،
ولو أردت خمسمائة ألف مثقال من أصحاب أفلامنك ،أو من أصحاب الانجليز
وكتبت اليهم فى ذلك ما تأنوا فى بعثه ، ولا لاذوا فيه بمعذرة ، وقد كفانـا
الله به والحمد لله على ذلـك .

واعلم ان الظن فيك جميل ولولا ذلك ما أعطيتك خمسة آلاف مثقال،
وسمحت بالمال الذى حمل اليكم ابن عبد الواسع أولا وسلعة السفن أخيرا،
وبهذا كله تستدل على صفاء السريرة وصالح النية ، والله سبحانه يعلم ذلك ،
وأما الامتعاض من عدم الانة القول وحسن الخطاب ، فكما قـال تعالى :
« وقولوا للناس حسنا » وانك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب بـه الائمـة

رضوان الله عليهم أهل زمانهم اتكالا على علمنا به ، وحسبى نصح الفضيل ابن عياض وسفيان ومالك رضوان الله عليهم فهذه المسألة حسبى فى الجواب منك انتهى ما وقفنا عليه من هذه الرسالة وهى دالة على براعة الرجل فقها وأدبا وكمال مروءة وعلو همة رحمه الله وغفر ذنوبه

استيلاء نصارى الاصبنيول على المعمورة ونهوض ابى عبدالله العياشى

لجهادهم وانتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله

قد قدمنا فى أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتقال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها ، ثم لما استولى الاصبنيول خذله الله فى هذه المدة على العرائش كما مر طمحت نفسه الى الاستيلاء على غيرها وتعزيزها باختها ، فرأى أن المهدية أقرب اليها فبعث اليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركبا حربية فانتهوا اليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها هكذا فى تواريخ الفرنج .

وقال شارح « الزهرة » كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين وألف وقيل سنة ثلاث وعشرين بعدها وقيل غير ذلك ، وكان عدو الله الاصبنيول أراد أن يضمها الى العرائش لينضبط له ما بينهما من السواحل وتتقوى عساكره بهما فخيب الله ظنه ، ولقى من أهل الاسلام عرق القربة ، وكان ابو عبد الله العياشى بعد رجوعه من آزمور وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا فى نحو أربعين رجلا وزار ضريح شيخه أبى محمد بن حسون وبات عنده ، فجاءه أهل سلا وذكروا له ماهم فيه من الخوف من نصارى المعمورة ، وان مسارحهم قد امتدت الى الغابة وان النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فامرهم بالتهيىء اليهم .

وفى « نشر المثانى » ما نصه : وفى أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث

وعشرين وألف أخذ النصارى المهدية فكتب أهل سلا الى السلطان زيدان فبعث اليهم أبا عبد الله العياشى الذى كان مقدما بوكالته على الجهاد بدكالة ، وهو يقتضى أن مجىء العياشى الى سلا كان باذن السلطان لا فرارا منه ، والاول أصح اللهم الا أن يكون مجيئه فارا كان بعد هذا التاريخ والله أعلم.

وأمر أبو عبد الله العياشى أهل سلا بالتهيىء للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم الا نحو المائتين منها، وكانت السنون والفتن قد أضعفتها، فحضهم على الزيادة والاستكثار منها ، فكان مبلغ عدتهم بما زادوه زهاء أربعمائة ، ثم نهض بهم الى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قربها الى أن غربت الشمس ، فقتل من النصارى زهاء أربعمائة ، ومن المسلمين مائتان وسبعون ، وهذه أول غزوة أوقعها فى أرض الغرب بعد صدوره من ثغر آزمور ، ومنها أقصرت النصارى عن الخروج الى الغابة ، وضاق بهم الحال

ثم ان السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدى محمد العياشى بسلا وسلامته من غدرة قائده السنوسى بعث الى قائده على عسكر الاندلس بقصبة سلا المعروف بالزعرورى ، وأمره باغتياله والقبض عليه ، ففاوض الزعرورى أشياخ الاندلس فى ذلك ، فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشى جماعة منهم عينا عليه ، وطليعة على نيته ، واستخبارا لما هو عازم عليه ، وما هو طالب له ، فلازمه بعضهم . وشعر العياشى بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته .

ثم ان الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الاندلس ، وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك الى القائد الزعرورى أن يجهز الى درعة أربعمائة من أندلس سلا ، فجهزهم اليها وطالت غيبتهم بها ، ففر أكثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعرورى وسلطانه ، فكان زيدان يبعث الى أهل الاندلس بسلا بتجديد البعث الى درعة فيأبون الانقياد اليه فى ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته ، ثم وشوا اليه بقائده الزعرورى فبعث زيدان بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الاندلس داره ، وكتبوا

الى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقا، فبعث اليهم مولاه وقائده المملوك عجيبا فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبأوا به وصاروا يهزأون به ، ثم عدوا عليه فقتلوه فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان ، وأظلم الجو بينه وبينهم ، وبقى أهل سلا فوضى لا والى عليهم ، وكثر النهب ، وامتدت أيدى اللصوص الى المال والحريم ، وسيدى محمد العياشى ساكت لا يتكلم، واستمر الحال على ذلك الى أن كان من أمره ما نذكره بعد هذا ان شاء الله .

انعطاف الى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك

قد قدمنا ما كان من قدوم السلطان زيدان الى فاس أواسط سنة تسع عشرة وألف واستيلائه عليها ثم خروجه عنها واعراضه عنها وعن أعمالها الى آخر دولته ، وكان عبد الله بن الشيخ حياة أبيه الشيخ تحت أمره يصغى اليه ولا يقطع أمرا دونه ، وقيل انه خرج عن طاعته سنة عشرين والف ولما قتل أبوه ببلاد الهبط كما مر استبد عبد الله هذا بفاس وما انضاف اليها على وهن وفشل ريح ، وكان غالب جنده من شراقة ، وشراقة هؤلاء هم عرب بادية تلمسان وما انضاف اليها ، وسموا بذلك لانهم فى ناحية الشرق من المغرب الاقصى ، فأهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة ، وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشارقة ، لكن العامة يلحنون فى هذه النسبة فيقولون شراقة ، فكان غالب جند عبد الله من هؤلاء العرب ومن انضم اليهم فهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم ، حتى أعطاهم أجنة الناس ودورهم ، فكان الرجل من أهل فاس يأتى بستانه فيجد الاعرابى بخيمته فى وسطه فيقول له : «أعطانيه السلطان»

ومدوا أيديهم الى حريم الناس ونهبوا الاسواق وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر فى الطرقات ، واقتحموا على الناس دورهم ، حتى ان امرأة كانت تطبخ خليعا وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار أحد

شراكة فهربت المرأة وأغلقت عليها مشربة لها فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول فأبت ، فقال لها : « ان لم تنزلى رميت الولد فى الطنجير » فتمادت على الامتناع فرمى به فيه ، فما هو الا أن رأت ولدها فى وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه ، فاندقت رقبتها وماتت ، فغاظ الناس ذلك وأعظموه .

وقام رجل منهم يقال له أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهونى محتسبا على شراقة ، واعصوصب عليه كثير من العامة ، وقاموا بنصرته ، فقتل شراقة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا وحكم السيف فى رقابهم ونفاهم عن فاس ، وحماها من اذايتهم وطهرها من رجسهم ، فاستحسن الناس أمره واذعنوا اليه

قال فى « المرآة » : «وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الاول ، يعنى سنة عشرين والف ثار بفاس الشريف ابو الربيع سليمان ابن محمد الزرهونى ، وعضده الفقيه أبو عبد الله محمد اللمطى المعروف بالمربوع ، وتبعهما اهل فاس بأجمعهم ، واخرجوا من كان بها من جيش السلطان وقتلوا كثيرا منهم وجرت فى ذلك خطوب آلت بعد سنين الى انقطاع الملك بفاس وبقى الناس فوضى الى الآن » اه كلام «المرآة»

وكان ابتداء أمر شراقة واشتداد شوكتهم سنة ست عشرة والف كانوا ادالة على أهل فاس نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة اخرى وببعض الفنادق وقرب باب المسافرين ، الى ان قام عليهم الشريف ابو الربيع فى التاريخ المتقدم ، وكان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة ابى الربيع وفتكه بشراقة غائبا فى سلا فلما بلغه الخبر قدم ورام ان يصلح بين أهل فاس وبين شراقة وراودهم على ذلك فقالوا : «لا . لا» فسميت تلك السنة سنة لا لا . ثم أمر ابو الربيع اهل فاس بشراء العدة والتهيىء لقتال شراقة وخرج اليهم فاقتتلوا خارج باب الجيسة فانهزمت شراقة ، واستتب امر ابى الربيع وسكنت أحوال المدينة وامن الناس أمانا لم يعهد من زمان السلطان الغالب بالله

وفى يوم الاربعاء رابع عشر جمادى الثانية سنة عشرين والف كانت

وقعة المترب ، موضع خارج باب الفتوح ، وسببها ان اهل فاس استغاث بهم الملالقة واستصرخوهم على شراقة مكيدة وحيلة فخرجوا فى يوم شديد الريح وكمن لهم شراقة بخولان واغاروا عليهم بغتة ، فانهزم الناس وقتل من أهل فاس نحو الالفين .

وفى « نشر المثانى » سبعمائة فقط ، قال وجلهم هلك بالعطش ، وغلقت الابواب واضطربت المدينة ، وهاج الشر بسبب ذلك مدة ، ثم خرج أهل فاس مرة اخرى لقتال عبد الله بن الشيخ فهزموه واسروه ، وبقى فى ايديهم فعفوا عن قتله واطلقوه ، وذهبوا خلفه حتى دخل داره من فاس الجديد

ولما قتل ابوه الشيخ سنة اثنتين وعشرين كما مر . واتصل خبرمقتله بابنه عبد الله عزم على الاخذ بثاره من قاتليه اولاد ابى الليف ، وازمع المسير اليهم ،ووافقه على ذلك الشريف ابو الربيع والفقيه المربوع واصحابهما وامتنعت العامة من الذهاب معهم ، لان الشيخ لم تبق له فى نفوس المسلمين مودة حيث باع العرائش للنصارى ، فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا : « لا نقبل سليمان ولا المربوع » وحاصوا حيصة حمر الوحش ، واتخذوا رؤساء آخرين فوقع بسبب ذلك شر عظيم ادى الى قتل الشريف مولاى ادريس ابن أحمد الجوطى العمرانى التونسى ، وسبب ذلك ان منادى أبى الربيع مر ينادى فى السوق باستنفار الناس مع عبد الله بن الشيخ ، فقام اليه الشريف مولاى ادريس وضربه بعصا وسبه ، فاقبل ابو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاى ادريس دار القيطون وقتلوه على خصتها ، ولما كان صباح القبر من الغد قام ولد مولاى ادريس و شكا هضيمته لعلماء فاس ، فأمروه بالصبر . ثم التف عليه اهل العدوة وقصدوا دار ابى الربيع وناوشوه الحرب ، فرجعوا مفلولين وقتل بعضهم والامر لله وحده ، ووقع الغلاء حتى بيع القمح باوقيتين وربع للمد ، وكثرت الاموات ، حتى ان صاحب المارستان أحصى من الاموات من عيد الاضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة ، وخربت

أطراف المدينة وخلت المداشر ، ولم يبق بلمطة الا الوحوش ، وكثر النهب فى القوافل

ولما كان المحرم فاتح سنة ست وعشرين والف قبض الشريف أبوالربيع على أربعة من كبار شراقة ثم قتلهم ، فوجم لها اللمطيون وخاف الناس على المدينة ، وتوقعوا الشر وعظم الرعب فى القلوب حتى وقعت بسبب ذلك الهزيمة فى كل مسجد من مساجد الخطبة بفاس ، وذلك انه كان امام جامع القرويين ذات يوم يخطب ، والناس فى صحن المسجد ، فوقع شؤبوب من المطر غزير ، فابتدر من فى الصحن الدخول الى تحت السقف ، فظن الناس ان ابا الربيع قد قصده شراقة فانهزموا وخرجوا من المسجد لا يلوى أحد على أحد ،فبلغ الخبر الى اهل جامع الاندلس فاقتدوا بهم ، وبلغ الخبر الى أهل الطالعة فكان كذلك ، وتتابعت الهزائم بالمساجد

وفى يوم السبت الخامس من صفر سنة ست وعشرين والف قتل الشريف ابو الربيع غدرا فى جنازة رجل لمطى خرج اليها ، فقتله الفقيه المربوع ، وقتل اباه وابناء عمه وستة من اصحابه ، ودفن مع والده بمسجد الجرف ، ولما قتل ابو الربيع بقيت فاس فى يد المربوع واعصوصب عليه اللمطيون ، واشتدت شوكته ، ثم قدم جمع من عشيرة ابى الربيع من زرهون وحاولوا الفتك بالمربوع ففطن بهم ووقع بينه وبينهم قتال هلك فيه نحو مائة وثلاثين رجلا وسلم المربوع منها

وقال صاحب « معتمد الراوى » لما قتل ابو الربيع الزرهونى قا ماخوه مولاى أحمد يطلب بثاره وساق معه نحو أربعمائة من الزراهنة واقتحم بهم فاس ، وقاتلوا الفقيه المربوع وشيعته من اللمطيين ، فالتف أهل فاس على المربوع وقاتلوا معه الشريف يدا واحدة ، فانهزم الشريف وقتل جل من معه ، وكاد يقبض عليه باليد ، ففر الى روضة سيدى أحمد الشاوى ، ومعه نحو الثمانين من اصحابه ، فتبعهم الفقيه المربوع فى جمع عظيم من اللمطيين واقتحم عليهم الروضة ففر الزراهنة الى بيوت دار الشيخ فهجم عليهم المربوع بجنده وقتلهم أجمعين . ثم ان المربوع واللمطيين جاءوا برجل يقال

له عبد الرحمن الخنادقى كان يتعبد بزرهون فاستقدموه فى جمادى الاولى سنة سبع وعشرين والف وراموا ان يملكوه ويجتمعوا عليه ، فانزلوه مع أصحابه فى روضة الشيخ ابى الحسن على بن حرزهم ، واتصل الخبر بالقائد أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فاتى وفتك باصحاب الرجل المذكور ، ولجأ هو الى ضريح الشيخ ابن حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط ميتا على القبر وبطل امره

ولما سئم اهل فاس من الفتن وكثرة الحصار وضاق بهم الحال من غارات الاعراب ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه واظهروا المحبة له ، ففرح بهم غاية ، وتحالفت العامة والخاصة على نصره والاذعان اليه ، فصفح عنهم وعفا لهم عما سلف ، وبعث وزيره الى المربوع بالامان فلم يأمن، وخاف على نفسه ، وصمم مع اللمطيين على قتال عبد الله وتهيأوا له حتى لم تصل الصلوات الخمس بالقرويين ، ثم ان القائد حمو بن عمرو وزير عبد الله أمر بان ينادى بامان اللمطيين ، ففر اللمطيون عن المربوع حينئذ حتى لم يبق معه الا قليل ثم بعث اليه عبد الله بسبحته وخاتمه أمانا فلم يأمن وفر ليلا الى بنى حسن فاخذه شيخهم سرحان واتى به الى عبد الله فعفا عنه ، وعادت دولة عبد الله الى شبابها ، واستتب امره وتمهدت له البلاد ، وذلك فى جمادى الاولى سنة سبع وعشرين والف ، فجمع الجيوش وبعث بعض جنده لحصار تطاوين ، وبعضهم لقبض الاعشار ، وبعث وزيره حمو ابن عمرو مع المربوع لا رجين موضع من جبال الزبيب ، فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتمادا على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله واسرها فى نفسه ثم فى يوم الاثنين ثالث ربيع النبوى سنة ثمان وعشرين والف قتل المربوع اللمطى ونهبت داره

وقال فى « نشر المثانى » قتله عبد الله بن الشيخ ، وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع ، ثم انزله ولعبت عليه خيله ، ثم بعد ايام وظف عبد الله على اللمطيين ثمانين الفا فثقل عليهم أمرها فهربوا فى كل وجه فاسقط عنهم نصفها ، والله تعالى أعلم

ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة(*) على أخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع فى ذلك

قال فى « شرح زهرة الشماريخ » لما رأى اهل بلاد الهبط ماوقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، وكان الذى قام بدعوته الشريف ابو الحسن على بن محمد بن على بن عيسى بن عبد الرحمن الادريسى المحمدى اليونسى المعروف بابن ريسون ، وهى ام جده على نزيل تاصروت وبايعوه على الكتاب والسنة وعلى احياء الحق واماتة الباطل فلما بلغ خبره أخاه عبد الله خرج لقتاله ، فالتقى الجمعان بوادى الطين واقتتلوا فانهزم عبد الله وتقدم محمد الى فاس فدخلها واستولى عليها فى شعبان سنة ثمان وعشرين والف ، وقبض على بعض عمال عبد الله فقتلهم واستصفى اموالهم

وفى آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما بمكناسة فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا فى مهل رمضان من السنة واظهر العفو عن الخاص والعام ، ثم قتل أهل فاس قائده ابن شعيب واخذوا حذرهم من عبد الله ثم وقع قتال بين اهل الطالعة واهل فاس الجديد ودام أياما عديدة حتى اصطلحوا لتاسع رجب من سنة تسع وعشرين والف ، ثم ان عبد الله خرج لقتال أخيه محمد فوقعت المعركة بينهما بوادى بهت فانهزم محمد وفر شريدا الى ان قتله ابن عمه كما سياتى ان شاء الله

وفى يوم الجمعة خامس ذى القعدة من سنة اثنتين وثلاثين والف قتل

(*) فى النص المطبوع بفاس لنزهة الحادى ابن عودة وهو قريب التصحيف بزغودة فليحرر اه وقد ورد وصف ابن عودة بهذا اللفظ فى تقييد خطى فى تاريخ الدولة السعدية منسوب لسيدى عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى فظهر ان زغودة مجرد تصحيف .

الفقيه العالم القاضى ابو القاسم بن ابى النعيم بعد ان نزل من صلاة الجمعة بفاس الجديد فقتلته اللصوص بباب المدرسة العنانية ، وفى « نشر المثانى » قتله اللمطيون بالزربطانة لانهم اتهموه بالميل الى عبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شر عظيم بين أهل العدوتين من فاس

ولم يزل عبد الله فى معالجة اهل فاس فتارة يميلون اليه وتارة ينحرفون عنه لفساد سيرته وقبح طويته حتى كان قائده مامى العلج ينهب الدور جهارا ويعطى عبد الله كل يوم على ذلك عشرة آلاف مما ينهب من الناس من غير جريمة ولا ذنب

وقام عليه بمكناسة ايضا رجل يقال له الشريف آمغار وقام عليه بتطاوين المقدم ابو العباس أحمد النقسيس ولم يبق فى يده الا فاس الجديد واما فاس القديم فتارة وتارة كما ذكرنا آنفا لانه استولى عليها الشريف ابو الربيع والفقيه المربوع ولما قتلا كما ذكرناه آنفا قام بفاس محمد بن سليمان اللمطى المدعو الاقرع وعلى بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان

وقام احمد بن الاشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت فتن وحروب ثم قام الحاج على سوسان وابن يعلى وتولى أيضا يزرور ومسعود ابن عبد الله وغيرهم من الثوار

وكانت فاس أيام هؤلاء على فرق وشيع لا يامن التاجر على نفسه الا ان استجار بأحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس ونتن أفقها العاطر الانفاس ، وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها

وحدث غير واحد من الثقات أنه لما دامت الحرب بين اهل العدوتين ولم يكن لاهل الاندلس غلبة على اللمطيين قال الشيخ ابو زيد عبد الرحمن ابن محمد الفاسى : لا يغلب احد اللمطيين ما داموا مواظبين على قراءة الحزب الكبير للامام الشاذلى رضى الله عنه ، وكانت طائفة من اللمطيين يقرأونه كل صباح بزاوية سيدى رضوان الجنوى من عدوة اللمطيين فسمع ذلك اهل عدوة الاندلس فاحتالوا على ابطال قراءة ذلك الحزب بان بعثوا

أحدا فاحتال على أولئك الذين يقرأونه فاستضافهم فباتوا عنده جميعا فى منزله فلما طلع الفجر او كاد زعم ان مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ولم يزل يعانى فتحها الى ان طلعت الشمس فخرجوا ، ولم يقرأوا الحزب ذلك اليوم ، واخبر اهل الاندلس بذلك فحملوا على اهل عدوة اللمطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع انهم كانوا لم يجدوا اليهم سبيلا قبل ذلك ببركة حزب الشاذلى رضى الله عنه

وذكر بعضهم ان سبب هذه الفترة : ما حكى ان عبد الله بن الشيخ عزم على التنكيل بأهل فاس فى بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه ، فاستشفعوا اليه بالصالحين المجذوبين : سيدى جلول بن الحاج ، وسيدى مسعود الشراط ، وكان من الملامتية ، فلما وقفا بين يديه قال :« أما وجد أهل فاس شفيعا غير هؤلاء الخراءين فى ثيابهما ؟ » فغضب سيدى جلول وقال : « والله لا تصرف فيها ـ يعنى فاسا ـ أحد اربعين سنة » ، وانصرفا ؛ فيقال : ان عبد الله بن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياما الى ان أتى بالشيخين فاسترضاهما ، فكان امر فاس كما قال سيدى جلول لم يطأطىء رؤوس أعيانها سلطان الى ان جاء الله بالمولى الرشيد بن الشريف السجلماسى رحمه الله كما سياتى ، وانما كان يتصرف فيها رؤساء أهل فاس الذين يسمونهم السياب ، قال اليفرنى :«وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد بفاس » ملخصها ما ذكرنا

ولم يزل عبد الله فى محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين والف الى ان توفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين والف بسبب مرض اعتراه من اسرافه فى الخمر وادمانه عليه وكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا ويتعاطاه سرا وجهارا

قال فى شرح « زهرة الشماريخ » : «ولما توفى عبد الله ولى بعده اخوه عبد الملك فى شعبان سنة اثنتين وثلاثين والف ولم يزل مقتصرا على ما كان قد صفا لاخيه الى ان توفى فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين والف

ومن آثار عبد الله بن الشيخ : القبة التى على الخصة الكائنة اسفل

المنارة التى بوسط صحن جامع القرويين : فانه لم يكن فى القديم الا الخصة المقابلة لها شرقى الجامع المذكور

– غريبة –

قال اليفرنى : حدثنى شيخنا الفقيه ابو الحسن على بن أحمد قال : « كان شيخ شيوخنا الفقيه الامام ابو عبد الله محمد بن أحمد ميارة يقول : ان احمد بن الاشهب الذى تقدم ذكره قبل فى الثوار اخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قال : والحديث بذلك مذكور فى كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطى رحمه الله » اه وقتل ولد ابن الاشهب رابع جمادى الاولى سنة خمس واربعين والف فتك به على بن سعد فى جامع القرويين وهو فى صلاة العصر ، وقامت بسبب ذلك حرب بين اهل الاندلس واللمطيين ، وانتهبت السلع التى بسوق القيسارية وسوق العطارين وبنى اللمطيون الدرب الذى بباب العطارين واستمرت الحرب نحو ثمانية أيام ثم اصطلحوا

ثورة ابى زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لابى حسون السملالى

المعروف بأبى دميعة على تارودانت

كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى لما رجع من مراكش الى السوس حسبما مر بدا له فى طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها فى حواضر المغرب وبواديه

وكان المرابط ابو الحسن على بن محمد بن محمد بن الولى الصالح ابى العباس أحمد بن موسى السملالى ويقال له ايضا : ابوحسون قد ظهر بالصقع السوسى عند فشل ريح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت واعمالها .

فلما ثار الفقيه ابو زكرياء سار الى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد ابى حسون المذكور وبعد ان وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة ،

وكان القاضي بتارودانت يومئذ الفقيه العالم ابو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتاني ، وكان أبو زكرياء قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافقه على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب ، فغضب عليه الفقيه ابو زكرياء حتى أمر بقتله غيلة فيما قيل ، فخرج القاضي من المدينة خائفا يترقب ، وذهب الى مراكش فاستقر بها وعصمه الله منه وكتب الى أبى زكرياء برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

يقول الفقير الشديد الحاجة الى رحمة مولاه الغنى به عمن سواه ، السائل منه التوفيق واللطف فى ظعنه ومأواه ، كاتبه عيسى بن عبد الرحمن السكتاني عفا الله عنه وسمح له: الحمد لله الذى جعل الصدع بالحق وظيفة الانبياء ، واورثه بعدهم من خلقه فريق العلماء ، والصلاة والسلام على من أكد امر الصلح وقال : «الدين النصيحة» فقيل : لمن يارسول الله ، فقال : « لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم » والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه ، وعن التابعين وتابع التابعين لهم الى وقوع القصاص بين الخليقة ، وبعد ، فانى لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية الى جبلى وجدت أهلى واولادى ، مستوحشين من البادية وان كانت محل سلفى ومقر تلادى ، بعد أن الفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها ، وكنت فى غاية الضيق والتأسف لما حل بالاولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس ممن نابه مثل ما نابنى واصابه مثل ما اصابنى :

أليس من القبيح مقام مثلى ... بدار الخسف منكسف الجمال
أخالط أهل سائمة وسرح ... وأرتع بين راعية الجمال

فأجلت فكرى ، وان كان الكل بقدر الله وارادته ، فرأيت أن ذلك ، وفى القضاء لطف ، أمر أنتجه ، كما لا يخفى على ذى بصيرة ، ما حل بالمغرب من افتراق الكلمة ، وتلاعب شياطين الانس والجن بذوى العقول منهم فصاروا أحزابا وفرقا ، فاتبعت كل طائفة من هواها ما كانت تعبد ،

حتى اذا عرض لعاقل أو عرض عليه منهم الاقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه ، وأروه باغوائهم وزينوا له أن ذلك يشينه لدى العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس ، مع انه لا يعده من السقوط الا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ، وأين يغيب عن الموفق ان السقوط من عين الله هو الطامة الكبرى ، وأين غاب عنه أن العبرة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به آخذا بزمامه ساكنا على قلبه ولسانه ، وأين يغيب عنه من كتاب الله : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ؛ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » فقلت : انا لله وانا اليه راجعون هذه مصيبةعظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملأهم وقتلت سرواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرمهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم اللهم ياذا الطول والامتنان ياحنان يامنان ياذا الجلال والاكرام تداركنا بألطافك الخفية فى ديننا ودنيانا ياخالق الارض والسماء .

فان قلت : ما ذكرته من أن خروجك من الحواضر الى البوادى هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدى به من الصحابة رضى الله عنهم فتبدى صحيح ، وما دليلك على التلاعب ؟ قلت : ما خرجه أئمة الصحاح من منع الخروج على الائمة وان الواجب فى حق من رأى منهم ما يكره الصبر والاحتساب اذ غائلة الجور ، وان تفاحش ، أقل بكثير من غائلة الخروج الذى يترتب عليه فساد المهج والاموال والاعراض والاديان وهتك الحرم ، ولهذا صبر على الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتى لقوا الله تعالى سالمى الاديان ، وبعبادته مغتنمى الزمان ، وتذكر ، فما بالعهد من قدم ، بالمرابط أبى محلى كان فى قطره عالى الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه أنه قطب زمانه ، وبلغ به الحال الى أن سولت له نفسه أو سول لها انه يصلح به مالم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم

آخرون حتى ملأ الدنيا صياحا ودعاوى وعياطا وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل فتمرد على المسلمين حتى لم يسلموا من لسانه ويده ، فقتل ونهب وسب واغتاب وحمل نفسه مالا تطيقه فاستهوته شياطين الانس والجن والنفس والهوى ، ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه على طائل وآفته الغفلة عن الكتاب والسنة والرضا عن النفس حتى أنه حكمها فصارت تلعب به الى أن فاه وادعى بدعاوى استبيح بها ما كان معصوما من دمه ، وهلكت بسببه بعده نفوس وأموال وغير ذلك ، أيشك من ارتاض بالكتاب والسنة ونظر بعين الشريعة ان فعله ذلك مما حمله عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوى ؟ وربما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلى به أو قلده تقليدا رديا فى فعله « فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين » والى الآن كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع انه بمعزل عن الكتاب والسنة .

فان قلت : وهذه طائفة الفقراء ما بين متعصب متحزب ومتحيل متصيد ومتسور على ما استأثر به البارى من الغيوب مرتكب للآثام مصر على العيوب ، قلت : وهذه طائفة الفقراء فيها جل ما تقدم وزيادات تضيق عن الاحاطة بها السطور والطروس قد بددتها ، والعياذ بالله ، الفتن ، وشردها ما تخوفته من المحن ، بانت العلوم واضمحلت الفهوم وتعطلت الرسوم فلا منطوق يذكر ولا مفهوم ،

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

قلت : وهذا الشيخ أبو زكرياء ، وهو الذى يساق الى نصحه الحديث ، كنا نستسقى به ونستشفى ، وكانت تشد اليه الرحال ولا يأنف من اتيانه النساء والرجال ، قد أتته من أقطار مغربنا الوفود ، ودانت له الذئاب والاسود وكان يعلم الجهال ويهدى الضلال ، ويطعم الجائع ويكسو العريان ، ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفان ، وهى سبيل يالها من سبيل ، وطريقة ما أحسنها من طريقة ، ثم صارت تلك الجموع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، أيدى سبا . وتلاشت شذر مدر ما لها من نبا .

أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده ، أو تجد فى الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك فتطلبه ، أو سلطانا يوازيه أو يقاربه فتحاوله ، أين خفى عليك الشىء وهو ضرورى ؟ أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولى معقولى ؟ « الم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟» « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » « وان أبغض الكلام الى الله أن يقول الرجل للرجل : اتق الله فيقول : عليك نفسك » وهو طرف من حديث خرجه النسائى : قد وعظتك وذكرتك ان نفعت الذكرى . قال جل من قائل « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام

فان قال شيطان من شياطين الانس أو الجن : هذا ما أريد به وجه الله، قلت : الله الموعد ، اياكم والظن ،فان الظن أكذب الحديث ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وان خطر هذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه الله، والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، قلت :ادل دليل على انى قصدت محض النصيحة . هو انه استنصحنى على دفاع أبى محلى فنصحته وقلت له: ان هذا لا تستقيم معه الديانة فكأنه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول : استخرلى الله فكاتبته بان لا يفعل ، ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت له اذ ذاك : ان الناس يقولون كذا وكذا وعرفته اذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان ، فجمعنا فى رملة الى الآن أتخيل حرها ، وتبرأ من كل ما يقال ، وما زلت على المنع الى أن جاءت كراريس من قبل أبى محلى فتأملتها فوجدتها مشتملة على كفريات فى جزئيات ، فحينئذ شرح اللهصدرى لاباحة دفاعه .

ثم وان قلت ذلك ، فنفسى آمرة ولا أقول فى نفسى ما كان يقوله سحنون فى قضية ابن ابى الجواد : « مالى وله الشرع قتله » ولو قلت أو غششت لغششت فى قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أولا لان ذلك هو مقتضى التعصب للامير واذ لم أتعصب اذ ذاك فكيف أستسهله الآن ، فتعين أنى نصحت لكم ان قبلتم ، والا فكما قال تعالى عن نبى من أنبيائه :«ولكن

لا تحبون الناصحين» أنشدك الله الذى باذنه تقوم السماوات والارض أما قلت لك بعد رجوعى العام الاول من مراكش بل الذى قبله : ان العذر لا يحسن ؟ وصرحت ولوحت بان شق العصا لا يحل غير مرة ؟ وما كفانى القول الدال على ذلك الى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال :

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وانى بشطى جانبيها لعارف

ورضيت بالبادية ، مع جفائها ، فرارا من الفتن ، وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنما يتبع به سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ثم بعد ، فعلى هذا كله ، نصحت فلم أفلح وخانوا فافلحوا ، وعدوا على من القبائح طاعتى للائمة مع انك يوم جاء الى دارك قلت لهم : « هذا أميركم » ، ونحن لا نشك أنك من المعتبرين فى مغربنا وان بيعتك لاحد لازمة لنا ، وكذلك حين ذهبت الى مراكش فى وقعة أبى محلى قد أراد أهل مراكش فابيت ، وأبحت البلاد لخدم الامير وقلت لهم : انه الامير . وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرأى منك ومسمع ، أفتشك بعد أن كان منك هذا انك مبايع وانت قدوة ؟ واذا كان هذا فاى حجة لك على الامير ولا على المأمورين ؟ فمن زين لك قتاله فقد غشك اذ هو مسلم وابن مسلمين .

فان قلت : موافقتى مشروطة بشروط لم يوف لى بها ، قلت : هب انه لم يوف لك أفتستبيح قتاله لاجل ذلك ؟ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » الحديث . فبالله أيها الشيخ ما تقول فى هذا الحديث وأنظاره ؟ وما تقول فيما انتهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق فى سبيل الطاغوت والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل مال امرىء مسلم الا عن طيب نفس ؟ » أو ما تستحيى من ربك يوم تسأل عن النقير والقطمير ، ولست ممن خفى عليه ذلك كله فتعذر عند المخلوقين ؟ أوما علمت أن كثيرا من العوام يعتقد جواز ذلك اذ رآك ارتكبته فتكون قد

سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس ؟ أوما خشيت دعوة المظلوم التىما بينها وبين الله حجاب ؟ أو ما كنت تعير من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه ؟ « لا تعير أخاك المؤمن » الحديث

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

أما انتبهت لما وقع لاهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الاحرار وهتك الحرم ؟ « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » الحديث . وقد أتانا السؤال من قبل الشيخ عن صنيع سكتانة ذلك ولم يستطع اذ ذاك من نظر بنور العلم أن يقول لهم فى وزر نظرا الى ما آل اليه الحال فى اهل درعة مع أن جلهم حملة القرآن وعامتهم بله « وأكثر أهل الجنة البله » . أفيليق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم ؟ « ولا تنزع الرحمة الا من قلب شقى » « انما يرحم الله من عباده الرحماء » « من لا يرحم لا يرحم » « ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » أونسيت أنه يقتص للجماء من القرناء ؟ وان الظلم الذى لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض ؟ أفى علمك أن حسناتك تفى بما عليك من التبعات ؟ او انه لا تباعة لاحد عليك ؟ ولو كنت بدريا لاحتمل أن يقال فى شأنك : ما قاله صلى الله عليه وسلم لعمر : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ » أو كما قال عليه السلام، « والظلم ظلمات يوم القيامة » أو تستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسئول عن القيراط ؟ وحتى أهل تارودانت بلغنا انه لم يغن فى شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور الى التقريع ، فاتق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن اذا قيل له : « اتق الله أخذته العزة بالاثم » هذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس على العموم ويتعلق بحق كاتبه على الخصوص ، انك أخذت عليه أن يؤدى الطاعة للامير ويرعى ما هو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبرى من الغدر وشق العصا بعد ان بذل وسعه فى نصحك ونصح الامير ، وحاول بكليته على جمع الكلمة وتعب فى ذلك واقتحم فيه عقبات لا يقطعها الا بازل ، ولا سبيل اليها لمن يكون فى دينه وعمله مثلى

ممن هو نازل :

لعمر أبيك ما نسب المعلى الى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم
اذا غاب ملاح السفينة فارتمت بها الريح هوجا دبرتها الضفادع

ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح كما انه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير ، لان هذه طاعة وتلك أخرى ، والتوفيق بيد الله سبحانه ، نعم بلغنى مع ذلك وجزم لى به أنك مع بذل النصح لك وللامير أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم أخذت على بالرصد فى قفولى لصيتى والرجوع اليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم ، وهل هذا الا حكم الهوى والشيطان ، أعندك ما تستبيح به ذلك ؟ مع أنى والحمد لله أينما كنت لا أسعى الا فى مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرى من يبثها ، أو اغاثة ملهوف حين تجب اغاثته ، « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى » الآية » ولكن الله عزوجل يقول : « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » وفى التوراة : « من حفر حفرة فليوسعها ، ولا تحفرن بئرا تريد بها أخا » فاين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولا او فعلا او اشارة أو تصريحا او تلويحا ؟ وا ى جريمة توازى هذه الجريمة ؟ او كبيرة من الآثام اكبر منها ؟ والله الموعد ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » هذا ، والسعاية المصحوبة بسؤالى عن دفاع سكتانه أين تجدون ما يوجب اباحتها ؟ أين غاب عنكم انها من الكبائر ؟ واين غاب عنكم قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الرجل ليتكلم بكلمة يهوى بها فى النار سبعين خريفا ؟ »أهذا من اخلاق المومنين والصالحين ؟ وانت من بيت الصلاح ، ما كان جدك يرضى مثل هذا « وما كان أبوك امرأ سوء » وهذا والله اعلم نتيجة قرناء السوء ، ولا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، والى هذا ينتهى حق الصحبة اعنى بذل النصح ، ان الله يسأل عن صحبة ساعة ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك « انصر اخاك ظالما او مظلوما » فنصرناك بالرد الى الجادة ، اين انت من مولانا

الحسن بن على اذ تخلى عن الامر لابن عمه معاوية مع انه هاشمى علوى فاطمى احدى ريحانتى النبى صلى الله عليه وسلم ومعاوية اموى يجمعهما عبد مناف ؟ فتخلى عن الامارة مع انه امام وابن امام واصلح الله به ، وهو سيد ، بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، بعد ان كان يلقب بامير المومنين ، فقال له بعض اصحابه اذ سلم عليه : «ياعار المومنين» فلم يكترث بذلك وقال : «النار أشد من العار» ألهمنا الله واياكم رشد انفسنا وجعلنا واياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه : انتهى

ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمما على طلب جمع الكلمة الى ان اخترمته المنية : قال صاحب الفوائد ما صورته : قام الشيخ ابو زكريا بجمع الكلمة والنظر فى مصالح الامة واستمر به علاج ذلك الى ان توفى ولم يتم له أمر انتهى ، وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادى الثانية من سنة خمس وثلاثين والف بقصبة تارودانت وحمل من الغد الى رباط والده فدفن بجنبه رحمه الله

بقية اخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله

قد ذكر المؤرخ لويز البرتقالي في كتابه الموضوع في اخبار الجديدة شيئا من أخبار السلطان زيدان رحمه الله فقال : «كان السلطان زيدان صاحب مراكش مسالما لنا كافا عن حربنا وكانت القبائل تفتات عليه في غزونا فكانت غاراتهم لا تنقطع عنا ، وكان هو ايضا معهم في شدة ومكابدة من اجل اعوجاجهم عليه» ثم ذكر ان من جملة من غزاهم في دولته السيد سعيد الدكالي قلت : واظنه والد السيد اسماعيل صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكلة ، قال : فنهض سعيد بحال وغيرة وامتعاض للاسلام وسار الى الجبل الاخضر وغيره فجمع الجموع نحو اثنى عشر الفا وزحف بهم الى الجديدة ، ووافقه على ذلك قائد آزمور وبعض أشياخ الشاوية ، وكانوا في نحو مائتين وخمسين من الخيل ، وارتاع النصارى منهم وخافوا خوفا شديدا ، وامرهم قائدهم بالجد في حراسة الاسوار والانقاب ، وان يسدوا باب الجديدة ولا يفتحوا منه الا خوخته ، وحاصرهم المسلمون ثلاثا ثم قضى الله بوفاة السيد سعيد فافترق ذلك الجمع . قال لويز : « مات أسفا على ما فاته من الفتك بالنصارى كما يحب »

وفي سنة أربع وثلاثين والف خرج السلطان زيدان من مراكش وقصد ناحية آزمور ولما انتهى الى الموضع المعروف بام كرس من بلاد دكالة حمل اليه نصارى الجديدة هدية نفيسة ، ثم قدم ثغر آزمور في نحو اربعين الفا من الخيل على ما زعم لويز ودخل البلد ، واخرج أهل آزمور عدة مدافع من البارود فرحا به ، ولما سمع نصارى الجديدة بذلك اخرجوا مدافعهم ايضا فرحا بالسلطان وادبا معه

وفي سنة ست وثلاثين والف ثار على السلطان زيدان الفقير ابراهيم كانوت هكذا سماه لويز ، ولم ادر من هو ، قال : وفي خامس عشر

من دجنبر من السنة تواقف جيش الثائر المذكور مع جيش السلطان للحرب
بلاد دكالة ، وكان جيش السلطان يومئذ الفا وخمسمائة فقط ، وجعل على
مقدمته ابنه عبد الملك ، فانهزم ابراهيم وقتل، وقتل جماعة كثيرة من اصحابه
وقبض على ولده فبعثه السلطان مع عدد وافر من رؤوس اصحابه الى مراكش
واخرج نصارى الجديدة المدافع ايضا فرحا بهذا الخبر ، فبعث اليهم السلطان
زيدان بفرس احمر لقائدهم اكراما له ، وكتب اليهم بكتاب تاريخه سادس
رمضان سنة ست وثلاثين والف مكافأة لهم على ادبهم معه » انتهى كلام
لويز وقال اليفرني رحمه الله: «كان السلطان زيدان من لدن مات ابوه المنصور
وبويع هو بفاس فى محاربة مع اخوته وابنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه
من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم ، ولم يخل قط فى سنة من سنى دولته
من هزيمة عليه او وقيعة باصحابه ، ووقعت بينه وبين اخوته معارك يشيب
لها الوليد ، وكان ذلك سبب خلاء المغرب ، وخصوصا مدينة مراكش ،
ومما عد من نحس زيدان واستدل به على فشل ريحه انه فى بعض الوقائع
بعث كاتبه عبد العزيز بن محمد التغلبى بعشرة قناطير من الذهب الى صاحب
القسطنطينية العظمى وطلب منه ان يمده ببعض اجناده كما فعل مع عمه عبد
الملك الغازى ، فجهز له السلطان العثمانى اثنى عشر الفا من جيش الترك
وركبوا البحر فلما توسطوه غرقوا جميعا ولم ينج منهم الا غراب واحد
فيه شرذمة قليلة »

وقال لمنويل : ان قراصين الاصبنيول غنمت فى بعض الايام مركبا
للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين
والادب والفلسفة وغير ذلك

قال اليفرني : « وكان زيدان غير متوقف فى الدماء ولا مبال بالعظائم

(*) قضية اخذ الاصبان لكتب زيدان شهيرة فى كتب الافرنج وتواريخهم فلتراجع
فيها ولابد والكتب لا زالت محفوظة بخزانة الاسكيريال قرب مادريد وقد دعت
الحكومة الاصبانية فى وقتنا هذا وهو ١٣٤٢ احد الفرنسوين لجعل برنامج لها

قلت : وهو مخالف لما ذكره زيدان فى رسالته التى خاطب بها ابا زكرياء المتقدمة من انه ما سعى فى قتل احد الا بفتوى اهل العلم والظن بزيدان أنه ما قال ذلك الا عن صدق ، والا فمن البعيد ان يفخر على خصمه ويدلى بشىء هو متصف بضده

وكان زيدان فقيها مشاركا متضلعا فى العلوم وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشرى

قال اليفرنى : « وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع الشيخ ابى العباس الصومعى » قلت : الذى وقع له مع الصومعى هو انه لما الف كتابه الموضوع فى مناقب الشيخ ابى يعزى رضى الله عنه وسماه «المعزى» بضم الميم وفتح الزاى بصيغة اسم المفعول من الرباعى عارضه زيدان ، وهو يومئذ بتادلا واليا عليها من قبل ابيه ، بانه لم يسمع الرباعى من هذه المادة وانما قالت العرب : عزاه يعزوه ثلاثيا ، فاصر ابو العباس رحمه الله على رأيه الى ان لطمه زيدان على وجهه بالنعل ، فشكاه الى المنصور فقال له : لو لطمك وهو المخطىء لعاقبته اما اذا كان الصواب معه فلا

قلت : كان زيدان يومئذ فى عنفوان الشبيبة فصدر منه ما صدر

فان يك عامر قد قال جهلا فان منظمة الجهل الشباب

ومع ذلك فما كان من حقه ان يفعل ، واظن ان انتكاس رايته سائر أيامه انما هو أثر من آثار تلك اللطمة ، فان لله تعالى غيرة على المنتسبين الى جنابه العظيم ، وان كانوا مقصرين ، فنسأله سبحانه ان يجنبنا موارد الشقاء ويسلك بنا مسالك الرفق فى القضاء ، وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله :

فتنتنا سوالف وخدود وعيون مدعجات رقود
ووجوه تبارك الله فيها وشعور على المناكب سود
أهلكتنا الملاح وهى ظباء وخضعنا لها ونحن اسود

وقوله :

مررت بقبر هامد وسط روضة عليه من النوار مثل النمارق

فقلت لمن هذا فقالوا بذلـة ترحم عليه انه قبر عاشـق

وكانت وفاته رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين والف ، ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الاشراف قبلى جامـع المنصور من قصبـة مراكش ومما نقش على رخامة قبره قول القائل :

هذا ضريح مـن بـه	تفتخـر المفاخـر
حامى حمى الدين بـكـ	ـل ذابـل وبـاتـر
لا زال صوب رحمة اللـ	ـه عليـه ماطـر
أرخ وفاة مـن غـدا	جارا لرب غـافـر
زيدان سبط أحمـد	مبتكـر المـآثـر
أجل من خاض الوغـا	وللاعـادى قاهـر
ومـن شذا رضوانـه	نفحـة كـل عاطـر
بمقعـد الصدق عـلا	أبـو المعالى النـاصر

ووزراؤه : الباشا محمود ، ويحيى آجانا الوريكى وغيرهما ، وكتابه : عبد العزيز الفشتالى كاتب ابيه ، وعبد العزيز بن محمد التغلبى وغيرهما ، وقضاته : ابو عبد الله الرجراجى وغيره ، وترك عدة اولاد منهم : عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ ، وهؤلاء ولـوا الامر بعـده ، وأحمد وغيرهـم رحم الله الجميع

الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله

لما توفى السلطان زيدان رحمه الله فى التاريخ المتقدم بويع بعده ابنه عبد الملك ، ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد واحمد فوقعت بينـه وبينهمـا معارك وحروب الى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما مـن العدة والذخيرة ، وفر احمد الى بلاد الغرب فدخل حضرة فاس يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد وفاة أبيه بستة واربعين يوما فاتسم بسمة

السلطان وضرب سكته ، وفى ثالث عشر شوال من السنة عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغودة فقتله غدرا بالقصبة ، ولما كان الحادى عشر من ذى الحجة سنة سبع وثلاثين والف أخذ احمد المذكور وسجن بفاس الجديد على يد قائدهم عبو وباها وبقى مسجونا سبع سنين ثم خرج من السجن مستخفيا بين نساء فى سابع رجب سنة اربع واربعين والف واعلن العامة بنصره ولم يتم له امر ، ثم توفى قتيلا فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وخمسين والف رمى برصاصة من بعض العامة فكان منها حتفه وذلك بفاس الجديد ولم يتم له امر

ظهور أبى عبد الله العياشى بسلا ومبايعة اكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق

قد تقدم لنا انتقاض اندلس سلا على السلطان زيدان وقتلهم مولاه عجيبا فبقيت سلا فوضى لا والى بها فكثر النهب وامتدت ايدى اللصوص الى المال والحريم ، وسيدى محمد العياشى ساكت لا يتكلم وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات ، فاهرع الناس الى ابى عبد الله المذكور من كل جانب، وكثرت وفوده ، واشرقت فى الجو السلاوى انواره ، فشمر عن ساعد الجد واظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر فى مصالح المسلمين وامور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل واعيانها من عرب وبربر ورؤساء الامصار ان يضعوا خطوطهم فى ظهير بانهم رضوه وقدموه على انفسهم والتزموا طاعته ، وان اى قبيلة خرجت عن امره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفىء الى امر الله ، فاعطوا بذلك خطوطهم فى ظهير ، وانهم رضوه وقدموه على انفسهم ، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا الى تازا

وكان الحامل له على طلب ذلك منهم انه بلغه عن بعض طلبة الوقت انه قال لا يحل الجهاد الا مع الامير ، ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوى الواهية ، والا فقد كتب له علماء الوقت كالامام ابى محمد عبد الواحد بن عاشر ، والامام ابى اسحاق ابراهيم الكلالى بضم الكاف المعقودة ، والامام أبى عبد الله محمد العربى الفاسى وغيرهم بان مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان وانما جماعة المسلمين تقوم مقامه(*) ، ولما كمل امره وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعفاء الامة ضاق الامر على عرب الغرب لاعتيادهم الفسادوعدم الوازع ومحبتهم الخلاف والفتنة ، فنكث بيعته جماعة منهم

وكان ممن نكث الناصر بن الزبير فى لمة من شراكة فقاتلهم ابو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم ، ونكث ايضا الطاغى بالتاء بدل الطاء فى لسانهم مع جموعه أولاد سجير فغلبهم وعفا عنهم ، وكذلك عرب الحياينة طغوا على اهل فاس وعاثوا خلال تلك البلاد باغراء ولد السلطان زيدان ، فقاتلهم ابو عبد الله فكانت الدبرة عليهم ، وتاب على يده جماعة من رؤساء شراكة الذين كانوا مع الحياينة ، وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسرا

وكان أهل سلا قد لقوا من نصارى المعمورة مضرة وشدة ، فلما اجتمعت الكلمة على أبى عبد الله العياشى ورد الله كيد من نكث فى نحره كان اول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج الى حلق المعمورة ، واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعا فى فتحه فيتقوى المسلمون بذخائره ، وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شىء وصعب عليهم أمره ، وكان أبو عبد الله اذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى فى منامه انه يسوق خنازير أو نحوها ، ولما سار بجموعه الى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من الخنازير معها عنوز ، فكان من قضاء الله وصنعه انه فى صبيحة

(*) بل فى مقدمات ابن رشد ما نصه : « ويجاهد العدو مع كل بر وفاجر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ه فكيف بهذا الولى الكبير رضى الله عنه . ه من املاء مؤلفه

تلك الليلة قدمت أغربة من سفن النصارى بقصد الدخول الى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين الذين بالخندق ، فارادوا ان ينحرفوا الى البحر فردهم البحر الى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا ووجدوا فى الاغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله ، وأسر يومئذ من النصارى أكثر من ثلاثمائة ، وقتل منهم أكثر من مائتين ، وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم ففدى به الرئيس طابق رئيس أهل الجزائر ، وكان عندهم محبوسا فى قفص من حديد .

واستقامت الامور لابى عبد الله العياشى بسلا وبنى داره داخل باب المعلقة منها ، وبنى برجين على ساحل مرسى العدوتين من ناحية سلا ، وهما المعروفان اليوم بالبساتين .

ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا فيه ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع خرج النصارى الى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون ، وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتد فاعطوه سلعا وجاء بها الى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأخذ وقتل ، وعميت عليهم الانباء اذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم ، ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا الا بالخيل قد أحاطت بهم وقتل منهم نحو الستمائة ، ولم ينج الا القليل حتى لم يبت فى الحلق تلك الليلة الا نحو اربعين رجلا منهم ، وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة ، ولم يحضر أبو عبد الله العياشى فى هذه الوقعة لانه كان قد ذهب الى طنجة حنقا على يوم المسامير ، لان النصارى خذلهم الله كانوا قد صنعوا نوعا من المسمار بثلاثة رؤوس تنزل على الارض والرابع يبقى مرفوعا ، وبثوا ذلك فى مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان والرجالة ، فلما رجع واعلم بضعف من بقى بالحلق بعث الى أهل الاندلس بسلا يصنعون له السلالم كى يصعد بها الى من بقى فى الحلق فيستأصلهم ، فتثاقلوا عن صنعها غشا للاسلام ومناواة لابى عبد الله ، حتى جاء المدد لاهل

الحلق ، وكانت تلك الرابطة بين أهل الاندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بارضهم ، فكانوا آنس بهم من أهل المغرب ، فلما أتى أبو عبد الله بالسلالم لم تغن بعد شيئا ، ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الاندلس ، وكان أهل الاندلس قد أعلموا النصارى بان محلة أبى عبد الله النازلة لمحاصرة الحلق ليست لها اقامة فبلغ ذلك أبا عبد الله فأقام عليهم الحجة ، وشاور العلماء فى قتالهم فافتى أبو عبد الله العربى الفاسى وغيره بجواز مقاتلتهم ، لانهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم ، ولانهم تصرفوا فى مال المسلمين ومنعوهم من الراتب ، وقطعوا البيع والشراء عن الناس ، وخصوا به أنفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح ، وكان سيدى عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه القضية حتى رأى بعينه حين قدم الى سلا بقصد المرابطة ، فرأى أهل الاندلس يحملون الطعام الى النصارى ، ويعلمونهم بعورة المسلمين ، فأفتى حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد الله وحكم السيف فى رقابهم أياما الى أن أخمد بدعتهم ، وجمع الكلمة بهم .

ولما وقعت غزوة الحلق الكبرى قدمت الوفود على أبى عبد الله بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر فحض الناس على استئصال شافة من بقى بالحلق من النصارى ، وعير العرب بترك الكفار فى بلادهم ، وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبنى مالك والتاغى والدخيسى وغيرهم ، فقال لهم أبو عبد الله : « والله والله والله ان لم تاخذكم النصارى لتأخذنكم البربر» فقالوا : «ياسيدى كيف يكون هذا وأنت فينا ؟» فقال لهم: «اسكتوا أنتم الذين تقطعون رأسى » فكان كذلك ، وهذا من كراماته رضى الله عنه ، ثم صرف عزمه الى التضيق على نصارى العرائش وشن الغارات عليهم ، فتقدم فى جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحوا من سبعة أيام فخرجوا على حين غفلة فمكن الله من رقابهم ، وكان فى مدة كمونه بالغابة أخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عبود ، والحناش فى لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس ، فأراد أبو عبد الله قتله ، فقال له : «استبقنى وأنا تائب الى

الله وانا أنفع المسلمين ان شاء الله » فتركه فذهب الى النصارى وكان موثوقا به عندهم حتى كانوا يؤدون اليه الراتب ، فقال لهم : « ان أحياء العرب وحلالها قد نزلوا بوادى العرائش فلو اغرتم عليهم لغنمتموهم » فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون فى ساعة واحدة طحن الحصيد ، ولم ينج منهم الا الشريد ، وكان ابن عبود قد بقى بايديهم فأخذوه ومثلوا به ونزعوا اسنانه وارادوا قتله لولا انه رفعهم الى شرعهم ، وكان عدد من قتل من النصارى نحو الف وكانت هذه الوقعة سنة أربعين والف

بقية اخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته

قال اليفرني : كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته انه تزايد له مولود فاظهر انه اراد ان يحتفل لسابعه فبعث الى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه ان يحضرن ، وصعد هو الى منارة فى داره فنظر الى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فأيتهن أعجبته بعث اليها وكان مدمنا على شرب الخمر الى ان قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الاحد سادس عشر شعبان سنة اربعين والف ، ودفن الى جنب قبر ابيه

وبسط منويل خبر مقتله فقال : « لما ثار الوليد على اخيه عبد الملك وعادت الكرة عليه بقى متنقلا فى البلاد ثم رغب الى اخيه حتى رده الى مراكش ، فاخذ الوليد يستميل رؤساء الدولة ووجوهها وتجارها ويعدهم بالاحسان حتى وافقوه على الفتك باخيه فترصدوه حتى غفل البوابون ودخلوا عليه قبته وهو متكىء على طنفسة فرموه برصاصة وتناولوه بالخناجر المسماة عند المغاربة بالكميات ، وقامت الهيعة بالمشور والقصبة فخاف الوليد على نفسه من بعض قواد الجند فاخرج جنازة اخيه الى المشور حتى شاهده الناس ميتا فسكنوا وانقطع املهم وبايعوه » انتهى قال اليفرني : ومما رأيته منقوشا على رخامة قبره هذان البيتان :

لا تقنطن فان الله منان وعنده للورى عفو وغفران
ان كان عندك اهمال ومعصية فعند ربك افضال واحسان

ومن وزرائه : محمد باشا العلج ويحيى آجانا الوريكي وجؤذر وغيرهم . وقاضيه : الفقيه ابو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى قاضى مراكش . ومفتيه : ابو العباس احمد السملالى رحم الله الجميع

الخبر عن دولة السلطان أبى يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان فى التاريخ المتقدم بويع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصرا على ما كان لاخيه وابيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراكش واعمالها ، وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة ، ولم يصل به ليلة القدر الا رجل واحد من شدة الهول والحروب التى كانت بين أهل المدينة

واقتسم المغرب فى أيام اولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الاندلس أيام طوائفها كما ذكرنا ونذكر بعد ان شاء الله

ظهور أبى حسون السملالى المعروف بابى دميعة بالسوس

ثم استيلاؤه على درعة وسجلماسة وأعمالها

هذا الرجل هو ابو الحسن ، ويقال : ابو حسون على بن محمد بن محمد بن الولى الصالح ابى العباس أحمد بن موسى السملالى ، وكان بدء امره انه لما ضعف امر السلطان زيدان بالصقع السوسى وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجر نار الرياسة الى قرصه ، وتألبت عليه البرابرة من بسائط جزولة وجبالها ، والتفت عليه غالب القبائل السوسية فاستولى على تارودانت واعمالها الى ان اخرجه عنها الفقيه ابو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب

وفتن عظيمة حسبما مرت الاشارة اليـــه *

ولما توفى ابو زكرياء فى التاريخ المتقدم صفا لابى حسون قطر السوس ونفذ فيه أمره وسمعت كلمته ، ثم بعد مهلك زيدان مد يـده الى درعـة فاستولى عليها ، ثم استولى على سجلماسة ونواحيها فاستحكم أمره وتقوى عضده

ولم يزل امره نافذا فى سجلماسة الى ان ثار عليه الاسد الهصور المولى محمد بن الشريف فاخرجه من سجلماسة بعد حروب يشيب لها الوليد ، ثم أخرجه من درعة ايضا على ما نذكره بعد ، وقد وقفت على سؤال رفع من جانب ابى حسون الى القاضى ابى مهدى السكتانى فى شأن مدينـــة ايليـــغ دار رياسته ومقر عزه يستفتيه فى احداث كنيسة اليهود بها هل يجـوز أم لا وفيه مع ذلك بعض الكشف عن حال هذه المدينة فلنذكره ونصه :

«الحمد لله الذى ارتضى للاسلام دينا ، وانزل به على خيرة خلقــه كتابا مبينا ، الفقيه الاجل العلامة الاحفل القاضى الاعدل ، خاتمـة المحققين ومعتمد الموثقين ، ابا مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى وفقه الله لمـا يرضيه ، واعانه على ما هو متوليه ، السلام عليكم ورحمـــة الله وبركاته ، وبعد ، فقد تقرر عند سيدنا امر هذه الحضرة العلية العلوية ايليـــغ أدام الله بهجتها ، كما رفع كغيرها من الحواضر درجتها ، وانهـا محدثة فتوفـــرت ببركة بانيها عمارتها ومبانيها ، فاتخذها مسكنا اهـل السهـول والحزون ، وجمعت لطيب تربتها بين الضب والنون ، فنزلها برسم الاستيطان اوشاب من

* قال التمانرتى فى الفوائد : وفى ذى القعدة ستة تسع وثلاثين والف حـاصر بغاة العرب والبربر مدينة السوس الاقصى تارودانت وهى اذ ذاك تحت إمارة الامير ابى الحسن الجزولى فاستباحوها إلا قصبتها وحاصروها خمسة وعشرين يومـا وحفروا اسرابا تحت سورها فوجدوا قاعدة اساسهـا لا تنال الفؤوس منه شيئا لوثاقته فقنطوا وبلغ خبرهم الامير المذكور فطوى اليهم المراحل من الصحراء ولما قارب بلاد السوس اقلعوا وهربوا عنها فورد فى جيش عظيم من جزولة فاقام بها حتى اصلحها وشحنهـا بالعدد والجيوش ولم يتمكن من البغاة لتفرقهم فى الجبال اهـ الغرض منه ويظهر ان القطر السوسى صفا بعد هذا التاريخ لابى حسون واستتب فيه امره

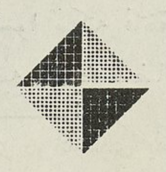
أهل الذمة ، باذن مختطها الامام العالى الهمة ، فاختطوا بها عن اذنه منازلهم وبنوا بفنائها كنيستهم وصيروها متعبدهم ، فاتفق ، والحديث شجون ، ان جرى ببعض اندية علمائها ، ومحضر جمع من نبهاء البلدة وفقهائها ، كلام أفضى بهم الى ذكر الكنيسة المذكورة ، والمجادلة فى محصل الحكم الشرعى فيها فى الدواوين المسطورة ، فافتى بعضهم بوجوب هدمها لانها محدثة ببلاد الاسلام ، ولما فى تركها من المفاسد العظام ، وانها لا تترك لهم متعبدا وجزم الكلام ، وقال : هذا محصل ما ذكره فى مثل هذه القضية الاعلام ، وأفتى فريق بجواز ابقائها ، وانه لا ينبغى تقويض بنائها ، ولا التعرض لهم فى احداثها ، اذ على مثل هذا من دينهم الفاسد اقروا واعطوا الذمة فاعطوا الجزية صاغرين ولم يرد منع اجتماع دينين الا فى جزيرة العرب، وكم من بلد اسلامى محدث مشحون بالعلماء احدثت فيه ولم يقولوا بمنعه وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز احداثها وابقائها بعده ، واستمر الحجاج ، وكثر اللجاج ، ولم يقنع كل فريق بما ابداه الآخر من الاحتجاج ، فعطلت لذلك الى ان تفرقوا فيها بعلمكم النافع بين العذب والاجاج بفتوى تبين صحيح الاقوال من سقيمها ، وتفصل بين ليلى وغريمها ، ولولا محل النازلة من الدين ما رفعت اليكم ، فلذلك وجب الجواب عنها عليكم ، مع مسألة اخرى وهى : انهم طلبوا ان تترك لهم بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لان مسافة ما بينهم وبين افران التى هى مقبرة قديمة لهم بعيدة هل يساعفون ام لا ، والله يبقيكم ومجدكم محروس ، وظل من استزلكم مكنوس . والسلام عليكم »

الجواب :

« الحمد لله وعلى فقهاء بلادنا السوسية حرسها الله واكرمهم باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فقد وقف كاتبه عفا الله عنه على نازلة أهل الذمة النازلين بايليغ مختط أولاد السيد البركة قطب بلادنا سيدى احمد بن موسى نفعنا الله ببركاته وبارك فى ذريته وسددهم لما فيه رضاه آمين ، ولما وقفت عليها وتأملتها

رأيت ان الصواب فيها الفتوى بمنع احداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بنى فيها بعد احداثه لان ايليغ من بلاد الاسلام ، ولا فيه شبهة لاهل الذمة الطارين عليه لا باعتبار الفتح العنوى ولا باعتبار الصلحى على الخلاف فى المغرب باعتبار فتحه ، وحاصل امرها خفاء الحال فيها واذا كان الامر هكذا فالحكم انها ملك لمدعيها الحائز لها ، والاراضى اقسام : أرض اسلام لا يجوز احداث الكنائس بها باتفاق ، ثم ان وقع شىء من ذلك هدم ، وارض ايليغ من هذا القسم فان ملكوا الارض التى بنوا فيها الكنيسة بوجه من وجوه التملك كالعطية وجب هدمها ونقضها ، ويكون لهم ما يسوغ من المنافع ، وان كان بناء الكنيسة شرطا ردت العطية وفسخ البيع ان كان به لانه فى معنى التحبيس على الكنيسة ، والحاصل ان وجه دخول اليهود ايليغ معلوم ، وان بلده ملك للاسلام ، فبناء اليهود فيها الكنائس معصية ، وتمكينهم منه اعانة عليها وهذا لا يخفى ، واما الجواز والافتاء به فى النازلة فبمعزل عن الصواب والاستدلال على الجواز بحواضر المغرب وسكوت علمائها وموافقة امرائها لا يتم ، لان اصل تمكينهم من الكنائس مجهول ، اذ يحتمل امورا منها : انه يحتمل ان يكون بعهد كان لهم فى غير تلك البلاد من اقرارهم على بلد يسكنونه مع بقائهم على متعبداتهم ، ثم نقلوا لمصلحة اقتضت ذلك ، او ارجح ، ولان البلاد تقدم فيها اليهود وغيرهم من اهل الصلح ، والحاصل أن وجه دخولهم مجهول فى هذه البلاد بخلاف ايليغ ، ونازلة ايليغ معلومة الدخول فبينهما بون فقياس احداهما على الاخرى لا يصح وبالله التوفيق وكتب عيسى بن عبد الرحمن وفقه الله آمين

ولما علم المرابط بالحكم أمر بهدمها ومنع اليهود مما أرادوه



٨٢

بقية أخبار السلطان الوليد بن زيدان ووفاته رحمه الله

قال فى شرح الزهرة : كان الوليد بن زيدان متظاهرا بالديانة ، لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة ، وكان مولعا بالسماع لاينفك عنه ليلا ولا نهارا ، الا أنه كان يقتل الاشراف من اخوته وبنى عمه حتى أفنى أكثرهم ، وكان مع ذلك محبا فى العلماء مائلا اليهم بكليته متواضعا لهم ، وله ألف القائد ابو الحسن على بن الطيب منظومته المشهورة فى الفواكه الصيفية والخريفية ، وألف القاضى أبو مهدى السكتانى شرح صغرى الصغرى للسنوسى برسمه ، والقصبة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين آسفى وتيط هى منسوبة اليه واظنها من بنائه* والله أعلم

وأما وفاته فسببها ان جنده من العلوج طالبوه بمرتبهم وأعطياتهم على العادة وقالوا له : « أعطنا ما نأكل » فقال لهم على طريق التهكم : « كلوا قشر النارنج بالمسرة » فغضبوا لذلك وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدرا يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف .

وقال منويل : لما ولى الوليد قتل أخاه اسماعيل واثنين من أولاد أخيه عبد الملك وسبعة من بنى عمه ، ولم يترك الا أخاه الشيخ بن زيدان استصغارا له اذ كان سنه يومئذ احدى عشرة سنة ، وكانت أمه تخاف عليه من الوليد فكانت تحرسه منه حراسة شديدة ، والقى الله محبته فى قلب سائر نساء القصر لما رأين من هلاك الاعياص وعرضة الملك للزوال ، وكن حازمات يقمن مقام الرجال حتى ان بعضهن كانت لها طبنجات فى حزامها دائما تحرس الشيخ من أخيه الوليد .

ثم ان رؤساء الدولة سئموا ملكته فاتفقوا مع نساء القصر على قتله ، وكان الوليد عازما على قتل أخيه الشيخ أيضا ، فاحتال بأن صنع ذات

---

[*] قد جزم المؤرخ الفرنسوى دو كاسترى بأنها من بنائه وان بناءها كان فى سنة ١٦٣٤ مسيحية وأن الوليد استعمل فى تشييدها عددا من أسرى النصارى ه

ليلة صنيعاعظيما وطعاماكثيرا دعا اليه وجوه الدولة وأعيان مراكش، وكان أخوه الشيخ عنده فى الدار لا يتركه يخرج بحال ، وعزم انه اذا اشتغل نساء القصر بأمر الطعام ونحوه خالف اليه وقتله ؛ فكان من قدر الله أن العلوج قد عزموا فى تلك الليلة على اغتيال الوليد فكمنوا له فى الحجرة التى كان الشيخ محبوسا فيها ، ثم لما جاء الوقت واجتمع الناس فى القبة التى اعدها لهم الوليد قام ودخل الى الحجرة التى فيها الشيخ للفتك بهفوجد الاعلاج كامنين له هناك ، فلما رآهم فزع ، وقال : « مالكم؟ » فرموه بالرصاص ثم تناولوه بالخناجر حتى فاظ انتهى *

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان الوليد فى التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم اجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ والقاء القيادة اليه فاخرجوه من السجن ، وكان أخوه الوليد قد سجنه اذ كان يتخوف منه الخروج عليه ، فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف . ولما بويع سار فى الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة ، وكان متواضعا فى نفسه صفوحا عن الهفوات متوقفا عن سفك الدماء مائلا الى الراحة والدعة متظاهرا بالخير ومحبة الصالحين ، وهو الذى بنا على قبر الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الدلائى بزاويته قبة حافلة البناء رائقة الصنعة ، الا أنه كان منكوس الراية مهزوم الجيش ، وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه واخوته الا مراكش وبعض أعمالها

---

[*] راجع خبر هدية الوليد للحرم الشريف سنة ١٠٤٢ فى تاريخ مراكش ج ٤ ص ٢٧٥ للتعارجى المراكشى

وقد ثار عليه رجل من هشتوكة خــارج باب الخميس من مراكش وقاسى فى محاربته تعبا شديدا ولم يزل يناوشه القتال الى أن كانت له عليه الكرة ففرق جمعه ، ثم خرجت عليه أيضا قبيلة الشياظمة فقصدهم ، وكانت الملاقاة بينه وبينهم عند جبل الحديد ، فانهزم هزيمة شنعاء . ثم حدث بينه وبين أهل زاوية الدلائى ما نذكره بعدان شاء الله .

ومما ذكره منويل من أخباره : « انه كان محسنا لسائر رعيته وكـان حاله على الضد من جور أخيه الوليد وعسفه » ، قال : « وسرح الفرايلية الذين كانوا فى سجن مراكش وأعطاهم الكنيسة التى بالسجينة منها وخالفت عليه سلا وأعمالهـا » انتهــى

بقية أخبار ابى عبد الله العياشى بسلا والثغور وما يتبع ذلك

كان أمر ابى عبد الله العياشى بسلا وسائر بلاد المغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة لـه والابلاغ فى نكايته فانتعش به الاسلام وازدهت الايام ، ودخلت فى طاعته القبائل والامصار من تامسنا الى تازا كما قلنا ، لاسيما فاس وأعلامها فانهم قد شايعوه وتابعوه على ما كان يصدده من الجهاد والرباط ، وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط ، ولم يزل فى نحر العدو الى أن امن سرب المسلمين وحق القول على الكافرين.

وفادة اعلام فاس واشرافها على ابى عبد الله العياشى بسلا

هذه الوفادة قد ذكرها الامام العلامة ابو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسى فى فاتحة شرحه الصغير على « المرشد المعين ».

قال فى « نشر المثانى » : « وسببها ما وقع من الحرب بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة على قنطرة وادى سبو ، وقتل فيها من أهل فاس خمسة واربعون رجلا ، فخرج شرفاء فاس وفقهاؤها الى سلا مستغيثين بأبى عبد الله العياشى » قال : وكان الذى اغرى الحياينة بفاس هو أحمد ابن زيدان التفوا عليه وقاموا بدعوته ووصلوا أيديهم بشراقة وفعلوا بفاس واهلها الافاعيل حتى اختطفوا فى بعض الايام نساءهم من الجنات وباعوهن فى القبائل وفعلوا بهن ما لا يجوز » قال الشيخ ميارة : « قد من على ذو العظمة والجلال ، الكريم المتفضل المتعال ، بزيارة الولى الصالح ، العالم العامل السائح ، قطب الزمان وكهف الامان ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، المرابط فى الثغور مدة عمره لحياطة المسلمين ، ذى الكرامات الشهيرة العديدة ، والفتوحات العظيمة الحميدة ، من لا شبيه له فى عصره وما قرب منه ولا نظير ، ولا معين له على نصرة الاسلام ولا نصير الا الله الذى تفضل به علينا ، واقره بمنه وجوده بين اظهرنا فهو كما قيل :

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يازمان فكفر

البركة القدوة ، المجاب الدعوة ، أبى عبد الله سيدى محمد بن أحمد العياشى أبقى الله بركته ، وعظم حرمته وبلغه من خير الدارين امنيته ، وأطال للمسلمين عمره وقواه ، وجعل الجنة نزله ومأواه ، مع جماعة من أعيان السادة ، من الشرفاء والفقهاء القادة ، وذلك أواسط ذى الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف عام ، وهو رزقنا الله رضاه بثغر سلا ، أمنها الله من كل مكروه وبلا ، فاجتمعت اذ ذاك بنجله السعيد الموفق الرشيد ، العالم الهمام ، حجة الله فى الاسلام ، ذى العقل الراجح ، والهدى الواضح ،

«عهود من الآباء توارثتها الابناء» المتواضع الخاشع ، صاحب القلم البارع ، سيدي وسندى أبى محمد عبد الله سلمه الله من كل مكروه ووقاه ، فحضنى حفظه الله على اختصار الشرح المذكور ، يعنى : شرحه الكبير على المرشد المعين »بعد أن طالع جله وسر به كل السرور ، وحث على فى تقديم ذلك على جميع الامور ، فلما قفلت من وجهتى شرعت فى ذلك تاركا للتسويف، طالبا من المولى سبحانه السلامة من الخطا والتحريف » . انتهى المقصود منه

قال فى « نشر المثانى » : « ان أبا عبد الله العياشى قدم فاسا ونظر فى أمرها وغزا عرب الحياينة مرارا واثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة »

ايقاع ابى عبد الله العياشى بنصارى الجديدة

سبب هذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضى تامسنا ابو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغنامى الشاوى المعروف بسيدى رحو الغنامى أن نصارى الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل آزمور مدة ، فكان من عزة النصارى وذلة المسلمين فى تلك المدة ما تنفطر منه الاكباد وتخر له الاطواد ، فمن ذلك : أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم فى محفتها ومعها صواحباتها الى أن وصلت حلة العرب فتلقاها أهل الحلة بالزغاريت والفرح ، وضعوا لها من الاطعمة وحملوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيئا كثيرا فظلت عندهم فى فرح عظيم ، ولما كان الليل رجعت ، ووقع لها أيضا : أنها أمرت القبطان زوجها أن يخرج بجيشه ويبعث الى قائد آزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهى تنظر اليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك ، فجعلوا يلعبون وهى تتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصرانى على مسلم فقتله ، فكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع ، فقال له القبطان : « فما يضركم ان مات شهيدا » يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم ، قال : « وكان الولى الصالح العابد ، الناسك

الزاهد المجاهد ، رافع لواء الاسلام ، ومحيى منهاج النبى عليه الصلاة والسلام ، سيدى محمد العياشى كلما سمع شيئا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام ، وهو يفكر كيف تكون الحيلة فى زوال المعرة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل اعراضهم من وسخ الاهانة ، وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يرصدونه من صاحب مراكش وقائد آزمور . ومن قبطان الجديدة ، اذ كان ما خلف وادى ام الربيع الى مراكش باقيا فى دعوة السلطان لم يدخل فى دعوة أبى عبد الله المذكور ، فمكث كذلك ثلاث سنين ، ولما رأى أن الامر لا يزيد الا شدة أوعز الى بعض اولاد ذؤيب من أولاد أبى عزيز أن يجلبوا الى النصارى شيئا من القمح خفية وأن يكون ذلك شيئا فشيئا حتى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهمهم النصح والمحبة ، فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم واخبروه الخبر واطلعوه على غرة النصارى خذلهم الله ، فعزم على قصد الجديدة ثم بدا له فى تقديم غزو العرائش ، ثم ياتى الجديدة بغتة ، ففعل رحمه الله ، وكان ذلك اوائل صفر سنة تسع واربعين والف

ثم عزم على قصد الجديدة فذكروا له أن وادى أم الربيع فى نهاية المد والامتلاء فلم ينته عن ذلك وسار حتى بلغ الوادى المذكور على مشرع ابى الاعوان فوجده ممتلئا جدا لا يكاد يدخله أحد الا غرق ، فقال لاصحابه وسائر من معه : « توكلوا على الله واجتهدوا فى الدعاء » ثم اقتحم الوادى بفرسه وتبعه الناس ، فعبروا جميعا ولم يتأذ منهم أحد ، وكان الماء يصل الى قريب من ركب خيلهم ، مع أن مد ذلك الوادى حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير ، وهذه كرامة عظيمة وقعت له رضى الله عنه ، وكان القاضى أبو زيد الغنامى حاضرا لها وشاهدها ، ولم يقع مثل هذا فيما علمناه الا للصحابة رضى الله عنهم ، مثل ما وقع لسعد بن أبى وقاص فى عبوره دجلة لفتح المدائن ، ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمى فى فتح بعض بلادفارس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولما وصل ابو عبد الله الى الجديدة وجد طائفة من أولاد أبى عزيز

قد نذروا به ولجأوا الى القبطان خوفا منه أن يوقع بهم لاجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم فخرج القبطان فى خيله ، وكان سيدى محمد كامنا بازاء الجديدة بالغابة التى كانت هناك وقد زالت اليوم ، فلما انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم ابو عبد الله فقطعهم عنها ، ففروا الى جهة البحر فاوقع بهم فهلكوا ولم ينج منهم الا سبعة وعشرون رجلا ، فتغير صاحب مراكش من ذلك وانكر ما صنع ابو عبد الله وكذا أنكره قاضيه الفقيه أبو مهدى السكتانى .

وقد ذكر لويز مارية خبر هذه الوقعة فقال : « ان طائفة من المسلمين قدموا على قائد البرتقال بالجديدة وقالوا له : «انا قد جئناك من عند المولى محمد بن الشريف يطلب منك أن تعينه بجماعة من عسكرك على بعض عدوه » فاسعفهم بذلك ، وكان شابا غرا لم يجرب الامور ، فنهاه بعض كبار عسكره وحذره عاقبة الغدر ، فأبى وعزم على الخروج مع اولئك المسلمين . وتقاعد عنه عسكره ، فقال لهم : « انى أخرج وحدى » وذهب ليخرج وحده فتبعوه حينئذ ، وكانوا مائة وأربعين فارسا ، فلما انفصلوا عن الجديدة بمسافة وجدوا خيلا كثيرة كامنة لهم ، فلم يشعروا حتى احاطت بهم نصف دائرة منهم فما كلموهم حتى كملت الدائرة عليهم وصاروا مركزها ، فحينئذ التفت قائد العسكر الى ذلك الرجل الذى نهاه عن الخروج وقال له : « ما الحيلة ؟ » فاجابه بان الحيلة : « القتال حتى نموت» ثم أنشد له شعرا مضمنه : انى أشرت عليك ، وأنت أعظم جاهامنى ، فلم تسمع ، والآن نقتل معا وتختلط دماؤنا حتى لا يتميزان ولا يعرف دم الشريف من الوضيع . والحاصل ان المسلمين اوقعوا بهم حتى لم يرجع منهم الى الجديدة الا ثلاثة ، وأسر منهم خمسة عشر أحياء ، والباقى أتى عليه القتل ، وقامت بالجديدة مناحة عظيمة لم يتقدم مثلها ، وسجن الاسارى بسلا سنين فى بعض دهاليزها حتى افتداهم سلطانهم خوان الذى جمع مملكتهم من يد الاصبنيول » انتهى .

ولما قدم سيدى محمد العياشى من هذه الغزوة سار الى فاس للنظر

فى امرها لما هاج من الحرب بين أهلها ، وذلك أن رجلا منهم يقال له ابن الزين عدا على رجل آخر يقال له : احمد عميرة فرماه برصاصة من علية مسجد فوق سويقة ابن صافى فقتله ، وهاجت الحرب بفاس بين أهل عدوة الاندلس ، وكان المقتول رئيسهم ، وبين اللمطيين ، فقدم سيدى محمد العياشى فاسا فى آخر جمادى سنة خمسين وألف فأصلح بينهم ، وأقاد من قاتل عميرة كبير الاندلسيين . وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة ،وذبه عن الاسلام وحمايته للدين مما هو شهير عند الخاص والعام .

وفى هذه الغزوة يقول الكاتب الاديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلانى مادحا لسيدى محمد العياشى ومشيرا الى الكرامة التى وقعت له فى عبور النهر :

حديث العلا عنكم يسير به الركب ... وينقله فى صحفه الشرق والغرب

وحبكم فرض على كل مسلم ... تنال به الزلفى من الله والقرب

فأنت رفيع من أصول رفيعة ... نجوم الدياجى فى الانام لها سرب

سمى رسول الله ناصر دينه ... تجلى بكم عن أفقه الشك والريب

ولم أر بحرا جاوز البحر قبلكم ... تجود لمستجد أنامله السحب

وما يستوى البحران عندى فان ذا ... أجاج لعمرى فى المذاق وذا عذب

وكان رحمه الله عازما على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الاجل وكذلك كان ملحا على أخذ طنجة فلم تساعده الاقدار

مقتل ابى عبد الله العياشى رحمه الله والسبب فيه

قدمنا أن أهل الاندلس بسلا تحزبوا على ابى عبد الله العياشى ورموه عن قوس واحدة وانه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم للكفر واهله ، ولأنه استفتى العلماء فيهم فافتوه باباحة قتال من هذه صفته ، فاطلق فيهم السبيل أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم فهربت طائفة منهم الى مراكش وهربت طائفة الى الجزائر واخرى الى النصارى وفرقة الى زاوية الدلاء ، فجاء أهل الدلاء يشفعون فى اهل الاندلس فابى ابو عبد الله ان يقبل فيهم الشفاعة وقال : «ان الرأى فى استئصال شأفتهم» فلما رأى اهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على حربه ، ومن قبل ما كانت القوارص تسرى منهم اليه يدل على ذلك الرسالة التى كتب بها الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابى بكر الدلائى الى ابى عبد الله العياشى ونصها : « الحمد لله الحليم العفو الرءوف ، المنزه عن صفات من وصف بها مؤف ، وصلى الله على سيدنا محمد مدينة العلم ، المسورة بسور السماحة والحلم ، وعلى ساداتنا آله وصحبه ، وكل من انتظم فى سلك اتباعهم من أهل حزبه ، هذا ، وان المجلى بنور طلعته ظلم الظلم والفساد ، المحلى خزائن المعالى بموجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبه بسويداء الفؤاد ، من القت اليه المكارم أزمة الانقياد وصلحت به بحمد الله العباد والبلاد ، حوطة الاسلام وحمايته ، وخديم الدين المحمدى وكفايته ، سيدى محمد بن أحمد العياشى المحمود الاوصاف ، بشهادة من يعد من أهل الانصاف ، زاده الله من المكارم أعلاها ، ومن نفائس درر المجد اغلاها ، وتوجه بتاج الكرامة والرضى ، وامده بدائم مدده السرمدى حتى يرضى ، وسلم جنابه القدسى العلمى العملى المرابطى المجاهدى من جميع البلايا ، واتحفه من تحفه الفاضلة الوهبية باعلى المزايا ، واهدى اليه من طيب بركاته ورحماته ، ما يرضاه دينه العلمى لحماته ، قد شهدنا على انفسنا بالاقرار بفضله علينا ، وان ما

يسره يسرنا وما يضره يضرنا ، علم ذلك منا يقينا من له معنا ادنى مخالطة بحيث لا يمكنه ان يدفع ذلك بنوع من المغالطة ، وان الضار بالعين ضار بانسانها ، لكن النفوس الانسانية محل لخطاها ونسيانها ، ومن أقمناه لديكم مقام الخادم والولد ، قد ساءنا منه ما ساءكم مما عنه ورد ، وطلبنا من جميل اوصافكم معاملته بالصفح والجميل ، فلن يزال الانسان الا من عصمه الله يستمال او يميل ، ولولا الحرارة ما عرف الظل ، ولولا الوابل لقيل النهاية فى الطل ، وما عرف العفو لولا الاساءة ، ولا يقال صبر المرء الا فيما ساءه ، وما عرفنا صاحبه الا محبا لجانب كل من للدين ينتسب ، فان خرج عن نظركم فقد اتاه الغلط من لا يحتسب » انتهى

وكان الشيخ ابن ابى بكر رحمه الله يطيل الثناء على أبى عبد الله العياشى ويذيع محاسنه وكان يقول فى دعائه : اللهم اجزعنا سيدى محمد العياشى افضل المجازاة وكافه احسن المكافاة واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون اقرب اليه منه ، اللهم لا تحرمه توجهه اليك وانقطاعه لخدمتك . اللهم نفس كربته وكمل رغبته ، واجب دعوته ، وسدد رميته ، واردد له الكرة على من عداه فى الحق انك على كل شىء قدير » انتهى

فهذا حال الشيخ ابن ابى بكر رحمه الله مع ابى عبد الله العياشى ثم قدر الله ان حدث بين اولاده وبين العياشى من النفرة ما افضى الى المقاتلة وذلك بسبب رده شفاعتهم فى أهل الاندلس وامور أخر فاجمعوا على حربه كما قلنا ، فخرج اليهم ابو عبد الله العياشى فأوقع بهم وهزم جموعهم ، وفتك بالعرب الذين كانوا مع التاغى فتفرقت الجموع ، وتبرأ التابع من المتبوع .

ثم ذهب ابو عبد الله العياشى الى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من اهل الدلاء قد وصلوا الى اطراف أزغار ، ومعهم التاغى والدخيسى واهل حزبهم من الكدادرة وغيرهم ، وعزموا على مصادمة ابى عبد الله فاراد ان يغض الطرف عنهم ويصرف عنانه عن جهتهم فلم يزل

أصحابه به الى أن برز لمقاتلتهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبى عبد الله العياشى وقتل فرسه تحته ، فرجع الى بلاد الخلط ، وكان رؤساء الخلط أكثرهم فى حزب التاغى وعلى رأى الكدادرة ، فرجعت البربر الى اوطانهم، وبقى ابو عبد الله العياشى عند الخلط أياما ، ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه ، وحمله بعضهم الى سلا ، وكانه حمله الى اهل الاندلس اذ هم اعداؤه بها قال فى « شرح المثانى » : ودفنت جثته بازاء روضة أبى الشتاء رضى الله عنه

ومن كراماته المتواترة انهم لما حملوا الرأس سمعوه ليلا وهو يقرأ القرآن جهارا حتى علمه جميع من حضر فردوه الى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس ، واما القبة المنسوبة اليه بقبيلة اولاد ابى عزيز من بلاد دكالة فالظاهر انها متخذة على بعض معاهده التى كان يأوى اليها ايام كونه بالقبيلة المذكورة فى ابتداء أمره كما مر ، وليس هناك قبر له على الصحيح

ولما قتل أبو عبد الله العياشى فرح النصارى بمقتله غاية الفرح واعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة أيام ، وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة احدى وخمسين والف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم : « مات زرب الاسلام » باسقاط الف الوصل ، وحدث رجل أنه كان بالاسكندرية فرأى النصارى يومئذ يفرحون ويخرجون انفاضهم فسألهم فقالوا له : « قتل سانطو بالمغرب » وفى « الرحلة » لابى سالم العياشى قال : « اخبرنى الشيخ محمد الفزارى بمكة قال : كان بالمدينة المشرفة رجل مغربى من أهل القصر فى السنة التى قتل فيها الولى الصالح المجاهد سيدى محمد بن احمد العياشى قال : فجاءنى ذات يوم وقال لى : « انى رأيت فى النوم اختى ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما » فقلت له : « من انت ؟ » قال : «الاسلام» قطعت يدى بسلا » قال : فلما اخبرنى قلت له : الذى يظهر لى من رؤياك ان الرجل الصالح المجاهد الذى كان بسلا قد قتل » قال : وبعد ذلك فى آخر السنة قدم حجاج المغرب فاخبرونا بموته »

وقد رثى رحمه الله بقصائد كثيرة منها قصيدة الاديب البليغ أبى العباس أحمد الدغوغى التى ذكرها فى النزهة ، ويحكى انه وجد مقيدا بخط أبى عبد الله العياشى المذكور ان جملة ما قتله من الكفار فى غزواته سبعة آلاف وستمائة وسبعون ونيف ، ومما مدحه به العلامة الامام الشهير أبو محمد عبد الواحد بن عاشر قولـه :

ياحادى الاظعان فـى الرياشى	أبلـغ سلامى فخرنـا العياشى
من نـوره بـدا وفضلـه غـدا	تحـدو بـه الركبان والمواشى
طود الهدى عين الندى فردالورى	فريد وقته الامـام الخاشـى
للـه سيـف صـارم وقاصـم	ظهـر العدا كبيرهـم والناشى
يتركهم عند اللقـا رهـن الشقا	صرعى على الارض كما الكباشى
يامسلمـين تهنيـكم حياتـكم	ما عاش فيكم سيدى العياشى
أنام لا شك الانام الكـل فى	ظـل الامـان لـين الفراش
ياعاذلى فى حبـه عذلـك دع	ولا تحدثنى حديث الواشـى
انـى امرء بالحسن مفتون وعن	جميـع لـوم لائمـى عاشـى
هديتى الى الكـرام ابـرزت	سـلامها للسامعين فاشـى

وثناء الناس عليه كثير فقد أثنى عليه الشيخ ميارة كما مـر ، وابـو عبد الله محمد العربى الفاسى ، وابن ابى بكر الدلائى وغيرهم

وكان رحمه الله مجاب الدعـوة ما دعا الله فـى شىء الا استجيب له شوهد ذلك منه مرارا ومن ادعيته المحفوظة عنه : « اللهم انى أسألـك باسمك السريع المجيب الذى خزنت فيه فواتح رحمتك وخواتـم ارادتك وسرعة اجابتك ياسريع لمن قصده ياقريب ممن سأله يامجيب من دعاه أسرع لى بقضـاء حاجتـى وبلـوغ ارادتـى ياسميـع يامجيـب ياسريـع ياقريـب آمين آمين آمين يارب العالمين »

وكان فقيها مشاركا فى الفنون وله اتباع ظهرت عليهم بركاته ولاح عليهم سره ، ومن اتباعه : الشيخ ابو الوفاء اسماعيل بن سعيد الدكـالى القاسمى صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة ومن اتباعه أيضا : المقـدم

المجاهد ابو العباس الخضر غيلان الجرفطى وقد ذكر ذلك الشيخ ابو عبد الله محمد بن ناصر الدرعى فى رسالة كتب بها الى المجاهد المذكور يقول فيها ما نصه . « من عبيد الله تعالى محمد بن ناصر كان الله له الى الفارس القائم بنصر دين الله البائع نفسه فى اعلاء كلمة الله الخضر غيلان سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وانى احمد اليك الله الذى لااله الا هو ، اما بعد فانى احبك فى الله وان لسانى لهج بالتضرع الى الله تعالى فى نصرك على الكافرين منذ خرج النجليز والباعث على اعلامك بهذا امران احدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : «اذا احب احدكم اخاه فليعلمه » والثانى : استنهاض همتك للجد فيما انت بصدده من الجهاد وعدم الالتفات الى ما تورط فيه غيرك من الاغترار بالفانى ، فانت ما دمت فى هذا على طريق صالحة ، وعباد الله الصالحون كلهم معك ، ورحم الله صاحبك الذى اسس لك هذه الطريق الصالحة ، وبارك عليها أعنى امير المؤمنين نور البلاد المغربية سيدى محمد العياشى جزاه الله عنا واياك وعن المسلمين خيرا ، فهو سيدنا وسيد غيرنا الذى ندين الله بمحبته ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل » ثم قال الشيخ ابن ناصر رحمه الله بعد كلام ما نصه : « وتستوصى بآل سيدنا وسيد المسلمين فى زمانه كافة خيرا سيدى محمد العياشى فهو عزك وبتعظيمهم قوام امرك وهذا من نصيحتى اليك التى هى من نتيجة محبتنا لك فعاملهم بالوفاء ، ولا تؤاخذهم بالجفاء » انتهى المقصود منه .

ولولد سيدى محمد العياشى وهو الفقيه العلامة سيدى عبد الله ارجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل بهم الى الله تعالى فى هلاك الذين تمالأوا على قتل ابيه ، فلم تمض الا مدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم احد .

وفى « البستان » : « ان ابا عبد الله محمد الحاج الدلائى دخل بلاد الغرب وذلك بعد مقتل أبى عبد الله العياشى فلقيه ولده سيدى عبد الله المذكور بجموع الغرب بوادى الطين فوقعت الحرب فى قبائل وانتهبت حللهم

ومواشيهم » انتهى : وكــان ذلك فــى اوائل ربيــع الاول ســنــة ثلاث وخمسيــن وألــف

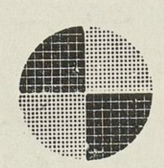
ولسيدى عبد الله ابن سيدى محمد العياشى فى بعـض زياراتـه لابيه قولــه :

أتينـا اليــك وانفسنــا تكاد من الخوف منك تذوب
ولم ندر اين هــواك الذى تحب فتنحو اليـه القلــوب
أقمنا فخفنـا وجئنا فخفنــا فمن خوفنا قد دهتنـا خطوب
فها نحن من خوفنا منك حيرى وهانحن من خوفنا منك شيب

قال اليفرنى فى «الصفوة» : واخبرنى حافده العلامة قاضى القضاة ابو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الله بن محمد العياشى ان جـده سيـدى عبد الله المذكور كان قد اصابه مرض اعيى الاطباء علاجه فلما طال عليـه أمره رغب منهم ان يحملوه الى ضريح الشيخ سيدى الحاج احمد بن عاشر بسلا فلما وقف على الضريح انشد ارتجـالا :

أقـول لدائى اذ تفاقـم امـره وعز الدوا من كل من هو ناصرى
الا فانصرف بالله عنى انــنــى انا اليوم جار للولى ابــن عاشر

قال فكانما نشط من عقال وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر فى الحال » وكانت وفاة سيدى عبد الله المذكور ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين والــف ودفن بجوار الولى الاشهر الشيخ ابى سلهام من بلاد الغرب وبنيت عليـه قبة صغيرة ، واخبار العياشين ومحاسنهم كثيرة وبيتهم بيت خيـر وصــلاح رحمهم الله ونفعنـا بهــم آمين



ظهور اهل زاوية الدلاء واوليتهم بجبال تادلا وما يتبع ذلك

اما نسبهم فهم من برابرة مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره ، وكان مبدأ امر اهل زاوية الدلاء ان جدهم الولى الاشهر سيدى ابا بكر بن محمد وهو المعروف بحمى بن سعيد بن احمد بن عمر ابن يسرى المجاطى كان ممن اخذ عن الشيخ الصالح ابى عمرو القسطلى دفين مراكش وسكن الدلاء واتخذ هنالك زاوية ، فجاء ولده الولى الاظهر أبو عبد الله محمد بن ابى بكر فكمل من الفضائل ما بقى وابدى من الاسرار ما خفى فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية وقصدها الناس من كل ناحية الى ان كان من اولاد الرجلين ما نذكره .

واخذ الشيخ محمد (فتحا) بن ابى بكر عن الشيخ ابى عبد الله محمد الشرقى فحصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان اعلام الوقت كالحافظ ابى البعاس المقرى ، والحافظ ابى العباس بن يوسف الفاسى ، والامام ابى محمد بن عاشر ، والفقيه العلامة ابى عبد الله محمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته والتبرك به ويراجعونه فى عويص المسائل العلمية ، وكان رحمه الله عالما حافظا دراكا متوسعا فى علمى التفسير والحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفى غيرها وكانت وفاته سنة ست واربعين والف .

قال اليفرنى : وحدثنى غير واحد من اشياخنا انه لما دنت وفاته جمع اولاده وعشيرته وقال لهم : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده » واناأقول لكم : « ولا من اغترف غرفة بيده » يشير بذلك الى ما تجاذبوه من امر الرياسة بعده وذلك من مكاشفاته رضى الله عنه . وقد اعترض عليه بعض الطلبة فى قوله : وأنا أقول ، بأنه سوء ادب لمقابلة كلام الله بكلامه ، واجاب عنه حافده ، وهو الفقيه العلامة الشهير ابو عبد الله محمد بن احمد بن

المناوى بن محمد بن ابى بكر ، برسالة مستقلة

ولما توفى خلف من الاولاد عدة فكان اكبرهم : ابو عبد الله محمد الملقب بالحاج لانه حج مع أبيه ووحده مرارا ، ويقال : انه خطب الناس يوم عرفة على ظهر الجبل لامر اقتضاه الحال ولم يكن ذلك لاحد من أهل المغرب قبله . وفى أيامه تكامل أمر أهل الدلاء وشاع ذكرهم .

وكان للزاوية فى أيامه وأيام أبيه صيت عظيم وكان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسها واقرائها وقراءتها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم كالشيخ اليوسى وأضرابه ، حتى كانت اليها الرحلة فى المغرب لايعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب .

وتمهد الامر بها لابى عبد الله محمد الحاج وأولاده واخوانه وبنى عمه الى أن تملك مدينة فاس ومدينة مكناسة وأحوازهما وكافة القطر التادلى .

قال فى «نشر المثانى» : وفى سنة ست وأربعين وألف كان قيام محمد الحاج الدلائى على الشيخ ابن زيدان» قلت : ولعل المكاتبة الآتى بيانها بعد انما كانت فى هذا التاريخ .

وقال فى « البستان » : «وفى سنة خمسين وألف زحف محمد الحاج الدلائى بعساكر البربر الى مكناسة فاستولى عليها ثم زاد الى فاس فاعترضه أبو عبد الله العياشى بجموع أهل الغرب ووقعت الحرب بينهما فانهزم العياشى وسار محمد الحاج لحصار فاس فرجع العياشى وأعاد حربا ثانية ، فانهزم محمد الحاج وعاد الى بلاده . وفى سنة احدى وخمسين وألف بعد موت العياشى نزل محمد الحاج على فاس وحاصرها ستة أشهر وقطع عنها المواد وجميع المرافق الى أن لحقهم الجهد وارتفعت الاسعار

فدخلوا تحت حكمه* ولما قام اجتمعت عليه برابرة ملوية وأذعنوا له واعصوصبوا عليه ، وقد كانت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وقعة أبى عقبة فانهزم فيها السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك فى سنة ثمان وأربعين وألف ، ومن ثم قطع النظر عما وراء وادى العبيد

ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين اهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات

قال فى « النزهة » : وفى أيام السلطان محمد الشيخ بن زيدان قويت شوكة اهل الدلاء وانتشرت كلمتهم فى بلاد الغرب ، وضعف الشيخ عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم ،وبعث اليهم قاضيه العلامة الفقيه ابا عبد الله محمدا المزوار المراكشى يطلب منهم ترك الشنآن والرجوع الى اجتماع الكلمة ، ويحتج عليهم بان اباهم الولى الصالح سيدى محمد بن أبى بكر كان قد بايع أخاه الوليد بن زيدان ، والتزم طاعته وانهم أولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهاجه ، فلما بلغهم القاضى المذكور وادى الرسالة ونثل مافى العيبة وبين قصده اعتذروا اليه بمسائل وتعللوا بوجوه .

قال « اليفرنى » : وقد وقفت على رسالة كتب بها السلطان محمد

---

* ذكر سيدى عبد السلام القادرى فى كتابه المقصد الاحمد: أن محمدا الحاج الدلائى حاصر المعمورة وحضر معه فى حصارها سيدى محمد بن عبد الله معن الاندلسى وولده سيدى أحمد ولم يذكر تاريخ الحصار المذكور ولعله وقع عام ١٠٥٢ بعد استيلائه على فاس وينبغى تحقيق هذا التاريخ بالمظان الاروبية انظر المقصد ج ١ ص ٨٤ وحكى القادرى فى النشر فى حوادث سنة ١٠٥٧ خروج الناس للجهاد بحاق المعمورة قال: ثم رجعوا بعد ايام ومات كثير منهم بمرض اصابهم من ماء شربوه هنالك اه و كانت وفاة سيدى محمد ابن عبد الله معن ثالث جمدى الثانية سنة ١٠٦٢

الشيخ المذكور اليهم بعد رجوع القاضى من السفارة وهذا نص القدر المحتاج اليه منها بعد الخطبة ، ولنصرف عنان الغرض لمن عيناه لمسنون العتاب والمفترض ، من هم لدقائق المجاز ضابطون ، وفى حقائق الجواز خابطون ، أهل وطن الدلاء لمن هو لورود الشراب محتاج ، السيد ابو القاسم ابن ابراهيم والسيد ابو عمرو والسيد محمد الحاج ، ومن لنشر صحف الانصاف منهم مطابق ، كالسيد المسناوى والسيد عبد الخالق ، ولا زائد الا قصد ايقاظكم من الغفوة التى طال كطلوع الشمس من المغرب ليلها ، وامتد كارض المحشر فرسخها وميلها ، هل هذا منكم استخفاف بحضرة الخلائف او تعام وتصام عما يجب على الرعايا من لازم الوظائف ؟ هذا من العار الماحى لصحف المناقب ، ولا يلوى بمن توخاه الا للمهيع الذى لا تحمد لمنتجعه العواقب ، وخصوصا مثلكم الذى شق عصا الشقاق ، وشرع يمد ايدى الاطماع فى استخلاص قبائل الآفاق ، وكنتم لا تدرون لباس القمصان ولا الشواشى ، الى أن جسركم على وطء الغرب فاخذكم معه المغتر محمد العياشى ، فنبذتم موائد الضيوف ، وتقلدتم بلا حياء السيوف، واعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع ، ومن مضى الى اى قطر تعذر عليه الرجوع ، الى أن أمكنتم من أزمتها الرعايا وكل عنيد من رباط تازا الى وادى العبيد ، فاستحليتم سكر الجبايات من الابريز والفضة الى أن جمعتم منه مالا ينحصر فى عد ، بواسطة القرافى والمنتصر من غير أن تنفقوه على اقامة جند ، ولا انتفع به الا أشياع المومسات وشياطين الفساد والشر ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن غمار عموم البرابر ، وأقعدكم فى القباب على الاسرة وفى بيوت الله على الكراسى والمنابر ، عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة ، لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبة ، وان لا ندرى أين تميل النفوس ، ألتلك الصحارى ام الى ايليغ السوس ، وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار ، تمسى فيه البومة خاملة وتصبح بالمخلب والمنقار ، ومعادين الهمز واللمز والمجون ، هم أهل الزوايا والديارات والفنادق والاسواق

والسجون ، لكن من صفعته يمينه لا يبكى ، ومن ألقى بيده الى التهلكة لا يشكى ، أهملناكم وأمهلناكم لعوائدكم من العبادة والطعام ، فطلعتم لنا فى الحلوق عظاما ورعام ، لم تعلم الفقراء الا بحرمة جاه الدخيل ، على صلح أو زواج أو لسماح البخيل ، وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى ، من وجدة الى حدود السوس الاقصى ، فنزهد لكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية واهلها ، بشرط ان تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها ، وان أمسكتم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول سوله ، فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، فقد شيعنا لكم فقيهنا وقاضينا أبا عبد الله محمد المزوار . فصددتموه أرهب صد ، وانقلب عن المحاورة مردودا أقبح رد ، لو لم نبال بكم بالفكر والذكر ، ما صرفنا فيما سلف وصيفنا الامين مباركا السوسى ، فشيد ضريح السيد محمد بن أبى بكر ، فدنستم خالص عرضه فانه كان لكم علينا بريدا وبصيرة ، بما انطوت عليه منكم غرة السريرة ، فقص علينا ، دون أن نفحصه . ان عين الجحش فراره ، ولا يسعنا ان ندعكم مع أشراف سجلماسة وبنى موسى تلعبون بنا كهر الغالية فى القفص ، لايعطى غناء غلته الا بوخز المسال التى تكلفه الرقص ، وحاصل الغرض تأدية البيعة كما عقدها أبوكم الابر الجواد المرحوم الفاضل المجيد لاخينا الارضى مولاى الوليد ، لتنتظم كلمة الاسلام فى الاقطار ، اذ لو فعلتم لاقتفى أثركم جموع المتتجعين والامصار ، وان عظمت عليكم مفارقة تقبيل الرأس واليد والركبة فانتظروا صبيحة طلوعى عليكم طلوع الفجر على غسق الليل ، بخضرم خضرم من الرماة والخيل ، ونؤم بعدكم دولة الاشراف الصحراوية ونلوى على زاوية الساحل الى أن تعود الايالة الشيخية علوية عالية ، بالصيت والذكر ، او تهوى الى حضيض بنى سعد بن بكر » انتهى .

وكان جواب أهل زاوية الدلاء عن هذه الرسالة ما حاصله باختصار : ولا زائد بعد حمد الله الا أن مسطوركم الاحرش لما ورد ساحتنا سلب الاذهان

والعقول فلا جارحة الا ولها حصة من الطنين ، فكادت الجبالـــى تسقط المشايم فضلا عن الجنين ، فياله من صوت زجر لاينسى علينا طول السنين أسمعتنا غرائب لم تمر مرارتها على أهل الدهر الآتى والغابر ، لو صدح بها على جبانة لنهض أهل المقابر ، حتى سمتنا بالخسف فى أسواق المذلـة والهوان ، وما نحن الاعز وركن لكل من طرقته وصمـة أو غمه وأنت تعمل بتدبير واشارة الاعلاج المجبولين على طبائع الخداع والغش ، وتبنى على قواعد مالكم بها من عرين ولا عش ، ومن الدليـل الشاهد والبرهان ، فتكهم بأخيك مع مشاورة النسوان ، على غيب من الجنـد والديوان ، فـلا تدعهم يخدعونك وهـم سلبوا روح جـدك السمى من غمـد الجسد ، وحملوا هامته فى مخلاة من مسد ، وايم الله لئن داموا لـك فى الغرب بطانة لطلقوا عليك ثلاثا اوطانه . وامـا نحن فبيعة والدنا رحمه الله لـم تزل لنا فى الاعناق ، ولا ينبغى أن تعاد فتكرر ، كالظهير لمن تحرر ، وأيضا منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا، فتكون أقوى سبب لفضيحتنا وأجلها هذا الاجدل الذى لا تؤده سموم الليالى ولا حرارة قيظ المصيف ، مولانا محمد بن مولانا الشريف ، عقاب أشهب على قنة كل عقبه لم يقنعه عد المال دون حسم الرقبة ، وربما غرتنا غفلة فيشن الغـارة على شعوب شعاب ملوية ، او ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والالوية ، سيمـا وجناحاه ذوو النفوس النفيسة ، بربر صنهاجـة وعرب دخيسة ، بـزاة النزوات ، بالحلة والمحال والغزوات ، والعياشى كما تعلمون كانت همـة هجرته أولا لملة أهل الشرك ، ثم مد خطا العزم الى درجة الملك . وأما وصيفكم الامين مبارك السوسى فحيث اناخ علينا ككـل الاقامة لاختطاط ضريح الوالدين رحمهما الله قمنا بوظيف حقه الظاهر والباطـن ، حيث اختبر بعين الحقيقة أرجاء أغوار المواطن ، ولاشك أن حال مطالعته هـى التى ارخصت لنا فى سوق خواطركم الاسعار ، الى أن نصبتم لنا بعـد الرضا حبائل الاذعار الجالبة للعار ، وجد قبائلنا متبددة على ضـم جـبوب الصيف ، وأعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمـح ولا مدفع ولا سيف ،

فخالهم على غرة غنيمة باردة ، وما علم أنهم آغوال الغيل صادرة وواردة ،
فان كانت معاينته هى التى أطمعتك أن يعودوا بعد العز نوائب فما درى أن
ظنه كان الخاوى الخائب ، من ركب الخيـل لنفسه دون راتب المخزن ،
لا ترضى همته أن يهان فيحزن ، وقاضيك السيد محمد المزوار حيث عاين
وفود الاقاليم منتشرة كالجراد على الازقة والادراب دون من لازم خدمـة
الابواب ، تحقق عيانا ان انتظام شمل الممالك والمملوك لا يكون الا على عظماء
الملوك ، فقص عليكم وعلى من حضر ما اعتقد وسمع ونظر ، وحتى الآن
ان قصدتم الغرب أو حصن فاس لا تنالكم من جانبنا مسـاءة ولا باس ،
فبعد أن يكون لكم فى المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار ، يكون لنـا
بعد ذلك حكم الاختيار ، بين أن نؤمن لك أو نترك لـك الديـار ، أو
نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقى وسلطان ، له شغف أكثر منـك
فى ضبط الاوطان ، فنقابل اذذاك القصورة بالساط ، ونلقى بطانة من شاط
لاسنان الامشاط ، أيهما للغرب غلب ، نؤدى له على الرغم مـا طلب ، وان
قـنعت بحوز الحمراء من مراكش ، ورفضت عنك معاناة الهراش والتناوش ،
فدعنا ومراعـاة من تجارتـه الرئاسة ، وهمته اشتراء نفيس السياسـة
ضرغـام غاب سجلماسة . وأمـا صاحب ايليـغ السوس فما مـراده
ومراد ذويـه الا غنيـمة سلامـة الاعراض وتجارة سلب النـفوس .
وفيما تلوناه عليك من القصص كفايـة فلئن غادرتنا مستترين فى حرمـة
الاحترام والوقار فنعم ، وان زاحمتنا بمنكب الهوان يدافعك عنا من ادعـى
انه زعم ، وا نطرقنا مناخ عزمك على عبور وادى العبيد او ام الربيـع ،
فهناك يجمع الله بـين من يشترى ويبيـع » والسلام . وكتب عن اذن جمهور
اخوته عبد الله المسناوى ابن محمد بن ابى بكـر الدلائى فى يـوم الاحد
الثانى والعشرين مـن رجب انتهى

ولما رأى السلطان محمد الشيخ بن زيدان تعاصى أهل زاوية الـدلاء
عليه واستحكام امر الغرب لهم وتقويهم بالعدد والعدد صرف عنانـه عـن
مقارعتهم ومال الى مسالمتهم وقطع النظر عما فى أيديهم والامر كله لله .

ذكر ما دار بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين الامير المولى محمد بن الشريف رحمهما الله تعالى

كانت المكاتبات والمراسلات تقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى وبين الامير المولى محمد بن الشريف السجلماسى ، فمن ذلك رسالة بعث بها السلطان المذكور الى الامير المذكور فكان من فصولها ان قال له : « وبلغنى انك تعلن فى النوادى من الحواضر والبوادى : ان جرثومة انتمائنا لبنى سعد بن بكر بن هوازن ، مع انها فى بنى نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن ، واننا من تيدسى أحد القصور بوادى درعه ، ومنها انبت الله اصلنا فأزهر غصنه واثمر فرعه ، فلئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللبب فهذا من العلى عليك عار ، وان تحاول محونا من صحيفة النسب ، فتلك دعوى لا تغلى او ترخص أسواق الاسعار ، وقد صرفنا اليك نسخة من «مناهج الصفاء فى أخبار الشرفاء» ليطلع عليها انظارك من الملوك فيزول ما بالخاطر من اشراك الشكوك »

فأجابه المولى محمد بن الشريف عن هذا الفصل بأن قال له : « وعتابكم اننا عزوناكم لبنى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور ، وناشرون لذلك فى الحلل والمدن والقصور ، تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل ولا بان نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا اهل ، بل اعتمدنا فى ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس ، من علماء مراكش وتلمسان وفاس ، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر ، فما وجدكم الا من بنى سعد بن بكر ، ولا معول على كتا ب المنصور من الفشاتلة ، ولا ابن القاضى المكناسى ، ولا ابن عسكر الشريف الشفشاونى ، وسواهم ، اذ الكل أهل بساطكم ، ومحل مزاحكم وانبساطكم ، ولقد بلغتنا نسخة « مناهل الصفا » فلم نجد فيها موردا عذب وصفا ، وكفى دليلا بالباطن والظاهر ، قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر ، ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف

النسب ، ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب » انتهى الغرض من هذه الرسالة . واشار بقوله قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر الى ما اتفق له مع المنصور حين جالسه على المائدة وقال له المنصور : «أين اجتمعنا؟» فقال له ابن طاهر : « على هذا الخوان » والحكاية قد مرت فى صدر هذه الدولة السعدية

ومما كتب به السلطان محمد الشيخ بن زيدان للامير المذكور ايضا وذلك حين غلب المولى محمد على فاس وملكها ، فكتب اليه السلطان المذكور يحذره من غائلة أهل الغرب وغدرهم برسالة من انشاء وزيره القائد أبى عبد الله محمد بن يحيى آجانا وفى آخرها قصيدة من انشاء القائد المذكور وهى :

ياشبل مولانا الشريف محمدا	شمس السعادة والهلال الاكمل
ملات مهابتك الكبيرة مغربا	فزهت بمشرقه اصبهان وموصل
صقر الصياصى على الاعادى صائل	طورا يغير وفى الملاحم سيتل
أنيابه البيض الحداد صوارم	وبكل ظفر منه أبتر مقصل
فجناحك الجرد العتاق وان نظر	ت الى تلمسان يطيش الشمأل
هابتك ثوار الاقالم عنوة	والوحش فهى يغص منها المنهل
قد طبت ان عرقت عروقك فى الوغا	خلت العنابر ديف فيها المندل
يامالكا سعدت به اوطانه	فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب	ولكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولاتكن	كالبط يطفو عن مطاه القوقل
واعدل تفوز ولا تواخى طامعا	ترد العداة وتعم عنك العذل
لا تصد من جبل البرابر واصطبر	حتى يهون على الجواسيس مدخل
لا تأمن الاعراب فى أقوالها	واقمع فظاظة من يجور ويختل
وعليك بالغارات فى اوطانها	بكتائب تسبى الاناث وتقتل
واغضض ولا تردى تجار مدائن	يبقى عليك الستر دأبا يسبل
لا تتخذ من حصن فاس صاحبا	أو حاكما يصل الامور ويفصل

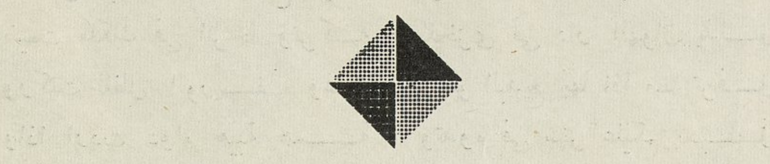
كالبغل عادته الفرار ولن غدا — فى مربط فمتى استغرك يركل
لا تنقلن الى الصحا رى ذخائرا — فيقول أهل الغرب حتما يرحل
واضرب لبيت الملك أوتاد الدها — تزداد صيتا فى القلوب وتقبل
الف وفود الغرب واعرف قدرها — وقروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنيئة — واذا غرست عروق عدل تنقل
هذى وصايا قد اضعنا حقوقها — فى آخر مما نحاه الاول
فمتى نشد الى المعالى رحالنا — يأباه نصر والمقادير تخذل
فرضينا متبعين أحكام القضا — والله يحكم ما يريد ويعدل

فاجابه المولى محمد بن الشريف فى سنة تسع وخمسين والف بقصيدة ختم بها جوابه من انشاء الفقيه ابى عبد الله محمد بن سودة الفاسى ونصها :

أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا — فخر الخلائف والهمام الاكمل
فلقد اجبتك عما قد كاتبتنى — نظما ونثرا كى ترى ما يمثل
انى ابث لكم وصايا جمة — ان انت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد أما ترى — أضعان ملكك كل يوم ترحل
والدهر ينتف فى رياش جناحكم — ويدنسن من الصفا ما تغسل
ما من مليك ذاق لذة راحة — الا تجلى له الهوان فيسفل
أحرى الذى كثرت شقا ثواره — يعوى عليه لكل عاد معقل
تحتال تخدعه بكل حبالة — حتى يصاد كما يصاد النعثل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى — فى أرض آساد الشرى لا يغفل
وانفض غبار الذل واخلع ثوبه — يزداد وجهك بهجة ويهلل
ضيعت ملكك فى الرخا وتركته — للخزى فى دار الهوان يذلل
وركنت للظل الوريف وغادة — يزهو البديع بها اذا ما ترفل
واذا اردت دوام هيبة همة — وتدوم فى ستر عليكم يسبل
دع عنك فى الحمرا مروق سفرجل — ومدربلا بالزعفران يفلفل
واركب مطايا الصافنات الى الوغا — اما تحوز مزية او تقتل

واقرع طبولا للرعاة وفى الوغا — يجبى الى الحرب العوان الجحفل
وخض القفار وهز رمحا وادرع — واثن العنان وفى يمينك منصل
خاطر بنفسك فى الفيافى جائلا — تردى العدو وكل ليل منزل
واصطد نهارك بالسلاق وبعدها — عقبانها وكذاك صقر اجدل
وقد الجيوش كما الوحوش ولاتدع — من يعص أمرك وازجرنه فيفعل
جنب آجانا الجبن فى تدبيره — واصحب شجاعا للذخائر يبذل
لا تجمعن من العلوج بطانة — فطباعها الغدر البليغ الاعجل
اما الشبانة فاحذرن من غيها — لا بد تغدر بالاخير وتخذل
ترجو عواقب دولة لنفوسها — وتود من وافى جنابك يجفل
يعطف عليك الدهر بعد نفوره — فتعود ايام السعود وتقبل
ما ذاق زيدان ابوك حلاوة — من ملكه حتى غذاه الحنظل
فاذا امتثلت صواب صدق وصيتى — يصغى الزمان لكم ويصفو المنهل

واعلم ان هذه الرسائل والاشعار التى اثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة ، وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة ، ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ واخبار ، لا كتاب ادب واشعار ، لم نبال بذلك ، اذ كان المقصود منها ما تضمنته من بيان الاحوال ، والافصاح عنها على أصح منوال ، فان هذه الرسائل هى عماد التاريخ وملاكه ، ونازلة منه بالمحل الذى نزلت من الدر اسلاكه ، فلذا اكثرنا منها فى هذا الكتاب . والله تعالى الملهم للصواب



وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف ، وفى « نشر المثانى » أنه توفى قتيلا سنة ثلاث وستين وألف ودفن بقبور الاشراف من قصبة مراكش فى روضة أبيه وعشيرته ومما نقش على رخامة قبره قول القائل :

لبدر سموات المعالى افول وفى ذا الضريح كان منه نزول
محمد الشيخ بن زيدان غاله حمام فحزن العالمين طويل
امام الانام ذو المآثر فعله له غرة فى الصالحات جميل
حباه اله العرش رحمى تخصه بما هو فى الفردوس منه كفيل

وزراؤه : يحيى آجانا وولده محمد وغيرهما ، وقضاته : ابو مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى ، وابو عبد الله محمد المزوار رحم الله الجميع

الخبر عن دولة السلطان ابى العباس احمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما توفى السلطان محمد الشيخ فى التاريخ المتقدم بويع ابنه ابو العباس أحمد ، والعامة يقولون مولاى العباس بدون لفظ الكنية ، وقام مقام ابيه فى جميع ما كان بيده الا ان حى الشبانات ، وهم اخواله ، قويت شوكتهم فى ايامه وغلظ امرهم عليه ، ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به ، فضايقوه وحاصروه بمراكش اشهرا

ولما رأت امه ان الامر لا يزيد الا شدة كلمته فى ان يذهب الى اخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما فى نفوسهم عليه ، فذهب اليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة ، وأقبلوا الى مراكش مسرعين وبايعوا فيها لاميرهم عبد

الكريم بن ابى بكر الشبانى ثم الحريزى كما سياتى

وكان مقتل السلطان أبى العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف كذا في «النزهة» . والذى فى «نشر المثانى» : أنه قتل سنة خمس وستين والف والله اعلم بغيبه

قال اليفرنى رحمه الله وقد أذكرتنى هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف فى قصيدته السابقة :

اما الشبانة فاحذرن من غيها لا بد تغدر بالاخير وتخذل

فان الامر وقع كما قال ، مع أن المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ فى سنة تسع وخمسين وألف ، وغدر الشبانات للسلطان أبى العباس كان سنة تسع وستين وألف ، ولعل المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحوهم ، فان كلامه كثيرا ما يقع فيه مثل هذا ، وبمهلك السلطان أبى العباس رحمه الله انقرضت دولة السعديين من آل زيدان ، وانهار جرفها وانطوى بساطها ، وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يزول سلطانه لااله الا هو العزيز الحكيم .

الخبر عن دولة الشبانات بمراكش واعمالها

وما آل اليه امرها من دثورها واضمحلالها

لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان فى التاريخ المتقدم ثار كبير حى الشبانات بمراكش من عرب معقل ، وهو الرئيس عبد الكريم بن القائد ابى بكر الشبانى ثم الحريزى ، وحريز فخذ منها هى النبعة والصميم فيها ، وعبد الكريم هذا يعرف عند العامة بكروم الحاج ، فدخل مراكش ، ودعا الناس الى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين والف ، وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها ، وسار فى

الناس سيرة حميدة ، وكان فى أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف ، وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف ، ولم يزل مستقيم الرأى بمراكش الى أن توفى بها سنة تسع وسبعين والف قبل أن يدخلها المولى الرشيد بن الشريف باربعين يوما .

وقال منويل : لما بايع أهل مراكش عبد الكريم الشبانى خالفت عليه آسفى وأعمالها فغزاهم ثم رجع مفلولا الى مراكش ، وكانت المجاعة المشهورة عقب ذلك ، ثم قتله بعض اجناده دخل عليه فطعنه برمح فاتلفه ، ثم قبض على القاتل وقتل أيضا فى الحين ، ولما توفى بايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم فبقى الى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ، ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار ، وانقرضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده .

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث فنقول :

فى سنة ثلاث عشرة والف فى ثانى عشر محرم منها توفى الولى الكبير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدى السلاسى المعروف بابن حسون نسبة الى جده الحسن المذكور ، وهذا الشيخ هو دفين سلا الشهير بها أصله من سلاس مدشر على مرحلة من فاس ، ثم انتقل الى سلا ، وسبب انتقاله اليها : أنه كان بين أهل سلاس حروب ومقاتلات فكان الشيخ أبو محمد عبد الله اذا غلب أهل مدشره فرح واذا انهزموا حزن ففكر فى نفسه وقال : « محبة الغلبة تستدعى محبة الشر للمسلمين وعلى عهد الله لا جلست فى موضع أفرق فيه بين المسلمين وأبغى الشر لهم » فارتحل الى سلا . ولما استقر بها أتاه جماعة من عشيرته يراودونه على الرجوع الى بلادهم وحثوا عليه فى ذلك فاخذ قدحا وملأه من ماء البحر ووضعه ثم قال لهم : « ما بال ماء البحر يضرب بعضه بعضا وتتلاطم أمواجه وما لهذا الماء الذى منه فى القدح ساكن؟» فقالوا له: «لانه لم يبق فى البحر » فقال لهم : « الغربة تصفى وتسكن » فعلموا مراده وانصرفوا آيسين ، قلت : وفى انتقاله من سلاس الى سلا اشارة لطيفة وهى ان لفظ

١١٠

سلاس باعتبار تفكيكه سلو موصول بحرف السين وهو حرف ذو قرون ثلاثة متشعبة فيؤخذ منه بطريق الاشارة انه سلو موصول بكدر، بخلاف لفظ سلا فانه سلو محض ، وقد قدمنا فى أخبار ابن الخطيب رحمه الله أن مدينة سلا كانت مقصدا للعباد واهل الخلوة والانفراد من لدن قديم ، أخذ الشيخ ابن حسون عن ابى محمد الهبطى عن أبى محمد الغزوانى عن التباع عن الجزولى رضى الله عنهم ، وكان صاحب أحوال تهدى اليه الثياب الرفيعة فيأمر بها فتلقى فى بيت مسدود فتبقى فيه حتى يأكلها السوس وتضيع ، وكان كل يوم يصبح على بابه ارباب الآلات بالطبول والابواق يضربون عليه النوبة وغير ذلك ، وقد تكلم عليه الشيخ اليوسى فى المحاضرات وحمله محملا جميلا ، وكرامات ابن حسون كثيرة شهيرة نفعنا الله به وبأمثاله .

وفى السنة المذكورة فى ربيع الاول منها توفى الشيخ العارف بالله تعالى العالم الربانى أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسى جد السادة الفاسيين ، وأخباره ومناقبه شهيرة قد تكفل ببسطها كتاب « مرآة المحاسن » لابنه العلامة أبى عبد الله محمد العربى الفاسى الموضوع لهذا القصد بالخصوص .

وفى سنة أربع عشرة وألف كان الغلاء العظيم بفاس ، قال صاحب « الممتع » فى ترجمة الشيخ أبى عبد الله محمد بن حكيم الاندلسى : « انه اعتراه ذات يوم حال فجاء الى بعض افران فاس وجعل يقول لصاحب الفرن : « أغلق فرنك ، أغلق فرنك » ويصيح به فاذا بالغلاء العظيم حدث عقب ذلك ، وهو غلاء سنة أربع عشرة وألف فتعطل ذلك الفرن وغيره من أفران المدينة ، وكان يمر بالطرقات فيقول : « الناس يأكلون عن أولادهم » ويكرر ذلك على جهة الانكار فجاء الغلاء المذكور فكان الناس يأكلون فى الاسواق عن أولادهم ولم يكن يعهد الاكل بالاسواق قبل ذلك .

وفى سنة خمس عشرة وألف فى ثانى جمادى منها جاء بفاس سيل

عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين وذهب ببعض أنادر الزرع وحمل أمة من باب الفتــوح فماتت .

وفى سنة اثنتين وعشرين وألف حدث الشر بفاس ووقــع الغــلاء حتى بيع القمح بأوقيتين وربع للمد ، وكثرت الموتى حتــى ان صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الاضحى من سنة اثنتيــن وعشريـن وألف الى ربيع النبوى من السنة بعدها أربعــة آلاف وستمائة ، وخربت أطراف فاس وخلت المداشر ، ولم يبق بلمطة سوى الوحوش .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف وذلك عند فجر يوم السبت الثانــي والعشرين من رجب منها حدثت زلزلة عظيمة بفاس ، ذكر صاحب «الممتع» في ترجمة ابى عبد الله بن حكيم المذكور آنفا : انه كان قبــل الزلزلة المذكورة يصيح : المردومات المردومات ، فاذا بالزلزلة حدثت ، قال : فمـا بقيت دار من دور فاس غالبا الا دخلتها الفؤس .

وفى خامس شعبان من السنة المذكورة نزل برد عظيم قدر بيــض الدجاج وأكبر وأصغر وريء حجر عظيم منها نزل على خيمة فخرقها وفر أهلها عنها وبقى لم يذب نحو ثلاثة أيام .

وفى سنة ست وثلاثين وألف توفى الامام العارف بالله تعالى أبو زيــد عبد الرحمن بن محمد الفاسى المعروف بالعارف بالله وهو اخــو ابــى المحاسن المذكور آنفا ومناقبه شهيرة أيضا .

وفى السنة المذكورة كان الغلاء بفاس والمغرب .

وفى سنــة أربعين وألف عشيــة يوم الخميس ثالث ذى الحجة منهــا توفى الشيخ الامام العلامة الهمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علـى ابن عاشر الانصارى نسبا الاندلسى اصلا الفاسى منشأ ودارا الفقيه المشهور كان رحمه الله له الباع الطويل فى المشاركة فى العلوم مــع غاية التحريــر والتحقيق وله التاليف الحسان التى آغنى فيها عن الخبر العيان ، وكان ورعا سنيا وكان لا يتخذ القراء على جنائز أقاربه ويقول : يمنعنى من ذلك أنهم يفسدون قراءة القرآن وقراءتهم تلك عذر فى التخلف عن الجنائز »

وفى سنة اثنتين وخمسين وألف توفى الشيخ الامام أبو عبد الله محمد العربى بن أبى المحاسن يوسف الفاسى كان رحمه الله متفننا عالما له عناية كبيرة بتحصيل المسائل وتقييدها ، والاطلاع على غريبها وشريدها، وهو صاحب « مرآة المحاسن » وكان جوالا فى بوادى المغرب وحواضره حتى أدته خاتمة المطاف الى مدينة تطاوين فألقى بها عصا التسيار الى أن توفى فى السنة المذكورة ثم نقل الى فاس بعد سنتين فوجد طريا رحمه الله .

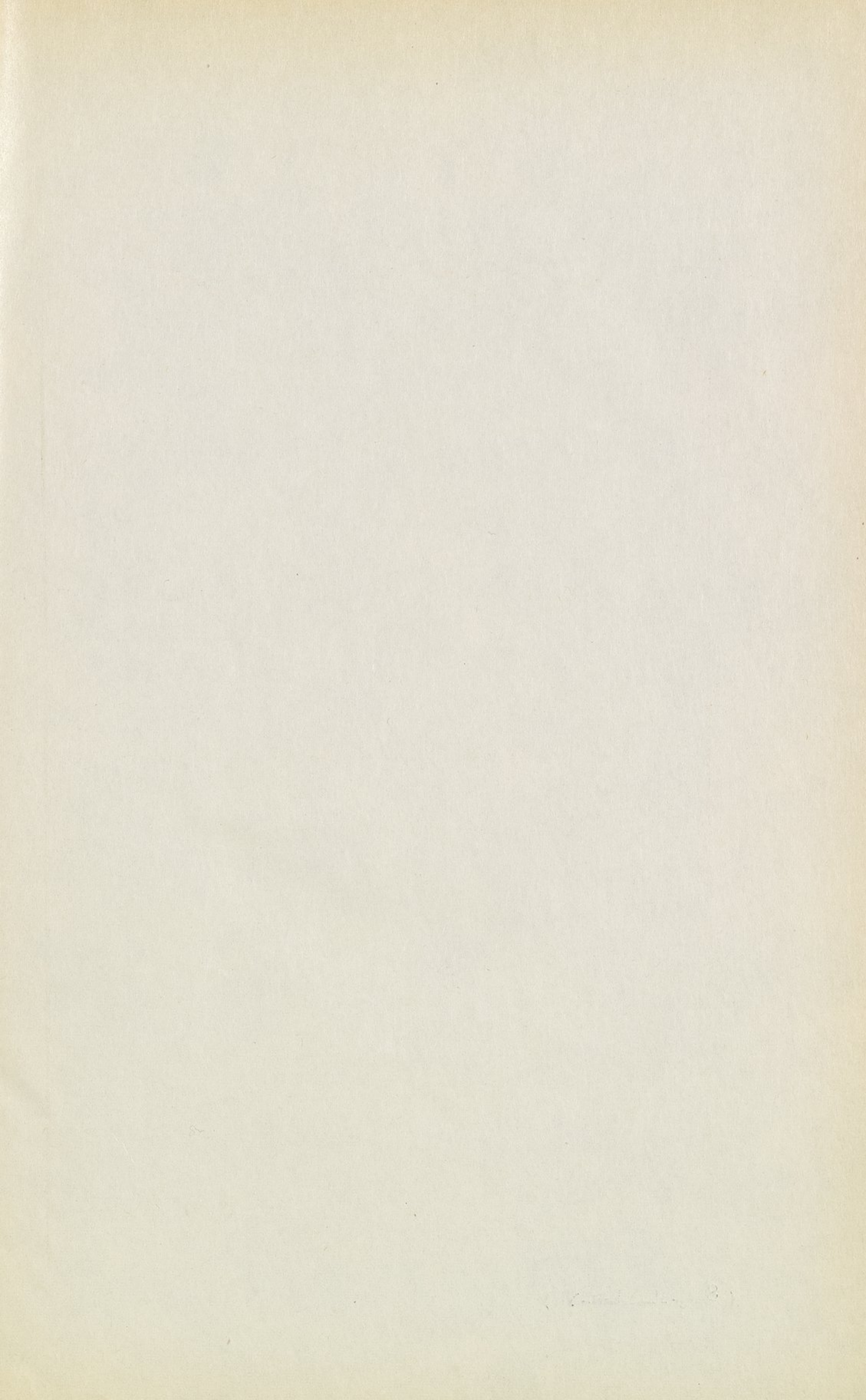
وفى سنة ستين وألف كان بالمغرب رخاء مفرط وغلاء مفرط وبلغ صاع البر بمدينة سلا مثقالا وكاد ينعدم بالكلية وهو غلاء لم يعهد مثله وانتشر الفساد فى البلاد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون فى كل طريق رجالا ونساء نسأل الله العافية .

وفى سنة سبعين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب لاسيما بمراكش وهذه السنة هى المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لا زالوا يضربون المثل بغلائها الى اليوم والله تعالى يحفظ المسلمين ويحلهم من كنفه فى حصن حصين آمين .

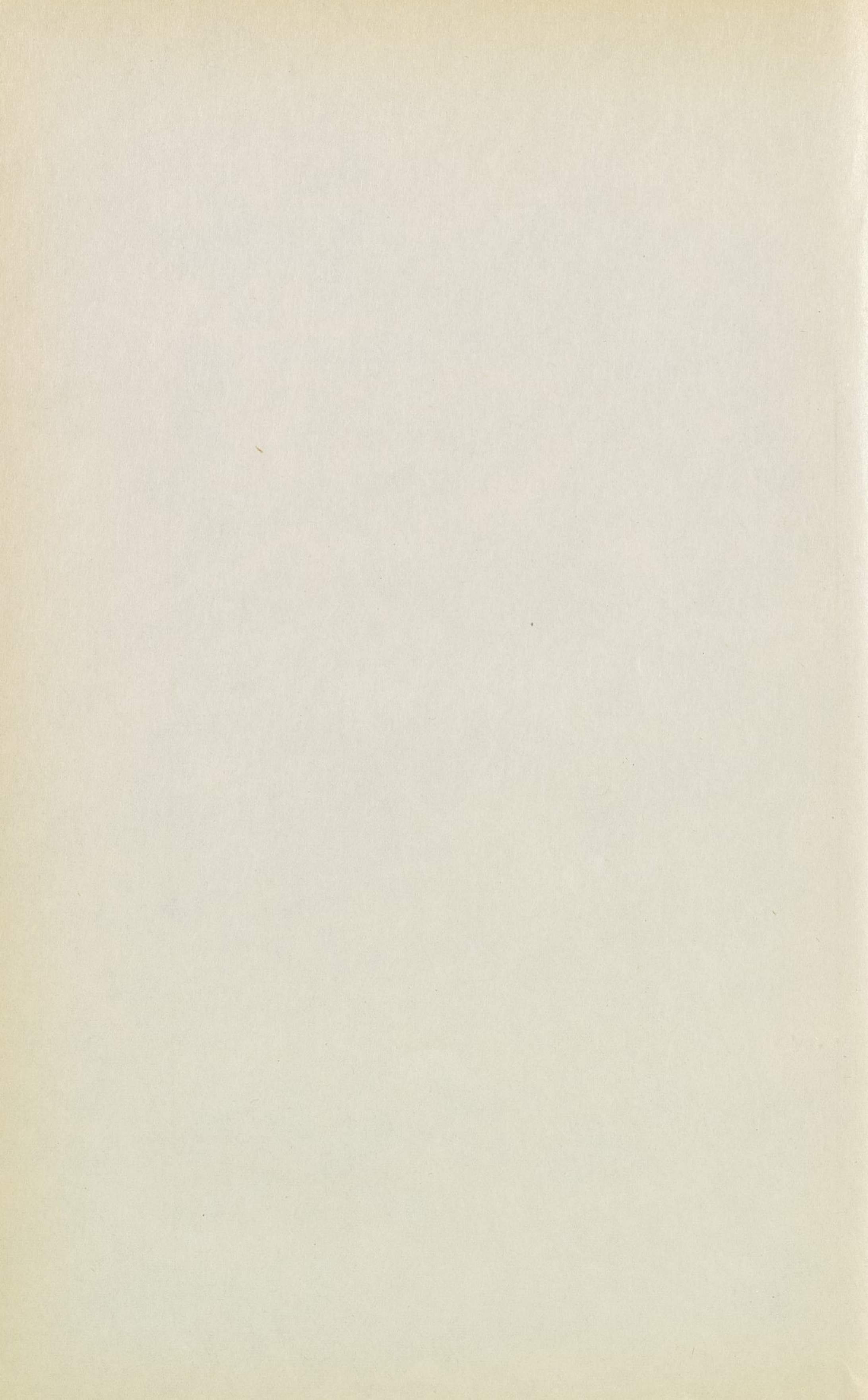
تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع

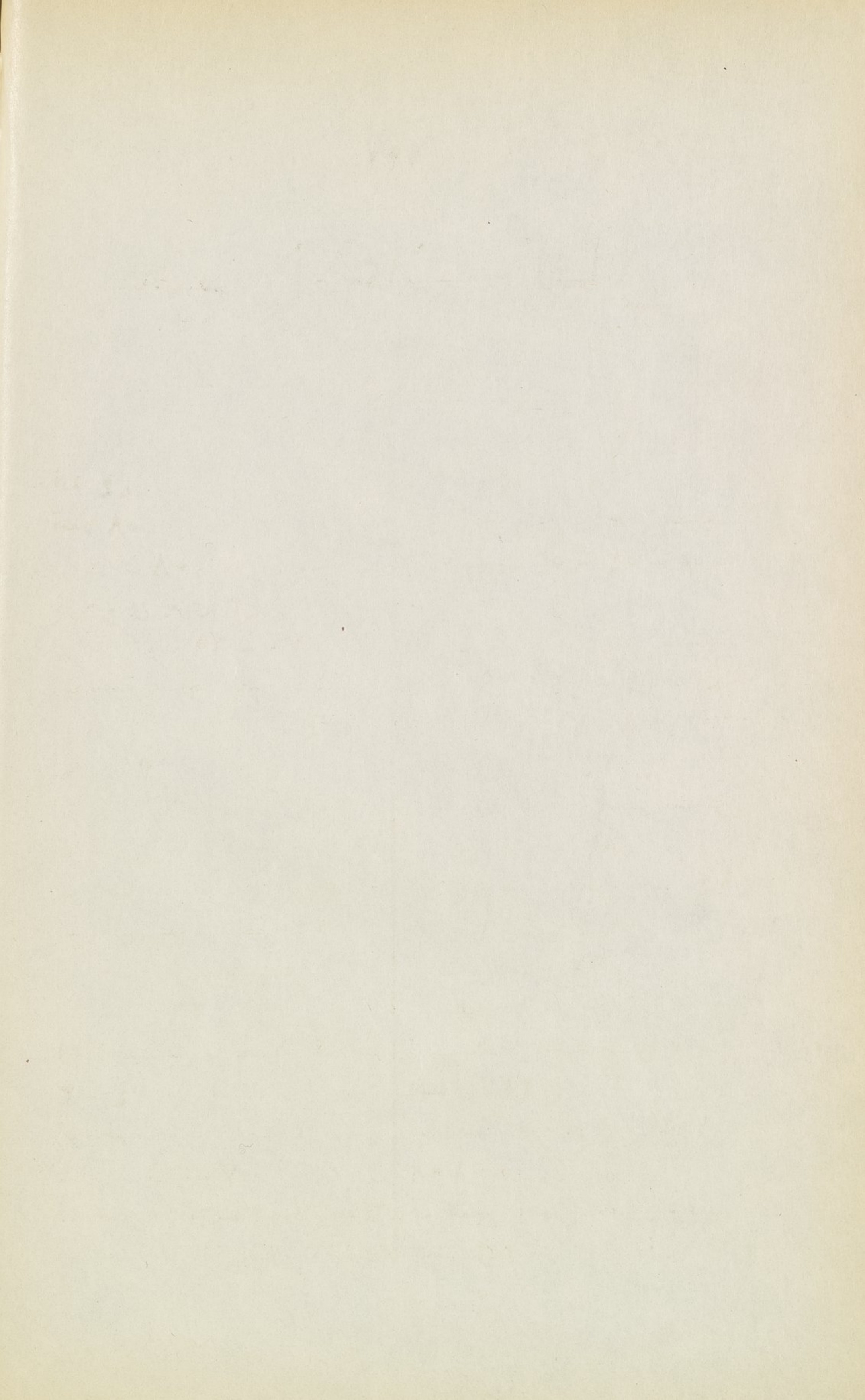
وأوله :

الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين من آل على الشريف وذكر نسبهم واوليتهم



فهرس الموضوعات





فهرس الاعلام والقبائل

حـــرف (ج)

حـــرف (ح)

حـرف (خ)

حـرف (د)

حـرف (ر)

حـــرف (ز)

حـــرف (س)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

فهرس الاماكن

حـرف (ث)

حـرف (ج)

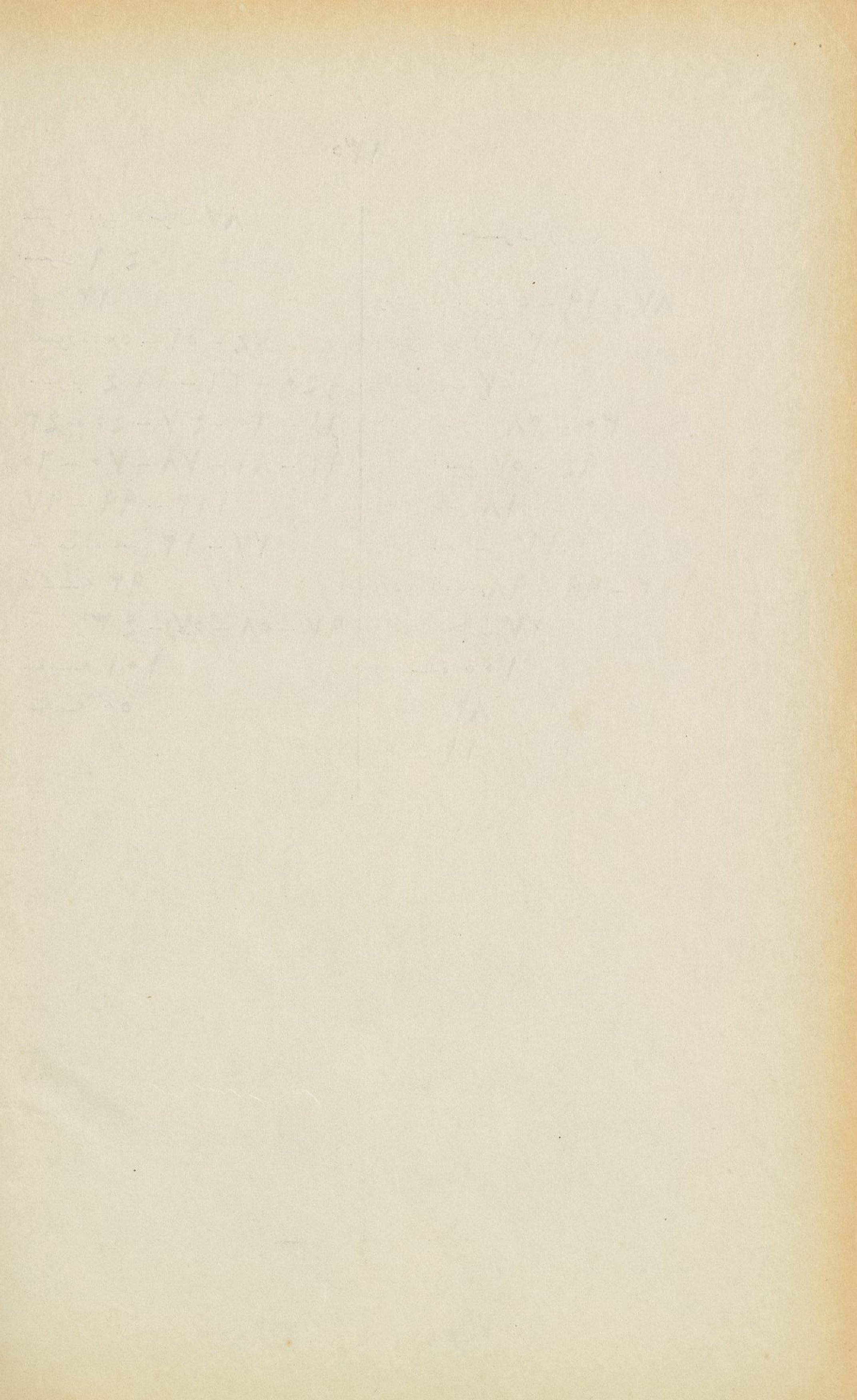
حـرف (ح)

حـرف (خ)

حـرف (د)

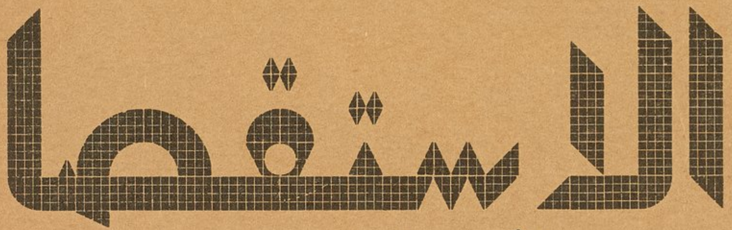
حـرف (ر)

حـــرف (و)



الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة العلوية

الجزء السابع

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

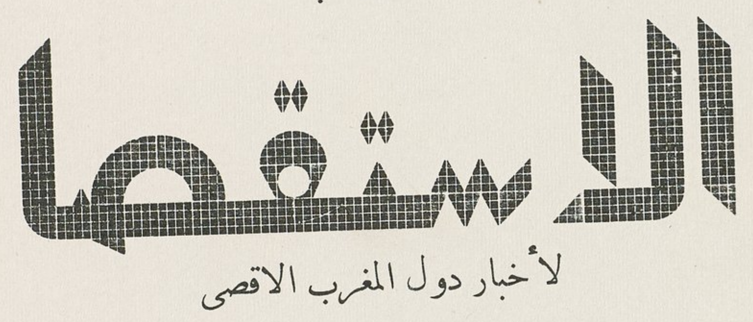
الدار البيضاء

١٩٥٦



الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولة العلوية

الجزء السابع

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٦

الدولة العلوية

الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين من آل على الشريف وذكر نسبهم واوليتهم

اعلم ان نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الانساب ، وسببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الاسباب ، واول ملوكها كما سياتى هو المولى محمد بن الشريف بن على الشريف المراكشى ابن محمد بن على بن يوسف بن على الشريف السجلماسى ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم بن محمد بن أبى القاسم ابن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفة ابن الحسن بن أبى بكر بن على بن الحسن بن احمد بن اسمعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا ذكر هذا النسب ، الذى هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب ، جماعة من العلماء كالشيخ أبى العباس أحمد بن أبى القاسم الصومعى ، والشيخ أبى عبد الله محمد العربى بن يوسف الفاسى ، والعلامة الشريف أبى محمد عبد السلام القادرى فى كتابه : «الدر السنى فيما بفاس من النسب الحسنى» وغيرهم .

وقد تقدم فى اخبار السعديين أن الصواب أن يزاد فى عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه : ابن الحسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية الى آخر ما مر

قال ابو عبد الله الفاسى فى المرآة : «ان الشرفاء الذين لا يشك فى

شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطيين من الحسنيين الادريسيين ، وكشرفاء تافيلالت من الحسنيين أيضا المحمديين ، وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون ، فان شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من اهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم» اه

وعن شيخ الجماعة الامام أبى محمد عبد القادر الفاسى رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة أقسام ومثل للقسم الاول المتفق على صحته باضاف منهم هؤلاء السادة السجلماسيون . وقال الشيخ أبو على اليوسى رحمه الله : «شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية فى رابعة النهار .» وعن الشيخ أبى العباس أحمد ابن عبد الله بن معن الاندلسى أنه كان يقول : «ما ولى المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء تافيلالت .

وبالجملة فان شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع فى صراحته ، ولا خلاف فى صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرا ترضى الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين .

دخول المولى حسن بن قاسم الى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب فى ذلك

قالوا : ان أصل سلف هؤلاء السادة رضى الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز . قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقطع جدهم على بن أبى طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته به وتناسلت الى هذا العهد ، وكان اول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم ، فحكى عن الفقيه العالم أبى عبد الله محمد بن سعيد المرغيثى صاحب الرجز المسمى : بالمقنع قال « أخبرنى الشيخ الامام المولى أبو محمد عبد الله بن

على بن طاهر الحسنى أن جده الداخل الى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال : « وكان دخوله اليه فى أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفى رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة » اه

وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل فى كيفية الدخول ووقته . وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة . وقال الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن هلال : ان دخوله كان فى أوائل الدولة المرينية ، ذكر ذلك فى منسكه فعلى هذا يكون دخوله فى دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى ، وقد أشرنا الى ذلك فى محله فيما سلف . وقال العلامة أبو سالم العياشى فى رحلته : «ان المولى حسن بن قاسم دخل المغرب فى المائة السابعة وكان سكناه من ينبع النخل بمدشر يعرف بمدشر بنى ابراهيم. فهؤلاء كلهم اتفقوا على ان الدخول كان فى المائة السابعة وهو الصحيح الصواب ان شاء الله . وزعم بعضهم أن ذلك كان فى المائة السادسة وهو بعيد.

واختلفوا فى السبب الداعى الى دخول هذا السيد الى المغرب . فذكر صاحب كتاب ، «الانوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية» أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربى كان يتوارد على الاشراف هنالك وكان شيخ الركب فى بعض القدمات رجلا من أهل سجلماسة يظن أنه السيد أبو ابراهيم ، فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور ، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكنى الاشراف فلم يزل أبو ابراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فاجمع السير مع الركب ، وقدم به أبو ابراهيم ناستوطن ببلدهم سجلماسة . وقال حافده المولى أبو محمد عبد الله بن على بن طاهر فيما قيد عنه : « وكان الذى أتوا به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المنزارى وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المنزارى » اه

وذكر صاحب الارجوزة : أن الشيخ أبا ابراهيم الذى جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال بعضهم : ان أهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا الى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت

تبركا به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هى هجر المغرب . وقال غيره : ان سبب اتيانهم به أن الاشراف من آل ادريس رضى الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأنكره كثير من أهله حقنا لدمائهم ، فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الاشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم ، ولم يكن ببلد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأى كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقيل : ان الذهب يطلب من معدنه ، والياقوت يجلب من موطنه ، أن بلاد الحجاز هى مقر الاشراف ، ولذلك الجوهر النفيس من أجل الاصداف ، فذهبوا الى الحجاز وجاءوا بالمولى حسن على ما ذكرنا فأشرقت شمس البيت النبوى على سجلماسة وأضاءت أرجاؤها ، وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وأفياؤها ، حتى قيل : ان مقبرة أهل سجلماسة هى بقيع المغرب وكفاها هذا شرفا وفخرا ومزية وذخرا ، وذكر بعضهم : أن أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك ، وكان له على ما قيل ثمانية من الولد ، فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له : « من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت ؟» فيقول : « الخير » «ومن فعل معك الشر ؟» فيقول : «الشر» فيقول : «اجلس» الى أن انتهى الى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لاخوته فقال : «من فعل معى الشر أفعل معه الخير» قال : «فيعود ذلك بالشر» قال : «فأعود له بالخير الى أن يغلب خيرى على شره» فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفى عقبه فأجاب الله دعوته .

وكان المولى حسن الداخل رجلا صالحا ناسكا له مشاركة فى العلوم خصوصا علم البيان فانه كانت له فيه اليد الطولى ، ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو ابراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له : المصلح ، ولما توفى تنازع أهل سجلماسة فى موضع دفنه حتى

كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء ،فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعا ودفنوه بمكان سوى يتوسط جميع النواحى ، ولم يحفظ تاريخ وفاته ، وما استنبطه اليفرنى فى ذلك فمبنى على غير أساس . والله تعالى أعلم .

ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والالمام بشىء من مناقب المولى على الشريف

لما توفى المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف الا ولدا واحدا ، وهوالمولى محمد،ثم خلف المولى محمد هذا ولدا واحدا أيضا،وهو المولى الحسن يسمى باسم جده ، وهو المدفون حول المدينة الكبرى بازاء الشيخ أبى عبد الله الخراز من أرض سجلماسة ، وخلف المولى الحسن المذكور ولدين . أحدهما : المولى عبد الرحمن المكنى بابى البركات ، وهو أكبرهما ، ومن ذريته أولاد أبى حميد بالتصغير القاطنون بوادى الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة . ومنهم أيضا الشرفاء النازلون ببنى زروال ، وثانيهما : المولى على المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذا همة سنية وأحوال مرضية .

رحل فى بعض الاوقات الى فاس واستوطنها مدة طويلة . وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين ، وترك هنالك دارا ثم أقام مدة بقرية صفرو خلف بها عقارا وآثارا هى بها الى الآن ، وأقام مدة أخرى ببلد جرس التى على مرحلتين ونصف من سجلماسة ، وترك بها مثل ذلك . ودخل عدوة الاندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم عاد الى سجلماسة ، فكاتبه أهل الاندلس يطلبون منه العود اليهم ويحضونه

على الاعتناء بأمور الجهاد ، ويشكون اليه ضعف أهل الاندلس عن مقاومة العدو ، وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب ، وقد كانوا راودوه ،وهو مقيم عندهم ، على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعا وزهدا وعزوفا عن الدنيا وزهراتها ، قال اليفرني رحمه الله : وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها اليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز اليهم واستنفار المجاهدين الى حماية بيضتهم ويذكرون له ان كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب ، وحلوه فى بعض تلك الرسائل بما نصه : «الى الهمام الضرغام قطب دائرة فرسان الاسلام الشجاع المقدام ، الهصور الفاتك ، الوقور الناسك ، طليعة جيش الجهاد ، وعين أعيان الانجاد ، المؤيد بالفتح فى هذه البلاد ، المسارع الى مرضات رب العباد ، مولانا أبى الحسن على الشريف » اه نص التحلية . وكتبوا مع ذلك الى علماء فاس يلتمسون منهم ان يحضوا المولى عليا على العبور الى العدوة فكتب اليه أعلام فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة الى اغاثتهم ، وذكروا له فضل الجهاد وانه من أفضل اعمال البر، وكان من موجبات تخلفه عن اغاثة أهل غرناطة أنه كان قد عزم على الذهاب الى الحج فقالوا له فى بعض تلك الرسائل : وعوضوا هذه الوجهة الحجية التى أجمع رأيكم عليها ، وتوفر عزمكم لديها بالعبور الى الجهاد فان الجهاد ، أصلحكم الله فى حق أهل المغرب ، أفضل من الحج كما أفتى به الامام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك ، وقد بسط الكلام عليه فى أجوبته ووجه ما ذهب اليه من ذلك اه . وكان ممن كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضى الجماعة بها . ومن شيوخ فاس الذين كتبوا اليه الفقيه أبو عبد الله العكرمى شيخ شيوخ الامام ابن غازى ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس ، وابو زيد عبد الرحمن الرقعى صاحب الرجز المشهور وغيرهم .

ومما ضمنه أهل الاندلس فى رسائلهم القصيدة الآتية فى مدح المولى على وصاحبه الفاضل أبى عبد الله محمد بن ابراهيم العمرى وحثهما على اجابتهم وهى من انشاء الفقيه أبى فارس بن الربيع الغرناطى يقول فيها :

أياراكبا يطوى المفاوز والقفرا ... رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوما وليلة ... وسافر تجدها فى مطالعها زهرا
تحمل رعاك الله منى الى الحما ... تحية مشتاق تهيجه الذكرا
وأم ديار الحى من سجلماسة ... فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها ... سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندى لهم حب جرى فى مفاصلى ... ومازج منى العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى ... فكم من تقى فى سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم ... يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل ياأهيل القبلة السادة الاولى ... اذا مادعوا فى حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمى ابن صهره ... على الذى يعلو على زحل قدرا
أبا الحسن المولى الشريف الذى به ... على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب ... بها سلب الالباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل ... هزبر اذا ما انشب الناب والظفرا
هو الغوث ان دارت رحى الحرب للقا ... وغيث اذما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الاعلاج فاجتاح جمعهم ... وجد لهم قتلا وشددهم أسرا
بطنجة قد طاب الممات لزمرة ... بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها بأقصى السوس قوم فأسرجوا ... من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت ... وأرهق جيش الله أعداءه خسرا
ولا عجب ان الالى هو منهم ... ليوث الشرى قد أوسعوا مرحبا شرا
أجر جارك اللهفان من غمراته ... أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
وناد أبا عبد الاله خليلكم ... به تجلب السراء فى حادث الضرا
سليل أبى اسحق أكرم به أبا ... لقد خلف الفرع الزكى الرضى البرا
أليس الذى لبى نداء أهل طنجة ... وجمع أهل الغرب من حينه طرا

١٠

وأوقع بالكفار أي وقيعة … فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا
وأصبح ثغر الدين أشنب باسما … وأرهق وجه الكفر من حزن قترا
ونال من الله السعادة والرضى … وجنات عدن فى المعاد له ذخرا
وقل أيها العدل الذى اتخذ التقى … شعارا وسامى فى منازلها الشعرا
أرى كل ما فى الغرب أصبح قانطا … لاندلس يرجو بطلعتكم نصرا
وغرناطة الغراء نادتكما اهلا … وبالراية البيضاء كى تنصر الحمرا
فساكنها وقف عليكم رجاؤه … كبيرهم والطفل والكاعب العذرا
فجئنا بمن فى أرضكم حاميا لهم … رجالا وفرسانا غطارفة غرا
حماة أباة الضيم من كل ماجد … كريم يبارى الغيث والسيل والبحرا
فدونكما الكفار تعنى طغاتها … وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا
لقد طمع الكفار ملك رقابنا … واهلاكهم فى ارضنا الحرث والثمرا
منازلنا من كل حصن وقرية … تناديكما غوثا لخطب أتى أمرا
فكم من ضعيف لا حراك بجسمه … وشيخ بها أربى على مائة عشرا
وبيض وسمر من اوانس كالدما … وصبية مهد لا تع النفع والضرا
ومنبر جمع للخطابة والدعا … ومسجد دين للصلاة وللاقرا
وكرسى علم مقعد لمهذب … تصدر يملى ما يضىء لنا الصدرا
وأجداث أبناء الصحابة فوقها … وكل ولى أشعث لابس طمرا
تناديكما غوثا من الله سرعة … فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا
فحثوا لنا بالسير بعدا وقربة … أجيراننا من كيد من أضمر الجؤرا
وعزما بأخرى مثل تلك التى مضت … ليبصر هذا الفنش مثلكم كبرا
وانتم بحمد الله تدرون ما أتى … عن المصطفى فى الغزو من خبر خبرا
فلله ما أسنى وددت لو أننى … قتلت فأحيى ثم اقتل مذ مرا
وما فى كتاب الله من آية أتت … كشمس الضحى فى الصحو سافرة غرا
خذاها بحمد الله عذرا جبينها … يضوع شذى تهدى لمغناكما عطرا
وتبلغ عنى للكرام تحية … من أندلس للغرب قدعبروا البحرا
فعونا رجال الله عونا لعدوة … أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا

فأنتم لنـا الجند القوى ونحوكم تشوفنا فاستعجلوا نحونـا السيرا
ونثنى على خير البرية ذى الهدى محمد المبعـوث بالملـة اليسرا
وآل وصحب ثـم تال لنهجهـم ومن لذوى الاسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الالفاظ المستوفقة الالحاظ يعلم أن المولى عليا الشريف رحمه الله كان مشهورا فى عصره ، متقدما على كافة أهل مصره، وانه كان ملحوظا بالاجلال عندهم والاكبار ، وان هذه الدار العالية البنـاء والاسوار معظمة من لدن قديم ، مشهود لها بالخير والتقديم ، وأظـن أن وقعة طنجة المشار اليها فـى هذه القصيدة هى وقعة سنة احـدى وأربعين وثمانمائة ، وقد تقدمت الاشارة اليها فى محلها .

وقد كان للمولى على المذكور جهاد فى ناحية أكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطا فى «النزهة» فلينظر هناك .

وذكر صاحب كتاب الانوار السنيـة ان المولى عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان : أحدهما المولى محمد بفتـح الميم ، والثانى أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما ، أما المولى محمد فخلـف أربعة أولاد وهم : السيد الحسن والسيد عبد الله والسيد على والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب فى السن ، ويقال لسائرهم : أولاد محمد نسبـة الى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعهـا . وأما المولى يوسف فانـه ولى زاوية أبيه وأجمع الناس على انه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لـم يزل موجودا عند بعض حفدتـه . وكان ذلك كله فى دولة بنى مرين .

وقال صاحب كتاب الانوار : وقد قيل انه لم يكن له ولد حتى بلـغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة منهم اشقاء ، وامهم حليمة مـن ذرية بعض المرابطين بسجلماسة ، وهم السيد على وهو جد الملوك أبقـى الله فضلهم ، والسيد أحمد ، والسيد عبد الواحد ، والسيد الطيب ، والسيـد عبد الواحد المكنى : بأبى الغيث جد الاشراف البلغيثيين ، وانما كنى بذلـك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته ، وكان الناس قبله فى جدب شديد .

وهم على هذا الترتيب فى السن . وأربعـة أشقـاء أمهم طاهـرة من ذريـة بعض المرابطين أيضا وهم :السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمن والسيد محمد ، ومن منازل هؤلاء الاشقاء اليـوم الموضـع المعروف بأخنوس .

وتفصيل انساب هؤلاء الاولاد الثمانية يطول فلنقتصر على ذكـر المولى على المثنى لانه الغرض المقصود فنقول : ولد للمولى على المذكور ثلاثـة من الولد وهم : السيد محمد والسيد محـرز والسيد هاشم جـد الاشراف المرانيين أهل زاوية اللمرانى . وكلهم قد عقبوا فاما المولى محمد فولد لـه المولى على الشريف المراكشى وهو المثلث مع عدة اولاد سواه ، والمولى على هو جد الملوك أيضا وتوفى بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنـين المولى الرشيد قبة بديعة تلقاء ضريح القاضى عياض رحمه الله . وولد للمولى على الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسما وكانت ولادته سنـة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك . والمولى الحفيد ، والمولى حجـاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد ، فهؤلاء هم أولاد المولى على الشريف ، وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمة الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة ذوو همـم باهرة ، منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمـولى اسمعيل ، وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم المولى الحران وسياتى ، والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى على والمولى مهدى وهو شقيق اسمعيل من بينهم . هذا ما تيسر ذكـره من نسب هـذه الدولة الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، وبالله التوفيق .

١٣

الخبر عن رياسة المولى الشريف بن على وما دار بينه وبين ابى حسون السملالى المعروف بابى دميعة

قد قدمنا أن ظهور أبى حسون السملالى كان فى أيام السلطان زيدان ابن المنصور السعدى وانه استولى على القطر السوسى أولا ثم تناول درعه وسجلماسة ثانيا ، قالوا : وكان استيلاؤه على سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن على له واستصراخه اياه على بنى الزبير أهل حصن تابوعصامت أعدائه ، كذا فى البستان ، فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملا من قبله ورجع الى مقره من أرض السوس .

وقال اليفرنى فى «النزهة» كان أبو الاملاك المولى الشريف بن على وجيها عند أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه فى المهمات ويستشفعون به فى الازمات ، ويهرعون اليه فيما جل وقل ، قال : وكان قد مر ذات يوم وهو صبى ، على الامام المولى أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى فسأل عنه اذ لم يكن يعرفه قبل ذلك ، فقيل له : هو ابن المولى على الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين ، فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبى محمد وصدق فراسته ، فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الاولاد يشيع أن هذا الامر لابد أن يصير الى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتمادا على فراسة أبى محمد بن طاهر رحمه الله .

ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت ، وهى حصن منيع من حصون سجلماسة ، عداوة تامة ، فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالى صاحب السوس لصداقة كانت بينهما ، واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء ، فأغاث كل منهما من استصرخه ، والتقى العسكران معا بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنا لدماء المسلمين ، وكان ذلك سنة

ثلاث وأربعين وألف ، ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى الشريف وأبى حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبى حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعا فى استفساده على المولى الشريف اذ كان ظاهرا عليهم به ، فلم يزالوا يسعون فى ذلك الى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها ، ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة فى أهل تابوعصامت ، وخرج ليلا فى نحو مائتين من الخيل مظهرا أنه قاصد لبعض النواحى ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راع أهل تابوعصامت الا المولى محمد فى جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحكموه فى رقابهم ، فلم يكن عندهم دفاع ، واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم ، وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم . ولما انتهى الخبر بذلك الى أبى حسون حمى أنفه واشتد غضبه ، وكتب الى عامله بسجلماسة ، واسمه أبو بكر ، يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث اليه به حبيسا ، فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدرا بأن تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به ، ثم قبض عليه وبعث به الى السوس فاعتقله أبو حسون فى قلعة هنالك مدة الى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل ، وعاد المولى الشريف الى سجلماسة فى خبر طويل وكان ذلك كله فى حدود سنة سبع وأربعين وألف .

قال فى البستان : وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبى المغافرة كانت تخدمه قال : «وهى أم المولى اسمعيل وأخيه المولى مهدى» اه

ولست أدرى ما مراده بهذا ، فان كانت الجارية نسيبة فى المغافرة فهى حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذى يغلب على الظن بدليل أن السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم : «أنتم أخوالى» اشارة الى هذا الصهر كما سيأتى . وان كانت مملوكة لهم ثم صارت الى أبى حسون فالوطء حينئذ كان بملك اليمين . والله تعالى أعلم . وصاحب «البستان» كثيرا ما يجازف

فى النقل ويتساهل فيه فلا ينبغى أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق

الخبر عن امارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب فى ذلك

لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد «بفتح الميم» مجمعا على اهلاك من بقى من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم، وكان قد تقوى عضده بعض الشىء بما أخذ من أموالهم فى الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه الى السوس جيشا لا بأس به ، وانضم اليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها ، وذلك سنة خمس وأربعين وألف . وكان أصحاب أبى حسون قد أساءوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع فى الناس حتى ملتهم القلوب وزرعوا بغض الملكة السوسية فى قلوب الخاصة والعامة ، ومن عسفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شىء حتى على من يجدونه فى الشمس زمن الشاء ! وفى الظل زمن الصيف ! وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس ، فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفا دعاهم الى الايقاع باهل السوس فأجابوه، ووجد فيهم داعية لذلك ، فاعصوصبوا عليه وصرفوا عزمهم الى محو دعوة أبى حسون من بلادهم ، فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد ، ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف فى حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه المقدر، وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابه ، واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعة وطرده ابا حسون السملالى عنها

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبى حسون السملالى وأهل السوس ببلاد درعة اذ كانت تحت ولايته كما قلنا فنهض اليه فى جمع كثيف ، ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد ، ثم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبى حسون وفراره الى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعة وأعمالها ، واتسعت ايالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار فى بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره .

وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف واهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعة حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب اذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال ، وصاحبه ناسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى يومئذ مستوليا على فاس ومكناسة وأعمالهما وامتدت ولايته بعد مهلك أبى عبد الله العياشى الى سلا وأعمالها ، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر اليه نهر ملوية وكان الدلائى أشد قوة من الشريف وأكثر جمعا ، فضايقه باقليم الصحراء وقصد سجلماسة مرارا ، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثانى عشر من ربيع النبوى سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة

فيها على الشريف ، وتقدم الدلائى الى سجلماسة فافتتحها . واستولى عليها، وفعلت البربر فيها الافاعيل العظيمة .

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء الى جبل بنى عياش فهو للمولى محمد ، وما دون ذلك الى ناحية الغرب فهو لاهل الدلاء ، ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت فى ايالة المولى محمد فجعلوها لهم وهى : الشيخ مغفر فى أولاد عيسى ، والسيد الطيب فى قصر السوق ، وأحمد بن على فى قصر بنى عثمان ، وقصر حليمة فى وطن غريس ، وآسرير فى فركلة ، فهذه الاماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكنا .

وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء فى جموعهم فما كان غير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم ، فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا الى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته ، وأن لا يدعوا له قليلا ولا كثيرا . وكتبوا اليه كتابا يتهددونه فيه . ورموه بالغدر ، وأنه ناكث ومقسم حانث ، وأغلظوا له فى الكلام ، وأفحشوا عليه فى الملام .

فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها : «الى السيد محمد الملقب بالحاج ابن السيد محمد بن أبى بكر بن سيرى الوجارى الزمورى ومن شمله رداء الديوان ، من الابناء والاخوان ، سلام على جلهم سلام استحباب وسنة ، فقد كتبناه اليكم من سجلماسة ، كتب الله لها من شركم أنفع التمائم ، وألبسها من الظفر بكم أرفع العمائم ، وبعد السلام ، فان نيران هذه الفتن التى أضرمتموها بعد خمودها لستم لها بأهل اذ لم يعرفكم أهل المغرب الا باطعام قصاع العصائد ، وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد ، أما العلوم فقد أقررنا لكم فيها انصافا بالتسليم ، لو قصدتم بها العمل وأجر التعليم ، وأيم الله لئن نظم فينا الديان ، يوما من الدهر شمل الديوان ، لتعاينن أنت أو بنوك ما يحبه انا البنون والاخوان ، ولقد حدث السادة أهل

البصيرة، أن ستدور عليكم منا الدائرة المبيرة، أتطمعون فى النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعابدات ؟ فشمروا ان شئتم عن ساعد الجد للصلح ، واغتنموا السلم ما دام يساعدكم وقت النجح ، فان الحرب نار ، والتخلف عنها بعد ايقادها شنار ، والله يعلم أن هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم ، وما نشبهكم عند الهراش الا بما يطيش حول المصابيح من الفراش ، بل المراد الاكيد نشر رداء التبرى ليلا تجأرون متى أنشبنا فيكم مخالب التجرى ، وما قذفتم به أعراضنا من خسة القدر ، واننا قساة لانصغى لقبول العذر ، فأنتم تنهون عن الفحشاء ، وقد ملأتم منها الاحشاء ، وان زجرتم عنها قلتم : كلا وحاشا لكن من نتج نسلا نسب اليه ، ومن خاف من شىء يسلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط الغرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه فى القبضة، عند ما تمكن اليه النهضة، ان لم أكنه بالذات والديوان فبالابناء والاخوان ، كعوائد الدول ، يشيد الاخير منها ما أسسه الاول ، وانظر ما يكون لخاطركم به اطمئنان فساعدكم عليه الان ، فلله دره من دغوغى أشاع عارك بابيات، أنشدناها مولاى محمد بن مبارك :

واعلم بأنك من دجاجل مغرب ... فبعيسى صولة نصره ستموت
أنتم عكاكز خلفتكم عاهر ... وأبو يسير جدكم جالوت
شبانكم مرد وكل كهولكم ... قرنان صنعة شيخكم ديوث
ضجرت لدولتكم سموات العلى ... واستثقلتها الارض والبهموت

وما أنت فى الحقيقة الا قرد من القرود ، والقراد اللاصق فى كل كلب مجرود ، وما صرحتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله وحتى الآن رغبتم فى الخير فهو مطلبى ومغناطيس طبى ، وان عشقتم الغير فجوابى لكم قول المتنبى

ولا كتب الا المشرفية والقنا ... ولا رسل الا الخميس العرمرم

١٩

استيلاء المولى محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائى مستوليا على فاس بعد سيدى محمد العياشى كما قلنا ، وكان أهل فاس يمرضون فى طاعته تارة ويستقيمون أخرى ، فولى عليهم قائده أبا بكر التاملى وأنزله بدار الامارة من فاس الجديد ، فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصرهم وقطع عنهم الماء ، فكتب أهل فاس الى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون له الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم ، ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم ، فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعا حتى اقتحم دار الامارة بفاس الجديد منسلخ جمدى الثانية سنة ستين وألف ، وقبض على أبى بكر التاملى فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معا ، واتفقوا على نصرته والقيام بأمره ، وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يوما

واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز اليه جيشا كثيفا فبرز اليهم المولى محمد ودافعهم يوما أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف ، فاسلم فاسا وانكفأ راجعا الى سجلماسة ، ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقوها عليهم .

وحاصرهم التاملى وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس ، منهم عبد الكريم اللايرينى الاندلسى ، ومحمد بن سليمان وغيرهما ، وكان ذلك أواخر صفر سنة احدى وستين وألف . ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم محمد الحاج ولده أحمد ، ولما استقر بفاس طالب أهلها باخراج الجناة ورؤوس الفتنة من ضريح المولى ادريس رضى الله عنه ، فتعصب لهم الشريف أبو الحسن على بن ادريس الجوطى وقام دونهم ثم عجز واختفى ، حتى اخرج بالامان الى زاوية أهل المخفية

ومنها خرج عن فاس بالكلية ، وسكنت الفتنة . وكان ذلك فى رمضان سنة احدى وستين والف .

واستمر احمد الدلائى أميرا على فاس الى ان توفى فى عشرين من ربيع الاول سنة اربع وستين والف ، وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف . رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدى فاستولى عليه .

استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق ، فسار يتقرى الحلل والمداشر والقرى الى أن بلغ بسيط آنكاد ، فبايعته الاحلاف وهم العمارنة والمنبات من عرب معقل ، وبايعته سقونة منهم أيضا ، فسار بهم الى بنى يزناسن ، وكانوا يومئذ فى ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلات أيد العرب من مواشيهم ، ثم انثنى الى وجدة وكان اهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك ، وبعضهم خارج عنها ، فانحاز الخارجون الى المولى محمد فأغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد ، وصفت وجدة له فاستولى عليها ، وكان ذلك أعوام الستين وألف . ثم دلته العرب على أولاد زكرى واولاد على وبنى سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا فى طاعته ، ثم سار الى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقديمة وطرارة وولهاصة ورجع الى وجدة فأقام بها مدة ثم توجه الى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها ، فبرز اليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذى كان بالقصبة فأوقع بهم وقتل منهم عددا كثيرا ،

ورجع عوده على بدئه الى وجدة فشتى بها .

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم ، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بنى يزيد بن زغبة ، وهم اليوم فى عداد بنى عامر بن زغبة ، فقدم عليه محمود المذكور فى قبيلته مبايعا له ومتمسكا بطاعته ، وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم واكرمهم ودلوه على الاغواط وعين ماضى والغاسول فنهب تلك القرى واستولى على أموالها ، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بنى مالك بن زغبة فنزلوا بجبل راشد متحصنين به ، فرجع عنهم .

واضطربت احوال المغرب الاوسط واشرأبت رعاياه الى الانتقاض على الترك ، واخذ باى معسكر يخندق على نفسه ، وبعث الى صاحب الجزائر المسمى عندهم : بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فاخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر الى تلمسان ، فلما سمع به المولى محمد استمر راجعا الى وجدة ، وفرق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه ، ووعدهم لفصل الربيع القابل .

ثم قفل الى سجلماسة بعد ما شب نيران الحرب فى الايالة التركية ونسفها نسفا وضرب أولها بآخرها .

ولما وصل عسكر الترك الى تلمسان واخبروا برجوع المولى محمد الى تافيلالت سقط فى أيديهم ، ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد اجفلت عن أوطانها ، وتحصنوا بالجبال ، ولم يأتهم احد بمؤنة ولا خراج ، وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضا ، وكانوا قد ركنوا الى المولى محمد وخاطبوه ، فرأى الترك أنهم قد شوركوا فى بلادهم وزوحموا فى سلطانهم ، فرجعوا الى الجزائر . وكان من امرهم ما نذكره الآن .

٢٢

مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك

لما رجع عسكر الترك الى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا فى أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته ، فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا اليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها ، واثنين من كبار الترك ورؤسائها ، لانهم كانوا لا يتمكنون من حربه ، لو أرادوا ذلك ، لانه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله ، ولا قطع فراسخه وأمياله ، فبعثوا اليه برسالة من املاء الكاتب أبى الصون المحجوب الحضرى مع الوفد المشار اليه يقول فيها:

« الحمد لله الذى وصى ولا رخص فى مدافعة اللص والصائل شريفا أو مشروفا ، ونص ، وهو الصادق سبحانه ، على فصم عرى أصله المتأصل مجهولا أو معروفا ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلى آله تيجان العز وبراقع الجباه والخياشم ، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الطلى والغلاصم ، بالرماح العاملة والسيوف القواصم ، ولا زائد بعد حمد الله الا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر ، الصادق اللهجة والصدر ، من رتق الله به فتوق وطنه ، وحمى به من أحزاب الاباطيل أنجاد أرضه واغوار عطنه ، حافد مولانا على وسيدتنا البتول ، وولد مولانا الشريف بن مولانا على السيد الصؤل سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور ، ورحمة الله تعالى وبركاته ما أساغت محض الحلال ذكاته ، وبعد فقد كاتبناكم من مغنى غنيمة المقيم والظاعن والزائر ، رباط الجريد مدينة ثغر الجزائر ، صان الله من البر والبحر عرضها ، وأمن من زعازع

العواصف والقواصف أرضها ، الماعا لكم معادن الرياسة ، وفرسان القيافة
والعيافة والفراسة ، فضلا عن سماء صحا من الغيم والقتام جوه ، وضحا
نشرت عليه الوديقة وشيا ففشا ضوءه ، بأن شؤون المملكة لم يتوان
عن مكنون علمكم أمرها ، ولا أعوز عزائمكم زيدها وعمرها ، وذلك ان
الوهاب سبحانه منحكم هيبة وهمة فى الجود والحلم والحماسة ، واختار لكم
عنوان عنايتها فى غاب الصون سجلماسة ، لكن فاتكم سر رأى التدبير ،
واركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير ، مع أن ذلك فى الحقيقة دأب كل
مؤسس لدولة ، لا يجمعها الا بجنايات الجولة والصولة ، فخرقت على الايالة
العثمانية جلباب صونها الجديد ، من وجدة الابلق الى حدود الجريد ،
فشوشت علينا اخلاق اخلاط الاعراب ، الى أن تعوقوا علينا فى أرفق
الآراب ، وشننت الغارة الشعواء على بنى يعقوب ، فحسمت رسمهم على
العقيب والعرقوب ، وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزيانى والموزونة
فى أسواق مستغانم وديار مازونه ، وجررت ذيل المذلة على اطراف الغاسول
والاغواط ، فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير الوطواط ، وقادك الجاهل
الجهم محمود حميان ، لعين ماضى والصوانع وبنى يطفيان ، فراحت رياح
وسويد ينفض كل بطل منهم غباره وطينه ، على طود راشد ، وبليد قسطينة ،
ولا كادنا الا ما هتكتم من ستر السر على مرس أبى الربيع السيد سليمان
مع أنكم اولى من يراعى حرمته وتوقيره ، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد
فقيره ، وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأجلاف ، ثم صرتم بدلا واخلاف
خرج جيش قصبتنا بتلمسان ، بما لديهم من الرماة والفرسان ، فهزمتموهم
بقرار ، وقتلتموهم قتل مذلة واحتقار ، فقلنا هذا أقل جزاء كل كلب حقير ،
عقور . يعرض عرضه لصولة الاسد الهصور ، ولاوافت الآفة فى الغالب
الا الحضر ، مع شيع فى الاجنة تجنى الجنى والخضر ، كان اولاد طلحة
وهداج وخراج ، يؤدون لهذه المثابة ما ثقل وخف من الخراج ، ولا يفوتنا
من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف ، ولا سقب ولا جدى ولا خروف ،
الى ان طلعت علينا غرة شمسك السعيدة ، فعادت كل شيعة قريبة عنا بعيدة ،

وأعانك افتراق الجفاة من أهل وجدة ، وان نصيبك الاوفر منهم أهل جدة ونجدة ، ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان ، وانكروا ما لنا عليهم من قديم الخنانة والاحسان ، وردوا عليك الساحة والبساط ، ومرغوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والساط ، مع علمنا اليقيني ان شجرتنا لا تضعضع بزعازع حيان ، ولا تندرس ولو انهارت عليها جبال جيان وأن الحجر لا يدق بالطوب ، والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب ، كذلك فى المثل جندك خلال الصدر والورود ، لا يصبرون لصواعق البارود ، ولا تنجح حجة الدروع والذوابل ، الا فى سوق شن الغارات على حلل القبائل ، وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب ، فلا يصدمها فيهدمها الا سيول الخيول والرماة الرواتب ، وزنت صولتك لبنى عامر ، لذاذة النفار لكنف الكافر ، وداخل الوسواس والسوس ، جبال طرارة ومضغرة وبنى سنوس ، والرعايا تود أن يحتفل لبنها فى ضروعها ، لتختزن فى تبن الخداع سنبل زروعها ، وان قبلت منهم الاقوال والافعال ، تعل طباعها على الدولة فتصير كالاغوال ، واياك اياك والغرر لما عثرت عليه فى كتاب البونى واوراق السيوطى وعلى بادى وابن الحاج ، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن ابى سعيد المرينى بأنك المخصوص بصعود تلك الادراج ، ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالمسمرة ولا بقبائع النصول ، وان اوتاد الروم والترك تتقوض من ارض الغرب ، ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولا ضرب ، ليس لك فى غنيمة ادراكه طمع ، ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازمنا وجمع ، وقد غرتك أضغاث الاحلام ، واغواك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه فى غياهب الاظلام ، فان حرمت به فانت لا شك حانث ، وان كان منكم يقينا فرابع او ثالث ، اولكم ثائر ، والثانى مقتف له سائر ، والثالث لكما أمير نائر ، اما عادل أو جائر ، ولا تمدن باع المخاطرة الى اوطاننا فتخشى مخالب سطوة سلطاننا ، اما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن أوفر نصيب ، وممن ضرب فيها فأصاب الغرض بسهم مصيب ، لكن غاية كفاية الشجاع اذا حمى الوطيس الدفاع ، سيما فى هذا الحين التى ابخستها عند الخلاص ، صناعة البارود والرصاص ،

وجسرك علينا كونك عقابا على فرع شجر ، او يعسوب نحل احتل صدع حجر ، لو رأيت ملوك آحاد امصار البر والبحر ، لعلمت انك محجوب ومحجور ، فى حق ذلك الحجر ، وتحققت ان بين الامراء مداراة ومراعاة ، وأن أحوال الدول أيام وساعات ، كل أحد يخاف على صدع فخاره ، ويطلق بخوره تحت تتن بخاره ، وما مرادنا الا أمان العرب فى المواضع ، ليطيب لها جولان الانتقال فى المشتاة والمرابع ، ويجلب اليهم الغنى والعديم ، ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والاديم ، فان تعلقت همتك بالامارة فعليك بالمدن التى حجرها عليك همج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر ، فشد لها حيازيمك لتذوق حلاوة الملك ، المعجونة بمرهم النجاة أو الهلك ، دع عنك وطن الرمال والعجاج ، ومخاطرة النفس فى الفدافد والفجاج ، فناشدناك جدك من الاب والام ، ومالك فيه من أخ وخال وعم ، الا ما تجنبت ساحات تلمسان ، ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان ، وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض ، فموعدها ما نأى عنا من مطلق الارض ، وخمسنا أبدا على الغالب ، لتعلموا أن رأيهم عن معانى الصواب غائب ، اذ كلهم ذوو جفاء ونفار ، ويعمهم عند الدول ما يعم الكفار ، ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام ، ونلغى كلام الوشاة من الاقوام ، وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب ، تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب ، · الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزى ، والفقيه الابر السيد الحاج محمد بن على الحضرى المزغنائى ، واثنين من أركان ديواننا ، وقواعد ايواننا ، أتراك سيوط وغاية غرضنا جميل الجواب ، بما هو أصفى وأصدق خطاب ، والله تعالى يوفقنا لاحمد طريق ، ويحشرنا مع جدك فى خير فريق ، آمين والسلام ، وكتب فى منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف » اه

ولما وصلت الرسل الى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتاظ مما تضمنه من العتاب ، فأحضر الرسل وعاتبهم على قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا له : «نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكتب لنا الجواب ،

ولا تقابلنا بعتاب » فقال : «صدقتم» فكتب اليهم بكتاب يقول فى أوله (وبعد) « فقد كتبناه اليكم من غرة جبين الصحارى ، وصرة أمصار المغارب والبرارى ، مغنى سجلماسة التى هى قاعدة العرب والبربر المسماة فى القديم كنز البركة ، حالتى السكون والحركة، »ومضى فى كتابه الى أن ختمه ولم يجبهم الى ما أرادوا .

ولما رجعوا برسالته الى صاحب الجزائر قرأها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم فى الحين دو ن كتاب ، ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا له : انه لم يكن لنا علم بما فى الكتاب ولو اكتفينا به ما رجعنا اليك ، نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك ، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولا يأمر بنهب المستضعفين ، فان كان غرضك فى الجهاد ، فرابط على الكفار الذين هم معك فى وسط البلاد ، وان كان غرضك فى الاستيلاء على دولة آل عثمان ، فابرز اليها واستعن بالرحيم الرحمن ، فلا يكن عليك فى ذلك ملام، فهذا ما جئنا له والسلام، وأما ايقاد نار الفتنة بين العباد، فليس من شيم أهل البيت الامجاد ، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز فى مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الاعجام ، وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا اليك، حتى يسمعا منك ما تقوله ، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله ، فقد تعطلت تجارتنا ، وأجفلت عن وطننا رعيتنا ، فما جوابك عند الله فى هذا الذى تفعله فى بلادنا ، وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن فى بلادكم ورعيتكم ، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم ، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا .»

فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال : « والله ما أوقعنا فى هذا المحذور الا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا فى معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة الا بالله ، وانى أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وأنى أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادى تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضى الله ورسوله » وكتب لهم

بذلك عهدا الى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما ، ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه اليه بعد ذلك الى أن خرج عليه أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد ان شاء الله .

ثورة المقدم ابى العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط

كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطى من أصحاب أبى عبد الله العياشى ، وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط ، ولما قتل العياشى فى التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة ، واستمرت حاله الى ثلاث وستين وألف فثار بالفحص وزحف الى قصر كتامة فبرز اليه أهله فاقتتلوا مليا ثم انهزموا ، واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم الى فاس ، منهم : أولاد الفقيه أبى عبد الله القنطرى من أعيان القصر ، وبقى الخضر متغلبا على تلك الناحية .

وفى ذى الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهام بن كدار ، واتصل بالخضر غيلان وصار فى جملته ، وكان أبو سلهام المذكور ممن ظاهر الدلائيين على سيدى محمد العياشى فبقى ذلك فى قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبى سلهام المذكور واعتقله بآصيلا ثم سرحه بعد حين . قاله فى « نشر المثانى » .

٢٨

وفاة المولى الشريف بن على رحمه الله

كان المولى الشريف بن على بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة ، ممتثل الامر ، متبوع العقب منذ نشأ ، ثم بايعه أهل سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف ، ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت ، وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالى حتى ملك سجلماسة كما مر ، ولما تخلص من نكبة السوس وعاد الى سجلماسة وجد ابنه المولى محمدا قد قام بالامر بعده فتخلى له عنه ، وقطع بقية عمره فيما يرضى الله تعالى الى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله ، ومدرج ملوكه واقياله ، وجددت البيعة للمولى محمد ، ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج الى الجبال فبقى متنقلا فى أحيائها الى أن كان من أمره ما نذكره .

اغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من اعمال فاس وما يتبع ذلك

لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده ، ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمى ، وخلت الدور وعطلت المساجد ، وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء ، وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن على بن طاهر الحسنى قد قدم فاسا بقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه ، وقيل : بل نصره بعضهم ، وخرج الى عرب الحياينة فذهب بهم الى قتال المولى محمد بن الشريف فلم يلقه .

وفى أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاغية النجليز طنجة من يد البرتقال قال فى «البستان» : لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب أن المسلمين غزوهم فى هذه الايام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوهم فقتلوا منهم أربعمائة أخرى . » وقال منويل القشتيلى فى كتابه الموضوع فى أخبار المغرب الاقصى : « سبب ذلك أن طاغية البرتقال وهو اخوان السادس يقال بالخاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاغية النجليز وهو كارلوس الثانى فزوجه أخته وجهزها اليه بمفاتيح طنجة فبقيت بيده اثنين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين » اه

قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الاخ المذكور رحمه الله

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ الى تدغة فأقام بها مدة ، ثم سار الى دمنات فأقام بها مدة أيضا ، ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ماشاء الله ، فيقال : ان بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به ، لان الدلائيين كانوا يزعمون ، فيما عندهم من العلم ، أن خلاء زاويتهم يكون على يده ، فقبل المولى الرشيد اشارته ، ثم خرج الى جبل آصرو فأقام به برهة من الدهر ، ثم توجه الى فاس ، ومعه نفر قليل ، فبات بظاهر فاس الجديد ، فاكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدى ضيافته ، ومن الغد ارتحل عنها الى تازا ثم الى عرب الاحلاف .

قال فى « النزهة » : « الى أن أدته خاتمة المطاف الى قصبة اليهودى ابن مشعل . وكان لهذا اليهودى أموال طائلة وذخائر نفيسة ، وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله ، فلم يزل المولى الرشيد يفكر فى

كيفية اغتيال اليهودى المذكور الى أن أمكنه الله منه فى خبر طويل . فقتله
واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف اليه من عرب آنكاد
وغيرهم فقوى عضده وكثر جمعه » . اه

وقال صاحب « نشر المثانى » : ان المولى الرشيد لما رحل عن فاس قدم
على الشيخ أبى عبد الله اللواتى باحواز تازا ، وكان الشيخ المذكور ينتحل
طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ فى اكرامه ، فبينما هو مقيم عنده اذ رأى
ذات يوم رجلا ذا هيئة من مماليك وأتباع وخيل ، وهو يصطاد كهيئة الملوك ،
فسأل عنه فقيل له : هذا ابن مشعل من يهود تازا . فانصرف المولى الرشيد
وجعل مدية فى فمه وجاء الى الشيخ اللواتى ، فلما رآه الشيخ على تلك
الحال أعظم ذلك ، وقال له : «المال والرقبة لك ياسيدى فما الذى دهاك ؟»
قال : «تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معى حتى أفتك بهذا اليهودى
غيرة على الدين» فقال : « قد فعلت ، لا يتخلف عنك منهم أحد» فاختار
المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودى واقتحام داره عليه ،
وكان اليهودى قد اتخذ دارا بالبيداء على نحو مرحلة من تازا فى جهة
الشرق ، فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد الى دار ابن مشعل فى
صورة ضيف ، فأضافه ابن مشعل ، ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار
وكبس المولى الرشيد اليهودى فى بعض خلواته فقتله ، وأدخل الرجال
فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك باصحابه وحراسه ، وعثر فيها على
أموال كثيرة وذخائر نفيسة ، وقيل ، وهو الشائع عند بنى يزناسن : أن ابن
مشعل المذكور كان مقيما بين أظهرهم قد اتخذ حصنا ببعض جبالهم ، وهم
محدقون به ، فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم فى شأن اليهودى حتى أثر
كلامه فيهم ، ونما الى اليهودى بعض ذلك ، وأنهم مسلموه ، فنزل الى
المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها ، فلم يكن باسرع من ان قبض عليه
وقتله ، وتقدم الى الدار فاستولى عليها ، واستخرج ما فيها من الاموال
فالله أعلم أى ذلك كان .

ثم ان المولى الرشيد دعا لنفسه اعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل

وجدة واتصل ذلك كله باخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فخوف منه لما يعلم من صرامته وشهامته ، فنهض لقتاله والقبض عليه ، فلما التقى الجمعان ببسيط آنكاد كانت اول رصاصة فى نحر المولى محمد ، فكان فيها حتفه . وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ، ودفن بدار ابن مشعل ، فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه ، وتولى تجهيزه بنفسه فحمله الى بنى يزناسن ووراه هنالك فى رمسه رحمه الله وغفر له .

وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالى بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال ، ولا يدرى ما هى النكبات والاوجال ، وتقدم وصف أهل الدلاء اه بقولهم : «الاجدل الذى لا تؤده هموم الليالى ولا حرارة قيظ المصيف . عقاب أشهب على قنة كل عقبة ، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة،» وشجاعته شهيرة . وكان مع ذلك قويا فى بدنه أيدا فى أعضائه وجسمه لا يقاوم فى الصراع ولا يزاول فى الدفاع .

حكى أنه فى بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده فى بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنة مضروبة ، وكان سخيا جدا حتى أنه أعطى الاديب الشهير المتقدم فى صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدا التلمسانى صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه ، وحكاياته فى هذا المعنى شهيرة .

ولما قتل رحمه الله قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر وسياتى بعض خبره ان شاء الله .



٣٢

الخبر عن دولة امير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله فى التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها الى اخيه المولى الرشيد ، فبايعوه البيعة العامة ، ودخل فى طاعته الاحلاف وبنو يزناسن وغيرهم ، وبعث الى أهل تلك النواحى كلها من العرب والبربر يدعوهم الى الطاعة واجتماع الكلمة ، فقدمت عليه وفودهم بالهدايا ، وكتب من كان مع اخيه فى ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه ، ثم احتاج الى المال ، وكان قد اخذ ولد اليهودى ابن مشعل يوم قتل أباه ، فجاءت امه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به ، ثم قال : « لا اسرحه حتى تدلينى على مال زوجك أو أقتله » فانعمت له بذلك ، وركب معها الى القصبة فدلته على خزانة فى بيت فنقب عنها فلقى فيها خوابى مملوءة ذهبا وفضة فاستخرجها ، وارتاش بتلك الاموال ، وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الاجناد ، فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته ، ولما قضى اربه ورتب جنده بعث رسله الى الآفاق بالاعذار والانذار والوعد والوعيد لاهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصدا فتح المغرب الذى كان قد تعذر على اخيه من قبله فنزل على وادى ملوية واقام به أياما للاستراحة وانتظار من يأتيه من اهل تلك النواحى مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأته أحد ، والله غالب على امره .

٣٣

فتح مدينة تازا ثم سجلماسة وما تخلل ذلك

لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأته من أهل المغرب أحد تقدم الى تازا فاقتحمها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التى حولها ، ولما اتصل خبر ذلك باهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل واهل صفرو وغيرهم ، وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظنا منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل ، وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والاكثار منها ، ووظفوا على كل دار مكحلة ، ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب ، فاشتروا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا الى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح ، وعملوا اللعب المسمى بالميز ، واجتمعوا ايضا مع الحياينة ، واكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد ، ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل الى سجلماسة . وكان ذلك منه صوابا فى الرأى اذ قدم الاسهل فالاسهل . وتناول الاخف فالاخف .

ولما أناخ على سجلماسة حاصرها نحو تسعة أشهر الى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنتزى بعد ابيه كما مر ، فخرج منها ليلا ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع الى تازا فاحتل بها ، ولكل اجل كتاب .



حصار مدينة فاس ثم فتحها والايقاع بثوارها

لما قفل المولى الرشيد رحمه الله من سجلماسة الى تازا أقام بها أياما فاتفق أهل فاس مع احلافهم من الحياينة أن يغيروا عليه بمستقره منها ، ويبدأوه بالحرب قبل ان يبدأهم ليكون ذلك كاسرا من شوكته ، وفاتا في عضده ، فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين والف ، ولما قابلوا محلته افترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال ، فتبعهم المولى الرشيد الى قنطرة نهر سبو خارج فاس ، ثم رجع عنهم فبعثوا اليه في الصلح ، فلم يتم بينه وبينهم صلح الى أن ملك أطراف المغرب كله ، وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الامور .

ثم دخلت سنة ست وسبعين والف ففي صفر منها زحف الى فاس وحاصرها وقاتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصة في طرف أذنه ورجع سالما ثم عاد الى حصارها مرة اخرى في ربيع الاول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع الى تازا لانه لم يأت بقصد فتحها ، ثم توجه الى الريف بقصد الرئيس أبي محمد عبد الله آعراس الثائر به، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه الى ان قبض عليه في رمضان من السنة فعفا عنه واستبقاه وكر راجعا الى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقاتلها قتالا شديدا الى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاسا الجديد من أعلى السور من ناحية الملاح ، وفر اميرها يومئذ أبو عبد الله الدريدي ، وهذا الدريدي كان في جملة من اخوانه بني دريد بن اثبج الهلاليين ، وكانوا في ديوان السعديين ، ولما بايع اهل فاس الرئيس أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره ، فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد ، وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين ثالث جمادى الثانية سنة أربع وسبعين والف ، وقد كان احمد بن صالح الليريني رئيس أهل عدوة الاندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح

ابن احمد فزوجه اياها ، والتحم ما بينهما فكان الدريدى يشن الغارات على قبائل البربر الذين باحواز مكناسة وغيرها . ويأتى بالنهب ، والطبل يقرع عليه الى ان يدخل دار الامارة ، واستمر على ذلك الى ان اقتحم عليه المولى الرشيد فاسا كما قلنا ففر الى منجاته . وقال فى « النزهة » بل قتله المولى الرشيد وسكن هيعة فاس الجديد ، ومن الغد زحف الى فاس القديمة فحاصرها وقاتلها فضعفوا عن مقاومته ، وفر رئيس اللمطيين ابن الصغير وولده ليلا الى بستيون باب الجيسة ، ولما طلع الفجر فر ايضا رئيس عدوة الاندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس ان امرهم قد ضعف وكلمتهم قد افترقت ، فخرجوا الى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه ، فبعث فى طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجىء به وسجن بباب دار ابن شقراء بفاس الجديد ، ثم قتل وقتل معه عدة من اصحابه ، ثم قبض على ابن الصغير وولده ، وبعد سبعة ايام امر السلطان بقتلهما فقتلا ، واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها . قال فى « النزهة » : افتتح أمير المومنين المولى الرشيد فاسا القديمة فحكم السيف فى رؤسائها وافناهم قتلا فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة ، وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذى الحجة سنة ست وسبعين والف ، وبويع بها يومه ذلك ، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة ، واظهر احياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الارفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة ،» اه .

وولى قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج الى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط ، وكان بقصر كتامة ، فزحف اليه المولى الرشيد فانهزم الخضر الى آصيلا ، ورجع المولى الرشيد عنه الى فاس أوائل ربيع الاول سنة سبع وسبعين والف ، فكتبت له البيعة بفاس وقرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الاول المذكور ، ثم فى شهر ربيع الثانى من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت واللال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائى فأوقع بهم ، ورجع عوده على

بدئه ، وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادى فاس بابى مزورة من احواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثا ، ورجع كل الى وطنه ، ثم خرج المولى الرشيد الى تازا واعمالها حادى عشر رجب ففقدها ورجع الى فاس فى شوال من السنة المذكورة ، ثم عزل العقيد قائد مكناسة، ثم خرج ثانى يوم النحر من السنة الى بنى زروال فاوقع بالشريف النابغ فيهم . وبعث به محبوسا الى فاس فدخلها ثانى محرم سنة ثمان وسبعين وألف ، ثم مال المولى الرشيد الى تطاوين فقبض على رئيسها أبى العباس النقسيس فى جماعة من حزبه وقدم بهم الى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الاول سنة ثمان وسبعين والف الى ان كان من امرهم ما نذكره .

فتح زاوية الدلائى وتغريب اهلها الى فاس وتلمسان وما يتبع ذلك

لما كانت ضحوة يوم الخميس الثانى عشر من ذى القعدة سنة ثمان وسبعين والف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازيا زاوية أهل الدلاء ، وكان قد اسند الفتوى الى الفقيه أبى عبد الله محمد بن احمد الفاسى ، فلقى جموع الدلائيين وعليهما ولد محمد الحاج ببطن الرمان من فازاز ، فانتشبت الحرب بين الفريقين مليا ثم انهزم الدلائيون ورجعوا يقفون أثرهم الى الزاوية . قال الشيخ اليوسى رحمه الله فى محاضراته : «كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى قد ملك الغرب بسنين عديدة واتسع هو واولاده واخوته وبنو عمه فى الدنيا ، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقى جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبى عبد الله المذكور ، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ ، فدخل عليه أولاده واخوته واظهروا له عجزا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك قال لهم : «ما هذا ؟ ان قال لكم حسبكم فحسبكم» يريد الله تعالى . قال اليوسى : «وهذا كلام عجيب واليه يساق الحديث

والمعنى : ان قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين» اه
وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية فى ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج اليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دما ولا كشف لهم سترا حلما وكرما منه رحمه الله . قال فى «النزهة» : لما وقعت الهزيمة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية ، وامر بمحمد الحاج واولاده وأقاربه أن يحملوا الى فاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدة ، ثم أمر ان يذهب بهم الى تلمسان فغربوا اليها وسكنوها مدة

وحدثوا أن محمدا الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قال : « كنت وجدت فى بعض كتب الحدثان أنى ادخل تلمسان فظننت أنى أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون» ولم يزل بها الى ان توفى فاتح سنة اثنتين وثمانين والف ودفن عند ضريح الامام السنوسى رضى الله عنه ولما توفى المولى الرشيد رجع اولاده وأقاربه الى فاس فاستوطنوها باذن من السلطان المظفر المولى اسماعيل ، ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيدا كأن لم تغن بالامس ، بعد ان كانت مشرقة اشراق الشمس ، فمحت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بأبى بكر وبنيه وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وتأرجت ، ارتحل عنها فرسان الاقلام ، الذين ينجاب بوجوههم الظلام ، وبانت عنها ربات الخدور ، واقامت بها اثافى القدور ، ولقد كان اهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم ، وذهبت الليالى باشخاصهم وأبقت اخبارهم ، فثل ذلك العرش ، وعدا الدهر حين أمن من الارش ، ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام ، فسحقا لدنيا ما رعت لهم حقوقا ، ولا أبقت لهم شروقا ، وهى الايام لا تقى من تجنيها ، ولا تبقى على مواليها ومدانيها ، اذهبت آثار جلق ، وأخمدت نار المحلق ، وذلت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذى الشرفات من سنداد ، وكل يلقى معجله ومؤجله ، ويبلغ الكتاب يوما أجله ، ولقد أحسن ربى نعمتهم ، المقر باحسانهم ومنتهم شيخ مشايخ المغرب على الاطلاق ، الامام الذى وقع على علمه وعمله الاتفاق ، أبو على

الحسن بن مسعود اليوسى رحمه الله فى رائيته التى رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وهى طويلة شهيرة . قلت : ولم يصرح فيها باسمائهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسى ما كان أعرفه بمقتضيات الاحوال .

فتح مراكش ومقتل الامير أبى بكر الشبانى وشيعته

لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من امر الزاوية توجه الى مراكش فى الثانى والعشرين من صفر من السنة أعنى سنة تسع وسبعين والف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشبانى وجماعة من أهل بيته .

وقال فى «النزهة» : لما بلغ أبا بكر الشبانى وقومه مسير المولى الرشيد اليهم خرجوا فارين بانفسهم من مراكش الى شواهق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه ، فدخل المولى الرشيد مراكش وأفنى من وجد بها من الشبانات ، وقبض على أبى بكر وبنى عمه ، فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريدة من الصياصى ، واخذ منهم بالاقدام والنواصى ، واخرج عبد الكريم من قبره فاحرقه بالنار .

ولما فتح مراكش قام بها نحو شهر ثم رجع الى فاس ، فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة، وفى هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت فى شيعته وخلى سبيل البلد، وفيها أيضا ركب الخضر غيلان البحر الى الجزائر وخلى سبيل آصيلا، ولما رجع المولى الرشيد الى فاس عزل أبا عبد الله الفاسى عن الفتوى ، وعزل الفقيه المزوار عن قضائها منسلخ جمادى الثانية من السنة ، وولى القضاء الفقيه أبا عبد الله

محمد بن الحسن المجاصى ، والخطابة بجامع القرويين الفقيه أبا عبد الله محمدا البوعنانى ، وفى منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع الى فاس فى سابع رمضان العام ، فعفا عن بعض أهل الدلاء ، وبقى الآخرون بضريح الشيخ ابى الحسن على بن حرزهم الى تمام السنة ، فعفا عن الجميع وردهم الى بلادهم الا ما كان من محمد الحاج وبنيه ، فانهم غربوا الى تلمسان ، ومات هو هنالك ، ولما ولى الامر المولى اسمعيل وقعت الشفاعة فى الاولاد فرجعوا الى فاس كما مر .

وفى يوم السبت سابع عشر ذى الحجة من السنة غزا المولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة ، وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين الف مثقال بقصد التجارة الى أن ردوها بعد سنة .

وفى هذه السنة ايضا حاز طاغية الاصبنيول مدينة سبتة من يد البرتغال فى سبيل مشارطة وقعت بينهم فى مدينة اشبونة واستمرت فى يد الاصبنيول الى الآن .

بناء قنطرة وادى سبو خارج فاس

وفى يوم السبت الرابع عشر من ذى القعدة سنة تسع وسبعين والف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو الاقواس الاربعة خارج فاس فأخذوا فى تهيئة الاسباب وحفر الاساس ، وفى منتصف جمادى الثانية سنة ثمانين وألف شرعوا فى البناء بالآجر والجير فكملت على احسن حال .

ولما تكلم الشيخ اليوسى فى المحاضرات على الحديث الصحيح : ان أخنع الاسماء عند الله رجل تسمى بملك الاملاك قال ما نصه : ومن البشيع الواقع فى زماننا فى الاوصاف ، أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعنى : القاضى أبا عبد الله المجاصى

أبياتا كتبت فيه برسم الاعلام أولها :

صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز

قال فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالى فى المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقيا لا مجازيا ، وانما ذلك هو الله وحده ، وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره » اه

وفى هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازيا الابيض فقبض على اولاد اخى الابيض ، ولما وصل الى تازا أمر بقتلهم فقتلوا ، ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت ، فأمر بتسريح المساجين واخراج الصدقات فعافاه الله .

وفى منتصف ذى القعدة من السنة أمر بأعمال وليمة العرس لاخيه المولى اسمعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد . قال اليفرنى : «احتفل المولى الرشيد فى ذلك العرس بما لم يعهد مثله» اه وكانت العروس من بنات الملوك السعديين . وفى شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم .

فتح تارودانت وايليغ وسائر السوس

قد قدمنا ان أبا حسون السملالى كان مستوليا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك الى ان توفى سنة سبعين والف ، وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفا بالعفة متوقفا فى الدماء ، ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن ابى حسون ، فلما كانت سنة احدى وثمانين والف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على تارودانت رابع صفر من السنة ، واوقع بهستوكة، فقتل منهم أكثر من الف وخمسمائة واوقع باهل الساحل فقتل منهم اكثر من أربعة آلاف ، واوقع بأهل قلعة ايليغ دار ملك أبى حسون ، فاستولى عليها فى مهل ربيع الاول من السنة ،

وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من الفين وصفا امر السوس للمولى الرشيد .

وفى هذه السنة أيضا فى سابع ربيع الاول منها قتل المولى اسمعيل ، وكان نائبا عن اخيه بفاس ، ستين رجلا من أولاد جامع ، وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد . وفيها فى جمادى الاخيرة منها أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة ، وكانت قبل مربعة وهى الاشقوبية وجعل أربعة وعشرين فى الموزونة وكانت قبل ثمانية وأربعين ورجع الى فاس فى ثالث رجب من السنة . وفى أول شعبان منها شرع فى بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بازاء مسجد الشيخ أبى عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراكش والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

تاليف جيش شراقة واوليتهم وشرح لقبهم

قد قدمنا فى أخبار السعديين : أن لفظ شراقة فى الاصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف اليهم ، وسموا بذلك لانهم فى جهة الشرق عن المغرب الاقصى ، فأهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة ، وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة ، الا أن العامة يلحنون فى هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء والقاف المعقودة ، وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر .

ولما جاء الله بدولة أمير المومنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب آنكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع اليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفا من ولاية الترك فقبلهم . فمن العرب أشجع وبنو عامر ، ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس ، فأمر رحمه الله ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصة ابن صالح وبذل لاصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببناء الدور فيها

وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس ، بعد أن كان أنزلهم أولا بأحواز فاس ، فحصل منهم الضرر لاهل المدينة وشكوهم ، فأمرهم بالانتقال بحلتهم الى بلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الارض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة ، ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبة كما قلنا ، وجعلهم قبيلة واحدة فلم تتميز الآن عربهم من بربرهم ، ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبى يعزى رضى الله عنه ومنه ذهب الى سلا فزار صلحاءها وعاد الى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين والف فى صفر منها بعث خيلا للجهات على طنجة ، وفى منتصف جمادى الاولى بعث خيلا أخرى الى السوس وعليهم أبو محمد عبد الله آعراس ، ثم خرج الى الصيد بتافرطاست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش . فرجع الى فاس ، فدخلها يوم السبت حادى عشر رمضان ، ثم خرج منها عصر يومه ذلك ، فلقيه ابن أخيه بفزارة مقبوضا عليه بيد أصحابه فبعث به الى تافيلالت وسار هو الى مراكش وبعث قائده زيدان العامرى الى فاس فى ذى القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس ، فأتاه أهل السوس طائعين و لم يبق للحركة محل بعد أن كانت الاخبية قد أخرجت الى وادى فاس وضربت به، فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمور الدولة والله غالب على أمره .

٤٣

وفاة امير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله فى هذه المدة مقيما بمراكش كما قلنا الى أن كان عيد الاضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف ، فلما كان ثانى يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرسا له وأجراه فجمح به فى بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنج فهشم رأسه وقيل دخل فى أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله ، ودفن بمراكش بالقصبة منها ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك . ومات رحمه الله وسنه اثنتان وأربعون سنة لانه ولد سنة أربعين وألف ، ورثاه بعضهم بقوله :

وما شج ذات الغصن رأس امامنا لسوء له خدن المحبة جاحد
ولكنه قد غار من لين قده وان من الاشجار ما هو حاسد

قلت : لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح به الملوك فانه بالغزل أشبه منه بالرثاء ، وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله وبين شيخ الوقت الامام أبى عبد الله محمد بن ناصر الدرعى رضى الله عنه مكاتبات توعده أمير المؤمنين فى بعضها فمات عقب ذلك وكفى الشيخ المذكور أمره .

ومن مآثره رحمه الله : أنه لما مر فى بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهى الآن تدعى بآبار السلطان اضافة له يستقى منها ركب الحجيج فى ذهابه وايابه ، فهى ان شاء الله فى ميزان حسناته ، وكان رحمه الله محبا فى جانب العلماء موثرا لاغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا اليهم حيث ما كانوا .

ومن نوادره معهم : ما حكى ان العلامة أبا عبد الله محمد المرابط ابن محمد بن ابى بكر الدلائى حضر يوما بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد الايقاع بزاويتهم وتغريبهم الى فاس فأنشد السلطان معرضا بالفقيه

المذكور قول أبى الطيب المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد

ففهم أبو عبد الله المرابط اشارته فقال : أيد الله أمير المؤمنين ، ان من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا » فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه .

ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث الى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الامام مالك رضى الله عنه : « العلم يؤتى ولا يأتى » قال : « فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه » وقد ذكر صاحب « نشر المثانى » : « أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسى بالقرويين » اه وهذه لعمرى منقبة فخمة ، ومأثرة جسيمة، فرحم الله تلك الهمم التى كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره ، قالوا : وكان رحمه الله جوادا سخيا رحل الناس اليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة ثغر الجزائر فامتدحه ببيتين وهما :

فاض بحر الفرات فى كل قطر من ندى راحتيك عذبا فراتا

غرق الناس فيه والتمس الفقر خلاصا فلم يجده فماتا

فوصله بألفين وخمسين دينارا .

قال اليفرنى : وشأوه رحمه الله فى السخاء لا يلحق ، والحكايات عنه بذلك شهيرة ، وفى أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته ، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم حتى قيل أنه فى اليوم الذى بويع فيه بفاس كان القمح فى أول النهار بخمس أواق للمد وصار فى آخره بنصف اوقية فتيمن الناس بولايته واغتبطوا بها . والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله ابى النصر المولى اسماعيل بن الشريف رحمه الله

لما توفى المولى الرشيد رحمه الله فى التاريخ المقدم وكان اخوه المولى اسمعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم ، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادى كذلك بهداياهم وبيعاتهم الا مراكش وأعمالها فانه لم يأت منها أحد ، فجلس رحمه الله للوفود الى ان فرغ من شأنهم ورتب اموره بمكناسة وعزم على السكنى بها اذ كان لا يبغى بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهواؤها هكذا فى البستان .

وقال أبو عبد الله اليفرنى فى النزهة ونحوه فى «نشر المثانى» : «لما توفى المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى اسمعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الاربعاء السادس عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وثمانين والف فبويع رحمه الله ، وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع فى انه احق بها واهلها احد ممن يشار اليه ،» زاد فى «الظل الظليل :» ووافق على بيعته اهل الحل والعقد من العلماء والاشراف كالشيخ أبى محمد عبد القادر ابن على الفاسى ، والشيخ أبى على اليوسى ، وأبى عبد الله محمد بن على الفيلالى ، وابى العباس احمد بن سعيد المكيلدى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسى ، واخيه أبى زيد صاحب نظم العمل ، والقاضى أبى مدين ، وغيرهم من بقية الاعيان ، وكانت بيعته فى السنة الثانية من يوم الاربعاء السادس عشر من ذى الحجة المذكور آنفا ، ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر ابريل العجمى .

وكان سنه يوم بويع ستا وعشرين سنة لان ولادته كانت عام وقعة

القاعة وهى مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين والف ، ولما
تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الامور واحسن السيرة .

ثورة المولى ابى العباس احمد بن محرز بن الشريف وما كان من امره

لما توفى المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته بأهل سجلماسة
وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بن محرز مبادرا الى مراكش
طالبا للامر وداعيا الى نفسه ، والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم
وغلب على تلك النواحى ونشبت أهل مراكش بلامع برقه ، وبذلك تقاعدوا
عن الوفادة على أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله .

ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك فى آخر ذى الحجة من السنة
نهض الى مراكش فوصل اليها وبرز اليه أهلها فيمن انضم اليهم من قبائل
أحوازها وقاتلوه فانتصر عليهم وهزمهم ، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة
سابع صفر سنة ثلاث وثمانين والف ، فعفا عن اهلها ، وأجفل ابن محرز
وشيعته الى حيث نجوا .

ولما احتل المولى اسمعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى
الرشيد فى تابوته الى فاس ليدفن بضريح الشيخ ابن حرزهم كما مر ،
ثم قفل السلطان الى مكناسة منسلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين والف .



٤٧

انتقاض اهل فاس وقتلهم القائد زيدان واعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم

لما قفل أمير المؤمنين المولى اسمعيل الى مكناسة أخذ فى ترتيب امور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازما على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه الا الخبر بأن أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامرى وكان مقتله ليلة الجمعة ثانى جمادى الاولى من السنة فزحف السلطان اليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياما ، ثم بعثوا الى المولى أحمد ابن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دبدو وانزل على ملوية وبعث اليهم رسوله يعلمهم بمجيئه فاعلنوا بنصره ، وذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الثانية من السنة ، وفى منسلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا ، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قد قدم من ثغر الجزائر فى البحر ، وانه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس ، فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش ، وتكاثرت الظباء على خداش ، وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من اولاد الثائر المتقدم أبى الربيع سليمان الزرهونى على يد مولاى احمد بن ادريس من شرفاء دار القيطون، ثم قتل بعض شيعة الزرهونى مولاى حفيد بن ادريس أخا الشريف المذكور ، وكان ما كان مما لست أذكره .

ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى اسمعيل نهض اليه فى جنوده قاصدا تازا فحاصرهم بها اشهرا ففر عنها ابن محرز ودخل الصحراء ، ولما علم السلطان بفراره عدل الى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه الى أن ظفر به وقتله يوم الاحد العشرين من جمادى الاولى سنة أربع وثمانين والف ، وعاد الى فاس الجديد أواسط جمادى الثانية من السنة ، وحاصر أهل فاس وطاولهم ولم يحدث معهم حربا الى ان أذعنوا الى الطاعة وراجعوا

بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا الى السلطان تائبين فعفا عنهم ، وذلك في سابع عشر رجب سنة اربع وثمانين والف ، فكانت مدة انتقاضهم أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال امرهم ، ثم ولى عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمسانى ، وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمن المنزارى وسار الى مكناسة ، ثم عاد بالقرب ، الا ان هذين الواليين قد جارا في الحكومة ، وعاثا في البلدين بضرب الابشار ونهب الاموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة ، وعزل أيضا عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله البوعنانى وولاها القاضى أبا عبد الله المجاصى وذلك فى آخر رجب من السنة والله أعلم .

تجديد امير المؤمنين المولى اسماعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذه اياها دار ملكه

كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بارض المغرب بناها البربر قبل الاسلام ، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها ، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت ، ومعناها : المحلة ، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط ، وكانت يومئذ هى كرسى الوزارة كما ان حضرة فاس الجديد هى كرسى الامارة ، واختصت مكناسة بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفين وغير ذلك . وقد وصفها ابن الخطيب فى مواضع من كتبه مثل «النفاضة» و «المقامات» وغيرهما واثنى عليها نظما ونثرا وأنشد قول ابن عبدون من أهلها فيها :

ان تفتخر فاس بما فى طيها وبانها فى زيها حسناء

يكفيك من مكناسة ارجاؤها والاطيبان هواؤها والمـــاء

فلما كانت بهذه المثابة كان امير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله لا يبغي بها بدلا ، فلما فرغ من امر فاس رجع اليها وشرع فى بناء قصوره بها بعد ان هدم ما يلى القصبة من الدور ، وأمر أربابها بحمل أنقاضها ، وبنى لهم سورا على الجانب الغربى ، وامر ببناء دورهم به ، وهدم الجانب الشرقى كله من المدينة وزاده فى القصبة القديمة ، ولم يبق أمامه الا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة . وبنى سور المدينة وافردها عن القصبة وأطلق أيدى الصناع فى البناء ومداومة العمل ، وجلبهم من جميـــع حواضر المغرب ، ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل مناوبة ، فصارت كل قبيلة مــن قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم فى كل شهر ، وفرض الصناع واهل الحرف على الحواضر ، فصار اهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك ، واسس المسجد الاعظم بداخـل القصبة مجاورا لقصر النصر الذى كان اسسه فى دولة أخيـه المولى الرشيد رحمه الله ، ثم أسس الدار الكبرى التى بجوار الشيخ المجذوب ، واستمر البنـاء والغرس بمكناسة سنين كما سياتى التنبيه على ذلـك فى محلـه ان شاء الله .

مجيء المولى احمد بن محرز الى مراكش واستيلاؤه عليها ونهوض السلطان الى محاصرته بها

ثم دخلت سنة خمس وثمانين والف فيها ورد الخبر عـلى السلطان المولى اسمعيل وهو بمكناسة بدخول ابن اخيه المولى أحمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها ، وكان السلطان يومئذ متوجها الى آنكاد لما بلغه مـن عيث العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثنه ذلك عنهم بل سار اليهم وأوقـع بسقونة منهم وقتل خلقا كثيرا ونهب ورجع مؤيدا منصورا ، ثم استعد لحرب

ابن محرز وخرج فى العساكر على طريق تادلا ، فكان اللقاء بينهما على أبى عقبة من وادى العبيد ، فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كبير جيشه حيدة الطويرى ، ورجع ادراجه الى مراكش ، فتبعه السلطان المولى اسمعيل ، وألقى بكلكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف، ونما اليه أن بعض أهل محلته قد اضمروا الغدر منهم الشيخ عمر البطوئى وولده وعبد الله آعراس واخوته ، هؤلاء كانوا امراء عسكره ، فخنقهم وأتلف نفوسهم ، وبعث الى من بقى منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم واموالهم .

واستمر السلطان محاصرا لمراكش الى ربيع الثانى من سنة سبع وثمانين وألف فشدد فى الحصار ، وازدلف اليها فى جنوده ، فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين مالا يحصى ، وانحجر ابن محرز داخل البلد وبقى يقاتل من أعلى الاسوار ، ثم تمادى الحصار الى ثانى ربيع الثانى من سنة ثمان وثمانين وألف ، فاشتد الأمر على ابن محرز وضاق ذرعا ، فخرج فارا عن مراكش ناجيا فيما ابقته الحرب من جموعه، ودخل السلطان المولى اسمعيل المدينة عنوة ، فاستباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدأت الفتنة وذهبت أيام المحنة . والله غالب على أمره .

تاليف جيش الودايا وبيان فرقهم واوليتهم

هذا الجيش من أمثل جيوش هذه الدولة الشريفة أبقى الله فضلها وبسط على البلاد والعباد يمنها وعدلها وهو ينقسم الى ثلاثة أرحاء : رحى أهل السوس ، ورحى المغافرة ، ورحى الودايا ، ويطلق على الجميع ودايا تغليبا ، فأما أهل السوس فمنهم أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وكلهم من عرب معقل ، وكانوا فى القديم جندا للدولة

السعدية ، وكان ملوكها يستنفرونهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك أيام كونهم بالصحراء ، ثم أنزلوهم ببسيط آزغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم ، اذ كانت الخلط شيعة بنى مرين وأصهارهم كما مر ، فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها ، وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها ، فقيض لهم السلطان محمد الشيخ السعدى هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم فى بلادهم، وشغلهم بهم، فكانت تكون بينهم الحروب ، فتارة تنتصف معقل من جشم ، وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدى بالخلط وقيعته الشهيرة ، وأسقطهم من الجندية ، فنقل أولاد مطاع الى زبيدة قرب تادلا .

ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم استطالت الشبانات عليها بما كان لهم من الخؤلة على أولاد السلطان زيدان ، فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر ، وثارت أخرى بفاس الجديد مع أبى عبد الله الدريدى المتغلب بها حسبما سلف ، الى أن نقل أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله جميعهم الى وجدة كما سياتى ، ثم خلطهم بعد باخوانهم من المغافرة والودايا وصير الجميع جيشا واحدا فهذه أولية أهل السوس

وأما المغافرة فسيأتى بيان كيفية اتصالهم بالمولى اسمعيل ومصاهرتهم له .

وأما الودايا فكان السبب فى جمعهم واستعمالهم فى الجندية أنه لما فتح المولى اسمعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثانى وأجفل ابن محرز عنها أقام بها أياما ، ثم خرج الى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش ، فرأى أعرابيا يرعى غنما له وبيده شفرة يقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقه ، فقال للوزعة : « على بابى الشفرة » فأسرعوا اليه وجاءوا به الى أن أوقفوه بين يديه ، فسأله فانتسب له الى : ودى ، كغنى : قبيلة من عرب معقل بالصحراء ، واخبره بانهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جدب أصابهم ، قال : « دخلنا السوس بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا الى قبيلة فنزلت عليها ، ونحن نزول مع

الشبانات » فقال له المولى اسمعيل رحمه الله : « أنتم أخوالى وسمعتم بخبرى ولم تأتونى ، والآن أنت صاحبى واذا رجعت بغنمك الى خيمتك فاقدم على الى مراكش » وأوصى به من يوصله اليه ، ثم بعد أيام قدم أبو الشفرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلا يجمع بها اخوانه من قبائل الحوز ، فجمع من وجد منهم وجاء بهم الى السلطان فأثبتهم فى الديوان وكساهم وحملهم ، ثم نقلهم بحلتهم الى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة .

ثم دخل نجع آخر بعدهم فاثبتهم فى الديوان أيضا وبالغ فى اكرامهم والاحسان اليهم وعين لسكناهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبتها ، وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم ورؤساءهم النوائب وهى : الزوايا التى لا تغرم مع القبائل ، ثم قدم نجع ثالث جاؤوا من جهة القبلة فأثبتهم كاخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكهم .

ولما نقل رحمه الله زرارة والشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الدريدى بعث بهم اليها أيضا ليجتمعوا مع اخوانهم ، ثم قسم الوداية الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم الى فاس الجديد وعمره بهم . وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم ، وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة ، وولى عليهم القائد أبا الحسن عليا المدعو بابى الشفرة ، فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا . ثم استقر الامر على أن صار أبو الشفرة بفاس وابن عطية بالرياض .

وأما خبر الخلط : فانه لما أوقع بهم المنصور السعدى تفرقوا فى القبائل شذر مذر ، وصاروا عيالا على غيرهم ، ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا الى ازغاز فغلبوا عليه ، وعفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح الى أن جاء الله بالمولى اسمعيل رحمه الله فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب ، وضرب عليهم المغارم ، واستمروا على ذلك الى أيام السلطان المرحوم المولى محمد ابن عبد الله فظهروا فى دولته ، وكانوا يعكسون معه فى حروبه ويغرمون

ما وجب عليهم من الزكوات والاعشار ، وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع بمنه ، وهم اليوم في عداد القبائل الغارمة ، وكذا قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة ، والله تعالى المتولى لامور العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه .

انتقاض البربر شيعة الدلائيين والتفافهم على احمد بن عبد الله منهم وايقاع السلطان بهم

لما كان أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مقيما بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد ابن عبد الله الدلائى وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلا الى سايس ، فبعث رحمه الله عسكرا الى تادلا اعانة لاهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا ، ثم بعث اليهم عسكرا آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه ليخلف فهزمهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا معسكره ، ثم اعقبهما بعسكر ثالث فوقع به ما وقع بالاولين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذى بالسوس ، ثم بلغه قيام اخيه المولى حمادة بالصحراء وحربه لاخيه المولى محرز الثائر بها أيضا ، وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فقدم السلطان رحمه الله الاهم ورجع الى حرب البربر بتادلا خوفا من اتساع خرقهم على الدولة ، وهنالك لقيه أخوه المولى الحران جاء مستصرخا له على أخيه المولى حمادة ، ثم تقدم السلطان رحمه الله الى البربر فأوقع بهم وقعة شنعاء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها الى فاس مع عبد الله بن حمدون الروسى .

وفى «نشر المثانى» : أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة واخرجت المدافع وكان يوما مشهودا ، ولما انقضت الوقعة فر المولى الحران

من المحلة الى الصحراء ورجع السلطان الى مكناسة فدخلها في أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف .

وفي هذه الايام ولى قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربى بردلة بعد عزل القاضى ابى عبد الله المجاصى ، وولى مظالمها وجبايتها عبد الله الروسى ، وولى مواريثها أباه حمدون ، وامر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الاسوار ، ثم جيء بالمولى الحران من الصحراء مقيدا مغلولا فلما قابله من عليه وأطلقه وأعطاه خيلا وأقطعه مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه الى حال سبيله .

عود الكلام الى بناء حضرة مكناسة الزيتون

واستمر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بمكناسة قائما على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصرا اسس غيره ، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس اسس الجامع الاخضر أعظم منه ، وجعل له بابين بابا الى القصبة وبابا الى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين بابا عادية فى غاية السعة والارتفاع ، مقبوة من اعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضى منه العجب ، وجعل فى هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط ، وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبو القنانيط ، يسع زرع أهل المغرب ، وجعل بجواره سواقى للماء فى غاية العمق مقبوا عليها ، وجعل فى أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة ، وجعل بها اصطبلا عظيما لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ فى مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين واقواس عظيمة ، فى كل قوس مربط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا ، يقال : انه كان مربوطا بهذا الاصطبل اثنى عشر

ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته ، وفى هذا الاصطبل سانية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر ، وامام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه ، وفى وسط هذا الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على اشكال مختلفة ، وفيه ايضا هُرْى عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على اساطين عظيمة واقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل ، وينفذ اليه الضوء من شبابيك فى جوانبه الاربعة كل شباك ينيف وزنه على قنطار من حديد ، وفوق هذا الهرى من اعلاه قصر يقال له : المنصور ، ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع خمسون فى الاسفل وخمسون فى الاعلى ، وفيه عشرون قبة فى كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل الى الجبل ، وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك ، ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا فى مثلها ، وباقى العشرين أربعون . ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وانواع الفواكه كل غريب ، طوله فرسخ وعرضه ميلان ، ويتخلل هذه القصور التى فى داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الاخرى ، ورحاب عظيمة مربعة معدة لعمارة المشور فى كل جانب ، الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف .

قال صاحب «البستان» : «وقد شاهدنا آثار الاقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك فى دولهم ولا شاهدناه فى آثارهم ، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله فى قلعة مكناسة دار ملكه ، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج ولا آفات الزلازل التى تخرب المبانى العظام والهياكل الجسام» قال : «ومن يوم مات المولى اسمعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا ،

وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب ، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة ، واما الجدرات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بنى آدم ولا يقوم به مال» اه.

تاليف جيش عبيد البخارى وذكر اوليتهم وشرح تسميتهم

هذا الجيش من اعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما تقف عليه ، وكان السبب فى جمعه ما وجد مفصلا فى كناش كاتب الدولة الاسماعيلية ووزيرها الاعظم النقيه الاديب أبى العباس احمد اليحمدى رحمه الله ، قال : لما استولى السلطان المولى اسمعيل بن الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الاحرار حسبما مر ، حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشى المدعو عليليش ، وبيتهم بيت رياسة من قديم . وكان والده كاتبا مع المنصور السعدى ومع أولاده من بعده ، فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى اسمعيل واطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا فى عسكر المنصور ، فسأله السلطان رحمه الله هل بقى منهم أحد ؟ قال : «نعم ، كثير منهم ومن اولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير ، ولو أمرنى مولانا بجمعهم لجمعتهم» فولاه أمرهم وكتب له الى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده واعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن انسابهم الى أن جمع من بها منهم ، ثم خرج الى الدير فجمع من وجد به ، ثم سار الى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود ، سواء كان مملوكا أو حرطانيا أو حرا اسود ، واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع فى سنة واحدة ثلاثة آلاف رأس ، منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم فى دفتر وبعث به الى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان واعجبه ذلك فكتب اليه يأمره بشراء

الاماء للاعزاب منهم ، ويدفع أثمان المماليك منهم الى ملاكهم ويكسوهم من اعشار مراكش ، ويأتيه بهم الى مكناسة فاجتهد عليليش فى ذلك واشترى من الاماء ما قدر عليه ، وجمع من الحرطانيات عددا الى ان استوفى الغرض وكساهم وألزم القبائل بحملهم الى الحضرة ، فحملوا من قبيلة الى اخرى الى ان وصلوا مكناسة ، فأعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم ، وبعث اليهم الى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا .

ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشى المكناسى الى قبائل الغرب وبنى حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لاحد عليه يأخذه مجانا ، ومن كان مملوكا لاحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه، فخرج ابن العياشى وطاف فى تلك القبائل واستقصى كل أسود بها ، وكان السلطان قد كتب أيضا الى عماله بالامصار بأن يشتروا له العبيد والاماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للامة ، فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة ، فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف اخرى ، فكساهم السلطان وسلحهم وبعث بهم الى المحلة بعد ان عين لهم قوادهم ، ثم ان ابن العياشى قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب ، فكتب السلطان الى القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى صاحب بلاد الهبط أن يشترى للاعزاب منهم الاماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم الى المحلة، فصار المجموع ثمانية آلاف، وهذا العدد هو الذى نزل أولا بها.

ثم الزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم الا الامتثال ، فجمعوا كل عبد فى بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم ، واعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم اليه فمن تامسنا ألفان ، ومن دكالة الفان ، فانزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة الى ان بنى قصبة آدخسان فأنزل عبيد دكالة بها وانزل عبيد تامسنا بزاوية اهل الدلاء .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين والف فيها غزا السلطان المولى اسمعيل

صحراء السوس فبلغ آقاوطاطا وتيشيت وشنكيط وتخـوم السودان فقدمت
عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومـن دليـم وبربوش
والمغافرة وودى ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقـل وأدوا طاعتهم ،
وكان فى ذلك الوفد الشيخ بكار المغفرى والد الجـرة خناثـى أم السلطان
المولى عبد الله بن اسمعيل ، فأهدى الشيخ المذكور الى السلطان ابنته خنـثى
المذكورة ، وكانت ذات جمال وفقه وادب ، فتزوجها السلطان رحمـه الله
وبنى بها وجلب فى هذه الغزوة من تلك الاقاليم ألفين من الحراطين بأولادهم
فكساهم بمراكش وسلحهم ، وولى عليهم ، وبعث بهم الى المحلة وقفل هو
الى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخارى أربعـة
عشر ألفا ، عشرة آلاف منهـا بمشرع الرملة وأربعـة آلاف بادخسان وما
والاها من بلاد البربر ، ثم عفوا وتناسلوا وكثروا حتى مـا مات المـولى
اسمعيل الا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا كما سيأتى ان شاء الله .

واعلم أنه قد وقع فى هذه الاخبار لفظ الحرطانى ، ومعناه فى عرف
أهل المغرب : العتيق ، وأصله الحر الثانى كأن الحر الاصلى حر أول وهذا
العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل الحرطانى على ضرب من
التخفيـف .

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخارى : فان المولى اسمعيـل
رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار
بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر
نسخة من صحيح البخارى وقال لهم : « أنا وأنتم عبيد لسنة رسول اللـه
صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع فى هذا الكتاب ، فكل ما أمر بـه
نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » فعاهدوه على ذلك ، وأمر
بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام
حروبهم كتابوت بنى اسرائيل ، وما زال الامر على ذلك الى هذا العهـد
فلهذا قيل لهم عبيد البخارى .

قال فى « البستان » : « كان مآل هذا العسكر البخارى مـع أولاد

أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسى فى كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون الى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا فى البلاد شذر مذر ، وما أحياهم الا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا فعلتهم التى فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد ان شاء الله .

غزو امير المؤمنين المولى اسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك اهل الجزائر

ثم غزا أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره ، وأصحر فى ناحية القبلة فقدمت عليه هنالك وفود العرب من ذوى منبع ودخيسه وحميان والمهاية والعمور وأولاد جرير وسقونه وبنى عامر والحشم ، فسار بهم الى أن نزل القويعة على رأس وادى شلف المسمى اليوم بوادى صا ، وكان رائده اليها والدال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك مع ثغر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم ، ونزلوا على وادى شلف قبالة السلطان رحمه الله ، ولما كان وقت العشاء أرعدوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الامر كذلك ، فانه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الارض منهم بلاقع ، ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بنى عامر انهزموا دون قتال ، ولم يبق مع السلطان الا عسكره الذى جاء به من المغرب ، فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله الى حضرته ، وكاتبه الترك فى ان يتخلى لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فانهم ما زاحموهم قط فى بلادهم ،

وبعثوا اليه بكتاب اخيه المولى محمد بن الشريف الذى كان بعث به اليهم مع رسلهم حسبما تقدم ، وبكتاب أخنه المولى الرشيد الذى فيه الحد بينه وبينهم ، فوقع الصلح على ذلك الحد الذى هو وادى تافنا .

ولما قفل السلطان رحمه الله ومر فى طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تثلم منها ، ثم قفل الى فاس ثم منها الى الحضرة بمكناسة الزيتون ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف .

خروج الاخوة الثلاثة من اولاد المولى الشريف بن علي بالصحراء وما كان من امرهم

وفى أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج اخوته الثلاثة المولى الحران ، والمولى هاشم ، والمولى أحمد بنى الشريف بن على مع ثلاثة آخرين من بنى عمهم ، وأنهم تدرجوا الى آيت عطاء من قبائل البربر ، فنهض اليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغرو فى عشرين من ذى الحجة من السنة ، فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين وجلهم آيت عطاء ، فاقتتلوا ، وكان الظفر للسلطان بعد أن هلك من جيشه ثم من رماة فاس بالخصوص نحو أربعمائة دون من عداهم ، وهلك قائد العسكر موسى إبن يوسف ، وانهزم الاخوة وأبعدوا المفر الى الصحراء .

وكان فى تلك السنة وباء عظيم قد انتشر فى بلاد المغرب ، فرجع السلطان على طريق الفايجة ، فأصابه ثلج عظيم بثنية الكلاوى من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم ، وما تخلصوا منه الا بمشقة فادحة .

ولما نزلت العساكر بزاوية الشيخ أبى العزم سيدى رحال الكوش

مدوا أيديهم الى أموال الناس وزروعهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع ، فشكا الناس ذلك الى السلطان فأمر بقتل كل من وجد خارج المحلة ، فقتل فى ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة ، ثم أمر بجر الوزير أبى زيد عبد الرحمن المنزرى لامر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجر الوزير المذكور الى فاس ومكناسة ولم يصل اليهما الا بعض شلوه فطرح على المزبلة ، ووصل السلطان الى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقتعد أريكة عزه .

ثم دخلت سنة تسعين وألف ففى المحرم منها وقع الوباء بفاس وأعمالها ، فأمر السلطان العبيدان يردوا الناس عن مكناسة ، فكانوا يتعرضون لهم فى الطرقات بناحية سبو وسايس يردونهم عن مكناسة ، وكل من يأتى من ناحية القصر وفاس يقتلونه ، فانقطعت السبل وتعذرت المرافق

وفى أواخر المحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصارى طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين ، وانتزعوا منهم قصبة باربعة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله .

نقل زرارة والشبانات الى وجدة وبناء القلاع بالتخوم وما تخلل ذلك

وفى هذه السنة التى هى سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانات قوم كروم الحاج من الحوز الى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد فى تلك البلاد ، فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم فى الديوان ، وولى عليهم أبا البقاء العياشى بن الزويعر الزرارى ، وتقدم اليه فى التضييق على بنى يزناسن اذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة ومتمسكين بدعوة الترك ، فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد ، وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى

عليهم قلعة من ناحية الساحل قرينة وجدة بالموضع المعروف برقادة ، وأمر القائد العياشى أ نينزل بها خمسمائة فارس من احوانه يمنعونهم النزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حرث وغيره ، ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون ، وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من اخوانه أيضا ، وأمر ان تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك ، وجعل للقائد العياشى المذكور النظر فى القلاع الثلاث وهو بوجدة فى ألف فارس فكانوا فى الدفتر ألفين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين وألف ففى جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة فى الجنود قاصدا بنى يزناسن الذين تمادوا على العصيان فاقتحم عليهم جبلهم ، واعتسف ربوعهم وانتسف زروعهم وضروعهم ، وحرق قراهم ، وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ، فطلبوا الامان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التى عندهم فدفعوها من غير توقف ، وقاموا بدعوته جبرا عليهم ، ثم نزل بسيط آنكاد وحضر عنده قبائل الاحلاف وسقونة فأرجلهم من خيولهم وجردهم من سلاحهم وانتزعها منهم ، وألزم أشياخهم أن يجمعوا له ما بقى بحلتهم منها ففعلوا ثم فعل بالمهاية وحميان كذلك ، وانكفأ راجعا الى المغرب .

ولما نزل وادى صا أمر ببناء قلعة تاوريرت التى بناها السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق المرينى فجددها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم ، ولما نزل بوادى مسون أمر أن تبنى به قلعة أخرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك ، ثم أنزل بتازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامى وجعل نظر القلاع التى بتازا وودادى صا للقائد منصور المذكور ، وعين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التى تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤنة العبيد وعلف خيولهم ، وهم حراس الطريق فمن وقع فى أرضه شىء عوقب عليه قائد تلك القلعة . ولما وصل السلطان الى الكور أمر أن

تبنى به قلعة أيضا وأنزل بها مائة فارس من عبيده بعيالهم .

ولما انتهى الى فاس أنزل بقصبة الخميس التى بنى سورها المولى الرشيد خمسمائة من الخيل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الاشارة اليه .

ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرقات وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل ، ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيدا منصورا وذلك فى خامس شعبان سنة احدى وتسعين وألف .

فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الاصبنيون على المعمورة المسماة بالمهدية فى حدود العشرين بعد الالف وما كان بينهم وبين أبى عبد الله العياشى وأهل سلا من الحروب ، واستمروا بها الى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وألف ، فافتتحها جيش السلطان المولى اسمعيل رحمه الله .

قال فى « النزهة » « ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسمعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار . من ذلك المعمورة فانه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين والف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار » اه وقال فى « نشر المثانى » : « كان فتح المهدية عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثانى من السنة قيل بقتال وقيل بدون قتال وانما أخذت بقطع الماء عنها وجىء بالنصارى الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين .

وقال فى « البستان » وفى سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على

السلطان اسمعيل بأن ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذى بالسوس قد
استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته ، فأمر السلطان رحمه الله بتفريق
الراتب وتجهيز العساكر اليه من فاس ، وتوجهت فى ثامن ربيع الاول من
السنة ، ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد اشرف على فتحها وتوقفوا على
حضوره ، فنهض رحمه الله اليهم حتى حضر الفتح ، وأخرج رئيس
النصارى فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس ، وأما الغنيمة فقد
أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع
القائد عمر بن حدو البطوئى ، ورجع السلطان الى مكناسة بعد أن أنزل
بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها ، وحضر هذا الفتح
جماعة من متطوعة أهل سلا منهم الولى الصالح أبو العباس سيدى أحمد
حجى من صلحائها المشهورين بها . واعلم أن السور العادى الذى اليوم
بالمهدية هو من بناء البرتقال أيام استيلائهم عليها فى دولة الوطاسيين كما مر .

ولما فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو
فأصابه الوباء فمات فى الطريق ، وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد
ابن حدو ، تقسمها هو والقائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفى ، وكان
أولاد الريفى هؤلاء من الشهرة فى الجهاد والمكانة فى الشجاعة ومكائد
الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبى الليف وأضرابهم رحم الله
الجميع .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق ،
فنهب بنى عامر ورجع الى مكناسة ، وأمر باخراج أهل الذمة من المدينة ،
وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف ببريمة ، وكلف أهل تافيلالت
الذين بفاس بالرحيل الى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التى
أخليت ، فلم يزل أهل تافيلالت يذهبون ارسالا ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت
بهم .

ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بنى يزناسن وعلى
دار ابن مشعل ، وأنهم قد مدوا يد الوفاق الى ابن محرز وراسلوه وراسلهم

وانبرم كلامهم معه على حرب السلطان ، وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش ، فكتب اليه أن يحتاط فى حراسة مراكش . ويأخذ بالحزم فى ذلك ، ويقيم فى نحر ابن محرز الى ان يرجع السلطان من غزو تلمسان ، ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا الى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بشرشال ، فساروا اليهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وردوهم على أعقابهم صاغرين ، ورجع السلطان رحمه الله من وجهته . وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار على تفئته الى مراكش . فأراح بها ، ثم نهض منها الى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز فى أواخر ربيع الثانى من السنة ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، واستمر القتال نحوا من خمسة وعشرين يوما هلك فيها من الفريقين مالا يحصى ، ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها ، وكان الوقت وقت غلاء فضاق الامر على أهل الحركة ، فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد اليها فى الحين ، ثم كان بينهما حرب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان ، وجرح ابن محرز أيضا ، وذلك فى أواسط جمادى الآخرة من السنة ، واستمر الحال على ذلك الى رمضان من السنة .

قال أبو عبد الله أكنسوس حدثنى بعض الثقات أن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لما اعياه أمر ابن اخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشا كئيبا فقال لوزيره الفقيه أبى العباس اليحمدى : انى رأيت فى هذه الليله رؤيا أحزنتنى الى الغاية » فقال : « وماهى يامولانا ؟ وعسى أن تكون خيرا » قال : « رأيت كأن هذه الجنود التى معنا ما بقى منها أحد ولم يبق الا أنا وأنت مختفيين فى غار مظلم فسجد الوزير اليحمدى شكرا لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال : « أبشر يامولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل » فقال له السلطان : « ومن أين لك ذلك ؟ »فقال له : «من قوله تعالى ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . قال عليه الصلاة والسلام: «فما ظنك باثنين الله ثالثهما» فسر السلطان بذلك غاية السرور . وانسرى عنه ما كان يجده من الغم . وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له ،

وعلى اثر ذلك وقع الصلح بينهما فى رمضان ، ورجع السلطان الى حضرته فدخلها فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة .

امتحان القضاة والسبب فيه

قال العلامة القادرى فى « الازهار الندية » : « وفى هذه السنة أعنى سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا فى مشور فاس الجديد حتى يتعلموا مالا بد منه من أحكام ماهم مدفوعون اليه ، ثم أخرجوا أيام المولد الكريم الى مكناسة فهددوا بها ايضا حتى أمر بحبس بعضهم أو قوله ثم أطلقوا معزولين » اه قال أكنسوس : « ولعل المراد بهم قضاة البوادى ومن فى معناهم » قلت : ولم أر فى الازهار شيئا من هذا ولعله فى نسخة الاصل لانهم ذكروا انهما نسختان احداهما مختصرة من الاخرى والله أعلم

غزو البربر وبناء القلاع بازاء معاقلهم

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان فى العساكر الى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك ، فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا الى ملوية ، فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ، ثم نزل بعين آصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضا، ثم تبع آثارهم الى أن دخلوا جبل العياشى ، وتربص رحمه الله بملوية الى أن دخل فصل الشتاء ، وكان قصده بذلك التربص اتمام سور القلعتين ، ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة آصرو ألف فارس ، وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فاخذوا بمخنقهم ، واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس ، ولما منعوا من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الاقوات خشعوا ونزل وفدهم فقدموا

مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج ، فدفعوها عن يد وهم صاغرون ، وهؤلاء هم آيت ادراسن ، فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفا من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها ، وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم ، وصاروا فى كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم الى أن بلغ عددها ستين ألفا وقلت شوكتهم وذهب بأسهم .

فتح طنجة

قد تقدم لنا أن طنجة صارت الى جنس النجليز من يد البرتقال ، واستمرت بيده الى سنة خمس وتسعين وألف ، فعقد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله للقائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة ، فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا فى البحر ، وتركوها خاوية على عروشها ، وذلك فى ربيع الاول سنة خمس وتسعين وألف قاله فى « النزهة » وقال فى « البستان » لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين على بن عبد الله الريفى فى بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها فى فاتح جمادى الاولى من السنة، قلت وأعقاب هذا القائد لازالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك .

ثم اتفق أن نشب بقرب ساحلها مركب قرصانى جاء مددا لاهل سبتة فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله عليه واحتووا على ما فيه ، وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية الى مكناسة ، وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضا فأتوا بها لاربعين يوما والله غالب على أمره .

غزو البربر ثانيا وبناء القلاع فى نحورهم

ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية، وجعل طريقه على مدينة صفرو ، ففرت قبائل البربر الى رؤوس الجبال وهم آيت يوسى وشغروسن وأيوب وعلاهم وقادم وحيون ومديونة ، فأمر السلطان ببناء قلعة بآعليل وأخرى على وادى كيكو من أسفله ، وأخرى على وادى سكورة وأخرى على وادى تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة الى جبل العياشي وتفرقوا في شعابه ، فأمر ببناء قلعة بدار الطمع ، وقلعة بتاببوست ، وقلعة بقصر بنى مطير ، وقلعة بوطواط ، وقلعة بالقصابى ، وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة والعمل مستمر فى بناء القلاع الى أن أكملت أسوارها ، وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم ، وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها ، وصفا له رحمه الله هذا الربع الشرقى من جبل درن والله ولى التوفيق بمنه .

مقتل المولى احمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك

وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران ، وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات ، فنهض اليهما ووالى السير حتى أناخ بكلكله على تارودانت وحاصرهما بها أياما ، فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم فى جماعة من عبيده لزيارة بعض الاولياء فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه ، وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه فماصعهم هنيئة ثم قتلوه فاذا هو ابن محرز .

ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه ، وأمر بتجهيزه ودفنه ، فدفن مع الغرناطى أحد قواد الجيش ، وكان قد قتل ذلك اليوم ، وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله فى أواسط ذى القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشغيبه على السلطان أربع عشرة سنة ، ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا الى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطى لانه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوهما معا حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه فى تابوته ، وتركوا الغرناطى على شفير قبره ، واستمر المولى الحران محصورا بتارودانت والحرب قائمة على ساق الى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف ، فكانت حرب هلك فيها نحو الستمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون ، والباشا حمدان وغيرهما ، ثم كانت حرب أخرى أعظم من الاولى ثم ثالثة كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمن الروسى ، وتولى مكانه ابن الغرناطى ، واستمر الحال بها الى جمدى الاولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقتحم السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها ، واستولى عليها وفر المولى الحران الى حيث أمن على نفسه .

ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عينوا وفدا من كبرائهم وأشرافهم وعلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة يقدمهم ولده المولى محمد بن اسمعيل . فأكرم وفادتهم ، وخرج أولاد النقسيس من سبتة ، وكانوا قد لجأوا اليها بعد مقتل الخضر غيلان ، فقدموا على السلطان بعسكره من تارودانت فأمر بردهم الى تطاوين وقتلهم بها ، وأمر بقتل من كان منهم مسجونا بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله ، ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف فيها قفل السلطان من السوس فدخل دار ملكه مكناسة واستقر بها ، وبعث الى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف الى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها ، وفى خامس جمادى الاولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه ابى عبد الله المجاصى فحضروا وأكرمهم ووصلهم .

٧٠

غزو برابرة فازاز وبناء قلعة آدخسان

لما تهيأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فازاز نهض اليهم ، وصعد الجبل من الناحية الغربية فأول من قدم عليه من برابرته بالطاعة زمور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم بايشى القبلى فاستصفى منهم الخيل والسلاح، ثم تجاوزهما الى المال فاستصفاه أيضا ، وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو ببسيط آدخسان ، فقدمه اليه فأنكر السلطان عليه ذلك ، وقال له : « ما حملك على ما فعلت ولم آمرك به ؟ » فقال له : « يامولانا ان كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم فهو الذى فعلت لك ولهم ، وان سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم ، وانما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فانه ينمو ويزكو » فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله ، وأقام رحمه الله بآدخسان يحارب آيت ومالو سنة كاملة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بمحل القديمة التى كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله وخربت ، ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقصبة ألفا وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم اليها باولادهم ، وأنزل بزاوية أهل الدلاء ألفا وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضا نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ونحوهما ، ثم قفل الى مكناسة . قال صاحب « البستان » ، وهو أبو القاسم الصيانى: وفى هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الاستاذ أبا الحسن على بن ابراهيم بأولاده الى مكناسة ، وسبب ذلك أنه لما نزل بآدخسان واجتمع عليه الاشراف الذين بآركو قال لهم : « دلونى على رجل صاحب فقه ودين يؤمنى فى الصلوات » فقالوا له : « ليس بهذا الجبل أتقى من سيدى على بن ابراهيم » فأتوا به فكان امامه فى المحلة ، ولما قفل اخذه معه قال : « فهذا سبب انتقال جدنا من آركو الى الحضر » اه

بيان تربية اولاد عبيد الديوان وكيفية تأديبهم

قد قدمنا ان جمهور عبيد البخارى كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وانهم تناسلوا بها وكثروا الى الغاية فلما كانت سنة مائة والف أمر السلطان رحمه الله اولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق ، فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات داره ، كل طائفة فى قصر للتربية والتأديب ، وفرق الاولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى سوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك ، حتى اذا اكملوا سنة ، نقلهم الى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية ، حتى اذا أكملوا سنة ، نقلهم الى المرتبة الاولى فى الجندية ، فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها ، حتى اذا أكملوا سنة ، دفع اليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها فى الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها ، حتى اذا اكملوا سنة ، وملكوا رؤوسها دفع اليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة فى المطاعنة والمراماة على صهواتها ، حتى اذا أكملوا سنة بعد ذلك ، صاروا فى عداد الجند المقاتلة ، فيخرج لهم السلطان البنات اللاتى قدمن معهم، ويزوج كل واحد من الاولاد واحدة من البنات ، ويعطى الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته ، ويعطى المرأة خمسة مثاقيل شورتها ، ويولى عليهم واحدا من آبائهم الكبار ، ويعطى ذلك القائد ما يبنى به داره وما يبنى به أخصاص أصحابه وهى المعروفة عندنا بالنواويل ، ويبعث بهم الى المحلة بعد ان يكتبوا فى ديوان العسكر ، واستمر الحال هكذا ففى كل سنة ياتى من المحلة عدد صغير ويتوجه اليها من عند السلطان عدد كبير ، من سنة مائة والف الى أن توفى السلطان رحمه الله فى التاريخ الآتى ، فبلغ عدد هذا العسكر البخارى مائة الف وخمسين ألفا ، منها ثمانون الفا مفرقة فى قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها

وسبعون ألفا بالمحلة ، وعدد القلاع التى بناها المولى اسمعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت قائمة العين والاثر بآفاق المغرب يعرفها الخاص والعام الى الآن ، هكذا وجد فى كناش كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية الفقيه أبى الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهونى ، المتوفى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف ، وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الاعظم والمتفرق فى قلاع المغرب .

قال صاحب «البستان» : «وأين هذا مما نقله المؤرخون على وجه الغرابة : من ان الخليفة المعتصم بن الرشيد رحمهما الله بلغ عدد مماليكه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر الفا» قال : وهذا العدد الذى جمعه أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر الى الاندلس وكانت تلك القلاع سفنا ومراكب جهادية لاستولى عليها والتوفيق من الله» اه قلت : وهو لعمرى كلام مقبول لكن الانسان مجبور فى قالب مختار وتصاريف الامور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيئا من اراد أن يظهر فى الوقت غير ما أظهره الله فيه . وقال الشاعر :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وقال الآخر :

لا تعذل المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

وقال :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أمثال العامة : «القاعد على الجرف محسن للسباحة» ، هذا كله بالنظر الى الحقيقة ، فأما الشريعة فقد قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للانسان أن يهمل الاستعداد المأمور به شرعا ، ويكل الامر الى القدر ، والا فيكون مخطئا مخالفا للشرع والطبع قال صلى الله عليه وسلم للاعرابى الذى ترك ناقته مرسلة : «أعقلها وتوكل» وقال الشاعر :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

اللهم انا نسألك العفو والعافية والتوفيق واللطف فيما جرت به المقادير ، يانعم المولى ونعم النصير

فتح العرائش

وفى هذه السنة أعنى سنة مائة وألف فى آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئى فى جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الاصبنيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ ابن المنصور السعدى كما مر ، فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحوا من ثلاثة أشهر ونصف كذا فى «النزهة» وقال المؤرخ منويل : «ان مدة الحصار كانت خمسة اشهر» قال وكان طاغية الفرنسيس ، وهو لويز الرابع عشر ، قد أعان المولى اسمعيل على فتح العرائش وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم أقلع عنها ثم بعد ذلك كان الفتح » قال فى « النزهة » : فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالى للمرسى وملأوها بارودا ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى ما كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيبات الذى بناه المنصور السعدى واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان ، فنزلوا عليه ، فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا اميرهم وحده ، وتم الفتح وذلك يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم سنة احدى ومائة والف . وما فى «البستان» وقلده صاحب «الجيش» : ان نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيبات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه .

وكان عدد نصارى «العرائش» قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين ، وقتلوا منهم اثنتى عشرة مائة، ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة ، فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقى من الحديد ، ومنها مدفع يسمى : الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب . ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال . كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال . كذا فى النزهة قال منويل فى كتابه : «ان النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطا معتبرة لكن السلطان نكث» اه قلت : قد حكى القاضى أبو القاسم العميرى فى فهرسته ما حاصله : ان نصارى العرائش ادعوا ان الفتح المذكور انما كان صلحا وتأمينا لا عنوة ، ثم لما طال النزاع فى ذلك أمر السلطان قاضى حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبى مدين ببيان الحكم فى ذلك فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه ، وحكم على اولئك النصارى بالاسر ، وقد ذكر ذلك بتمامه فى الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك . وأمر السلطان رحمه الله باشخاص اولئك النصارى الى مكناسة الزيتون وكانوا ألفا وثمانمائة على ما فى البستان ، فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى فى بناء قصوره بالنهار ، ويبيتون ليلا فى الدهليز ، وهو فى عرف المغاربة هرى تحت الارض ، وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف بالعرائش ، وأمر قائدهم ان يبنى بها مسجدين وحماما ويبنى داره بقلعتها

وفى فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعنانى فقال :

ألا أبشر فهذا الفتح نور ... قد انتظمت بعزكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنى ... قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهانى ... ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا ... وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لما ... بعين الحق قد حرس الثغور

وجاهدتم وقاتلتم فأنتم لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا وفى يوم الوغا الاسد الهصور
وفى ثغر العرائش قد تبدى لقدركم على الشعرى الظهور
لقد كان الملوك فساوموها وراموها وبان لها نفور
فلما جئها انقادت وقالت اليك بحق مولانا المصير
ملكت قياد عزتها بذل فما أغنى الحصار ولا العبور
قهرتهم بأبطال ضخام على الهيجاء كلهم جسور
فكم رأس من الكفار امسى قطيع الرأس مجرورا يخور
وكم نحر قلادته رماح وسن الرمح مركزه النحور
وكم اسرى وكم قتلى بأرض وكم جرحى دماؤهم تفور
تمر بها الطيور تنتقيها وبات الذئب وهو لها شكور
واضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا وقد عظمت به لكم الاجور
الا يامعشر الكفار هذا يبددكم وليس له فتور
ألا ياأهل سبتة قد اتاكم بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة فى عشى تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادى كل يوم متى يأتى الامام متى يزور
متى يأتى ويفتحها سريعا ويلحق أهلها منه ثبور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبى وسيف الحق فى يده ينور
أيامولاى قم وانهض وشمر لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها كما قد قيل بر او بحور
لسان الحال ينشد كل يوم ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا ويأتى العز والملك الكبير

وذلكم بعـون الله سهـل ومـن بركاتكم أمـر يسير
أيامـولاى اسمعيل هـذا عبيدكـم الضعيـف المستجير
يناديكـم بناديكم ويدعـو دعـاء لا تعييه الدهـور
فيـارب البريـة ياالهـى ويارحمن يانعـم المجير
أثب هذا الامير بكل خير ولا تجعـل تجارته تبـور
وابق الملك فيـه وفى بنيه ولو كرهت زيود او عمور
ونحن رعيـة نرجو هنـاء وبالسلطان تنتظـم الامـور
عليكم مـن عبيدكـم سلام مدى الدنيـا يضمخه العبير
يعم جنابكم مـا قال صب ألا أبشر فهذا الفتح نـور

وقال فى ذلك الفقيه العالـم الـورع الشهير أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جسوس رحمه الله

رفعت منازل سبتـة أقوالها تشكو اليكم بالذى قـد هالها
مـع بادس وبريجة فتعطفوا وتنبهوا كـى تسمعـوا تسآلها
يابـن النبـى الهاشمى محمـد قل ياأمير المؤمنين أنـا لهـا
فلقد قضيتم للعرائش حاجـة مع طنجة فاقضوا لذى آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة بجواركم وجنودكم تغزى لهـا
ان لم تكونوا آخذين بثأرها من ذا يفك من الوثـاق حبالها ؟
لا تسمعن من جاهل ومثبط ومصعب مـن جهله أحوالها
ان الذين تقدموا قـد جاهـدوا بنفوسهـم وبمالهـم أمثالهـا
فتملكوا أملاكهـا وديارهـا وتقسموا أمـوالها ورجـالها
فابعث لها أهل الشجاعـة عاجـلا حتـى تراهم نازلين جبالهـا
وأمدهـم بمؤونـة ومعونـة كيفما تقطع بالعـدا اوصالها
وارفـع لهذا الغرب رأسا انـه فى الضعف مـا دام العدا أنزالهـا
أبقـاك ربى للخلافة عـدة تقفو الشريعة موثـرا أفعالها
واقبـل هدية من أتـى بنصيحة يبغى الثواب ولا تقل مـن قالهـا

وقال فى ذلك الشريف الاديب أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادرى :

علا عرش دين الله كل العرائش وهد بنصر الله قصر العرائش

وهى طويلة انظرها فى نشر المثانى ان شئت ، ثم فى الثانى والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى بذلك فى سائر أمصار المغرب ، وأمر بلبس النعال الصفر مكانها لما قيل : من أن الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدى كما تقدم ، وفى أوائل ذى الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكزة

فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، وأظنهم الاصبنيول ، الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان فامنوهم على حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون المدينة فملكوها ، وذلك سنة اثنتين ومائة والف ، وعمرها أهل الريف أيضا ، وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها والله أعلم

حصار سبتة

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا الى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد فى مقاتلتها ، وأمدهم السلطان بعسكر من عبيده ، وامر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة ، وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم اليها ، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا ، وتقدم السلطان اليهم فى الجد والاجتهاد فكان القتال لاينقطع عنها صباحا ومساء ، وطال الامد حتى أن السلطان رحمه الله اتهم القواد

الذين كانوا على حصارها بعدم النصح فى افتتاحها لئلايبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم ، مع أنهم قد سئموا كثرة الاسفار ومشقات الحروب ، واستمر الحال الى ان مات القائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفى ، وولى بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن على ، والقتال لا زال والحال ما حال ، وفى كل سنة يتعاقب الغزاة عليها ، والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم ، ولم يهيىء الله فتحها على يديه ، ودار القائد أحمد بن على ومسجده اللذان بناهما بازاء سبتة أيام الحصار لا زالا قائمى العين والاثر الى اليوم . وحكى الغزال فى رحلته: أنه رأى باحد ابواب سبتة خرقا قديما لم يصلح فسأل أهلها عنه فقالوا انه من أثر الرمى الذى كا نيرميه الجيش الاسماعيلى وهو أثر كرة خرقت الباب ونفذت الى داخل البلد وتركناه على حاله ليعتبر به من يأتى بعدنا ويزداد احتياطا وحزما أو كلاما هذا معناه والله تعالى أعلم .

غزو السلطان المولى اسماعيل برابرة فازاز وايقاعه بهم

كان السلطان المولى اسماعيل رحمه الله فى هذه المدة مشتغلا بتمهيد المغرب واستنزال اممه من معاقلهم الى ان فتح أقطاره كلها وبنى قلاعها ورتب حاميتها ، ولم يبق له بالمغرب كله الا قنة جبل فازاز الذى فيه آيت ومالو وآيت يف المال وآيت يسرى ، فعزم على النهوض اليه وافتضاض عذرته .

ولما اراد الخروج اليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرزا ، وبعث الى مراكش ابنه المولى أبا اليمن المأمون ، وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان ، وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ .

ولما ولى المأمون على مراكش أمر برئيس الحضرة وامام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدى أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغى الوصاية به ،

وكان المولى المأمون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى اليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لامر والده ، ثم عاد اليه وقال : «يامولانا ان اليحمدى ينقصك ويزعم انه الذى علمك دينك» فى كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله : «والله ان كان قد قال ذلك انه لصادق فانه الذى علمنى دينى وعرفنى بربى» نقل هذه الحكاية صاحب «البستان» وصاحب «الجيش» وكلاهما قال : انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله ، وهى منقبة فخيمة للمولى اسمعيل فى الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة والف والسلطان عازم على النهوض الى فازاز وبعث مع ذلك بالراتب والعدة الى أهل فاس وامرهم بالنهوض الى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا فى رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان فى الاستعداد للنهوض الى فازاز ثم بدا له فخرج فى اثر المولى زيدان فلحق باطراف المغرب الاوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع الى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر ، والذى رأيته فى «نشر المثانى» هو ما نصه : قد اختار السلطان المولى اسمعيل الفقيه أبا عبد الله محمد الطيب الفاسى لعقد المهادنة مع الترك فى حدود سنة ثلاث ومائة والف بعد وقعة المشارع معهم لعلمه وفصاحته وبيته، فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاى عبد الملك ، ومعهم الكاتب أبو عبد الله المدعو الوزير وغيرهم من وجوه الدولة الاسماعيلية ، فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها فى جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر الى فاس بانهم قتلوا اجمع ، وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الانفاق ، حتى بقى ما عهد أن يشترى فى ذلك اليوم ملقى لما عرا الناس من الغم ، ثم جاء الخبر بانهم قادمون بعافية ، وانهم وصلوا الى تازا ففرح الناس واستأنفوا الانفاق كيوم عاشوراء ، ومات بايشى القبلى فولى السلطان على زمور وبنى حكم ولده أبا الحسن على بن يشى .

ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض الى

البربر أهل فازاز ، فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار ، فنزل رحمه الله فى جند العبيد ببسيط آدخسان ، ورتب على البرابر العساكر من كل جهة ، فبعث الباشا مساهلا فى خمسة وعشرين الفا من الرماة طلع بها من تادلا على وادى العبيد حتى نزل خلف آيت يسرى ، وبعث علىبن بركات مع آيت يمو وآيت ادراسن فنزلوا بتغالين ، وبعث علىبن يشى مع زمور وبنى حكم وأمره أن ينزل بعين شوعة ، وبعث الى اهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن يقدموا بجموعهم على على بن يشى ، وبعث اليه مع ذلك بعسكر الطبجية بالمدافع والمهاريس وسائر آلات الحرب ، وبعث نصارى العرائش يجرونها على طريق آعليل ثم على قصر بنى مطير الى ان اجتمعوا بعلى بن يشى على عين شوعة .

وضرب السلطان لامراء الجنود لانشاب الحرب موعدا معلوما . وقال لهم : « اذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية فى اخراج المدافع والمهاريس بالكور والبنب طول ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فاذا أصبحتم فليقدم كل قائد من ناحيته ، ولينشب الحرب ليكون القتال فى ساعة واحدة من جميع الجهات » ففعلوا ما أشار به عليهم .

ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر الا رعود المدافع والمهاريس تصعق فى الجو ونيرانها تتقدح فى ظلمات الليل ، وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية ، فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الارض قد زالت بهم ، فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار ، وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . ولما اصبحوا زحف اليهم السلطان من ناحيته ، وزحفت اليهم العساكر من باقى الجهات ، واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا فى الشعاب والاودية شذر مدر ، وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقلة منها ، والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء ، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء ، فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم واولادهم ، ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم ، واستلبت خيلهم وسلاحهم ، واستحر القتل والنهب فيهم ثلاثة

أيام والعساكر تلتقطهم من الاودية والشعاب ، وتستخرجهم من الكهوف والغيران ، وأمر السلطان قواده مساهلا وعلى بن يشى وعلى بن بركات بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه به لآدخسان ، فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثنى عشر ألفا ، وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف ، وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفا، وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى اسمعيل رحمه الله فتح المغرب ، واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض ، وكتب فى الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مع على بن بركات بقلعة تغالين ، وأنزل محلتهم على رأس منزل آيت ومالو ، ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلا ولا سلاحا ، وانما كانت الخيل والسلاح عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة .

قال أبو عبد الله أكنسوس رحمه الله : «وكان المولى اسمعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وادنى المفسدتين فى اضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر . قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الآية ورأى المولى اسمعيل : أنه لما اعد ذلك العسكر القوى الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح ، مع أن الفساد الذى يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الاموال وخلع اليد من الطاعة ، قال : وهذا القدر الذى اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفى على الشيخ اليوسى حتى كتب اليه برسالته المشهورة » اه

قلت : ما فعله السلطان المولى اسمعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على احد وجه استحسانه ، ولا يتوهم عاقل أن أهل فازاز ومن فى معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوما ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله فى مثل ذلك الى الاعتذار ، وقوله ان ذلك الاعتذار خفى على اليوسى ليس على ما ينبغى ، لان الشيخ اليوسى رحمه الله ما تكلم مع

السلطان فى امر اولئك القبائل ومن فى معناهم ، وانما كلامه معه فى امور ثلاثة : الاول فى جباية المال من وجهه وصرفه فى وجهه . الثانى : فى اقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح . الثالث : فى الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية .

ونص هذه الرسالة : الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه ، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه ، السلطان الاعظم الاجل الافخم ، مولانا اسمعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة ، وأيامه على العز واليمن مقصورة ، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته ، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال ، والدعاء لسيدنا بصالح الاحوال ، وذلك بعض ما اوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والاحسان ، والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام ، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التى اوجبتها منزلته السلطانية ، ومثابته الطوقية الفاطمية ، فكتبنا هذه البطاقة ، وهى فى الوقت منتهى الطاقة ، وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق الى الموعظة والنصح ، والرغبة فى استفتاح أبواب الربح والنجح ، فأردنا ان نرسل الى سيدنا ما أن وفق الى النهوض اليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة ، والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ، ورجونا وان لم نكن أهلا لان نعظ ، أن يكون سيدنا أهلا لان يتعظ ، وان يحتمى من جميع المذام ويحتفظ ، فليعلم سيدنا أن الارض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له ، والناس عبيد لله سبحانه واماء له ، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا ، فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله فى أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى ، وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد فهو متجاسر على مولاه فى مملكته ومتسلط ومتكبر فى الارض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به

يوم يتمكن منه ، ثم نقول : ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفى بها البطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هى امهاتها ، الاول : جمع المال من حق وتفريقه فى حق . الثانى : اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفى معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة . الثالث : الانتصاف من الظالم للمظلوم . وفى معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت فى دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فان تنبه وفعل فقد فاز ، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة والا فقد أدينا الذى علينا ، أما الامر الاول فليعلم سيدنا أن المال الذى يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التى ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من اهل البيت والعلماء والقضاة والائمة والمجاهدين والاجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها الا بوكيل ، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل ، فان استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه الى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برىء من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم ، وحصل له أجران : أجر القبض وأجر الدفع ، وان هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له ، أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له ، وكذا ان استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لاربابها فهو ظالم ، فلينظر سيدنا فان جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا ، أما الدنيا فقد اخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شىء شهدناه لا شىء ظنناه ، ثم ان ارباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل اليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فان كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفى أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : «المغرور من غررتموه اه وان يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من

أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقد جلت القلوب على حب من احسن اليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة اخرى كما قيل :

اذا لم يكن للمرء فى دولة امرىء   نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لها غير أنه   يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وليعلم سيدنا ان السلطان اذا أخذ أموال العامة ونشرها فى الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ، ويعلمون انه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من انفاق أموالهم فى مصالحهم والا فالعكس ، وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية ، فاذا أحسن الى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء ، فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق ، واما الامر الثانى فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت فى الوقت الا عمارة الثغور ، وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية ، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله ، فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة ، وقد بلغنى اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصى والمقاليع ، وهذا وهن فى الدين ، وغرر على المسلمين ، وانما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة ، وتكليفهم الحركات واعطاء العدة كسائر الناس ، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية الى ماسة ، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون اليه ، فهم حماة بيضة الاسلام ، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحى أن يكون أشد الناس رغبة فى الجهاد ، ونجدة فى المضايق وغيرة على الاسلام ، ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على اريكته والله الموفق .

وأما الامر الثالث فقد اختل أيضا لان المشعبين للانتصاف بين الناس فى البلدان ، وهم العمال وخدامهم ، هم المشتغلون بظلم الناس ، فكيف يزيل الظلم من يفعله ؟ ومن ذهب يشتكى سبقوه الى الباب فزادوا عليه فلا يقدر

أحد أن يشتكى فليتق الله سيدنا ، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب ، وليجهد فى العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا ، قال تعالى : «ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » الآية . وقال تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز» ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال : «الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الامور الاربعة ، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا ان ذلك من اخلالهم بهذه الامور ، فكان عليهم الرجوع الى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم اياه ، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على ان الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم ، وان العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر ، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين فى الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل فى الرعية ، استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين ، قال بعض الحكماء : « الملك بناء والجند أساسه واذا ضعف الاساس سقط البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بالعدل فالعدل أساس الجميع .» وقد صنع أرسطوطاليس الحكيم للملك الاسكندر الشكل المستند عنه وكتب عليه : « العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة ، السنة سياسة يسوسها الملك ، الملك راع يعضده الجيش ، الجيش أعوان يكفلهم المال ، المال رزق يجمعه الرعية ، الرعية عبيد يقودهم العدل ، العدل مألوف وبه صلاح العالم ، العالم بستان » الى آخره : وقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقال صلى الله عليه وسلم : « ان رجالا يخوضون فى مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة » أو كما قال وقال صلى الله عليه وسلم : « مامن وال يلى ولاية الا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فاما عدل يفكه واما جور يوبقه » . وعن مولانا على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : « رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالابطح

فقلت ياأمير المؤمنين « أين تسير ؟ » فقال : « بعير من ابل الصدقة شرد أطلبه » فقلت : « أذللت الخلفاء من بعدك » فقال : « لا تلمنى ، فوالذى بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطىء الفرات لاخذ بها عمر يوم القيامة انه لاحرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين » وقد رأى رضى الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الابواب فقال : « ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابا ثم ضيعناك اليوم » وأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال. وليعلم سيدنا أن اول العدل أن يعدل فى نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق ، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطى . وما يأتى وما يذر ، وقد كان بنو اسرائيل يكون فيهم الامير على يد نبى ، فالنبى يأمر والامير ينفذ لا غير ، ولما كانت هذه الامة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فلم يبق الا العلماء يقتدى بهم قال صلى الله عليه وسلم : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل » فكان حقا على هذه الامة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء ، وقد توفى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضى الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشترى فى السوق على عياله ، فلما بويع أخذ ماله الذى للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة ، وقالوا: « انك فى شغل بأمر الخلافة عن السوق » وفرضوا له ما يكفيه مع عياله ، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره ، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده ، فعلى سيدنا أن يقتدى بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدى باهل الاهواء ، وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدى محمد بن الحسن ، وسيدى أحمد بن سعيد ، وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون فى الله لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله ، وما نهوه عنه انتهى ، هذه طريقة النجاة ان شاء الله تعالى ، نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا ، وارشادا وتأييدا وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد ، وان يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد آمين والحمد لله رب العالمين » .

ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو دعا على بن

يشى وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له : «لا أرى وجهك الا اذا أغرت على كروان وأتيتنى منهم بعدد هذه الرؤوس التى هنا» لانهم كانوا بوادى زيز يعيثون فى طريق سجلماسة وينهبون الرفاق ، فسار على بن يشى حتى صبحهم وهم غارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ، ثم نادى فى تلك القبائل كلها من أتى برأس كروانى فله عشرة مثاقيل ، فصار كل من انحاز اليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتى به اليه ، واستمر البحث عنهم فى المدر والوبر الى أن قضى من جماجمهم الوطر ، ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس مثقالا واحدا ، وجاء الى السلطان باثنى عشر ألف رأس كما اقترح عليه ، وفق ما اجتمع منها بآدخسان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر .

ودخلت سنة خمس ومائة وألف فلم يكن فيها شىء يذكر .

ثم دخلت سنة ست ومائة وألف ففى ربيع منها خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصدا ناحية تلمسان بعد أن قتل النائب بفاس أبا العباس أحمد السلاوى فقاتل الترك ونهب ورجع .

ثم دخلت سنة سبع ومائة وألف فلم يكن فيها شىء يذكر .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففى يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من اصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثمانى صاحب القسطنطينية العظمى الى السلطان المولى اسمعيل يندبه الى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل .



امر السلطان المولى اسماعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك

وفى ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضى والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد المثبتين فى الديوان، ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويامر بعزل القاضى والشهود كذا فى «البستان» .

قال أبو عبد الله أكنسوس : «هذا الكلام الذى نقله صاحب «البستان» عن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فيه نظر فانه كلام مجمل، وقضية جمع العبيد مذكورة مفصلة فى الكناش الكبير الاسماعيلى وفيه تمييز المماليك الارقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعى بخطوط العدول ، وهؤلاء لا كلام فيهم ، وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة فان السلطان لم يدع فيهم الملكية ، وانما الكلام فى جبرهم على الجندية ، ووجه السلطان الى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك ، فكتبوا اليه الاجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم ، وكل ذلك فى الكناش المذكور مبسوطا ، وهو شيء كثير ، وحاشى الله مقام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أن يدعى تملك الاحرار ، وقد تقدم كلام الشيخ اليوسى وبيان ما أنكر على السلطان ، ولو كان ما ذكر الصانى متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسى ، ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب ، نعم فى الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمنصور السعدى ، فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا فى الاقطار ، وهم الذين تقدم الكلام عليهم فى دفتر عليليش ، وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الاسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره ، فثبت ذلك كله عند السلطان، ومع ذلك لم يدخلهم فى الارقاء الخلص الذين اشتروا

بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على ثلاث مراتب . المرتبة الاولى : خالص الرقية ، المرتبة الثانية : خالص الحرية ، المرتبة الثالثة : واسطة بينهما » اه والله تعالى أعلم .

تفريق المولى اسماعيل رحمه الله اعمال المغرب على اولاده وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة احدى عشرة ومائة وألف فرق السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده ، فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من العبيد حامية بها ، وأمره أن يزيد فى تلك القصبة فبنى قصبة جديدة ، وبنى بها قصره وبنى مسجدا أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الاولى ، واستقر بها .

وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل .

وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على اقليم السوس ورتب معه ألف فارس .

وعقد لابنه المأمون الكبير الذى كان بمراكش على سجلماسة وأعمالها نقله من مراكش اليها وأنزله بقصبته التى بناها له بتيزيمى ورتب معه خمسمائة من الخيل ، وبعد سنتين توفى المولى المامون فولى السلطان مكانه ابنه المولى يوسف .

وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك الى أن شردهم عن نواحى تلمسان ، وانتهى فى بعض أيام غاراته الى مدينة معسكر فاقتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باى واخذ ما فيها من الفرش والخرثى والادام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها فى بعض غزواته ، فانتهز المولى

زيدان فيها الفرصة فكان ذلك سبب عزله عن الشرق وتولية أخيه المولى حفيد مكانه ، لان السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهبه لدار البأى للصلح الذى كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثمانى كما مر .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة ومائة وألف : فيه غزا السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذى كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة ، ولما قفل السلطان من وجهه هذه هلك من جنده أثناء الطريق عدد كبير من العطش فمن أهل فاس بالخصوص أربعون نفسا سوى من هلك من غيرهم ، وفى هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد الله الروسى صاحب فاس عبدا من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير اذنه فقتله ، فبعث السلطان ولده المولى حفيدا من مكناسة الى فاس ليأتيه به فاستشفع اليه عبد الخالق بالعلماء والاشراف فلم يقيده المولى حفيد وذهب به مسرحا ، فلما دخل على السلطان بمكناسة عفا عنه ورجع الى فاس سالما .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسى من فاس ، فلما قدم عليه قتله ، وبعث ابنه المولى زيدان الى فاس وبعث معه حمدون بن عبد الله الروسى واليا عليها بدلا من أخيه المقتول والله أعلم .

تنازع اولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله

لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف وصل المولى عبد الملك بن السلطان صاحب درعة الى ضريح المولى ادريس الاكبر بزرهون مهزوما لاستيلاء أخيه المولى ابى النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحى ، فبعث السلطان ولده المولى الشريف الى درعة واليا عليها ، فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف الى مراكش ، فحاصرها فى رمضان من السنة المذكورة ، وفى العشرين من شوال اقتحمها عنوة بالسيف فقتل

ونهب ، ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان فى العساكر لقتاله، فقدم مراكش فصادف المولى محمدا قد خرج عنها وعاد الى تارودانت ، ولما احتل المولى زيدان بمراكش عاثت عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمدا العالم الى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما الى ان دخلت سنة خمس عشرة ومائة والف وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرما ثقيلا وجاء الزعيم واليا عليها ، ثم عزل وولى مكانه أبو على الروسى فقتل اناسا وصلبهم ، وفى متم شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد ، هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة والف ففى ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطى كل عتبة عظم سرج ولا يحرر من ذلك أحد كائنا من كان .

وفى الحادى والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على اخيه المولى محمد العالم بعد محاربته له ثلاث سنين هلك فيها امم وقواد ورؤساء واعيان يطول ذكرهم ، ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا فى البستان، وفى رابع ربيع الاول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضا عليه الى وادى بهت فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت ، ولما وصل الى مكناسة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله .

قال أبو عبد الله اكنسوس : لما توفى المولى محمد العالم صلى عليه القاضى أبو عبد الله محمد العربى بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة وأوغر قلب السلطان عليه وقال له : «انه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما نازع الى الصلاة على عدوك الذى ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان الى القاضى بردلة يتهدده ويوبخه فأجابه القاضى : «بان صلاته نظيرة صلاة الحسن البصرى على الحجاج بن يوسف فلما ليم على ذلك قال: استحييت من الله تعالى أن أستعظم ذنب الحجاج فى جنب كرم الله الغفور الرحيم ،

على أننى ما صليت عليه بغير اذن بل خرج الاذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التى لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الامر الى الجانب المولوى ، فلا افتيات بعد ذلك، بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير اذن اجلالا وتعظيما لجانب مولانا نصره الله ، ولما قال صلى الله عليه وسلم لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه فى قضية الحديبية : «امح لفظة رسول الله» قال على بن ابى طالب رضى الله عنه : «والله لا امحوه أبدا» فتعارض وجوب امتثال أمر الرسول بالمحو ووجوب الاجلال لمقامه الارفع فرجح رضى الله عنه وجوب الاجلال، ثم الصحيح ان الحدود كفارات ففى الصحيح عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له» اه باختصار .

قال اكنسوس وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسى وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون المولى محمد العالم لولا لطف الله تعالى ، فان الشيخ أبا عبد الله المسناوى الدلائى كان من اخص الناس بالمولى محمد ، فوشى به الى السلطان وقيل له : انه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو اذا موافق له على ذلك ، فبادر بعض اصحاب السلطان ممن كان يجنح للمسناوى بالاعتذار عنه بانه كان ينهاه عن القيام وأنشد للمسناوى فى ذلك :

مهلا فان لكل شىء غاية والدهر يعكس حيلة المحتال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره والشمس فاهرة السنا فى الحال
فاذا توارت بالحجاب فعند ذا يبدو بدو تعزز وجمال

فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع . قال أكنسوس : «وقولنا عمت اهل القطر السوسى لان ظهوره التام انما كان هنالك ولان جل من ينتسب الى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله» اه قال فى نشر «المثانى» : كان المولى محمد العالم ماهرا فى فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والاصول ، وكان ينفعل للشعر وتأخذه اريحية الادب ، وكتب له أخوه مولاى الشريف فى صدر كتاب

بعث به اليه ما خاطب به سيف الدولة ابن حمدان أخاه ناصر الدولة :

رضيت لك العليا وان كنت أهلها   وقلت لهم بيني وبين أخي فرق

أما كنت ترضى أن أكون مصليا   اذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فاقترح المولى محمد على الشيخ أبي عبد الله المسناوي أن ينوب عنه في الجواب لانه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله :

بلى قد رضيت أن تكون مجليا   ويتلو نداكم في العلا من له السبق

وما لي لا أرضى لك المجد كله   وأنت شقيق النفس ان عرف الحق

ولكن ذوو الضغن انتحوا ذات بيننا   فغادرها افسادهم وبها رفق

وفي هذا التاريخ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الاصبنيول حاصره ثلاثة أيام برا وبحرا في جند يسير فملكه لاشتغال الاصبنيول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه ، ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصا الاصبنيول والفرنسيس ، ورأوا ان النجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مرارا فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده الى الآن .

ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة والف ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت الى مكناسة فدفن ليلا الى جانب أخيه المولى محمد العالم .

وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البديع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه . قال اليفرني في « النزهة » «ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شيء من أنقاض البديع» اه .

ثم دخلت سنة عشرين ومائة والف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الاصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ ، وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الانصات يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر .

٩٤

محنة الفقيه ابى محمد عبد السلام بن حمدون بسوس رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من امر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك ، ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبو محمد عبد الله الروسى فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فمن كتب نجا ومن أبى قبض عليه ، ثم قبض على اولاد جسوس واستلب أموالهم ، واجلس فقيههم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيدا يتطلب الفداء ثم حمل مسجونا الى مكناسة .

ودخلت سنة احدى وعشرين ومائة والف فعفا السلطان عن الفقيه المذكور وسرحه وبعث به الى فاس ليزعج الحراطين الذين بها الى مكناسة ، فقدم وازعجهم فى ربيع الاول من السنة المذكورة ، ثم كان عاقبة الفقيه المذكور أن قتله القائد ابو على الحسن بن عبد الخالق الروسى ، فمن الناس من يقول : ان ذلك كان بأمر السلطان ، ومنهم من يقول بغير أمره اه . وقد ووقفت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوى رحمه الله ، وكان واعية ، يقول فيه : ان امتحان الفقيه أبى محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذى اخترعه عليليش المراكشى للسلطان الجليل المولى اسمعيل رحمه الله حسبما هو مشهور ، فهجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من اجله ، وحقد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله ، وأجرى عليه أنواع العذاب ، وبيعت دوره واصوله وكتبه وجميع ما يملك هو واولاده ونساؤه ، ثم صار يطاف به فى الاسواق وينادى عليه : من يفدى هذا الاسير ؟ والناس ترمى عليه بالدراهم والحلى وغير ذلك من النفائس أياما كثيرة ، فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا باموال ، وبقى على ذلك قريبا من سنة فكان فى ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم ، ولما دنا وقت شهادته رحمه الله

وقد أيس من نفسه ، كتب بخطه رقعة وأذاعها فى الناس يقول فيها ما نصه:
«الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته
وجميع خلقه انى ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد الا
لانى لم أجد له وجها ولا مسلكا ولا رخصة فى الشرع ، وانى ان وافقت
عليه طوعا او كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود فى
النار بسببه ، وأيضا فانى نظرت فى اخبار الائمة المتقدمين حين اكرهوا على
ما لم يظهر لهم وجهه فى الشرع فرأيتهم ما آثروا اموالهم ولا أبدانهم على
دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم ، ومن ظن بى غير
ذلك وافترى على ما لم اقله وما لم افعله فالله الموعد بينى وبينه وحسبنا الله
ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله
ذنبه وستر فى الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع
الثانى سنة احدى وعشرين ومائة والف » اه .

ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو على الروسى بقتله فقتل رحمه الله خنقا
بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله ، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس
الخامس والعشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة ودفن ليلا على يد
القائد أبى على الروسى انتهى ما وجدناه مقيدا .

واعلم أن قضية الفقيه أبى محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة فى
الاسلام ، والاسباب التى أثارتها أولا وأكدتها ثانيا حتى نفذ امر الله فيما
قضاه وقدره فى أزله بعضها ظاهر وبعضها خفى ، الله أعلم بحقيقته ، غير ان
المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة فى الدين والورع التام وناهيك
بشهاداته هذه دليلا على ذلك ، وقضيته قد تعارضت فيها الانقال ، ودخلها
التعصب فلا يوقف منها على تحقيق ، وغفران الله وراء الجميع فانه تعالى
أهل التقوى وأهل المغفرة . قال أبو عبد الله أكنسوس وقد جرى ذكر
قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى
سليمان بن محمد فقال ما قتله مولانا اسمعيل وانما قتله أهل فاس» قال «ولم
يمكنا ان نسأله عن حقيقة ذلك» اه وفى شعبان من السنة المذكورة عزل

السلطان أبا على الروسى عن فاس وولى مكانه حمدون الروسى ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون واعيد أبو على ، وفيها قدم عبد الله الروسى ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعنى بالحرمين الشريفين .

ثورة المولى ابى النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة والف فيها ثار أبو النصر ابن السلطان المولى اسمعيل ببلاد السوس وخب فى الفتنة ووضع .

وفى سنة أربع وعشرين ومائة وألف سرح السلطان كاتبه الخياط ابن منصور من السجن وولاه درعة .

وفى سنة خمس وعشرين بعدها قتل السلطان الخياط المذكور واخاه عبد الرحمن ، وفيها ورد الخبر على السلطان بأن اولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى أبا النصر الثائر بها .

وفى سنة ست وعشرين ومائة وألف قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بمشرع الرملة ، وفى جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين ومائة والف توفيت الحرة عائشة مباركة زوج السلطان ، وهى ام ولده المولى أبى الحسن على الآتى ذكره .

وفى سنة تسع وعشرين ومائة والف سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن اسمعيل الى الحجاز بقصد الحج ، وفى رمضان منها بعث والى وجدة الى الحضرة مائة رأس من رؤوس بنى يزناسن .

وفى سنة ثلاثين ومائة والف ورد كتاب من السلطان الى فاس يتضمن تحرير اهل فاس من الكلف كلها ، ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبة ، فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوى : «انما يكون الكلام أمام السلطان» فقتل واصبح مصلوبا ، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبى على الروسى واصحابه ، وولى على فاس

حمدون الروسى ، ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسى الى عبد الخالق بن يوسف فقتله ، فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود ، وولى على فاس حمو قصارة ، ثم بعد ايام قدم أبو على الروسى واليا على فاس . وفى هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبى مروان بالمشرق ، وفيها عزل السلطان أولاده عن الاعمال كلها ولم يترك الا ولى العهد المولى احمد بتادلا . ثم بعث ولده المولى عبد الملك الى مراكش وولاه قطر السوس ، واستقامت الامور وسكنت الرعية وهدأت البلاد ، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد فى أمن وعافية ، تخرج المرأة والذمى من وجدة الى وادى نول فلا يجدان من يسألهما من أين ولا الى أين ، مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية،والعمال تجبى الاموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصارأهل المغرب كفلاحى مصر يعملون ويدفعون فى كل جمعة أو شهر أو سنة ، ومن نتج فرسا رباه حتى اذا بلغ أن يركب دفعهالى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه ، هذا اذا كان المنتوج ذكرا فاذا كان أنثى ترك له ، ويدفع للعامل مثقالا واحدا ، ولم يبق فى هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر فى القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها ، فلا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان ، وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية ثقف بها الى أن يعرف حاله ، ومن تركه ولم يحتط فى أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره .

وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الامطار كثيرة البركة فى الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الامن والخصب والرخاء المحتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه الا مرة واحدة ، فبلغ القمح فى أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد ، ورأس الضأن ثلاث أواق ، ورأس البقر من المثقال الى المثقالين سائر أيام الرخاء ، والسمن والعسل رطلان بالموزونة ، والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتى فى الحوادث من أن الجدب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ماذكره صاحب البستان كان فى آخر دولة السلطان المذكور حسبما هى

عادة الله تعالى فى مثل ذلك غالبا والله تعالى اعلم .

بناء ضريحى الامامين ادريس الاكبر والاصغر رضى الله عنهما

لما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى ادريس الاكبر رضى الله عنه بزاوية زرهون وشراء الاصول المجاورة له من جهاته الاربع وهدمها وزيادتها فيه ، فهدمت القبة وجميع ما حولها واعيدت على هيئة بديعة ، واستمر البناء والعمل فى المشهد الشريف الى أن تم سنة أربع وثلاثين ومائة والف هكذا فى «البستان» وغيره وقال فى «نشر المثانى» : وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة والف أمر السلطان المظفر المولى اسمعيل بتجديد بناء مقام مولانا ادريس الاصغر بانى فاس حيث ضريحه بها ، وأمر ببناء قبته التى هى عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التى يعز وجودها ، وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التى لا نظير لها بفاس ، وتم تسقيف القبة فى آخر ذى الحجة من العام المذكور ، ثم أمر رحمه الله باقامة الجمعة فيه فهى تقام فيه من يومئذ ، جعل الله ذلك فى ميزان الآمر به والمتولى له آمين .

وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة والف مات القائد عبد الله الروسى بمكناسة ، وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث اليهم حمدون الروسى وأخاه أبا على ، وامرهما بمصادرتهم ، وقبض المال منهم ، فبعثوا علماءهم وأشرافهم للشفاعة فلم يقبل ، وشرعوا فى دفع المال حتى لم يعرف له عدد ، ولم يسلم من الغرامة أحد ، وتغيب الناس فى تلك المدة وخلت المدينة من ذوى اليسار .

وفى هذه السنة ايضا فى المحرم منها خرج عسكر الاصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين ، فضربوا فى محلتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى ، ونهبوا وقتلوا وسلبوا وحازوا

شبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة آفراك ، واستشهد من المسلمين نحو ألف ، ورجعوا عودهم على بدئهم الى سبتة ، ومنها ركبوا البحر الى جزيرتهم ، ولم يبق بسبتة الا سكانها ، ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها فبقى بأيدى المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة والف ففى المحرم منها مات الباشا غازى بن شقراء صاحب مراكش بوجدة ، وفى صفر منها مات باعزيز بن صدوف صاحب تارودانت ، وفيها انتقل المولى عبد الملك بن السلطان الى تارودانت فاستقر بها الى أن كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته ان شاء الله .

وفاة امير المومنين المولى اسماعيل رحمه الله

كانت أيام أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الامن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لاهل الذعارة والفساد محل يأوون اليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه ، فقد كان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين ، وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة ، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت ، ويقال : ان البعض من اولاده كانوا يستبطئون موته ويعبرون عنه بالحى الدائم ، وهذه المدة التى استوفاها المولى اسمعيل فى الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدى صاحب مصر ، فانه أقام فى الخلافة ستين سنة ، لكن لا سواء ، فان المولى اسمعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها ، وتملاها بكمال لذتها ، لانه وليها فى ابان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر ، لا فى مدة النيابة ولا فى مدة الاستقلال ، ولم يكن عليه استبداد لاحد ، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم ،

ومن سلك سننهم من القرابة ، وكلهم كان يشغب فى الاطراف ، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة ، بخلاف المستنصر العبيدى فانه ولى وهو ابن سبع سنين فكان فى صدر دولته تحت الاستبداد وحدث فى أيامه الغلاء العظيم

قال ابن خلكان : وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام ، واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا ، وكان المستنصر فى هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها ، وكانوا اذا مشوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع ، الى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوى حال ملك المولى اسمعيل وملك المستنصر رحمهما الله .

ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة والف مرض أمير المؤمنين المولى اسمعيل مرض موته قال فى «نشر المثانى» : كان ابتداء مرضه فى ثانى يوم من جمادى الاولى من السنة المذكورة ، ولما أحس بالضعف بعث الى ولده المولى احمد صاحب تادلا يستقدمه فقدم عليه واقام ثلاثا ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ، وتولى غسله الفقيه أبو العباس احمد بن أبى القاسم العميرى ، وصلى عليه الفقيه العلامة أبو على الحسن بن رحال المعدانى ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضى الله عنه من حضرة مكناسة .

قال فى « البستان » : كان السلطان المولى اسمعيل قد عهد بالامر الى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولى العهد ، وأنكر أكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لاحد من أولاده ، قال : كما أخبرنا بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مرارا وكان يحكى فى ذلك خبرا ، وهو أن المولى اسمعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدى وقال له : « انى فى آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير على بمن أقلده هذا الامر من ولدى لانك أعرف بأحوالهم منى فقال له : « يامولانا لقد كلفتنى أمرا عظيما وأنا أقول الحق : انه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين ، كان لك ثلاثة» المولى محرز والمولى

المأمون والمولى محمد فقبضهم الله اليه» فقال له السلطان : «جزاك الله خيرا»
وودعه وانصرف ولم يعهد لاحد وانما العبيد كانوا يقدمون من شاءوا ،
ويؤخرون من شاءوا ، وكان المولى سليمان رحمه الله يحكى ذلك عندما
يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم .

بقية اخبار المولى اسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته

قال اليفرنى فى «النزهة» «لم يزل أمير المؤمنين اسمعيل رحمه الله
فى مقارعة أعدائه الى ان دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها،
واستولى على تخوم السودان وانتهى منها الى ما وراء النيل ، وانتشرت دولته
فى عمائرها وبلغ من ذلك مالم يبلغه المنصور السعدى ، وامتدت مملكته
فى جهة الشرق الى بسكرة من بلاد الجريد ونواحى تلمسان والله أعلم
حيث يجعل رسالاته » اه وقال فى « البستان » كان للمولى اسمعيل من الولد
على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب
منه ، قال : والذى عقب من اولاده على ما رأيناه عيانا فى دفتر السلطان
المولى محمد بن عبد الله اذ كان يصلهم فى كل سنة ، وكان يعتنى لتفرقة
الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها لاولاده لصلبه ، واما
الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا فى الدفتر ، واما الحفدة
والاسباط فكان عددهم فى أيام السلطان المولى محمد بن عبد الله ألفا
وخمسمائة وستين ، وقد زادوا اليوم فى دولة السلطان المولى سليمان بن
محمد ، ولم يزل يصلهم الى الآن على ما فى دفتر والده ومن زاد يزاد له ،
قال : وأما ما أدركناه من أولاد المولى اسمعيل لصلبه فى دولة السلطان
المولى محمد فثمانية وعشرون رجلا نعرفهم بالاسم والعين . ومن بناته
لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنة
والكسوة والصلة فى كل سنة ، وأنزل معهن الحوافد اللاتى لا أزواج لهن ،

وكل واحدة من هذه الدور المائة والخمس التى بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه لانه كان رحمه الله اذا رأى احدا من اولاده الذين لم يرد اقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله الى سجلماسة وبنى له بها قصرا أو دارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحراثة أرضه فى الشتاء والصيف ، ويعطى كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه ، فتناسلت أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم ، وكان رحمه الله سديد النظر فى نقل أولاده بأمهاتهم من مكناسة الى تافيلالت مع بنى عمهم من الاشراف ليتدربوا على معيشتها التى تدوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك الساتر لهم بين العامة ، فنجحوا وأفلحوا بخلاف اخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها الى أن توفى والدهم وألفوا عوائدهم ومرنوا على شهواتهم فانهم لم ينم لهم نسل كاخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى اسمعيل .

وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشىء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك ، فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الاكاسرة بالمدائن ، ولا الفراعنة بمصر ، ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية ، ولا اليونان بأنطاكية والاسكندرية ، ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبنى أمية بدمشق ، وبنى العباس ببغداد ، والعبيديين بأفريقيا ومصر ، والمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين بالمغرب ، ومابديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة بأحد بساتينه ، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين ، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك ، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء اليه وأمر باحصاء ما بقى من شجره فوجدوه ستين ألفا فكان رحمه الله يبعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذا لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله .

قال صاحب « البستان » : « ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ، ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عددا من قصوره ، لان هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبنى قصرا ويتأنق فى تشييده وتنجيده ، وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جعل مبانى العالم كلها فى بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل : « كل الصيد فى جوف الفرا » هذا كلام صاحب البستان رحمه الله . ثم قال ،

وكان فى سجونه من الاسارى خمسة وعشرون الفا ونيفا ، كانوا يعملون فى بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والاطباء ، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير .

وكان فى سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفا تظل فى العمل مع أسرى الكفار ويبيتون فى السجون والاهراء تحت الارض ، ومن مات منهم دفن فى البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض . ومما مدح به المولى اسمعيل رحمه الله قول الفقيه الاديب أبى عبد الله محمد بن عبد الله الجزولى من قصيدة له

مولاى اسمعيل ياشمس الورى   يامن جميع الكائنات فدى له
ما أنت الا سيف حق منتضى   الله من دون البرية سله
من لا يرى لك طاعة فالله قد   أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولنذكر ما سلف فى هذه المدة من الاحداث

ففى سنة احدى وسبعين والف توفى الشيخ أبو عبد الله سيدى محمد المفضل ابن الشيخ أبى العباس أحمد المرسى ابن الشيخ الاكبر أبى عبد الله سيدى محمد الشرقى ، كان رحمه الله صالحا خيرا من فضلاء عصره حافظا للقرآن بالسبع ، قد اشتهر قدره فى الناس كثيرا ، وكان يفر من ذلك واذا سأله أحد أن يتخذه شيخا يقول : « نحن اخوة فى الله والدرهم الكامل ينفق منه » أخذ القراءات عن الفقيه الاستاذ أبى زيد عبد الرحمن بن القاضى وكتب له الاجازة بذلك ، وكان له نصيب من العلوم سوى القرآت ، وانتسب فى

الطريق للولى الصالح أبى عبد الله محمد الحفيان الرتبى السجلماسى من أصحاب الشيخ ابى عبيد الشرقى ، وتخرج عليه نجباء من طلبة القرات و كان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبى عبيد الشرقى ، ثـم انتقل الى ناحية سلا فسكن بأحوازها وبقى هنالك الى ان مات فى التاريخ المذكور فحمل الى المدينة المذكورة ودفن بطالعتها قرب المسجد الاعظم ، وقبره اليوم مزارة عظيمة ، وكان له كلام كثير على طريق العروبى الملحون خاطب بـه الرئيس محمد الحاج الدلائى حين مشت الوشاة بينهما فوقعت من أجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله .

وفى سنة اثنتين وسبعين وألف توفى الشيخ الربانى أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين المصلوحى دفين تامصلوحت من أعمال مراكش ، وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبى محمد عبد الله بن حسين المذكور ، وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنـه تلمذ له طائفة من الفقراء بمراكش ، واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمره بالقبض عليه فخرج الى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها الى أن توفى ، وكان يقول : « لا ياتينا الا من أمنه الله لان مقامنا هذا مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا » وكان يقول : « دارنا دار سر لا دار علم » وكان اذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فاذا ليم على ذلك قال : «ما فعلنا هذا الا امتعاضا لقتل الحسين رضى الله عنه وأسفا على ما وقع به » وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم ، وكانت له مشاركة فى العلوم أخذ عن الشيخ المنجور وأبى محمد بن طاهر الحسنى وأبى مهدى السكتانى وغيرهم . وتوفى فى التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال : أناف على المائة وبنيت عليه قبة حافلة وقبره اليوم مزارة عظيمة .

وفى أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التى بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لاسيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمى وخلت الدور وعطلت المساجد ثم تدارك الله عباده بلطفه

وفى سنة خمس وسبعين وألف فى عاشر رمضان منها وقعت زنزلة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب . قال الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الهادى الشريف السجلماسى : « وقعت الزلزلة فى التاريخ المذكور ونحن بمجلس البخارى عند شيخ الجماعة الامام ابى محمد عبد القادر الفاسى رحمه الله ، فقام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظنا منا أن السقف سيسقط علينا لان خشبه صوتت ، وخرج سرعان الناس يلتمسون الخبر ، فأخبر بها كل من كان راقدا أو جالسا حتى النائم انتبه ، ومن كان ماشيا لم يشعر بها ، فسئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامة : من أن الثور الذى عليه الدنيا أو الحوت يتحرك ، فأجاب : بأن ذلك باطل لا أصل له ، وتلا قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال أيضا « ذكر بعض الحكماء أن ذلك يقع من اختناق الريح فى جوف الارض »

وفى يوم الاثنين الثامن والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفى البهلول المتبرك به سيدى قاسم بن أحمد بوعسرية المعروف بابن اللوشة دفين ضفة وادى ارضم من بلاد آزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا فى « نشر المثانى » ولعله تصحيف ، والصواب ما ياتى من أنه توفى سنة سبع وتسعين بمثناة بمهملتين والله أعلم

وفى سنة خمس وثمانين وألف توفى شيخ السنة وامام الطريقة أبو عبد الله سيدى محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر ابن عمرو الدرعى ثم الاغلانى الشهير بابن ناصر ، نسبة الى جده المذكور فى النسب قال تلميذه الشيخ أبو على اليوسى فى فهرسته : كان الشيخ رضى الله عنه مشاركا فى فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف ، عابدا ناسكا ، ورعا زاهدا ، عارفا قائما بالطريقة ، شاربا من عين الحقيقة ، وكان رضى الله عنه مع اكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريسا وتأليفا وتقييدا وضبطا ، ذنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقا وغربا . فانتفع به الخلق ، قائما بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله ، والترقية بهمته ، عن همة غالية وحالة

مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ ، فكان اذا تكلم انتقش كلامه فى القلب ، واذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب . » ثم أطال الشيخ اليوسى فى ترجمته ، وذكر له كرامات عديدة ، وقد أفصح عن حاله ووصفه فى قصيدته الدالية المشهورة الموضوعة فى مدحه ، وأتى فيها من الاجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربحه . ولهذا الشيخ شيوخ وأتباع معروفون فى كتب الائمة الذين تعرضوا لبيان ذلك وطريقه المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة أيضا ، وكان والده سيدى محمد ابن أحمد من أكابر الاولياء كثير الاوراد لا يفتر لسانه عن الاذكار حسبما نقله غير واحد والله تعالى أعلم .

قال مؤلفه عفى الله عنه : وهذا الشيخ هو جدنا واليه ننتسب فأنا أحمد ابن خالد بن حماد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم بن محمد بن ناصر الشيخ المذكور نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله ، وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور الى سيدنا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولست الآن من ذلك على تحقيق ، ولعلنا نحققه فى موضع آخر ان شاء الله

وفى حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء . قال الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب القادرى فى « الازهار الندية » : أن القمح قد بلغ فى هذه المدة الى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف . وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول امام خطب فيها القاضى أبو عبد الله محمد العربى بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف ، ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد الله محمد البوعنانى ، ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضى بردلة ، ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله محمد المرابط الدلائى وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله ، ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد الله البوعنانى ، ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولى الزاهد ابو عبد الله محمد العربى الفشتالى ، وفى عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله

تعالى ، ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة ، وخرج يومئذ في جملة الناس شيخ الاسلام وبركة الامة الامام أبو محمد سيدى عبد القادر الفاسي راكبا على حمار جاعلا الاشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم الى الله تعالى ، فنزل عند الرجوع مطر قليل ، ومن الغد نزل المطر الغزير الكافي النافع فانحطت الاسعار ونزل القمح الى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات ، وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة احدى وتسعين والف .

وفي سنة تسع وثمانين وألف في ليلة الجمعة الثاني عشر من شعبان منها توفي الشيخ المولى أبو محمد عبد الله الشريف الوزاني الشهير . وكان عمره يوم توفي خمسا وثمانين سنة ، وتوفي ولده الشيخ المولى أبو عبد الله محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف ، وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وتوفي ابنه الشيخ القطب المولى التهامي بن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة والف ، وعمره ست وستون سنة، وتوفي الشيخ مولاى الطيب بن محمد يوم الاحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثاني سنة احدى وثمانين ومائة وألف ، وعمره نيف وثمانون سنة ، وتوفي ابنه الشيخ مولاى احمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف ، وتوفي ابنه الشيخ مولاى على بن احمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين والف وتوفي ابنه الشيخ سيدى الحاج العربي بن على يوم الاربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين والف . وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوزانيين مجموعة هنا لما في ذلك من المناسبة والتقريب ، ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى ادريس بن ادريس رضى الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا في زمرتهم .

وفي سنة تسعين والف وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردون الواردين من الآفاق على مكناسة الزيتون كما مر .

وفى سنة احدى وتسعين والف بعد ظهر الاربعاء الثامن من رمضان منها توفى شيخ الجماعة بفاس والمغرب الامام الكبير العالم الشهير الشيخ أبو محمد عبد القادر بن على بن يوسف الفاسى ، ولا يحتاج مثله رضى الله عنه الى تعريف فان مآثره اشهر من «قفانبك» ، قالوا : ومع غزارة علمه وانتفاع أهل المغارب الثلاثة به لم ينصد لجمع كتاب مخصوص ولا شرح متن من المتون ، وانما كانت تصدر عنه اجوبة يسئل عنها فيجيب ويجيد وجمعها بعض أصحابه فجاءت فى مجلد .

وفى سنة خمس وتسعين وألف توفى الولى الصالح أبو محمد عبد الله العونى دفين سلا من اصحاب الشيخ سيدى محمد المفضل

وفى سنة ست وتسعين والف توفى الشيخ العلامة المشارك أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى صاحب نظم عمل فاس و «الاقنوم فى مبادىء العلوم» وغيرهما من التآليف الحسان .

وفى سنة سبع وتسعين والف توفى الشيخ العارف بالله تعالى ذو الاحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القاسم ابن أحمد الوشة السفيانى المعروف بأبى عسرية ،لانه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه . كان من المولهين فى ذات الله تعالى ومن أهل الاحوال والشطحات ، يقال : انه حمل وهو صبى الى الشيخ أبى عبيد الشرقى فبرك عليه ودعا بقرب من ماء فصبت عليه وقال : لولا انا بردنا هذا الصبى لاحرقته الانوار ، ولذا كان يهتف بأبى عبيد كثيرا وينادى باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له .

وفى سنة احدى ومائة والف أمر السلطان الناس بأن لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسها الا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش .

وفى سنة اثنتين ومائة والف توفى الشيخ الامام علم الاعلام آخر علماء المغرب على الاطلاق ، الذى وقع على علمه وصلاحه الاتفاق ، أبو على الحسن بن مسعود اليوسى نسبة الى آيت يوسى قبيلة من برابر ملوية وأصله اليوسى ، كان رضى الله عنه غزالى وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا ، قال فى فهرسته : كانت قراءتى كلها أو جلها فتحا ربانيا ، ورزقت ولله الحمد

١١٠٢ هـ

قريحة وقادة فكنت بادنى سماع ينفعنى الله ، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله على فى جميعه فتحا ظاهرا ، وأبلغ فيهما لم يبلغه من سمعته منه ، ورب كتاب لم أسمعه أصلا غير أن سماع البعض فى كل فن صار مبدأ للفتح وتتميما لحكمة الله فى سنة الاخذ عن المشايخ ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظانا منك أن الربح أبدا يكون على قدر رأس المال ، كلا ، فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وما ذلك على الله بعزيز .

وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيما بها عاكفا على بث العلم ونشره الى ان استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله الى فاس ، فأقام بها مدة ، ثم خرج الى البادية فاستوطن بقبيلته الى أن مات رحمه الله ،

وكان رضى الله عنه متضلعا من العلوم العقلية والنقلية حتى قال فى تأليفه المسمى «بالقول الفصل فى الفرق بين الخاصة والفصل» : «أنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازانى والسيد الجرجانى واضرابهما» وسأله يوما سائل بمجلس درسه فقال له : «اسمع ما لا تسمعه من انسان ، ولا تجده محررا فى ديوان ، ولا تراه مسطرا ببنان ، وانما هو من مواهب الرحمن» ولما دخل مراكش تصدر بها لاقراء علم التفسير بجامع الاشراف فمكث فى تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر ، وهو يبدى كل يوم اسلوبا غريبا ، وتحقيقا عجيبا ، فعجب الناس من غزارة مادته مع انه ربما بات فى ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فاذا أصبح وجلس على الكرسى أطلق لسانه بما يبهر العقول . وكان الشعر عنده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء ، وقصيدته الدالية فى شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه فى المعارف والفنون ، ولله در الامام أبى سالم العياشى اذ قال :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين ، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين ، حتى كان بعض الشيوخ يقول هو المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته وعابد زمانه رحمه الله

ورضى عنه .

وفى سنة ثلاث ومائة والف فى ليلة الاربعاء السابع من شهر ربيع الاول منها توفى الولى الصالح أبو العباس سيدى احمد حجى . قال الشيخ أبو العباس سيدى احمد بن عبد القادر التستاوتى فى حقه ما نصه : رجل خيرصالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين والف فما رأيت منه الا خيرا ، اه . ولما توفى خلفه ولده ووارث سره وضجيعه فى قبره الولى الصالح سيدى أبو محمد عبد الله حجى المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا .

وفى سنة تسع او عشر ومائة والف توفى الفقيه العدل النوازلى الفارض الحاسب أبو الحسن على بن محمد المعروف بابى شعرة السلاوى ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه .

وفى سنة خمس عشرة ومائة والف توفى الامام الفقيه الاديب الناظم الناثر أبو القاسم ابن الحسين الغريسى ثم السلاوى المعروف بابى زائدة وذلك فى جمادى الاولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه .

وفى سنة ثمان عشرة ومائة وألف فى ضحى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفا كليا وسمى ذلك العام عام الظليماء

وفى سنة تسع عشرة ومائة وألف توفى الشيخ الامام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة فى كل فن، الحجة المتبرك به حيا وميتا أبو سرحان سيدى مسعود جموع الفاسى ثم السلاوى وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الاولى من السنة ودفن بزاوية الشيخ سيدى أحمد حجى داخل مدينة سلا

وفى سنة عشرين ومائة وألف توفى الولى الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الاندلسى نزيل المخفية من فاس حرسها الله.

وفى هذه السنة أيضا كان احداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لامر الناس بالانصاف وقوله : أنصتوا رحمكم الله ثلاثا عند خروج الامام يوم الجمعة

من المقصورة وجلوسه على المنبر

وفى سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف وذلك وقت عصر الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر منها توفى الولى الصالح سيدى أبومحمد عبد الله بن سيدى أحمد حجى المعروف بالجزار ودفن بأزاء قبر أبيه كما مر .

وفى يوم الاربعاء العشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة توفى الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الامين الحاج محمد الصبيحى السلاوى ورثاه الشيخ أبو العباس سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى بقوله :

جزعنا وان كنا على العلم أنه   اذا ما أراد الله أمرا تعجلا
لفقد الامام المجتبى العالم الرضى   الصبيح ومن فى وقته قد تنبلا
والا فمختار الاله اختيارنا   ونرجو له خيرا عميما مكملا

ورثاه أيضا صديقه الملاطف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافى السلاوى رحم الله الجميع

وفى سنة سبع وعشرين ومائة وألف ليلة الاربعاء فاتح رجب منها توفى الولى الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوى من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبى عبد الله محمد بن مبارك الزعرى المتقدم الذكر ، ومآثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر ، وزواياه عميمة النفع والبركة بالمغرب ، وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدى عبد الله بن حامد رضى الله عنهم ونفعنا بهم .

وفى سنة تسع وعشرين ومائة والف فى الثامن عشر ربيع الاول منها توفى الشيخ القدوة الامام السنى أبو العباس سيدى أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضى الله عنه أشهر من أن ينبه عليه ، ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو على الحسن بن محمد المعدانى فى كتابه الروض اليانع الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح » قال : حدث بعض العلماء الاجلة : أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعى المدينة المشرفة فى حجته الاخيرة جلس

تجاه الحجرة النبوية والناس يزدحمون عليه لاخذ العهد وتلقين الاوراد وهو منبسط لذلك فقلت في نفسي ان هذا الرجل مغرور راض عن نفسه ، كيف يتصدى في هذا المكان الذي تخضع فيه الملوك وجميع الانس والجن والملائكة واذا طلعت الشمس اختفى السراج » قال : فكاشفني بما في نفسي والتفت الى وقال : « والله ما جلست لما ترون حتى أمرني النبي صلى الله عليه وسلم . وما أذعنت له حتى هددت بالسلب . قال : « فسقطت على يديه أقبلها وقلت له : « ياسيدي أنا تائب الى الله تعالى فدعا لي وانصرفت » ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال : « حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدي محمد بن ابراهيم المجاصي قال : كان السلطان المولى اسمعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدي احمد بن ناصر ، وكان به حنق عظيم عليه ، وعزم اذا وصل اليه أن يفعل به مكروها لا تدري حقيقته غير ان الامر شديد ، فجاء الى الشيخ جماعة من العلماء الاعلام وأصحابه الملازمين له ، وقد تخوفوا عليه وعلى انفسهم غاية ، فكلموا الشيخ في ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع اوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة ، ثم راجعوه في ذلك حتى هابوه وسكتوا عنه ، وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى الى قصبة آكراي قرب مكناسة الزيتون اذا برجل مجاطي يقال له : الحاج عمرو لقيه هنالك ، فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ : « ما الخبر ياولدي ؟ » فقال الرجل : « ما الخبر ياسيدي : والله لوددت أن سيدي لم يصل الى هنا ولم يخرج من داره » يعني أن الامر عظيم . فقال له الشيخ رضي الله عنه بلسان العناية الربانية : « ولا ما يشوش » اذا كان في رقبتك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعا ومد ذراعه » ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة ، وتيقنوا الامن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الامر كما قال ، فان السلطان جاء اليه بنفسه وهو في روضة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر ، وتلقاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم . وصافحه بيده ، وجلس معه في داخل القبة ساعة ، ولما خرج السلطان رحمه

الله من عنده جعل ينادى بلسانه فى أصحابه ويقول : « زوروا سيدى أحمد ابن ناصر يا الناس ، زوروا سيدى أحمد بن ناصر يا الناس » ويكررها من صميم قلبه . قال سيدى محمد بن ابراهيم : « فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضى الله عنه جئت اليه وقلت له : ياسيدى انا نخاف أن ينزلنا السلطان بضريح الشيخ سيدى عبد الرحمن المجذوب ويطول بنا المقام » فقال لى : « لا نبقى الا هنا وبعد غد ننصرف الى بلادنا ان شاء الله » فكان الامر كما قال بعد أن جاء الامر من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال : « لا أنزل الا هنا » فبقى فى موضعه ثم بعث اليه السلطان يأمره بالتوجه الى بلاده معظما مكرما » اه

وفى سنة تسع وعشرين ومائة وألف فى ليلة عيد الفطر منها توفى الفقيه العالم القاضى أبو العباس أحمد بن العلامة أبى الحسن على المراكشى وصلى عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالعلو من رباط الفتح .

وفى سنة احدى وثلاثين ومائة وألف فى ليلة الاحد ثامن عشر المحرم منها توفى الشيخ الصالح أبو على الحسن بن عبد الله العايدى السجيرى ودفن بزاوية من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته فى رجب من السنة بعدها .

وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفى الفقيه العلامة خاتمة المحققين وآخر قضاة العدل بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد العربى بن أحمد بردلة الفاسى ، وفى التاريخ المذكور توفى الشيخ العلامة المتبرك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة فى الحساب وغيره بحضرة مراكش رحمه الله .

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف كانت جائحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأعمالهما وخلفه قمله المسمى فى لسان المغاربة بآمرد فكان كالسيل العام لم يترك ورقة خضراء الا أكلها وكان ذلك فى شوال من السنة المذكورة .

وفى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف يوم الاربعاء ثانى عشر صفر منها

توفى الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد المعطى بن سيدى عبد الخالق بن سيدى عبد القادر ابن الشيخ الاكبر سيدى محمد الشرقى ، ومناقبه قد تكفل بها كتاب « الروض الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح » لابى على المعدانى .
وفى هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذى القعدة منها توفى الفقيه العلامة المحقق سيدى أبو بكر بن على الفرجى المراكشى ثم السلاوى واحتفل الناس لجنازته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزاوية سيدى مغيث من طالعة سلا حرسها الله .

الخبر عن الدولة الاولى لامير المومنين المولى ابى العباس احمد بن اسماعيل المعروف بالذهبى رحمه الله

لما توفى أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله فى التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر البخارى وقواد الودايا وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى لبسط يده بالعطاء ، قال أكنسوس : بايعوه باشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا بيعته الى الآفاق . ولما اتصل بأهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدأوا به أن قتلوا قائدهم أبا على الروسى ، ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم الى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوء بما ارتكبوه من قتل قائدهم ، بل أعطى العلماء والاشراف جائزة البيعة وولى عليهم القائد المحجوب العلج وردهم مكرمين .
ثم قدم عليه قواد القبائل والامصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادى مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر مرتبته ، وردهم الى بلادهم ، وتفرغ لشأنه فافتتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته ، فقتل

على بن يشى القبلى أمير البربر ، وثنى بأحمد بن على أمير الاعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط ، والصحيح أن أحمد بن على المذكور كان عند بيعة المولى أحمد فى السجن فدس اليه على بن يشى من ذبحه فيه فسلط الله عليه السلطان فقتله وكان جزاؤه من جنس عمله ، وقتل السلطان أيضا الباشا ابن الاشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الاموال ، وكان لنظره ألفان ومائتان من المفاتى ، كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه .

واعلم أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبدا عليه فى كثير من الاحوال يشير العبيدعليه فيفعل وماقتل من قتل من رؤساءالدولة الاباشارتهم، وقتل جماعة من القوادوالكتاب سوى من تقدم، وطاف على بيوت الاموال ومخازن السلاح والكسى فأمر باخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والاشراف والطلبة بالنوال وخص أفرادا من العسكر بألوف فاغتبط الناس به وحمدوه رحمه الله .

اغارة القائد ابى العباس احمد بن على الريفى على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه ابى حفص عمر الوقاش

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن على الريفى يلى رئاسة المجاهدين هو وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وكانت له ولابيه اليد البيضاء فى فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبما سلف بعضه فكانت اه بذلك وجاهة كبيرة فى الدولة خصوصا ببلاد الهبط ، وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الاديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها ، كان أولا كاتبا مع السلطان المولى اسمعيل رحمه الله . وكانت له المنزلة العالية عنده ، ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه ولاه على

تطاوين وأعمالها ، فحدثت بينه وبين القائد أبى العباس الريفى منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة ، فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه ، واستمر الحال على ذلك الى أن توفى السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وأفضى الامر الى ابنه المولى أحمد فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة فى النواحى ، فانتهز أبو العباس الريفى الفرصة فى أهل تطاوين وزحف اليها فى جيش كثيف ، ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم ، فبرز اليه الفقيه أبو حفص الوقاش فى أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه ، وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من اخوانه عددا كثيرا ، ونجا القائد أبو العباس بجريعة الذقن .

ولما اتفق للفقيه أبى حفص هذا الفتح الذى لم يكن له فى حساب استخفه النشاط وغلبت عليه حلاوة الظفر حتى طمع فى الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغى له ولكل عاقل كتمانه ، فقال قصيدته المشهورة ينعى فيها على أهل الريف فعلتهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم ، ويخبر عن نفسه بما يؤول اليه أمره ، فازرى بادبه على كبر سنه ، مع أنه كان من أهل الادب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار اليها هى قوله :

بلغت من العلياء ماكنت أرتجى * وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحا ومصرحا * هلم أبا حفص فأنت لها الصدر
نهضت مجيبا للندا راقصا به * وما راعنى اذذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمد الله للملك طالبا * وقلت وللمولى المحامد والشكر
أنا عمر المعروف ان كنت جاهلى * فسل تجد التقديم عندى ولا فخر
أنا عمر الموصوف بالبأس والندى * أنا عمر المذكور فى ورد الجفر
ظهرت لاحيى الدين بعد اندراسه * فطوبى لمن أمسى يساق له الامر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا * فعندى انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور فى كل غارة * أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت بلادى وانتدبت لغيرها * وعما قليل يعظم الجاه والقدر
وجئت بعدل للامامين تابعا * أنا الثالث المذكور بعدهما وتر

يعنى أنه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال :

فمرطوط والرحمون والكوط عصبتى * وراغون كنزى والصغير به القهر
أولئك أنصارى وارباب دولتى * وأهلى واصهارى هم الانجم الزهر
وقد دام بالديمان مجدى وسؤددى * وفخرى فى الاقطار باد كما الفجر
هلالى بدا لما هلالى أجابنى * وغيلان اذ لبى به عظم الوفر
ودولة أهل الريف حتما تمزقت * فلم يبق بالتحقيق عندى لها جبر
أذقناهم لما أتوا شر بأسنا * فابوا سراعا والصوارم والسمر
تطير الاكف والسواعد منهم * هنيئا فحق للانام بنا البشر
بخفى حنين آب عنا كبيرهم * وما فاته منا نكال ولا خسر
فمن ذا يضاهينى ومالى وافر * وذكرى مغمور به البر والبحر

الى غير هذا مما لا غرض لنا فى جلبه وقد اجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بجة الريفى ثم العرائشى بقصيدة يقول فيها :

فى صفحة الدهر قد خطت لنا عبر * منها ادعاء الحمار أنه بشر
من مر عنه الصبا وما رأى عجبا * خبره بعجاب دهره الكبر

وهى طويلة الا ان قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها .

ولما اتصل خبر هذه الوقعة بامير المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أعضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على لذاته وترك الناس وشأنهم ، وثار ببلاد الغرب والقصر واعماله فساد كبير بين القبائل واصحاب المخزن ، وهلك فى ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرة لاسيما مع ما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها، وكان ذلك منتهى مراد العبيد ، فقد كان على بن يشى أمير الامراء ورئيس البربر وغيرهم ، وكان أحمد بن على أمير جبال مرموشة وبنى وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة و الجبال فكان رديف على بن يشى ومباريه فى نصح الدولة وجباية الاموال ، وكان ابن الاشقر امير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من اهل الغرب وبنى حسن وغيرهم رديفا للاولين ، وكان القائد مرجان صاحب بيوت الاموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفا بقدر ما يدفعه العمال كل سنة ،

فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقل وطأتهم ، واستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح، خصوصا البربر فانهم كانوا فى اقماع النحاس فخرجوا منها بمهلك على بن يشى ، وأخذوا فى اشتراء الخيل واقتناء السلاح . « وعادت هيف الى أديانها» وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكانما كانوا على ميعاد ، وامتدت أيدى النهب فى الطرقات ، وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم هذا حال مكناسة وأعمالها ، فأما فاس فقد كفى الوادايا أمرها ونابوا عن البربر فى العيث باطرافها وعظم الخطب واشتد الامر

ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف ففى المحرم منها اغار الوادايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعوهم السجن بفاس الجديد ، فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم الى السلطان بمكناسة يشكون اليه ما نالهم من جور الوادايا فلما وصلوا اليها وثب عليهم محمد بن على بن يشى قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضا فلما اتصل باهل فاس ما جرى على اخوانهم بمكناسة أخذهم ما قدم وما حدث فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا لحرب الوادايا،فكتب الوادايا الى السلطان يعلمونه بأن أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان اليهم العساكر بكل صارم وذابل ، وتفاقم الامر واختلط الحابل بالنابل ، وركبت المدافع والمهاريس والمجانيق لحصار فاس ، واستمر القتال الى أن بعث السلطان أخاه المولى المستضىء فى جماعة من أشراف مكناسة ومعهم أشراف فاس الذين سجنهم محمد بن على بن يشى لتلافى الامر وعقد الصلح بين الوادايا وأهل فاس ، فانعقد الصلح ونهض عسكر السلطان الى مكناسة ، فما ساروا يوما او يومين حتى انتقض ذلك الصلح وغدا الوادايا على حصار فاس ورميها بالكور والبنب ، واستمر الحال على ذلك الى أن قدم من جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجرارى ساعيا فى الصلح ، فاجتمع أهل فاس وفاوضهم فى ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الاعيان والعلماء والاشراف يفدون على السلطان ليتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبى

عمران توثقا باخوانهم ، ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا الى فاس مخفقين ، واستمر الامر على حاله الى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتوليته أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم الى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد الى مكناسة شاكرين ، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الاسباب ، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير فى تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنة غير مطلع باعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به ، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا الى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا اليه كتابا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعا نحو مكناسة ، ولما انتهى الى وادى بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعا ، وسجنوه بداره التى كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة ، وكان ذلك فى شعبان سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن دولة أمير المومنين المولى ابى مروان عبد الملك ابن اسماعيل رحمه الله

لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبة كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبى مروان عبد الملك بن اسمعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحضرة فى زى الملك وأهبة السلطان ، ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه ، وكتب بيعته الى الآفاق ، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه ،

ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر الى ان فرغ من شانهم ، وتفقد اخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به الى فاس كى يسجن بها ثم بدا له فامر بتوجيهه الى سجلماسة .

قال فى « الازهار الندية » لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع الى تافيلالت كتب الى عامله بها أن يسمل عينيه بفور بلوغه فنما ذلك الى المولى أحمد ففر الى زاوية الشيخ ابى عثمان سيدى سعيد آحنصال ، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف بن الشيخ سعيد المذكور ، وكان يتكلم فى الحدثان فقال للمولى أحمد : «انك سترجع الى الملك » فكان كما قال ، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كابيه ، وأن يسير فيهم بسيرته ويسد مسده ، فخاب الظن وأخفق المسعى

وابن اللبون اذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم ، فكان ذلك من أكبر الاسباب فى اختلاف أمره وتفسخ دولته ، فطلب العسكر البخارى منه جائزة البيعة على العادة فبعث اليهم بأربعة آلاف مثقال ، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله مائة ألف مثقال ، ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم فى الراتب خمسين ألفا ، فلما وصلت اليهم جائزة المولى أبى مروان سقط فى أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيئا فى بيعته ، وتناجوا بعزله واضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه ، فنما اليه ذلك عنهم فاخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كى ينفعوه يوما ما ، ظنا منه أنهم يقاومون العبيد ، ثم كتب الى البربر أيضا يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر وقال لهم فى جملة من ذلك : « انه لا يستقيم لنا أمر الا بعد الايقاع بهؤلاء البربر » وشغلهم بالاستعداد لغزوهم ، وكتب الى أهل فاس يأمرهم أن يبعثوا رماتهم الى حضرته لغزو البربر وأخذ فى التضريب بين العسكر والبربر ، واطلع العبيد على خبثه فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش ، وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى

أحمد لملكه لسخائه وبسط يده ، وكذبوا ، فان المولى أبا مروان رحمه الله كان أنسب حالا بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه ، وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على أعياصها الا أنه لم يحكم التدبير فى ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم .

ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث اليهم الشيخ البركة مولاى الطيب بن محمد الوزانى واعظا ومذكرا فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير ان أقلعوا ، ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل السلطان ، وخوفهم فى ذلك من سخط الله فما زادهم الا نفورا ، ثم بعثوا بجريدة من الخيل الى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد ، وفى أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة فاكتسحوا سرحها ، ثم اقتحموا المدينة فنهبوها واستباحوا حرماتها ، وقتلوا من ظفروا به من أعيانها ، ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبى مروان فلم يجدوه لانه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة ركب فى جماعة من اصحابه وفر الى فاس ، فدخل حرم المولى ادريس رضى الله عنه واستجار به ، وبعث الى أهل فاس فاستجار بهم فوعدوه الدفاع عنه والقيام بامره .

ولما علم العبيد بموضع المولى أبى مروان من فاس وما وعده به أهلها حبسوا رماتهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد غزو البربر كما تقدمت الاشارة اليه ، وثقفوهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة ويرى فيهم وفى أخيه رأيه ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة أربعين ومائة وألف .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المومين المولى ابى العباس أحمد الذهبى رحمه الله

لما راسل العبيد المولى احمد بن اسمعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك اليه بادر بالقدوم الى مكناسة فدخلها فى التاريخ المتقدم ، وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب ، وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك الى الآفاق ، ثم دخل دار الملك وفرق الاموال والكسى فى العسكر والعلماء والاشراف وبالغ فى ذلك تفصيا مما نقمه العبيد على اخيه ، وكان فعل أخيه أقرب الى الصواب لو هلك الوسط ، وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذو الحزم ، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

حصار أمير المومين المولى احمد لفاس والسبب في ذلك

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والامصار فأكرم وفادتهم ، وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لانه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان اخيه منهم وبمكان رماتهم المثقفين بمكناسة أمر بسجنهم والتضيق عليهم فأوجسوا منه شرا وحذروه ، ولانهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة اولا فى قتل أبى على الروسى ونهب داره وماله ومال المخزن الذى كان تحت يده ، فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم اول ما بويع ، ثم لم يلتفت اليهم لشغله بنفسه ، فلما عادت الدولة اليه ارتابوا به وحادوا عن طاعته وتقدموا الى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا اليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا

بحربه ، فجهروا بالخلاف وأغلقوا الابواب ووطنوا انفسهم على الحصار ، ثم بعث اليهم السلطان القائد اليدينى قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول فى الطاعة ويسرح لهم اخوانهم المسجونين ، وحمله كتابا اليهم يتضمن ذلك وغيره ، فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جروه برجله وصلبوه على التوتة التى بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عديل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن ادريس الادريسى فى كتيبة من الخيل والرماة الى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيئا كثيرا ، فدخل به فاسا وبيع بأبخس ثمن وتوزعته الايدى ، فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل ، وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ، ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة احدى وأربعين ومائة وألف فى عسكر العبيد وودايا مكناسة ،فزحف الى فاس ونزل عليها ثانى يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار ، وانشلى العسكر على بساتينها وبحائرها فانتسفوا ثمارها واجتاحوا غللها ، وأمر الطبجية بموالاة الكور والبنب والحجارة عليها ليلا ونهارا ففعلوا ، ودام ذلك الى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها ، بعضهم فى القتال وبعضهم بالهدم والحجارة ، واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال ، وقلت الاقوات وارتفعت الاسعار ، فاذعنوا للطاعة وصالحوا المولى احمد على اسلام اخيه المولى عبد الملك اليه وتمكينه منه على الامان ، فبعث السلطان المولى احمد الى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب الى سجلماسة والمقام بالحرم الادريسى . فاختار المقام بالحرم .

ثم ان السلطان تقدم الى أهل فاس فى أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئا ولا يشترى منه ، ومن فعل شيئا من ذلك فانه يعاقب ، فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث ولده الى العبيد يطلب منهم ان يؤمنوه ويخرج معهم

الى حيث شاءوا ، فقدم عليه الباشا سالم الدكالى فى خمسين من القواد وعاهدوه بالحرم الادريسى أن لا يصيبه مكروه ، فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه ، فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل الى مكناسة مقبوضا عليه ، فوصل الى مكناسة وسجن بدار الباشا مساهل ، ثم رحل السلطان المولى احمد عن فاس قافلا الى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته ، ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليله الثلاثاء اول يوم من شعبان ، ثم توفى السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة احدى واربعين ومائة والف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله .

واعلم ان ما ذكرناه من هذه الاخبار هو الذى عند صاحب البستان وقلده أبو عبد الله أكنسوس حذو النعل بالنعل ، ورايت بخط جدنا من قبل الام وهو الفقيه الاستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الادريسى اليحيوى الجبارى عرف بابن زروق ، وكان حيا فى هذه المدة ما نصه :

«بويع المولى احمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى يوم وفاة والده رحمه الله بعد أن ثار بالمغرب والقصر وحوزه فساد كبير بين القبائل واصحاب المخزن ، وهلك فى ذلك بشر كثير ، وبعد مكثه فى الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع ، وبويع اخوه المولى عبد الملك فى الآخر من رجب سنة احدى واربعين ومائة والف ، وهو بالسوس الاقصى بمدينة تارودانت » ثم ورد على دار المملكة بالحضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من السنة المذكورة ، ثم ثار عليه أخوه المولى احمد المخلوع فى عاشر المحرم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائة والف ، واقتحم عليه دار الملك من مكناسة عنوة ، ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة ، وهلك بشر كثير فى الحرب ، ومنهم من قتل صبرا ، وفر المولى عبد الملك ناجيا بنفسه الى فاس ، ثم حاصره بها المولى أحمد نحوا من اربعة اشهر حتى خرج اليه على الامان فأمر بسجنه بمكناسة ، ثم قتل المولى عبد الملك صبرا مخنوقا فى أواخر رجب المذكور ايضا» اه كلامه والله تعالى أعلم بحقيقة الامر .

قالوا وكان المولى احمد رحمه الله اشبه الناس بالامين بن الرشيد

العباسى فى زيه ولهوه واكبابه على شهواته وتضيع الحزم والجد حتى فسدت الاحوال وتراكمت الاهوال ، وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حربا قط قبل خلافته وكان مع ذلك جوادا متلافا فآلت به الامور الى ما ذكرنا والله الامر من قبل ومن بعد .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى عبد الله بن اسماعيل رحمه الله

كان المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو ولد الحرة خناثى بنت بكار المغفرى أيام خلافة اخيه المولى احمد منحاشا الى اخيه المولى عبد الملك ومقيما معه ببلاد السوس ، فلما خلع المولى احمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد الله فى ركابه ، واستمر مقيما بها الى ان ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر الى الحرم الادريسى ، فخرج المولى عبد الله من مكناسة الى سجلماسة ، واقام بداره بها الى ان توفى السلطان المولى أحمد فى التاريخ المتقدم ، فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل ، وهو يومئذ بسجلماسة ، فنادوا باسمه واعلنوا بنصره فى المحلة ومكناسة ، وبعثوا جريدة من الخيل لتأتى به وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس يعزونهم عمن هلك من اخوانهم أيام الحصار ، ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل .

ولما وصل الكتاب الى فاس قرىء على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة ان حضر ، ولما وصلت الخيل الى المولى عبد الله واعلموه بما اتفق عليه الناس فى شأنه أقبل مسرعا حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس ، فخرج أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدومه فسر بهم والان لهم القول ووعدهم بالجميل ، وأعلمهم بانه من الغد يدخل لحضرتهم لزيارة المولى ادريس رضى الله عنه ،

فرجعوا مسرورين مغتبطين . ومن الغد أخذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميعاده ، فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه ، وفى جملتهم حمدون الروسى عدو أهل فاس ، وتقدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة ، فرأى بعض سماسرة الفتن من أولاد ابن يوسف ،حمدون الروسى . وكان قد قتل أباهم حسبما مر ، فصمدوا اليه ، فلما رآهم تنحى عنهم قليلا فتبعوه ، فعلم أنهم عزموا على اغتياله ، فركض فرسه الى السلطان وهو على قنطرة الرصيف ، واخبره خبر أولاد ابن يوسف ، وخص وعم بالارجاف فى حق أهل فاس ، فعدل السلطان عن قصده ، ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامر وخرج على باب الحديد الى فاس الجديد ولم يزر ، ولم يعلم الناس موجب الرجوع عن الزيارة الى ان شاع الخبر بذلك ، فمشى علماء فاس وأشرافها الى السلطان ورفعوا اليه بيعتهم ، واعتذر اليه بعض الفقهاء بان ما وقع فى جانب حمدون انما هو من بعض السفهاء ، فاعرض السلطان عن ذلك وصم عن سماعه .

وكانت البيعة التى رفعها أهل فاس من انشاء الفقيه العالم الوجيه أبى العلاء ادريس بن المهدى المشاط المنافى ، نسبة الى عبد مناف بن قصى ، وهذا الفقيه هو الذى كان السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بعثه قاضيا على تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبى حين ولاه عليها كما مر ، ونصها :

الحمد لله الذى جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد ، كما جعل الجور هلاكا للحرث والماشية والبلاد ، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد ، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين فى العذاب والحسرات والانكاد ، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد ، وأصلح ما أظهره الجائر فى الارض من الفساد ، نحمده أن تفضل علينا بامام عادل ، ونشكره ان حكم فينا من لا يصغى فى الحق لقول عاذل ، فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد ، ونشهد ان لااله الا الله وحده لا شريك له لا يسأل عما يفعل يؤتى الملك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء فى أى وقت شاء واراد ، ونشهد أن سيدنا ونبيا ومولانا محمدا عبده ورسوله الشفيع فى امته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد ، أما بعد حمد الله الذى أمر بطاعة اولى الامر ، ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر ، فقال عليه السلام : «ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من أراد ان يفرق أمر هذه الامة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان» . وفى صحيح مسلم ايضا عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه» . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كره من أميره شيئا فليصبر فان من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» . وفيه أيضا عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى» . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عقبة لعلك لا تلقانى بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للامير وان عبدا حبشيا » .

واتفق أئمة الدين على ان نصب الامام واجب على المسلمين وان كان من فروض الكفاية ، كما ان القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الاحاديث والآيات : وقال الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ولما كان من امر الله سبحانه ما اراده وقدره ، فقبض اليه خليفته وأقبره ، دهش المسلمون وخافوا من توالى الشرور والفتن فتوجهوا اليه سبحانه فى أن يغمد عنهم السيوف ، وطلبوا من فضله المعهود ان يصرف عنهم ضروب المحن والحتوف ، فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات، ونشر رحمته ، وازاح نقمته ، فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه

ضاحكة بعد عبوسها ، والشرور والفتن قد ادبرت ، وأعلام الامن والعافية قد اقبلت ، فوفق الله جيوش المسلمين للاعمال المرضية ، والهمهم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعى والرعية ، فاقتضى نظرهم السديد ، ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من فى افق السعادة قد طلع ، وظهر فى سماء المعالى بدره وارتفع ، الامام الهمام العلوى الهاشمى العدل فى الاحكام ، الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة ، والحزم والنجدة والزعامة ، المتواضع لله المتوكل فى جميع اموره على الله ، أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن الشريف الجليل ، الماجد الاصيل أمير المؤمنين مولانا اسمعيل ، بن مولانا الشريف ، فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول ، واقامة العدل الذى هو غاية المامول ، بيعة التزمتها القلوب والالسنة ، وسعت اليها الاقدام والرؤوس خاضعة مذعنة ، لا يخرجون له من طاعة ، ولا ينحرفون عن مهيع الجماعة ، أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات ، المطلع على جميع الخفيات ، قائلين انا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق ، والوفاء والصدق ، وتحكم بيننا بالحق ، كما قال تعالى لنبيه فى محكم وحيه : «ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق» وقال تعالى وقوله الحق: «ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما» وقال تعالى : «ولا تكن للخائنين خصيما» وهذه الرعية تطلب من ربها ان يعين مالكها ويساعده ، ويقذف الرعب فى قلب من يريد أن يعانده ، وان يفتح عليه ما عسر على غيره ، ويمده بعزيز نصره ، انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ، وبيده القوة والحول ، نعم المولى ونعم النصير ، شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقير ممليه وكاتبه ادريس بن المهدى المشاط بمحضر فلان وفلان ، وجمهور الفقهاء والاعيان فى يوم الاثنين سابع رمضان سنة احدى واربعين ومائة والف .

ثم سافر السلطان فى الحين الى مكناسة كما نذكره .

حدوث النفرة بين امير المومنين المولى عبد الله وأهل فاس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسى للسلطان المولى عبد الله فى جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك ، ثم ان السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه على العادة ، فعينوا الخمسمائة التى كانت تغزو مع الملوك قبله ، فذهبت معه الى مكناسة .

ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوادى ، ففرق المال ولم يحرم احدا سوى أهل فاس ، فانه لم يعطهم شيئا ، ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الامصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة ، وقدم وفد فاس لهذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلى ، ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان الى منزله قدم أهل فاس هديتهم على العادة فاعطى الناس وحرمهم ثانيا .

قلت : ولست أشك فى ان شيطانا من شياطين الانس كان موكلا بهذا السلطان يغريه بأهل فاس ، ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم ، والا فكيف تقتضى السياسة أن يعمد ملك كبير الى اخص رعيته ولبها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه فى قلوبها ، وهب انهم أساءوا الادب أليس التغافل مطلوبا فى مثل هذا ما أمكن ؟لا سيما فى حق السلطان ، وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحلم عنهم ، وقال له بعض اصحابه : «الا نقتلهم ؟» فقال له صلى الله عليه وسلم «كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه» ومن الحكم المأثورة قولهم : «التعامى يدفع شرا كثيرا» وقال الشاعر :

ليس الغنى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى

ومن الغد أمر السلطان باحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم

فقاموا اليه وأدوا واجب التحية ، فقال لهم : «ياأهل فاس ، كاتبوا اخوانكم يسلموا الينا البساتين والقصبات فانها للمخزن ومن وظائفه فان أبــوا فانـى آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية» فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا الى رحالهم.

ولما كان المساء اتخذوا الليل جملا وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا الا بباب فاس ، فاجتمعوا باخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليـــه فى حقهم ، فاجتمع اعيانهم وتفاوضوا فـــى شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا : «انا لم نبايعه على هذا الذى يعاملنا به» ثم أعلنوا بخلعه والامر لله وحده .

حصار المولى عبد الله مدينة فاس

لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزمـــوا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار ، ونادوا فى المدينة مـن أراد الخروج الى بلده ومامنه من غير أهل البلد فليتهيأ فى ثلاث ، ثم أغلقوا ابواب المدينة واستعدوا للقتـــال .

ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة فى الخامس والعشرين من شوال سنة احدى واربعين ومائة والف ، فنـــزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية ، وأطلق يد الجيش بالعيث فـى أطرافها من تخريب المصانع وقطع الاشجار وافساد المزارع ، وأمر بطـم الوادى فانحبس عنهم ماؤه ، وزحفت العساكر فكان القتال على كــل باب سائر النهار فاذا كان المساء أمـر الطبجية والاعلاج بارسال الكـــور والبنب وحجارة المنجنيق ، فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليـــل، واشتد الكرب وريع السرب ، واستمر الحـال الى ان دخلت سنـــة اثنتين واربعين ومائة والف فازداد الامـــر شدة ، وارتفعت الاســعـار وانعدمت

الاقوات ، وكثر الهرج ، فبعثوا الى السلطان فى الصلح ، فقال : «على تسليم البساتين والقصاب» فأبوا وتجلدوا ، ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبى عبد الله محمد السلاوى بضريح المولى ادريس رضى الله عنه، واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها الى السلطان وهو بفاس الجديد ، فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم ، وولى عليهم الحاج أبا الحسن عليا السلاوى ، فدخل الوالى المذكور القصبة ثانى ربيع النبوى سنة اثنتين وأربعين ومائة والف ، وشحن البساتين والقصاب بالمقاتلة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ حمان المنجاد من رؤساء فاس ، ولما اتصل خبره بالسلطان عزله ، وولى على فاس أحد اولاد حمدون الروسى المعروف بالبادسى ، ثم بعد مدة يسيرة عزله وولى عبد النبى بن عبد الله الروسى ، ثم لما عزم على النهوض الى مكناسة عزله أيضا وولى عليهم عدوهم حمدون الروسى ، وارتحل فى العشرين من ربيع الاول من السنة .

وفى هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمدا مع امه السيدة خناثى الى الحجاز بقصد حج البيت ، والمولى محمد يومئذ دون بلوغ ، وفى «نشر المثانى» : «ان هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها» قال : «ان ام السلطان المولى عبد الله ، وهى السيدة خناثى بنت بكار المغفرية ، التمست من ولدها المذكور السفر الى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها الى ذلك وهيأ لها جميع ما تحتاج اليه ، ووجه معها ولده الذى أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدى محمد بن عبد الله فحج معها فى هذه السنة يعنى سنة ثلاث وأربعين ومائة والف .

■

نهوض السلطان المولى عبد الله الى قتال البربر وايقاعه بهم

لما استقر السلطان المولى عبد الله بمكناسة وتفقد حال البربر وجدها قد عادت الى حالها الاول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث فى الطرقات ، فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والتقصير من بأوهم فخرج الى تادلا وصمد الى آيت يمور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نفتهم آيت ومالو عن رأس ملوية وغلبوهم عليه فنزلوا تادلا وأوقدوها نارا فكثر شاكيهم بباب السلطان ، فنهض اليهم على ما سبق ، ولما أحسوا بدنوه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى فتبعهم الى أن أوقع بهم على وادى العبيد ، وقتل منهم آلافا وانتهبهم وعاد الى تادلا ظافرا . والله غالب على أمره .

ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد الله من العسف المخل بالسياسة والتناقض المغير في وجه الرياسة

لما عاد السلطان المولى عبد الله الى تادلا قتل عشرين رجلا من أعيان رماة أهل فاس ، وكتب الى اخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه اليه فعينوا طائفة من رماتهم وجهوها بعد أن عرضها القائد حمدون الروسى برأس الماء ، ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تير ، ومحمد بن الاشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما فى سكك المدينة ، ثم أصبح غاديا على أبواب فاس فتتبعها بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بنى مسافر وباب الحديد ، وحمل مصاريعها كلها الى فاس الجديد ، وفى أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة والف شرع حمدون الروسى فى هدم سور

مدينة فاس وجر الانقاض التى بها الى فاس الجديد ، وفى أثناء ذلك ورد كتاب من السلطان يتضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم ، فارتاب حمدون الروسى وفر الى زرهون ، ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازيا بلاد السوس فقدمها ومهدها وعاد مؤيدا منصورا ، وفى هذه السنة أمر ببناء باب منصور العلج بمكناسة فجاء فى غاية الضخامة والفراهة وأكمل سوق القصبة فجاء على ما ينبغى والله أعلم .

هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك

كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها اذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله ، وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الاسماعيلية ، بل كل من كان له وظيف فى خدمتها السلطانية بنى داره بها وتنافس الاكابر والرؤساء فى تشييد الدور وتنجيد القصور ، وتناهوا فى ذلك حتى كان بدار على بن يشى القبلى أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد ، وكانت دار القائد عبد الله الروسى وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكمل حضارة حتى كأنها حومة مستقلة، وكان لامثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فخلدوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة ، وبنى كل عامل مسجدا فى حومته ، وكان بوسطها المسجد الاعظم الاسماعيلى ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه ، وكانت تنفق بها البضائع التى لا تنفق فى غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره ، ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعابنية بهدمها ، فتسارعوا اليها وشرعوا فى هدمها من كل ناحية والناس نيام ، فلم يرعهم الا بيوتهم تتساقط

عليهم ، فمن أسرع وخف بحمل متاعه وأثاثه نجا ، ومن لا معين لـه أو تراخى فى حمل متاعه ضاع تحت التراب ، وكان بها طائفة كبيـرة من أخواله الودايا وغيرهم ، فارتحل الودايا الى فاس الجديد وانضمـوا الى اخوانهم الذين بها ، وتفرق غيرهم بمدينة مكناسة ، ولم تمض عشرة أيـام حتى صارت مدينة الرياض كدية من التراب ولم يبق بها الا الاسوار قائمة الاشخاص والجدران مائلة للعيان والامر لله وحده .

قالوا : وفى هذه السنة بعث السلطان المولى عبد الله بعثا مـع القائـد أبى عمران موسى الجرارى الى بعض الجهات . وكانوا نحو ثلاثمائـة ، فلما قدموا عليه قتله وقتل أصحابه معه ، وقدم عليه أيضا وفد من عند الباشا أحمد بن على الريفى فى مثل هذا العدد من طنجة ومعهم هدية الباشا المذكور فقتلهم ، فكان قتلهم سبب نفرة أحمد بن على عنه وسعيه فى افساد دولته ، وقتل أيضا من قبيلة حجاوة مائتى رجل على دعوى قطع الطريق ببلادهم ، ولما أمر بقتلهم وأخرجوا الى المحل المعد لذلك خرج النظارة والبطالـون من أهل البلد للفرجة عليهم بباب البطيوى ، فبينماهم كذلك اذا بالسلطـان قد برز من الباب ، ولما رأى اجتماع الناس قصد نحوهم فلمـا رأوه فـروا الى كهف هناك قريب ، فاختفوا فيه فأتى السلطان حتى وقف عـلى باب الكهف ، وكان من قربه أكوام من حجر أعدت للبناء بها ، فأمر الاعوان من المسخرين بوضع أسلحتهم وردم باب الكهف بذلك الحجر مـع التراب ففعلوا ، وهلك ذلك الجمع الكثير غما ، ولم يوقف لهم بعد على خبـر ولا عرف لهم عدد ، ولما صدرت منه هذه الافعال الشنيعة عفا الله عنه كتب اليـه أهل الديوان من مشرع الرملة ينكرون عليـه قتله للمسلمين دون موجب فبعث اليهم بالراتب وأمرهم بالتهيؤ لغزو أهل فازاز فشغلهم بذلك .

وفى هذه السنة بعث محمد بن على بن يشى الزمورى القبلى واليـا على فاس وقال له : « خذ منهم المـال واطرحه فى وادى أبى الخراريب ولا تتركه لهم ، فما أطغاهم الا المال حتى استخفوا بأمر الملك » فقدم محمد بن على المذكور فاسا ونزل بدار أبى على الروسى بالمعادى وعين من كل حومة

نقيبا عارفا بأهل اليسار ، فجمعوه لهم حتى كانوا بين يديه فأمر بسجنهم ، ثم
وظف عليهم أولا خمسمائة ألف مثقال وزعها على التجار وأهل اليسار
دون غيرهم من العشرة آلاف الى الالف ، ثم شرع فى قبض المال الموزع
ومن تراخى منهم فى الدفع ضرب وسجن ، ومن تغيب من أهل اليسار
حبس ولده أو أخوه أو زوجته الى أن استوفى العدد المذكور ثم عطف
على أهل الصنائع والحرف وأرباب الاصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم
قدرا وافرا من الالف الى المائة وما دون ذلك حتى لم يبق فى المدينة أحد الا
وقد غرم ، ففر الناس الى البوادى والقرى والجبال ، ومنهم من وصل الى
السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن
لا عبرة به من الرجال حتى ان الذين كانوا بالسجن فبنفس خروجهم منه
فروا بانفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد ، وأقام محمد بن على على هذا
العمل بفاس ثلاثة عشر شهرا وكلما اجتنى مالا بعث به الى السلطان
بمكناسة ، وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين الى سنة
خمس واربعين ومائة وألف .

بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد الى فازاز وايقاع اهله بهم

وفى سنة ست وأربعين ومائة وألف جهز السلطان المولى عبد الله
جيشا من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفا من الخيل وعقد عليهم للباشا
قاسم بن ويسون ، وأضاف اليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم
للقائد عبد الملك بن أبى شفرة ووجههم الى جبال آيت ومالو ، فلما عبر
الجيش وادى أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا ببسيط آدخسان كادهم
البربر بأن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا فى الجبال فتبعهم العبيد الى أن
توغلوا فى تلك الجبال ونشبو فى اوعارها ، والبربر تفر منهم فى كل وجه

وهم يتبعونهم الى ان حان وقت المساء فبعث البربر ليلا طائفة منهم لسد الثنايا والانقاب التى دخل منها جيش السلطان ، فأحكموا سدها بشجر الارز والحجارة ، ولما اصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدقوهم القتال الى أن ردوهم على أعقابهم ، فلما انتهى العبيد الى الثنايا التى دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعد أن ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والابنية فيها من الاثاث ، فنهب البربر جميع ذلك ، ثم جردوا باقى العسكر من الثياب ، ولم يقتلوا أحدا ورجع العبيد الى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الاسباب التى بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد ، لان ذلك كان باشارته بزعمهم مع اسرافه فى قتل رؤسائهم كما سياتى ، ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسى ووعدهم باخلاف جميع ما ضاع لهم ورجعوا الى مشرع الرملة ممتعضين لتلك الفعلة .

ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره الى وادى نول وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله رحمه الله وبين العبيد لاسرافه فى قتلهم حتى كاد يأتى على عظمائهم ، وكان ذلك منه جزاءا لهم على قتلهم لاخيه المولى عبد الملك ، حسبما سبق اذ كان ما بينه وبينه صالحا كما مر ، فقتل منهم كل من سعى فى قتله أو شارك فيه أو وافق عليه ، حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف ، فأجمعوا على خلعه وقتله ودس اليه بعضهم بما عزموا عليه فى شأنه ، ففر ليلا من مكناسة ولم يصبح الا بحلة آيت أدراسن فاجلوا مقدمه وتباروا فى اكرامه .

ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه الى تادلا ثم ودعوه ،

وعادوا الى بلادهم ومضى هو الى مراكش ومنها ذهب الى السوس فنزل بوادى نول على أخواله المغافرة ، وكان معه يومئذ ولداه المولى أحمد فى سن البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيرا وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين ، واما والى فاس محمد بن على بن يشى فانه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فر هو ايضا عن فاس ليلا ولم يصبح الا بزرهون فاطمأن بها جنبه وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة امير المؤمنين ابى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج رحمه الله

لما فر امير المومنين المولى عبد الله بن اسمعيل من مكناسة الى وادى نول اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج ، وكان يومئذ بسجلماسة ، فكتبوا اليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتى به فأقبل مسرعا ، ولما وصل الى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم ، وعادوا فى صحبته الى فاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسى وذلك فى ربيع الثانى سنة سبع وأربعين ومائة وألف ، وأمره أن لا يقبض منهم الا الزكوات والاعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة .

وكان رحمه الله موصوفا بالحلم والعقل متوقفا فى الدماء فستره الله فى آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض الى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامة هكذا فى « البستان » .

ورأيت بخط جدنا للام الفقيه الاستاذ أبى عبد الله محمد بن قاسم ابن زروق الحسنى الادريسى ما نصه : «وفى اليوم الاول من جمادى الاولى من سنة سبع واربعين ومائة والف ثار عبيد الرملة على أمير المؤمنين المولى عبد

الله بن اسمعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى على ولـد عائشة مباركة ، وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ ما كان بها مما أعجبه من خيل وعدة ومال من غير قتال ولا محاربة ، ودخل أخوه المولى على دار الملك بمكناسة يوم الجمعة فاتـح جمادى الثانية مـن السنة المذكورة وكتبه فى الثانى عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بمنه. » اه كلامه بحروفه .

ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكناسة قدمت عليه الوفـود ببيعاتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم ، وفرق المال على الجيش الى أن نفذ ما عنده واحتاج فقبض على الحرة خناثى بنت بكار ام السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها لتقر بما عسى أن تكون قد أخفتـه فلم يحصل على طائل ، وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه .

قال أبو عبد الله أكنسوس : « وخناثى هذه هى أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم فى كفالة والدها الشيخ بكار » وقال : « رأيت خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر وعرف بـه بعضهم فقال : هذا خط السيدة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بلا شك»اه

ثورة اهل فاس بعاملهم مسعود الروسى وانتقاضهم على السلطان ابى الحسن رحمه الله

ثم أن مسعودا الروسى عامل فاس عدا على الحاج أحمد بودى رئيس اللمطيين فقتله ، وأمر بجره الى باب الفتوح اذ كان هو الـذى سعى فى قتل أخيه أبى على الروسى عقب وفاة السلطان المولى اسمعيل كما مر ، فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا الى القائد مسعود ليقتلوه بصاحبهم ، ففر مسعود ولم يدركـوه فعطفوا عـلى السجن فكسروه وقتلوا الحرس والاعوان الذين به وسرحوا المساجين الى

حال سبيلهم . ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبى الحسن غض الطرف عنهم وبعث اليهم أخاه المولى المهتدى ومعه القائد غانم الحاجى ، وكتب اليهم يقول : انى قد عزلت عنكم مسعودا الروسى ووليت عليكم غانما الحاجى فلم يقبلوه ، ورجع من الغد الى مكناسة ثم رجعوا بصائرهم باشارة أهل المروءة منهم ، وبعثوا جماعة من العلماء والاشراف بهدية كبيرة مع المولى المهتدى الى السلطان تلافيا لما فرط منهم ، ولما دخلوا على السلطان قبض هديتهم وعدد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم الى السجن . ولما انتهى الخبر الى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقوا أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف ثم عطفوا على أصحاب مسعود الروسى وكل من كان له به اتصال فقتلوهم فى كل وجه ، وأنشبوا الحرب مع الودايا فى كل ناحية .

وفى رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبو محمد عبد الله الحمرى من قواد العبيد فاجتمع بأهل فاس واعتذر اليهم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم الى السلطان لرتق هذا الفتق فاسعفوه ، وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرافهم وأصحبوهم هدية نفيسة الى السلطان ، وكتب عبد الله الحمرى الى السلطان يعتذر اليه عنهم ويشفع لهم عنده ، فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم ، وسرح لهم اخوانهم الذين كانوا فى السجن وولى عليهم عبد الله الحمرى . ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الاشقر وسكنت الهيعة واستقام الامر بعض الشىء .

١٤٠

غزو السلطان ابى الحسن اهل جبل فازاز فى جيش العبيد وهزيمتهم اياه

لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن فى الاستعداد وتجهيز العساكر لآيت ومالو وكان ذلك منه اسعافا للعبيد ليأخذوا بثارهم من البربر فى الوقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله ، فخرج اليهم فى المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف فى جيش كثيف من العبيد فلما نذروا باقباله اليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الاولى ، فصاروا يتأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم الى أن عبروا وادى أم الربيع ودخلوا فى الجبال ، فعبر السلطان خلفهم وتقدم العبيد الى الجبال والاوعار فاقتحموها عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان ، وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلكوا سبيلهم فى المرة الاولى من ترك الخيل والسلاح والابنية والاثاث والنجاة بمجرد أعناقهم ، وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان فى موكبه وخاصته الى أن عبر وادى أم الربيع فرجعوا عنه ، ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فشغبوا عليه ومرضوا فى طاعته .

وقد أجمل صاحب نشر المثانى هذه الاخبار فقال : وفى هذه السنة يعنى سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاى عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الاسعار وانحبست الامطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الادام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الامر فى شدة وفر الناس كل فرار .»

تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس
وفرار السلطان ابى الحسن الى الاحلاف وما كان من امره الى وفاته

لما كان شهر ذى الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بان السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادى نول ووصل الى تادلا فاهتز العبيد له ، وتحدثت فرقة منهم برده الى الملك وخالفهم سالم الدكالى فى جماعة من شيعته ، وقالوا : « لا نخلع طاعة مولانا على » اذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا فى خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى على .

ثم ان شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعته ففر سالم فيمن معه من القواد الى زاوية زرهون مستجيرا بها .

ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة الى فاس الجديد فصده الودايا عن الدخول اليها فعدل الى قنطرة وادى سبو فنزل هنالك يوما أو بعض يوم الى أن قضى بعض اربه ثم أصبح غاديا الى تازا فاحتلها ، ثم انتقل عنها الى عرب الاحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه ، وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها باشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيبغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف ، فأعطاه مالا وجنا ت ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه الى داره بها ، فأقام يسيرا ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا : « ان هذا قد أفسد علينا بلادنا » فأخذه وسرحه الى تافيلالت فاستقر بها الى ان مات رحمه الله كما سياتى .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله

لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة الى الاحلاف اجتمعت كلمة العبيد والودايا على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا ، وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل ، ثم أن سالما الدكالى الذى بزرهون كتب الى أهل فاس يقول لهم : « ان الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عريبة والمشورة لعلمائكم » فأجابوه بأن قالوا : « نحن تبع لكم » فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالى وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة الى زرهون وقبضوا على سالم الدكالى ومن معه من القواد وبعثوا بهم الى السلطان المولى عبد الله بتادلا ، فاستفتى فيهم القاضى أبا عنان ، وكان يومئذ معه ، فأفتاه بقتلهم فقتلهم . ثم نميت مقالة سالم الدكالى الى المولى محمد بن عريبة وهو بتافيلالت فظن أن الامر صحيح ، فأقبل مسرعا الى أن وصل الى مدينة صفرو ، فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد الله وراجعوا طاعته فسقط فى يده ، ثم دخل فاسا مستخفيا وأقام بدار الشيخ أبى زيد عبد الرحمن الشامى ، وكان صديقه معتقدا له ، وكان أبو زيد يعده بالملك .

ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقائه أهل فاس وفيهم الاشراف والعلماء ، وكذلك أهل مكناسة ، فوافوه بقصبة أبى فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا ، وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم ، وعزل قاضيهم أبا القاسم العميرى ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم بعد أن ولى السلطان عليهم محمدا بن على بن يشى ، واستمر هو مقيما بقصبة أبى فكران ولم يتقدم الى فاس لعدم ثقته بهم .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عريبة والسبب فيها

لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشا بقصبة أبى فكران نبغت رؤوس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا فى نهب الطرقات ثم أغاروا فى يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرهما .

ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عريبة فمشوا اليه وهو بدار الشيخ أبى زيد الشامى فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه فى عاشر جمادى الاولى سنة خمسين ومائة والف ، وهيأوا له كل ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتباروا فى طاعته وخدمته ، وكتبت بيعته فى خامس عشر الشهر المذكور ، وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك ، وقالوا : « بيعة السلطان المولى عبد الله فى أعناقنا فلا نخلعها » فعزلوا عن الخطط وامتحنوا ، ثم كتب أهل فاس الى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فاجابوهم الى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عريبة وتم أمره .

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر الى جبال البربر وأقام هنالك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد الى فاس الجديد ، ومن الغد نهض الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الاقطار بهداياهم فاجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره .

بدء اختلال امر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عريبة على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك ، واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدى النهب فى أموال المسلمين ، وأخذ هو فى استخراج الحبوب والاقوات من دور أهل مكناسة غصبا ، وبحث عنها فى الاهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه ، وصادره الى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس فى حيص بيص والامر لله وحده .

اغارة السلطان المولى عبد الله على الاصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان المولى عبد الله الذى كان مقيما عند البربر قدم ذات ليلة فى جماعة من أصحابه حتى دخل الاصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه ، ولما نذر به السلطان المولى محمد ابن عريبة نادى فى الناس بالنفير وركب فى خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ، ولما رأى العساكر مقبلة اليه والخيل تتعادى خلفه فر بنفسه وترك ابنيته بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه الى أن بلغوا وادى ملوية فتوغل فى الجبال ولم يقفوا له على أثر ، ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب ، فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الاثقال ورجعوا بخفى حنين .

قال فى « البستان » : « ولما انتهوا الى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن عريبة جماعة من جيشه الى من هنالك من المستضعفين من أهل المزادغ

وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤوسهم وبعثها الى فاس موهما أنها رؤوس البربر » اه والله أعلم .

بقية اخبار السلطان المولى محمد بن عربية وما تخللها من الهرج والشدة

لما قفل السلطان المولى محمد بن عربية من خرجته فى اثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن اسمعيل الى فاس ، وأمره بضرب البعث عليهم توصلا الى ما فى أيديهم من المال بحيث أن من أعطى المال منهم يقيم بداره ، ومن أبى يخرج فى البعث ، فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبى جيدة برادة ، وكان مثريا فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله ، وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فأخذ أمواله ، ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار الى ان استوفى غرضه ، ثم سار الى مكناسة ففعل باهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم الا القليل ، هذا والناس فى محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون ، وصار جل الناس لصوصا ، والودايا يعيشون فى الجنات خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادى فاس ، وبعد أن صار الناس يقصرون كتانهم بمصمودة انتهبوه منهم بها ، بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت اليه ، ولقد هلك فى هذه المدة من الجوع جم غفير أخبر صاحب المارستان أنه كفن فى رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم . وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عربية هذا أيام نحس ووبال على المسلمين ، وكذا أيام أخيه المولى المستضىء الذى اليه يساق الحديث ، وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عليها وتحكمهم فى أعياصها طوع أهوائهم وحسب

أغراضهم ، اذ معلوم انه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية الا هـذا وشبهـه ، نسأل الله تعالى اللطف والحفظ فى الاهل والدين والمال فى الحال والمآل .

وقد تكلم صاحب « نشر المثانى » على هذه السنة أعنى سنة خمسين ومائة وألف فقال : « وفى هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاى عبد الله يعنى العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر ، وارتفعت الاسعار جدا وجعل اللصوص يهجمون على النـاس فى دورهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وبلغ الخوف الى أبواب الدور المتطرفة بفاس نهارا فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمـودة فى العدوة ولا عن باب القصبة القديمة فى الطالعة ولا عن حومة الحفاريـن بباب عجيسة ، وكثر الهدم فى الدور لاخذ خشبها وكـثر الخـراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملا على عشرين دارا وأكثر وكلها خالية » . وفى هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو البقاء يعيش الشاوى بداره بالدوح وقتلـه كان سبب خلاء الدوح وافتضح أهل المروءة من الناس ومن يظن به الدين، وكل من قدر على الفرار فر من فاس ، وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد ، وخرج جماعة وافرة من أهل فاس الى تطاوين ومـا والاها لجلب الميرة اذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافر بحمـل الطعـام الى بلاد المسلمين ، فاشترى أهل فاس منه شيئا كثيرا لكن امتنع الجمالون من حمله لهم وماطلوهم ، فشكوهم لوالى تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن على الريفى فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به . فثبط الجمالين وهم قبيلة بداوة فازدادوا امتناعا وتعاصيا حتى بقى أهـل فاس معطلين بميرتهم نحو ستة أشهر . فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعا . وكلهم فى عهدة أحمد بن على الريفى وما أغنى مال ولا متاع فى طلب القوت ، ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعا فيما أظن ، وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك .

وأما الاصول والسلع فلم يكن شىء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد ، ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى من برجوع السلطان مولاى عبد الله ،

هذا كلام صاحب « نشر المثانى » وهو الفقيه المؤرخ سيدى محمد بن الطيب ابن عبد السلام القادرى . وقد حكى هذه الاخبار عن معاينة لانه كان يومئذ حاضرها وشاهدها .

ثم دخلت سنة احدى وخمسين ومائة وألف ، والناس فى شدة ، وفى الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة فقبضوا عليه ، وعلى قائده على فاس الشريف أبى محمد عبد المجيد المشامرى ووضعوا فى رجلى كل واحد منهما قيدا ، وأخرجوا ابن عريبة وعياله من دار الملك الى داره التى على وادى ويسلن بجنان حمرية ، ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه ، وكتبوا الى أخيه المولى المستضىء ابن اسمعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى المستضىء بن اسمعيل رحمه الله

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة أعلنوا ببيعة أخيه المولى المستضىء بن اسمعيل ، وكتبوا بذلك الى الافاق ، فساعدهم الناس عليها وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتى به ، فأقبل مسرعا ، ولما انتهى الى مدينة صفرو لقيه أهل فاس بها فى أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا معه الى فاس الجديد . فأراح به ، وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدى فاستناب الكعيدى عليهم من قبله شعشوع اليازغى والحال ما حال والظلم ما زال ، ثم ارتحل السلطان المولى المستضىء الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة ، وقدمت عليه وفود القبائل والامصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره .

١٤٨

ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضىء من العسف والاضطراب

لما استقر السلطان المولى المستضىء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عربية مقيدا الى فاس ، ومنها الى سجلماسة فسجن بها ، وبعث بقائده السيد عبد المجيد المشامرى والشيخ أبى زيد عبد الرحمن الشامى يسجنان بفاس الجديد ، ونهبت دار المشامرى وصودر الى أن مات تحت العذاب ومثل به ، ثم بعث السلطان كتابه الى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك ، ثم وظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به .

وافتقرت الدولة فى أيام هذا السلطان واحتاج الى المال ليقطع عنه لسان العبيد ، فأخذ فى البحث عما فى المخازن الاسماعيلية التى لم يلتفت اليها الملوك قبله ، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه ، ووقع على الخزين الكبير ، وفيه آلاف من قناطير الكبريت ، فباعها أيضا ، ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب الى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله ، ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية ، وكانت من نحاس مذهب ، واقتلع الدرابيز التى عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام الى قصر المولى يوسف ، ودفعها لاهل الذمة . وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم ، ثم أنزل المدافع النحاسية التى كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا ، وقتل فى هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بنى حسن ، وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه ، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم فعذبوا الى أن أدوا بعض المال ، وعجزوا ، وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع فى هذه الاصول صحيح تقديما لخلاص الانفس على الاموال .

ثم قبض هذا السلطان على شريف من الاشراف العراقيين من أهل حومة كرنيز اتهمه بان الحرة خناثى بنت بكار استودعته مالا فضرب وامتحن ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدنى وكان رفيقه وجليسه ، فاستناب المولى ابو حفص على فاس رجلا يقال له ابن زيان الاعور ، وتقدم اليه فى مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم ، فامتثل ابن زيان امره وما قصر، وكان الحامل لابى حفص على هذا ان داره بفاس كانت قد نهبت أيام المولى محمد بن عربية ولم ينكر ذلك احد من أهل فاس ، فحقدها أبو حفص عليهم الى ان ادالته الايام منهم فى هذه المرة ، ففعل ابن زيان ما فعل ، فأمر السلطان المولى المستضىء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار والسياط فى ظهره وهو يقول : «هذا جزاء من يؤذى الاشراف» فطيف به ثم ازيل رأسه وعلق على باب المحروق ، هذا والاشراف لا زالوا فى العذاب ، ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا اليه فى السلاسل والاغلال ثم قتلوا بباب القصبة عن آخرهم ، وأمر باخراج ولد مامى من الحرم الادريسى فلما وصل اليه قتله ، وأسرف المولى المستضىء فى القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذى جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه ، وهيهات، فقد كان المولى المستضىء مسيكا مهزوم الراية، على ما قيل ، تغمدنا الله واياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران ، ثم قتل القائد غانما الحاجى ، ووالى مكناسة القائد سعدون ، وستة من أولاد الزياتى أصحاب السجن .

ثم ان السلطان المولى عبد الله اغرى البربر الذين كان مقيما فيهم بشن الغارات على الودايا والعيث فى طرقاتهم ففعلوا ، وانقطعت السبل وتعذر المعاش ، وكان المولى زين العابدين بن اسمعيل محبوسا عند أخيه السلطان المولى المستضىء فأمر باخراجه واحضاره بين يديه فأحصر وضرب ضرب التلف ، وبعث به مقيدا الى تافلالت ليسجن مع بعض اشرافها ، فبعث العبيد جماعة منهم فانتزعوه من يد حامليه وبعثوا به الى القائد أبى العباس أحمد الكعيدى ببنى يازغة ، وتقدموا اليه فى الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه .

ايقاع الباشا ابى العباس احمد بن على الريفى بأهل تطاوين

قد قدمنا ما كان من اغارة الباشا أبى العباس أحمد بن على الريفى صاحب طنجة على أهل تطاوين ، وهزيمة أبى حفص الوقاش له وفتكه باصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفى والوقاش من يومئذ ، وبقى الريفى يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل الى أن بويع السلطان المولى المستضىء فى هذه المدة ، فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا فى بيعته فوجد أبو العباس الريفى السبيل بذلك اليهم وأغرى بهم السلطان المذكور ودس اليه أنهم شقوا العصا وخالفوا الامر ، مع ما كان قد نقل عن الفقيه أبى حفص فى تلك القصيدة من التصريح بطلب الملك ، فنجع ذلك فى المولى المستضىء ، وكتب اليه يأمره بالايقاع بأهل تطاوين ، فاغتنمها أبو العباس الريفى واقتحم تطاوين فى جموعه على حين غفلة من اهلها وانتهبها ، وقتل من أعيانها نحو الثمانمائة ووظف على من بقى منهم مالا ثقيلا وهدم أسوارها ونظمها فى سلك ما كان مستوليا عليه وبنى بها دار الامارة الموجودة الآن .

شغب العبيد على السلطان المولى المستضىء وفراره الى مراكش

لما كان منتصف ذى القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة والف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضىء وتآمروا فى عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله ، ولما أحس المولى المستضىء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة فى شيعته وانصاره قاصدا ضريح الشيخ أبى محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، فتبعه المولى عبد الله فى جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكر عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه ، ومضى لوجهه الى أن

وصل الى طنجة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن على الريفى ، ومنه توجه الى مراكش فانهم كانوا قد بايعوه ، وكان أخوه المولى الناصر نائبا عنه بها ، ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد الله ويستنفرهم للخروج معه اليه ، فتقاعدوا عنه لان عبدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد الله ، ولم يبق فى حزب المولى المستضىء الا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب ، ولما رأى المولى المستضىء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجى الايام الى سنة خمس وخمسين ومائة والف ، والباشا أبو العباس الريفى صاحب طنجة يفتن للعبيد فى الذروة والغارب الى ان بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين، وبعد خلع السلطان المولى عبد الله حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخولهم في دعوته

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الله كان مقيما فى هذه المدة عند البربر وانه تبع المولى المستضىء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه ولما بلغه خبر مسيره الى مراكش سار فى اعتراضه الى ان بلغ قصبة وادى آلزم فلم يقف له على خبر فأقام يتجسس أخباره الى ان اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم ، فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة والف ، وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها اليه مع بعض خاصتهم ، وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس والودايا فى الموافقة ، فوافقوهم وبايعوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس،ولما انتهى الحال الى هذا الحد فر الوزير ابو الحسن على العميرى من مكناسة اذ كان وزير المولى المستضىء ، واحترم اخوه القاضى أبو القاسم العميرى بضريح بعض صلحاء مكناسة ، وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم الى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازى

AH 1153 = A.D. 1740

بهدايـاهم ، هذا كله ، والسلطان لا زال مقيما بقصبة آلزم ، وتولى العبيد بمكناسة النقض والابرام لتأخر مجيء السلطان ، وظهر منهم الادلال والاستبداد على الدولة ، وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمرى واليا على فاس وقالوا : عن أمر الديوان ، وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت هيف الى أديانها .

مجيء السلطان المولى عبد الله الى مكناسة وما ارتكبه من اهلها

وفى خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبى القاسم العميرى ، والسيد ابى العباس احمد الشدادى، والعباس بن رحال ، والفقيه المليتى وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم : «كيف تزوجون حرمى من أخى وانا حى» ونكل بهم النكال الشديد ، ثم أمر بسحبهم الى السجن، وأعطى دار القاضى العميرى أحد العبيد ، وقال لهم : من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها» فامتدت أيدى العبيد فى الناس حتى صاروا يقفون بالابواب ويقول العبد لصاحب الدار : «ان سيدى قد اعطانى دارك أو أعطانى ابنتك» فيفتدى منه بالمال ، ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف ، ومن شكى منهم عوقب وسجن ، والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبة التى كان بها المولى المستضىء .

وولى فى هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل ، وولى على قضائها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن ابى عنان ، وتقدم اليه فى أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضىء فى سائر البلدان .

واما الودايا فانه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن على الريفى واهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتم المولى عبد الله لذلك ، ثم شفعت الحرة خناثى أم السلطان فى قومها الودايا وبعثت اليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم .

ايقاع ابى العباس احمد بن على الريفى بقبائل الغرب وما تخلل ذلك

وعلى اثر ما تقدم بلغ السلطان المولى عبد الله ان القائد أبا العباس أحمد بن على الريفى قد أغار على اعمال القصر الكبير ، وانتهب أموالا كثيرة لاهل الغرب وشيعتهم ممن ليس على رأيه فى الخروج عن طاعة السلطان ، فبعث المولى عبد الله جيشا كثيفا من عبيد مشرع الرملة ينزلون بالقصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله ، فلما سمع بذلك الريفى فرق العطاء على جيشه وتهيأ للنهوض الى العبيد ، فوردت عليه شرذمة من الودايا ولاخرى من عبيد مكناسة واخبروه بان ذلك الجيش قد رجع ، لان ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لاحد لا من الرعية ولا من الجيش .

وكان السلطان المولى عبد الله قد وجه عامله القائد أبا العباس أحمد الكعيدى عاملا على عرب الحياينة واهل جبل الزبيب لجباية الزكوات والاعشار ، فلما توسط بلاد الحياينة عدوا عليه فقتلوه ، ولما اتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله اغتم لذلك غما شديدا لانه كان عماد دولته فانحل نظامها بموته ، وفسدت الطرقات وكثر النهب فى كل موضع .

ثم ان السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم ، وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة والف ، ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولاصحابه واعطاء العملة للبناء بباب الريح وغير ذلك فتشفعوا اليه مرارا فلم يقبل . والله تعالى أعلم .

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية الى البربر

لما كان شهر ربيع الاول من سنة أربع وخمسين ومائة والف شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والايقاع به ، فنذرت بذلك امه الحرة خناثي بنت بكار ، ففرت من مكناسة الى فاس الجديد ، ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء ، فخرج اليه الوداية وأهل فاس واجلوا مقدمه واهتزوا له ، فاستعطفهم السلطان وقال لهم : «أنتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي واريد منكم ان تكونوا معي على كلمة واحدة» وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا ، وفي أثناء ذلك بلغه أن احمد بن على الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة اخيه المولى زين العابدين ، وكان يومئذ عنده بطنجة وانهم وافقوه ، فوجم لها السلطان المولى عبد الله ، ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله الى بلاد البربر كما سياتي ان شاء الله .

الخبر عن دولة امير المومنين المولى زين العابدين بن اسمعيل رحمه الله

كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين انه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء ، فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع به فسجن مدة ثم أمر يوما باخراجه وضربه فضرب ، وهو في قيده ، ضربا وجيعا أشرف منه على الموت كما مر ، ومع ذلك فلم ينطق بكلمة ، ثم رده الى السجن ، ثم أمر بعثه مقيدا الى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الاشراف المسجونين هنالك، فلما سمع بذلك قواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو الى فاس ومن هنالك بعثوا به الى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة وأمروه أن يحتفظ به مكرما مبجلا .

ثم لما فر المولى المستضىء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها ، وسر بولاية المولى عبد الله وخلع المولى المستضىء ، ثم ذهب الى مكناسة واقام بها مدة ، ثم سار الى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن على الريفى فأكرم وفادته وأحسن مثواه ، واستمر مقيما عنده الى ان كاتب عبيد الديوان فى شأنه ووافقوه فى بيعته ، فبايعه الباشا احمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجبال وخطبوا به على منابرهم ، ثم هيأ له الباشا احمد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم ، وبعثهم معه الى مكناسة فدخلها فى ربيع سنة اربع وخمسين ومائة والف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والامصار فقابلهم بما يجب ، وتم أمره .

وفر السلطان المولى عبد الله من رأس الماء ودخل لبلاد البربر ، ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس . وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده الى مال احد الا أنه لقلة ذات يده نقص العبيد من راتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سياتى .

بقية اخبار المولى زين العابدين وانقراض امره

لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين ، ثم تهيأ لغزو الودايا واهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته ، فنهض اليهم فى جيش العبيد منتصف جمادى الاولى سنة أربع وخمسين ومائة والف . ولما بات جيشهم بسيدى عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد ، ومن الغد قوضوا ابنيتهم وارتحلوا الى مكناسة وكفى الله الودايا واهل فاس شرهم . الا انهم حرقوا بيادر الزرع التى كانت للودايا بالخميس ، ولما وصلوا الى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها ، وانصرف جمهورهم الى مشرع الرملة ، والذين دخلوا مكناسة

مع السلطان طالبوه فى الراتب وشددوا فى اقتضائه ، فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا فى طاعته .

هذا ، والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفز للوثبة ، فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد وذلك فى سادس عشر جمادى الآخرة من السنة ، فلقيه الودايا واهل فاس واهتزوا لمقدمه وطاروا به سرورا ، ثم خرج من يومه الى دار الدبيغ فاحتل بها .

ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه، واصبح غاديا من مكناسة الى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه ، فكان ذلك آخر العهد به الى ان توفى رحمه الله .

الخبر عن الدولة الثانية لامير المومنين المولى عبد الله رحمه الله

لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على ان يراجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله ، فبعثوا طائفة من قوادهم ووجهوها اليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة ، وهو بدار الدبيغ ، فحيوه ، وأخبروه بان اخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه ، فسر المولى عبد الله بقدومهم وخرج الودايا الى العبيد فاختلطوا بهم وسروا بمقدمهم ، واجروا الخيل فى ميدان المسابقة واللعب بالبارود ، وزينت مدينة فاس ، وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر . واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من السنة فكان ما نذكره .

مجيء المولى المستضيء من مراكش ومحاربته لاخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك

لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيغ ، واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من سنة اربع وخمسين ومائة والف ، فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التى هى دار الملك يومئذ ، فقلبوا له ظهر المجن ، على عادتهم ، واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه .

واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل الى المولى المستضيء لتأتى به ، فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم ، وشمر عن ساعد الجد وأخذ فى تأليف قبائل العرب والبربر ، ووصل يد بعضهم ببعض ، ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وآخى بين الجميع فأعطوه صفقة أيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده ، وفى أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسى من مراكش ودخل فاسا فتحدث عنه بأنه قد دس الى أهل فاس فى مراجعة طاعة المولى المستضيء والتمسك بدعوته ، ونمى ذلك الى السلطان المولى عبد الله فامر بقتله فقتل .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففى المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراكش الى بلاد الغرب ودخل مكناسة فى جيش العبيد وبنى حسن وغيرهم ، وقدم فى ركابه الوزير أبو الحسن العميرى ، وأخوه القاضى أبو القاسم ، وفى آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبى العباس أحمد الريفى الى أهل فاس يدعوهم الى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول فى طاعته ، فصموا عن ذلك ونبذوه .

وفى ربيع الاول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء فى جيش

العبيد الى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيغ الى آيت دراسن ، ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الوداية وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع . وهلك فيها من الفريقين عدد كثير . وفى رابع ربيع الثانى قدم السلطان المولى عبد الله يجر أمم البربر خلفه من زمور وبنى حكم وجروان وآيت ادراسن وآيت ومالو فى عدد لا يحصيهم الا خالقهم ، وفى شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو .

ولما عاين المولى المستضىء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملا وأسروا الى مأمنهم ونجو بأنفسهم وأصبحت الديار منهم بلاقع ، فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال .

وفى سادس جمادى الاولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خناثى بنت بكار المغفرية رحمها الله ، وكانت فقيهة أديبة ، ودفنت بقبور الاشراف من فاس الجديد .

وفى جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبى عبد الله محمد الغالى الادريسى فشكاه عديل الى السلطان فامر بالقبض عليه فعاذ الشريف بضريح جده رضى الله عنه ، فألزم السلطان أهل فاس اخراجه ، فضيقوا عليه الى أن طلب الامان فأمنوه وساقوه الى السلطان فوبخه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم .

هدية السلطان المولى عبد الله رحمه الله الى الحرم النبوى على مشرفه افضل الصلاة والسلام

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وخمسين ومائة وألف سافر الركب المغربى الى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المومنين المولى عبد الله رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفا بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ، ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى الذى كان عند بنى أمية بالاندلس، وانتقل الى هذه العدوة المغربية على يد عبد المومن بن على حسبما مر الكلام عليه مستوفى ، وأما هذا المصحف العقبانى فهو مصحف عقبة ابن نافع الفهرى الصحابى المشهور فاتح المغرب ، كان نسخه بالقيروان من المصحف العثمانى على ما قيل ، وبقى متداولا بين أهل المغرب الى أن وقع بيد الاشراف السعديين ، وأخذ فيه المنصور منهم العهد لولده الشيخ على اخوته كما مر .

ولما وصل الى هذا السلطان رحمه الله غربه من المغرب الى الحرم الشريف فعاد به الدر الى وطنه والابريز الى معدنه ، قال الشيخ أبو عبد الله المسناوى رحمه الله : « قد وقفت على هذا المصحف حين أمر السلطان المولى عبد الله رحمه الله باخراجه وبعثه الى الحجرة الشريفة فظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما » اه وبعث السلطان رحمه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الالوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله من السلطان عمله وأجزل ثوابه آمين .

١٦٠

مشايعة الباشا ابى العباس الريفى للمولى المستضىء على المولى عبد الله وزحفه الى فاس وما يتصل بذلك

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد بن على الريفى فى جموع الفحص والجبل والريف قاصدا فاسا وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس ، وذلك فى الثانى والعشرين من المحرم منها ، وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاى عبد الله فأبوا .

وأقبل المولى المستضىء فى جموع العبيد ، وعليهم القائد فاتح بن النوينى ، حتى نزل قريبا منه فى الثانى والعشرين من صفر . ولما زحف هذان الجيشان الى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفى لانه جاء فى استعداد لم يعهد مثله ، وأرز الحياينة وشراقة وأولاد جامع الى أسوار فاس ، ونزلت حللهم داخلها وخارجها وبعثروا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيها ، وهلك الكثير منها جوعا وهزالا ، وماجت الفتنة موج البحر ، وارتفعت الاسعار ولقى الناس كل شدة ، وفى كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتى المولى المستضىء ، والريفى ، فاستعد الناس للحرب . وركب السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ فى نحو عشرة من الخيل ، وأسرع الى آيت ادراسن ، وهم بسهب عشار ، فدخل حلة عبد الله بن يشى منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم ، وقالوا : « ما الذى ناب مولانا ؟ » فقال : « جئتكم لتنصرونى على هذا الجبلى الذى كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال فى خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأه علينا أخونا المستضىء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهى فى الحقيقة بلادكم وما قصد الا اهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام . » ثم ركب فرسه ورجع عوده على بدئه فلم يبت الا بدار الدبيبغ ، ومن الغد زحف أحمد الريفى الى بلاد

الحياينة ظنا منه أنهم لا زالوا مقيمين بها ، فلما لم يجد بها أحدا رجع الى محله الذى كان به ، ومن الغد كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لافهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع ، ثم من الغد ركب أحمد الريفى فى رماته وتقدم حتى وقف على كدية تامزيزت فوق القنطرة وعبرت جموعه لاروزات ، ثم عبر المولى المستضىء فى جموع العبيد وخلفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة ، وكتب المولى المستضىء كتائبه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع ، وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة الى دار ابن عمرو ، ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضىء ووزيره الريفى بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة، واستحر فيهم القتل والسلب وازدحموا على القنطرة وتساقطوا فى الوادى فهلك الكثير منهم والبربر فى أثرهم يقتلون ويسلبون، وأما الريفى فانه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على أن ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التى وصفها أبو الطيب اذ قال :

لا يأمن النفس الاقصى فيدركه   فيسرق النفس الادنى ويغتنم

ولم يعرج هؤلاء ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى اليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الاخبية والكراع والاثاث الفاخر ، ولم يتركوا بها الا المدافع والمهاريس وآلتها من كور ونبب وبارود ، فان القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلك حتى حازه ، وعاد الناس وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فلقيهم طوائف من البربر لم يكونوا قد شهدوا الوقعة فاستلبوا ما بايديهم .

قال صاحب «البستان» : حدثنى السلطان المرحوم سيدى محمد بن عبد الله عن هذه الوقعة ، وكان قد شهدها وهو فى سن البلوغ ، قال : « بعثنى والدى مع أخوالنا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو فى ساعة واحدة وكنت يومئذ فى خمسين فارسا بين ودايا وأصحاب تقدمنا الى المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها ، ثم أمرت الحمارة فحملوا

لنا من صناديق الريال على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملا لعرب بداوة أصحاب الابل ، وحملوا لنا قبتين احداهما لاحمد الريفي والاخرى أظنها للمولى المستضيء ، وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه ، ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقيتنا كتائب من البربر الذين لم يحضروا الوقعة وبنفس ما خالطونا طاروا بما فى أيدينا حتى لم ندر أين البغال ولا الابل ، وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أو ستون أو أكثر ، ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جئنا ، وهكذا وقع لكل من انتهب شيئا من حزبنا الا من دخل مع البربر فى حصتهم ، ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤوس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة ، فيها رأس الباشا فاتح بن النوينى ، ثم بعث السلطان المولى عبد الله البغال لجر تلك المدافع والمهاريس وحمل الكور والبنب فسيق ذلك كله الى دار الدبيبغ ثم بعث بغالا أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل فى كل واحد قنطار من البارود الجيد فادخل ذلك كله لخزين فاس » قال السلطان المرحوم سيدى محمد بن عبد الله فى حديثه : « وكان هذا أول بعث بعثنى فيه والدى وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ فى سن البلوغ وكان لى ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به الى أن مهرت فيه » اه كلامه .

ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم فقتلوا فى جملتهم سيدى محمد بن المستضيء يظنونه من أهل الريف ، ثم خلص الريفى واصحابه الى طنجة بعد غصب الريق وكان أمر هذه الوقعة فتحا عظيما على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته .

قال فى « نشر المثانى » : « فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاى عبد الله ، وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم وألان لهم القول، وأمرا العبيد بالمسير الى طنجة لحرب الريفى فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيدا » .

معاودة احمد الريفى غزو فاس وما كان من امره مع السلطان المولى عبد الله الى حين مقتله

لما وصل أحمد الريفى الى طنجة أخذ فى اخلاف ما ضاع له ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جدده لاهل الريف وأخذ فى الاستعداد لمعاودة غزو فاس ، وأقسم أن لا يأكل لحما ولا يشرب لبنا حتى يدخل فاسا وينهبها كما انتهبوا محلته .

وبعث الى سلطانه المولى المستضىء بمائتى فرس ومائتى خباء وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها على العبيد يتقوون بها ، وضرب له موعدا يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الوداية وأهل فاس فكان أمر الريفى فيما أنفقه كما قال تعالى : « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولما كان شهر جمادى الاولى من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفى من طنجة قاصدا حضرة فاس فى أكمل شكة وأحسن استعداد ، ولما انتهى خبره الى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه ، فكتب الى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع ، وكتب الى عرب الغرب من سفيان وبنى مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته ، وفرق الراتب على العبيد والودايا وزرارة ، وأخرج أهل فاس بعثهم الذى عينوه على العادة ، وكتب السلطان الى آيت أدراسن وجروان يخبرهم بعزمه على مصادمة الريفى وجمعه ، ويقول لهم : « ان أردتم المال والغنيمة فتأهبوا للنهوض الى طنجة » . فخف ناس منهم وقدم عليه منهم ألفان من الخيل وأكثر منها رماة .

ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الاولى ونزل على وادى سبو وأقام به الى ان عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس رحى واحدة وعقد عليهم للقائد أبى عزة صاحب الشربيل ، وجعل

الودايا وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحى واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليمورى ، وسار على هذه التعبية فلقيه شرافة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحى واحدة وعقد عليهم للشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الشرقى ، ولما عبر وادى ورغة لقيه أهل الغرب فى جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن الغد جعل بنى مالك فى رحى وعقد عليهم لقائدهم أبى سلهام الحمادى ، وجعل سفيان فى رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفيانى ، وسار على هذه التعبية فى ظل النصر والسعادة .

وأما المولى المستضىء فى العبيد وبنى حسن فانه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خالفه الى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب ، وفعل فيها بنو حسن الافاعيل من سبى النساء والذرية وغير ذلك ، ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بنى حسن فى وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم مالا يحصى ورجعوا منهزمين ، وأما أحمد الريفى فانه زحف الى القصر فى جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم ، وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضىء وجمعه .

ولما ابطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله اليه ارتحل من القصر عامدا نحوه فالتقى الجمعان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادى لكس . وقال فى « نشر المثانى » : كان اللقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف .

ولما تراآ الجمعان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول ، فقال السلطان رحمه الله : « لانزول الا على الغنيمة او الهزيمة » ثم عبر اليهم فى جنوده وأعجلهم على النزول وصمد اليهم فى كتيبة من أخواله وعبيده فخالط مقدمتهم ففضها ، وكان فيها أهل الفحص وبداوة وطليق والخلط

ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التى فيها قلب العسكر وحده ، وفيها الباشا أحمد بن على ، فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقها بالمقدمة ، وتقوضت جموع الريفى من كل جانب وانهزموا للحين ومروا على وجوههم لا يلوى حميم على حميم ، ومضى جيش السلطان فى أثرهم يقتلون ويسلبون الى أن جنهم الليل ، وقتل الريفى فى المعركة ، وبقيت الابنية والاثقال بيد السلطان كما هى ، فنزل بها بدار العباس ، وعادت العساكر مساء بالغنائم وبرأس الباشا أحمد بن على الريفى ، عرفه بعضهم بين القتلى فازال رأسه وأتى به السلطان فسر به ، وبعث به الى فاس فعلق بباب المحروق ، وانقضى أمر أحمد الريفى وذهبت أيامه و «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » . وقد خلف هذا الريفى آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله .

زحف السلطان المولى عبد الله الى طنجة واستيلاؤه عليها

لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفى أصبح غاديا يؤم طنجة ولما شارفها خرج اليه رجالها يحملون المصاحف على رؤوسهم والصبيان يحملون الالواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم الا من كان من بطانة احمد الريفى ، ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وامر بالاحتياط على دار الريفى ومتاعه ، ثم أمر الخواجا عديلا فى جماعة من تجار فاس باحصاء ما بدار الريفى فدخلوها وتطوفوا خزائنها واستخرجوا ما فيها من مال وسلاح وسروج وكسى وملف وكتان وفرش وخرثى وأثاث يفوق الحصر ، فأحصى ذلك كله وأحصى العبيد والاماء والخيل والبغال وجميع الماشية من ابل وبقر وغنم فجيء من ذلك بشيء كثير فأعطى الماشية كلها للبربر ، ثم أطلق يد الجيش على الامراس فانتشلوا ما فيها من قمح وشعير فأتوا عليه ، ثم تتبع حاشية الريفى من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان له

به اتصال فاستصفى ما عندهم من المال والذخيرة الى ان استوفى غرضه .

وكان هذا الريفى قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها ، وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولابيه بها منذ الفتح ، فكان ظفر السلطان المولى عبد الله بخزائنه من باب الظفر بالكنوز القارونية ، وقدمت عليه فى أثناء ذلك وفود القبائل التى هنالك فعفا عنهم وأمنهم واقام رحمه الله بطنجة أربعين يوما وانقلب راجعا الى فاس مؤيدا منصورا وبالله التوفيق .

اعتراض المولى المستضىء للسلطان المولى عبد الله وعود الكرة عليه ومقتل بنى حسن

لما انهزم المولى المستضىء من مكناسة بعد ايقاعه باهلها خرج الى حلة بنى حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره أحمد الريفى ففت ذلك فى عضده وهد أركانه ، ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وارهف حده وأخذ فى تحريض العبيد وبنى حسن على تجديد البعث والنهوض لاعتراض اخيه السلطان المولى عبد الله مرجعه من طنجة ، فخرج كبير بنى حسن يومئذ ، وهو قاسم أبو عريف ، يطوف فى أحيائها ويستنفر جموعها ، وخرج المولى المستضىء فى لمة من وجوه العبيد الى مشرع الرملة فجهز بها عشرة آلاف فارس من عبيده ، ووافاه قاسم أبو عريف بمثلها من بنى حسن ، فكان مجموع الجيشين عشرين الفا سوى من انضاف اليهم ، ثم ساروا لاعتراض السلطان ، ولا علم له بهم .

وقدم المولى المستضىء أمامه الطلائع والعيون فعادوا اليه بخبر السلطان وأنه بائت تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضىء فى جموعه على حين غفلة منه ، فلم يرع السلطان المولى عبد الله الا نواصى الخيل مقبلة اليه ،

فعبأ جيشه على عجل ، وأقام الرماة حوالى المحلة ، ثم صمد اليهم فى الخيل ، وانشب القتال فلم تكن الا ساعة حتى انهزم بنو حسن وولوا الادبار ، وكانوا ميمنة الجيش ، وثبت المولى المستضىء والعبيد فى الميسرة ، فصمد اليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المولى المستضىء وعبيده ، ومروا على وجوههم لا يلوون على شىء ، فجرد السلطان مع القائد أبى عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل فى أثرهم وتقدم اليهم أن لا يقتلوا احدا من العبيد وانما يجردونهم لا غير . فلم يقتل أحد من العبيد فى هذه الوقعة ، واستحر القتل فى بنى حسن فهلك منهم ما ينيف على الالف ، وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك ، وهذه الوقعة هى التى خضدت شوكة بنى حسن وفلت من غربهم ، ونجا المولى المستضىء فى فلهم وأقام بحلتهم ينتظر أن تدول له دولة لانهم كانوا شيعته كأهل دكالة واهل مراكش ، وكان اخوه المولى الناصر خليفته على مراكش كما مر .

وقفل السلطان المولى عبد الله الى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على أحواله وعبيده واسهم لاهل فاس ، وأقام بدار الدبيبغ الى ان دخلت سنة سبع وخمسين ومائة والف فقدم عليه فى شهر ربيع الثانى منها جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين متنصلين مما فرط منهم ، فعاتبهم وقال لهم : «لا كلام اليوم بينى وبينكم حتى أقطع دابر بنى حسن ومن معهم من شيعة المستضىء» ثم عفا عنهم واعطاهم الراتب وأمرهم بالقدوم عليه الى مكناسة بقصد غزو بنى حسن ، فعادوا الى مشرع الرملة عازمين على ذلك ، واخذ هو فى الاستعداد ايضا ، ونهض من فاس فى جيش العبيد والودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة واولاد جامع وعرب الغرب ، ولما انتهى الى مكناسة وافاه بها عبيد مشرع الرملة فى وجوههم واهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء واعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم ، والله غالب على امره .

١٦٨

نهوض السلطان المولى عبد الله الى بلاد الحوز وتدويخه اياها واجفال المولى المستضىء عنها

كان المولى المستضىء فى هذه المدة مقيما عند بنى حسن كما قلنا ، ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج فى طلبه وطلب شيعته من بنى حسن ، فسلك طريق الفج ليحول بين بنى حسن والشعاب فصبحهم ببسيط زبيدة وهم غارون ، والمولى المستضىء بين أظهرهم، فلم يرعهم الا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعامهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم ، فانفضوا فى كل وجه وتفرقوا شذر مذر ، وافلت المولى المستضىء رحمه الله بجريعة الذقن ، وتوزعت العساكر السبى .

وجاء بنو حسن يهرعون الى السلطان طالبين عفوه فامر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم ، ومضى الى قبائل دكالة اذ اتصل به ان المولى المستضىء قد فر اليها ، فلما نزل قصبة ابى الاعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضىء الى التلول ونزلوا قرب دمنات ، وشرعت عساكر السلطان فى انتشال الحبوب من الامراس واستخراج الدفائن من الهميل وتخريب القرى وتقطيع الاشجار ، وكلما فرغت من ناحية انتقلت الى غيرها متقلبة فى ذلك البسيط نحو السنة ، والسلطان مقيم بالقصبة الى ان اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يتظلل الحائر ، ثم انتقل الى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤوناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم ، ثم انتقل الى ناحية دمنات ففر أهل دكالة ، والمولى المستضىء أمامه الى جبال مسفيوة فتحصنوا بها ، وكانت مسفيوة قد بايعته ودخلت فى دعوته ، فتقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادى الزات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز ، وكانوا متمسكين بطاعته ، فنزلوا معه بالوادى المذكور ، وعاثت العساكر فى بلاد

مسفيوة واوسعوها نهبا وتخريبا ، والحرب فى ذلك كله قائمة مع المولى المستضىء على ساق ، الى ان صار وادى الزات أخرب من جوف حمار . ثم انتقل السلطان الى وادى كجى فعاثت فيه العساكر على عادتها ، وعجز أهل الدفاع فهدمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت أشجارهم ، وصار وادى كجى أوحش من وادى الزات ، فطلبوا الامان واعلنوا بالطاعة ، وجاءوا مستشفعين بصبيانهم . فقال لهم السلطان : «على شرط أن تأتوا بالمستضىء» فقالوا : «انه قد فر بالامس ولو كان عندنا لاتيناك به» فقبلهم وعفا عنهم . ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا : «هذه نساؤنا واولادنا لك ، وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نفتاته فافعل بنا ما بدا لك» فعفا عنهم وأذن لهم فى الرجوع الى بلادهم . وكان ذلك أواخر سنة سبع وخمسين ومائة والف .

ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونزل بقصبة آلصم باشمام الصاد زايا وبها قدم عليه وفد مراكش كم يأتى :

واما المولى المستضىء فانه لما فر من مسفيوة قدم مراكش ، وحاول الدخول اليها فصده أهلها عنها ورفضوا دعوته ، وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله بمرأى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع ، وكان أخوه المولى الناصر قد مات يومئذ فاخرجوا اليه أثاثه فتسلمه منهم وكر راجعا الى بلاد الفحص ، فلم يزل تلفظه أرض الى أرض الى ان احتل بطنجة قانعا من الغنيمة بسلامة المهجة وسياتى تمام خبره بعد ان شاء الله .

١٧٠

وفادة اهل مراكش على السلطان المولى عبد الله بآلصم واستخلافه ولده سيدى محمدا عليهم

لما طرد أهل مراكش المولى المستضىء عن بلادهم تآمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول فى طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم واوفدوها عليه وهو بقصبة آلصم فانتهوا اليه وقدموا بيعتهم، واخبروه بما كان من المولى المستضىء وما عاملوه به من الصد والابعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب ، ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع ان يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك ، ولم يبرح من مكانه الى ان وفدت عليه قبائل الدير كله ، فلما تفقد الجيش الذى خرج به من مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزنى الا النصف ، واما القبائل فلم يبق معه منهم الا أعيانهم فى الاخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد ، فلم يمكنه التقدم الى مراكش على تلك الحال ، وانما تألفهم بأن دفع لهم ولده المولى محمدا رحمه الله وقال لهم : «انى استخلفته عليكم» فرضوا به وقرت أعينهم، فكان ذلك اول ما انغرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعد ان كانوا لا يبغون بمكناسة بدلا .

ثم بعث السلطان ولده المولى احمد وكان اسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح ، واضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن ، ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل فى الرجوع الى فاس فمرض بالطريق ومات بعد ان دخل فاسا ودفن بزاوية سيدى عبد القادر الفاسى .

ثم رجع السلطان الى مكناسة على طريق تادلا بعد ان أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وخمسين ومائة والف ، ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة ابى فكران ، فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفى وولداها منه . فقدمت هدية عظيمة ، فقبض السلطان الهدية وقتل

الولدين ومن معها من أهل الريف ، ثم قتل معهم ثلاثمائة من بنى حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة ، فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه ، فساءت عنه الاحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى فى الاسواق ، وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلا عن غيرهم .

مكر السلطان المولى عبد الله باعيان البربر واخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم اطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل اهل الريف وبنى حسن وانقبض الناس عنه ، انقبض فى جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد ، وكانوا قد حرثوا باحواز مكناسة ، فلما ادرك زرعهم امر السلطان العبيد بانتهابه ، فعمدوا اليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه ، فازدادت نية البربر فيه فسادا .

ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمدا واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له : «أنت أبى» اذ كان محمد واعزيز هذا هو الذى حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفى حتى قتله ، فكتب اليه يلومه على انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه ، فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن اجابته ، واستشار فى ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم ، فقالوا : «الا ترى الى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا» فقال :«لا ترون الا الخير» ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم ، وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فاعادوا عليه القول وحذروه الغدر ، فقال : «هذا لا يكون ولستم مثل اولئك» ، فما وسعهم الا اجابته ، واقبلوا معه حتى انتهوا الى قصبة ابى فكران حيث هو السلطان ، فاجتمعوا بالحاجب أبى محمد عبد الوهاب اليمورى فلما رآهم بهت ، وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم

يمكنه ردهم بعد بلوغهم الى ذلك المحل ، وكانوا نحو المائة ، كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا اسلحتهم ، ثم دخلوا على السلطان المولى عبد الله فوجدوه جالسا على كرسيه بوسط القلعة ، فادوا واجب التحية فاجابهم وامرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه ، ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤوسهم وأحاطوا بهم ، واخذ السلطان فى معاتبتهم على ما يرتكبونه فى الطرقات والغارات على المستضعفين من الاعراب وغيرهم وانتهاب بضائع التجار ، وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب ، وعدد عليهم الحسائف القديمة والافعال الذميمة ، ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان ، ولم يكن بأسرع من ان القوا بين يديه مقرنين فى الحبال ، ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم ، فقال له : «يامولانا أغدرا بعد أمان ولست من أهله ؟» فقال له : «ان هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعيانى أمرهم وما عدت الى هذا الامر بعد خروجى منه الا من أجلهم ، أردت أن اقابل هذا التيس الاسود «يعنى العبيد» بهذا الكبش الابيض «يعنى البربر» واستريح من غصة من هلك منهما وأتمسك بالآخر، ولولا انك بمنزلة والدى ما أطلعتك على ما فى ضميرى فقم فى حفظ الله ولا بأس عليك» فقال محمد واعزيز : «والله لا أقوم ولا اكون الا مع اخوانى حيثما كانوا فان هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك ، وان سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أنى سقتهم الى الذبح ورجعت أنا سالما ، فبأى وجه أسير الى أولادهم ؟ وأى ارض تحمينى من عشيرتهم ؟ والى أين أقصد ؟ فان كان لا بد من القتل فقتلك لى معهم أجمل بى ، ولا اثم عليك فى ذلك ولا عار ، لانى أنا الذى سقتهم اليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا على هذا كله فلم أقبل منهم » فلما سمع السلطان هذا الكلام العالى وتمكنت منه صولته الحقة جعل يتدبره ثم التفت الى الحاجب عبد الوهاب وقال : « يا عبد الوهاب لاخير فى الرجل يقول للرجل أبة ثم لا يشفعه فى جماعة من قبيله خلوا عنهم » . فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور

فركبوا خيلهم وساروا الى حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الاعرابى الذى بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه :

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط   خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر الى السلطان المولى عبد الله بابى فكران وفراره الى مكناسة

لما خلص جماعة البربر الى حلتهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه على ما حملهم عليه من الوفادة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم ما جرى ، مع أنهم كانوا فى غنى عن ذلك كله ، وقالوا له : نحن متنا وبعثنا ولابد لنا من الاخذ بالثار » فقال : « شأنكم وما تريدون » فخلصوا نجيا ، وتفاوضوا فى شأنهم الى أن اجمع رأيهم على غزو السلطان لمضى ثلاث ومن تخلف عنها احرقت خيمته ، فقال لهم محمد واعزيز : « اياكم والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم » فتفرقوا لحللهم واستعدوا للحرب ، وأقبلوا فى اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان ، وهو بابى فكران الا الرايات قد اطلت عليه من الحاجب ، والخيل تسيل بها الاودية والشعاب ، فلم يسعه الا أن حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحى من رماة المسخرين وأردفهم رحى أخرى من الخيل ، ثم تلاهم هو فى موكبه وردفته رحى ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه ، وانحدر فى بطن الوادى وتفرق الجند عن يمين الوادى ويساره وسار السلطان على هذه التعبية ، وكلما دفعت خيل البربر على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوبا من الرصاص فيسقط منهم الاربعون والخمسون ، واذا دفعت خيلهم على رحى الخيل فكذلك ، وعلى موكب السلطان فكذلك ، وهكذا الى أن دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة ، وهلك من العبيد فى هذه الوقعة نحو الثلاثمائة ، ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة ، وجمعوا قتلاهم

فكفنوهم فى أخبية العبيد اذ كانت بأيديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك ، وكانت هذه الوقعة أواسط سنة تسع وخمسين ومائة وألف .

واعلم أنه قد وقع هنا لفظ الرحى ولفظ المسخرين وغير ذلك ، وهى ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولة السعيدة فلا بد من بيان الاصطلاح فى ذلك تتميما للفائدة فنقول : ان الجيش السلطانى اليوم بهذه الدولة الشريفة ينقسم أولا الى ثلاثة أقسام : أصحاب ومسخرين وجيش . فأما الاصحاب فهم : طائفة من الجند تلازم السلطان حضرا وسفرا لا يفارقونه بحال ، وهم أرباب الوظائف المخزنية ، منهم الكتاب الذين هم الى نظر الوزير الاعظم ، ومنهم أرباب الفراش ، ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه ، ومنهم أرباب الوضوء ، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم، وكل طائفة برئيسها . واما المسخرون فهم : ملازمون للسلطان حضرا وسفرا أيضا ، وشأنهم أن يكونوا فرسانا فى الغالب ، وقد يكون فيهم الرماة ، وهم أهل الشوكة والغناء ، وهم الموجهون فى المهمات لان عليهم المدار فى الامور المخزنية كما يقتضيه تسميتهم بالمسخرين ، واذا ركب السلطان فى سفر أو نحوه انقسموا قسمين ، فالعبيد منهم يكونون خلفه لانهم الموالى ، والواديا وشراقة يكونون أمامه . وأما الجيش فهو : أهل الجميع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذى يحويه ديوانه الا أن معظمه يكون متفرقا فى حلله وبلاده الا اذا أراد السلطان غزوا فيوجه على ما يحتاج اليه منه ، اما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم . وأما الرحى فهى : عبارة عن ألف من الجيش خيلا أو رماة وربما زادت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم .

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله الى فاس وانتقال عبيد الديوان من مشرع الرملة الى مكناسة

لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بأبى نكران الى مكناسة واجتمعوا باخوانهم الدين كانوا هنالك تكلموا بما فى أنفسهم على السلطان من الغيظ ونفثوا بما فى صدورهم عليه من الاحنة ، وقالوا انه قد قال لمحمد واعزيز : « أردت أن أصدم هذا التيس الاسود بهذا الكبش الابيض » ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ ، وقالوا : « لم يبق لنا شك فى أن هذا الرجل لا غرض له الا فى هلاكنا فانظروا لانفسكم أو دعوا » ثم كتبوا الى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان فى جانبهم ويستشيرونهم فى أمره ، فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة اليه وأخبروه بما دار بين العبيد ، وبما كتبوا به الى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة الى ودايا فاس الجديد يقول لهم : « ان كانت لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة » ثم أخذ فى جمع أثاثه وتنضيده وحمل ماله وشده واسراج خيله وانهاض رجله ، وقال لخاصته : « غدا ان شاء الله نرجع الى أبى فكران » فلما كان وقت العشاء وصل الى باب القزدير من جيش الودايا أربعمائة فارس فاخرج اليهم السلطان أثاثه وماله وعياله ، ثم ركب فى خاصته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا الا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه . وأما عبيد الديوان فانه لما بلغهم كتاب اخوانهم الذين بمكناسة وقرأوه قالوا : «انه لا يجمل بنا المقام فى وسط بنى حسن لا ننفع اخواننا ولا ينفعوننا » فأجمعوا الرحيل والانتقال الى مكناسة ، وبعد ثلاث انتقلوا اليها وأعروا مشرع الرملة ، واستراحت تلك البلاد من عيثهم لاسيما سلا وأحوازها فانهم كانوا قد أشجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة .

ولما وصلوا الى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالاصطبل وبريمة

وبهدراش وبالرحاب المتسعة فملأوها واجتمعوا باخوانهم واطمأن جنبهم

ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضى والفقهاء والاشراف من أهل مكناسة فحضروا معه العيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع الى مكناسة وتنصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا اليه ، فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالا وانصرفوا الى منازلهم . ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا الا القاضى أبا القاسم العميرى على بغلته ، وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم الى بعض .

اجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض اهل فاس والقبائل عليه

لما رجع البربر الى بلادهم من وقعة أبى فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز الى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من اخفار ذمته وعزمه على الفتك باخوانه ويدعوهم مع ذلك الى أن يكونوا معه يدا واحدة ، فأجابوه الى ذلك ودخلوا فى حزب البربر . ثم كتب واعزيز بمثل ذلك الى عرب الغرب من سفيان وبنى مالك ، وكبيرهم يومئذ حبيب المالكى ، فقالوا : « نحن لكم تبع وحربنا حربكم وسلمنا سلمكم » وانتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس ، وبعد أيام ورد الخبر بأن ركب الحاج قد وصل الى تازا ، وهو محصور بها ، فاستغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم باخوانهم ، فجردوا منهم خمسمائة من الخيل الى تازا ، فمروا فى طريقهم بعرب الحياينة فانضموا اليهم ودخلوا فى حزبهم وساروا بأجمعهم الى تازا فخلصوا الركب الذى بها وقدموا بهم الى فاس ، فدخلوا على باب الفتوح

ونزل البربر والحياينة بالزيتون ، ودخل جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم .

وفى أثناء ذلك أغار عليهم الودايا ففضوهم وقتلوا منهم كثيرا ، فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم على سور قصبة شراقة ففعلوا ، ثم بدا لاهل فاس فى مراجعة طاعة السلطان فبعثوا اليه فى ذلك ، فأجابهم بأن يقدموا عليه فخرج اليه العلماء والاشراف والاعيان ، فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شروطا منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنقاضها دار الدبيبغ ، ويختاروا احدى خصلتين اما أن يكونوا جيشا واما أن يكونوا نائبة ، فقالوا : « نجتمع على هذا الامر مع اخواننا ويكون الجواب » . ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا : « لا نقبل شيئا من ذلك كله » وعادت الحرب جذعة وارتفعت الاسعار وعظمت الاخطار . وفى سابع ذى الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قفاطين المخزن التى كانت بفندق النجارين على يد الامين الحاج الخياط عديل وأرادوا مصادرته على مال المخزن الذى عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال فأطلقوه بعد القبض عليه ، وكانت القفاطين ثلاثة آلاف قفطان فرقوها على رماتهم يعيدوا بها عيد الاضحى ، واستمرت الحرب بينهم وبين الودايا وسائر شيعة السلطان الى أن دخلت سنة ستين ومائة وألف .

وفى أوائل جمادى الاولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمشايعة أهل فاس على حرب السلطان ، فنزل محمد واعزيز فى بربره بجبل الطفات ، ونزل حبيب المالكى فى أهل الغرب وطليق والخلط بدار الاضياف ، وانجحر الودايا بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة ، والسلطان بدار الدبيبغ ، وضاق الخناق على السلطان وشيعته ، ومن الغد ركب حبيب فى عربه وزحف الى السلطان بدار الدبيبغ والبربر على أثره . ولما وصل الى حريمها بلغه أن البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزما وعبر الوادى وتوجه الى بلاده ، وأما البربر فانهم لما فرغوا من محلة أهل الغرب اجلوا

الى سايس ، ويقال : أن السلطان دس بالليل الى محمد واعزيز بمال على أن يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها ، ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العير يفدى حافر الفرس ، ولما انقضت هذه الجموع الى بلادها بقى أهل فاس فى القتال والحصار سنتين وزيادة كما سياتى ، وبعثوا فى أثناء ذلك الى المولى المستضىء المقيم باحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجتمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقوب ووعد عرقوب .

ذكر السبب الذى هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش الى اهل الغرب ومراجعتهم طاعته

وفى سنة ستين ومائة وألف أثناء حرب الودايا لاهل فاس قدم جماعة من عرب بنى حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين اليه عرب الغرب ، وانهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم الى بلادهم مروا بحلة بنى حسن فأغاروا عليها وانتهبوها ، فحركوا من السلطان ما كان كامنا فى صدره عليهم ، وبعث اليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لهم على سبد ولا لبد ، فخرج الجيش يؤم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طليق والخلط فأرزوا الى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها ، فتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصرهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعا ، وبعقب ذلك وردت عليهم جماعة من الودايا بأمان السلطان ومصحفه وسبحته ، فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرجوا مع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم ، وولى عليهم كبيرهم حبيبا المالكى وأضاف اليه قبائل الجبل كلها ، وأما الجيش الذى كان على العرائش فانهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد

دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الافاعيل العظيمة ، واستمروا على ذلك ستة أيام ، وكان الحادث عظيما ، وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك فى محرم سنة احدى وستين ومائة وألف .

زحف البربر الى الودايا ومظاهرة اهل فاس لهم عليهم

لما كان جمادى الثانية من سنة احدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد الله على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى أتى أبا فكران فعسكر به ظنا منه أن العساكر ستقدم عليه هنالك كما هى العادة فلم يأته احد ، فبعث الى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا : « حتى يأتى الودايا والقبائل ونأتى نحن أيضا » ولما رأى تثاقل الناس عنه عاد الى منزله واعرض عما كان هم به . ولما سمع البربر برجوعه عنهم طمعوا فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز : «الرأى ان ننزل بسايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل اليهم ولا يصلوا اليه» فاقبلوا حتى نزلوا بسيط سايس ، ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزروعهم وضيقوا عليهم ثم وصلوا ايديهم باهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة ايام وانقلبوا الى اهلهم فاكهين .

وفى أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بأن أهل الريف قد قبضوا على المولى المستضىء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثاثه وماله وثقفوه حتى يدفعوه لاخيه المولى عبد الله لانه كان قد اشتغل بظلم الناس بالفحص وطنجة ، وقبض على القائد عبد الكريم بن على الريفى وهو أخو أحمد بن على المتقدم الذكر فأخذ ماله وسمل عينيه ، وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه ، وفى شعبان احرق الودايا باب المحروق ليلا ففطن لهم الحرس ودافعوهم عن الباب ومن الغد ركبوا به أبوابا جددا .

١٨٠

مراجعة اهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا

لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسئموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق أن كان عندهم رجل من أشراف تافيلالت فأرسلوه الى السلطان واسطة بينهم وبينه ، وبعثوا معه كتابا بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع ، وكتب اليهم ينفى ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا اضرارهم قط ، وانما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم ، فلما وصل اليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهائهم وأشرافهم وأهل الخير منهم فأوفدوها على السلطان بمكناسة فى شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم ، وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم ، فاغتبطوا بذلك ، وانقلبوا الى اهلهم فرحين مستبشرين. ثم كان الصلح بينهم وبين الودايا بضريح المولى ادريس رضى الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر ، وكان ذلك فى ذى القعدة من سنة احدى وستين ومائة والف ، ولما حضر العيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالخبر وعادوا به خوفا من البربر.

خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله وبيعتهم لولده سيدى محمد والسبب في ذلك



لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهدأت الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه ، وبلغهم مع ذلك ان السلطان قد استنفر العبيد لغزوهم فاحتالوافى تفريق الكلمة على السلطان بأن أخذوا فى شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضيق عليهم واختطاف أولادهم من البحائر والجنات ، فراسل العبيد البربر فى المسالمة والصلح فقالوا لهم : «ان السلطان أمرنا بهذا» فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا فى صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتثاقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد الى منزله بعد المعسكرة بأبى فكران كما مر ، ثم اتفق رأى العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله ، ونما اليه ذلك منهم فخرج فارا من مكناسة الى دار الدبيغ فاستقر بها ، وكان ذلك فى صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف .

ولما ضاق العبيد ذرعا بفعل البربر كاتبوهم فى الصلح فاجابوهم اليه على شرط أن يبايعوا سيدى محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة وبعثوا اليه ببيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم ، وخطبوا به بمكناسة وزرهون والسلطان بدار الدبيغ لا يملك من أمره شيئا ، ولما قدم وفد العبيد على سيدى محمد بن عبد اللهرد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبوه فى حق والده وتألفهم بشىء من المال وأعرض عن الخوض فى أمر البيعة ، اذ كان رحمه الله بارا بوالده ساعيا فى مرضاته ، وبعث اليه فى صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف مثقال ، فرجع وفد العبيد من عند سيدى محمد وقد أيسوا من اجابته اياهم ، ومع ذلك استمروا على الخطبة بمكناسة وزرهون .

ثم ان السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى أن القلوب قد نفرت عنه وان العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده سيدى محمد وتعلقت آمالهم به تلافى أمره ، واخذ فى استصلاح الرعية وتألفها ، فأمر فى شعبان من السنة المذكورة بان ينادى باسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر الى دار الدبيغ لوقت كذا فلا يلومن الا نفسه ، فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فاعطاهم خمسة دنانير لكل واحد ، وقال لهم : «ابعثوا الى اخوانكم الذين بمكناسة فمن اتى منهم الى قبض مثل ما قبضتم فكتبوا اليهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا ، وبعثوا الى البربر الذين بسايس يقولون لهم : «كل من صادفتموه منا متوجها الى فاس فاقتلوه» وأعلنوا بخلع السلطان .

ثم استدعى السلطان بعد ذلك محمدا واعزيز كبير البربر ووعده ومناه فقدم عليه فى اخوانه فى رمضان فأعطاهم عشرة آلاف دينار ، وحضر العبيد فقدموا عليه أيضا فأعطاهم عشرة آلاف اخرى ، واعطى الودايا عشرة آلاف أيضا ، واعطى أهل فاس مثل ذلك ، ولج العبيد فى نفورهم وركبوا رأسهم فى جماحهم عن السلطان والقرب منه .

مجيء سيدى محمد بن عبد الله من مراكش الى مكناسة وتوسطه للعبيد فى الصلح مع والده رحمهما الله

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة والف ففى اواخر جمادى الاولى منها قدم المولى محمد بن السلطان المولى عبد الله من مراكش الى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك ، وقال لهم : «انى برىء منكم ومن فعلكم هذا وانما انا خديم والدى» فتركوا الخطبة وراجعوا

بصائرهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم فى طاعته ، وكانت هذه هى البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لانهم خلعوه قبلها ست مرات حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى .

ولما تم لسيدى محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة فى جيشه الذى قدم به من الحوز ، وكان نحو أربعة آلاف ، واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد ، وقدم على والده بدار الدبيغ فخرج الودايا وأهل فاس لملاقاته وفرحوا بمقدمه ، ولما دخل على والده أدى التحية وأهدى اليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم ، وقال له : «لا تبت هنا» فقال : «نعم ياسيدى» ولم يبت الا برأس الماء واصبح غاديا الى مراكش ، ثم حضر العبيد فقدم على السلطان جماعة من جروان وبنى مطير فأعطاهم عشرين ألف مثقال ، وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئا .

وفى هذه السنة توفى المولى أحمد بن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبور الاشراف رحمه الله .

انحراف العبيد ثانية عن السلطان االمولى عبدالله والتجاؤهم الى ابنه سيدى محمد بمراكش والسبب في ذلك

لما أعطى السلطان المولى عبد الله بنى مطير وجروان عشرين ألف مثقال وحرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن ، واتفقوا على الذهاب الى ابنه سيدى محمد بمراكش فقدموا عليه فى ذى القعدة سنة أربع وستين ومائة والف ، وقالوا له : « اما ان تكون سلطاننا واما أن نبايع عمك المولى المستضىء» وشكوا اليه اهمال والده جانبهم وقالوا له : «انه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمنا» فرضخ لهم بشىء من المال طيب به

نفوسهم ، وكتب لهم كتابا الى والده يستعطنه لهم ، وانقلبوا من عنده مسرورين .

واما السلطان المولى عبد الله فانه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة الى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال ، واعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال ، ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحهم وأعطاهم عشرين الف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا الى مكناسة مغتبطين .

وفي هذه السنة بعث سيدى محمد من مراكش بهدية الى والده مع جماعة من اصحابه فاثنى عليه خيرا ودعا له به ، وفيها ورد الخبر بأن أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد الله الحاج محمدا تميم ، ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله ، فقال لهم : «أنتم وليتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختاروا لانفسكم» فوقع اختيارهم على أبى عبد الله الحاج محمد ابن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا الى بلدهم .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون الف مثقال ، وقدم بصحبتهم باشدور الاصبنيول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك اسرى جنسه ، فقبض السلطان المال وقال للباشدور : «حتى تأتوا باسرى المسلمين» وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك ، وكانوا الفين ومائتين .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة والف فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال ، وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والاكثار منها .

وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الاصطادوس ، وهم سبع قبائل من الفلامنك ، وهى اثنان وعشرون شرطا مرجعها الى عقد الامان

والصلح بين الايالتين ، وان يجعل جنس الاصطادوس قنصلا أو أكثر بالبلد الذى يختاره من بلادنا ، ويكون يعطى خط يده المسمى بالباصبورط لمن يسافر من مراكبنا الى جهة بلادهم ، وكذلك هم ايضا الى غير ذلك .

وفى هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزمور واقتحموا ضريح الشيخ أبى شعيب ليلا وقتلوا به عددا كثيرا من أهل آزمور نحو الخمسين ، وكانت الليلة ليلة جمعة ، وعادة أهل آزمور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور ، فنما ذلك الى النصارى الذين بالجديدة فجاءوا مستعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفأوا المصابيح ووقع القتل حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضا ورجع النصارى عودهم على بدئهم .

وذكره لويز مارية مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه : «وفى ليلة الثانى عشر من نونبر سنة اثنتين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتقال الجديدة وقصدوا آزمور حتى دخلوا ضريح الشيخ أبى شعيب ليلا وقتلوا هنالك اربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة» هكذا زعم لويز وان النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزمور يزعمون أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة والف فلم يكن فيها حدث فى الدولة .

ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها فيها توفى محمد واعزيز كبير آيت ادراسن ووازعها الذى كانت تقف عند اشارته وتجرى امورها على مقتضى ادارته .

١٨٦

فتنة آيت ادراسن و كروان مع الودايا والسبب في ذلك

لما مات محمد واعزيز ولم يبق بآيت ادراسن من يقوم فيهـا مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان ، فزحفوا الى كروان واوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجأوا الى دار الدبيغ معتصمين بهـا ومستجيرين بالسلطان الذى بها ، وضاق بهم رحب الفضاء وعدموا المرعى فشرعوا فى بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس اواق والشاة أوقية ، فأمر السلطان المولى عبد الله الودايا بنصرتهم وآخى بينهم وبينهم ، وعقد لهم حلفا مؤكدا معهم فقاموا لحمايتهم والدفاع عنهم ، وانشبوا القتـال فكانت الهزيمة على آيت ادراسن ، ففرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا فى كل وجه ومن سلم منهم لجأ الى بلاد شراقة فاستجار بها ، فكان عدد من قتل منهم بتلك الوقعة نحو الخمسمائة ، وهذا سبب حلف الودايا مع جروان .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة والف فيها قدم على السلطان المولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا اليه فى الذهاب معهم اليها اذ هـى دار ملكه وملك ابيه من قبله فقال لهم : «كيف أذهب معكم وفى وسطكم فلان وفلان» لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد الى منزلهم ، ولما جن الليل طرقوا اولئك المسمين وأمثالهم فى رحالهم فقتلوهم ارضـاء للسلطان وتطييبا لنفسه . وكان منهم القائد محمد السلاوى ، والقائد سليمان بـن العسرى ، والقائد زعبول وغيرهم .

ولما بلغ السلطان ذلك بعث اليهم باربعين الف مثقال راتبـا وصرفهم الى مكناسة وقال لهم : «اذا فرغت من عملى أتيتكم» .

وفى هذه السنة أيضا قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوقاش فـى أهل تطاوين بهدية فيها الف ريال وباسارى وسلع من سلع النصارى غنمتها قراصيهم ، فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين وانقلب الى اهله مسرورا .

وفيها قدم على السلطان أخوه المولى ابو الحسن المخلوع بدار الدبيغ

فأعطاه مالا واثاثا قيمته عشرة آلاف مثقال وخيره بين تافيلالت ومكناسة ، فاختار مكناسة فأعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التى بها وارضا للحراثة فقدم المولى ابو الحسن مكناسة واستوطنها واغتبط بها ، ولما جاء وقت ابان الحرث وحرث وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيدوه وبعثوا به الى السلطان مقيدا ، وقالوا له : ان هذا قد افسد علينا بلادنا فحل بيننا وبينه فسرحه وبعث به الى سجلماسة .

وفى هذه السنة ايضا نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم وبحائرهم .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف فيها كانت بين آيت ادراسن وكروان حرب فظيعة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت ادراسن ببسيط النخيلة من سايس والله أعلم .

وفاة أمير المومنين المولى عبد الله بن اسماعيل رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله بدار الدبيبغ يوم الخميس فى السابع والعشرين من صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الاشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله .

قال صاحب « البستان » : كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقى مهملا بدار الدبيبغ سنين لا يأتيه أحد وبيعته فى أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر . واستمرت حالته على ذلك مدة من اثنتى عشرة سنة من سنة تسع وخمسين الى سنة احدى وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين . ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم :

عليك سلام يا ضياء العوالم … ويابهجة الاشراف من آل هاشم
ويامن سما عضبا على كل جاهل … وأصبح مسرورا به كل عالم
وأصبح ظل الله فى الارض ناظرا … الى كل مسكين بمقلة راحم
ويامن كساه الله منه مهابة … تذل لها رغما أنوف الاعاجم
ويامن له حزم وعزم وسطوة … تفتت ارهابا قلوب الضراغم
كفاك افتخارا ان عزك ظاهر … وجودك منسى به جود حاتم
وكون سجاياك التى فاح عرفها … سجايا الملوك الشم أهل المكارم
لعمرى لقد ألقت اليك زمامها … ضروب العلا اذ كنت أحزم حازم
فقمت على الملك المشيد ركنه … تذود لديه بالقنا والصوارم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر … برأى مصيب للعساكر هازم
ونفس علت فوق السماكين همة … وعقل غنى عن هداية عالم
فجئت وسيل الغرب قد بلغ الزبى … وأسواقه معمورة بالجرائم
ونار الشرور فى الفجاج تأججت … فطاب لاهل البغى هتك المحارم
فدوختها من بعدما استنسرت به … بغاث وقد طالت رعاة البهائم
فأمنتنا من كل طار وطارق … وحصنتنا من كل داء وداهم

انعطاف الى سياقة الخبر عن آخر امر المولى المستضىء رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف فى طلب أخيه المولى المستضىء ، وأنه دوخ بلاد الحوز لاجله وشرده عن جبال مسفيوة ، ولجأ الى مراكش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقرا رجع أدراجه يقترى البلاد والقرى ، ويصل حرارة التهجير ببرك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم ببنى حسن فزهدوا فيه فتقدم الى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به ، وعسف اناسا فى تلك

المدة الى ان عدا على القائد عبد الكريم الريفى فسجنه وسمله وأخذ ماله كما مر ، فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه حتى يبعثوا به الى أخيه المولى عبد الله ثم بدا لهم فسرحوه ، ولما خلص من المحنة كتب الى أخيه المولى عبد الله وهو بفاس يعتذر اليه عما سلف منه ويطلب منه محلا يستقر به فأجابه السلطان المولى عبد الله : « بأنك لم تأت الى ذنبا ولم ترتكب فى حقى عيبا انما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبى والآن فان أردت الخمول لمثلى فأقم بآصيلا واسكن بها فهى أحسن من دار الدبيبغ التى أنا بها وأرح نفسك كما أرحتها ، وان كنت انما تطلب الملك فشأنك واياه فانى لا انازعك فيه والسلام » . فلما وصل اليه كتاب السلطان انتقل الى آصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج الى الاصلاح منها ، وأصلح دار الخضر غيلان التى بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة وألف ، واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له فى الكلام مع بعض تجار النصارى الذين بطنجة وتعاقدوا معه على وسقه ، فانتقل ذلك التاجر الى آصيلا ، ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكته أى واجبه فظهر للمولى المستضىء الربح فى ذلك فشرهت نفسه ورغب فى شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار ، وتسامع النصارى بأن الزرع يوسق من مرسى آصيلا ، فلم تمض الا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الاعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج ، والمولى المستضىء يشترى منهم ويبيع للنصارى ، والمراكب تسق ما قدرت عليه ، فكان يحصل له الربح فى ذلك مضاعفا ربح الثمن وربح الصاكة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه ، وأخذ فى شراء العدة من تطاوين وتسليح أصحابه وتقويمهم .

واتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله فندم على اذنه له فى المقام هنالك وكتب الى القائد أبى محمد عبد الله السفيانى يأمره بالزحف الى المولى المستضىء وحصاره بآصيلا حتى ينفيه عنها ، وكتب الى ولده سيدى محمد

بمراكش يأمره أن يبعث اليه من يخرجه منها ويكون معه القائد عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل ، فبعث اليه سيدى محمد رفيقه وابن عمه المولى ادريس بن المنتصر في مائة فارس ، وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد الله السفياني فيخمسمائة من الخيل كما رسم لهوالده ويضيقوا على المولى المستضيء بآصيلا حتى يخرجوه منها ، فمضى المولى ادريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج اليهما وراود ابن اخيه المولى ادريس على الافراج عنه وتركه وشأنه ، واعتذر اليه بأن السلطان اذن له في سكنى آصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به ، فلم يقبل المولى ادريس منه ولم يزل به حتى أخرجه ، واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك ، فساقه الى عمه السلطان المولى عبد الله .

وأما المولى المستضيء فانه لما خرج من آصيلا سار الى فاس فنزل بضريح الشيخ أبي بكر بن العربي رضى الله عنه ، وقدم ولده الى السلطان المولى عبد الله يشكو له ما فعل به ولده سيدى محمد من تجهيز العساكر اليه ونفيه عن آصيلا ، فكان من جواب السلطان أن قال له : « قل لابيك ذاك لا سبيل لى عليه ، هو أعظم شوكة منى ومنك فسر الى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب منى ومنك » . فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه الا التوجه الى مدينة صفرو بعد أن ترك عياله بدار الشريف المولى التهامي بالجوطيين من فاس ، ونزل هو بدار الامارة من صفرو ، ولما قدم المولى ادريس بن المنتصر على السلطان بمال المولى المستضيء وأثاثه قبض السلطان البارود والسلاح ورد الباقي ، وأرسل الى عامل فاس يأمره أن يكتب الى المولى المستضيء ليبعث وكيلا يحوز اليه متاعه ، فكتب اليه فبعث من حاز ماله وأثاثه ودفعه الى عياله بدار المولى التهامي . وكان المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو بعث الى أعيان آيت يوسى على ما قيل فقدموا عليه فندبهم الى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا له : « سر الى آيت ادراسن وكروان فان أجابوك فنحن معهم ولما لم يتم له أمر بصفرو بعث من حمل اليه عياله وأثاثه من فاس وذهب الى سجلماسة فاستوطنها وذلك

سنة ست وستين ومائة وألف ، وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيما بها الى أن توفى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر له .

انعطاف الى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى اسماعيل من لدن وفاته الى دولة السلطان سيدى محمد بن عبدالله

قد تقدم لنا ان السلطان المولى اسمعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم الى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا ، وبلغوا فى أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد وانتخاب السلاح واقتناء الاموال وحسن الشارة والزى مالم يبلغه غيرهم ، وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفا ما بين خيل ورماة ، وكان عدد اليكشارية منهم ، وهم أصحاب الباشا مساهل ، خمسة وعشرين ألفا كلهم رماة الا القواد منهم فانهم كانوا أصحاب خيل ، وكان بتانوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل ، وباقى العدد وهو خمسون ألفا كانوا متفرقين فى قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور ، وكانوا فى غاية من الكفاية والسعة لان كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها فى قلعتها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها ، واستمر ذلك الى أن توفى السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذى كان به قوامهم .

ولما ولى بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا اليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم ، وانتشروا فى القبائل التى كانوا مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ، ولما أعروا تلك القلاع التى كانوا مقيمين بها امتدت اليها أيدى القبائل من العرب والبربر بالنهب والتخريب واقتلعوا أبوابها وخشبها وما راق منها وتركوها خاوية على

عروشها لم يبق بها الا الجدرات قائمة ،وهكذا كان مآل محلة مشرع الرملة
فانه لما ارتحل العبيد عنها الى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو
حسن فيها بالنهب والتخريب ، وكل من عثروا عليه متأخرا بها نهبوه واستلبوا
ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا اليه اذ كان العبيد
يظنون انهم سيرجعون الى مشرع الرملة ، ثم تجاوزت بنو حسن ذلك
الى تخريب الدور والقصور وحمل أبوابها وخشبها الى سلا فكانت تباع
بها بالبخس ، فقد كان بهذه المحلة دوروقصور ليست بالحواضر ، وكان كل
قائد منهم يفتخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشييد فوق تشييده وتنميق
أحسن من تنميقه وتزويق أبدع من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله
وانتسفوه ، وطمسوا أعلامه فى أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا الا
الجدرات قائمة الا أن خربوها بعد ذلك شيئا فشيئا ، بل صاروا يبعثرون
الارض على الدفائن التى بها فعثروا من ذلك على شىء كثير .

ثم أن العبيد الذين رحلوا الى مكناسة لم يصل منهم اليها الا دون النصف
اذ تفرقوا فى القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل
من كان له مدشر عاد اليه . ثم الذين وصلوا الى مكناسة لم يستقر بهم قرار
لقلة ذات اليد وغلاء الاسعار ، وكان الوقت وقت مجاعات وفتن ، فلم يبق
بها الا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذين يتعيشون بحرفهم ، ومع ذلك
فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم
ويتخطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة ، فتسلل جلهم
للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندية والتمرس بالقنا والقنابل ،
وتفرق منهم ذلك الجمهور . ولله عاقبة الامور .

ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما
نذكره فى الاحداث هلك من العبيد فحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم
يزالوا فى تلاش واضمحلال وتناثر واختلال الى أن كانت دولة السلطان
الاعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة وعصابة
حقيرة ، فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار ، وأحيا رسمهم بعد

الاندثار ، وأظهرهم بعد الخمول ، وأركبهم المسومة من الخيول ، ورفع لهم الاعلام والبنود ، وصيرهم من أعز الجنود ، وهو الذى جدد هذه الدولة الاسماعيلية بعد تلاشيها ، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيها ، بحسن سيرته ويمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الاشراف أولاد المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه. قال أكنسوس : والحق الذى لاشك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد الله فانما هو ثائر عليه لا امامة له وانما يكون خبره مسوقا من جملة اخبار دولة المولى عبد الله .

قلت : ومثله يقال فى السلطان المولى أحمد بن اسمعيل فهو الامام المعتبر والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الاشعرية أن طرو الفسق لا يعزل الامام . والله تعالى اعلم واحكم .

انعطاف الى سياقة الخبر عن خلافة سيدى محمد بن عبد الله بمراكش من مبتدئها الى منتهاها

قد تقدم لنا ان السلطان المولى عبد الله كان قد خرج سنة سبع وخمسين والف فى طلب أخيه المولى المستضىء الى أن شرده عن بلاد مسفيوة وانه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا اليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت ، فلما عزم على القفول الى بلاد الغرب بعث ولده الاكبر المولى احمد الى رباط الفتح نائبا عنه بها ، وأضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن ، وما بينهما ، وبعث ولده الاصغر سيدى محمدا مع اهل مراكش نائبا عنه فيها فكان ذلك اول انغراس شجرة الملك العلوى بمراكش واتخاذها كرسيا لهم ، ولما وصل سيدى محمد رحمه الله الى مراكش نزل بقصبتها وهى يومئذ خراب ليس بها الا آثار السعديين والموحدين قبلهم ، قد أخنى

عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم فضرب بها مضاربه ، ثم شرع رحمه الله فى حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور ، ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لانهم كانوا قد الفوا العيث فى أطراف مراكش فأحبوا ان لا تكون بها دولة تكبحهم عن ذلك ، فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا الى الخليفة سيدى محمد وجبهوه بالمنع واخرجوه عن القصبة بعد ان شرع فى العمل ، فانتقل سيدى محمد رحمه الله عن مراكش الى آسفى .

واما المولى احمد صاحب العدوتين فانه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف اليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها الى أن سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى أحمد بن عبد الله عن بلادهم فتقدموا اليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها ادالة من عهد السلطان المولى اسمعيل ، وقطعوا الميرة والماء الى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فطلبوا الامان أن يخرجوا بأنفسهم فأمنوهم ، وخرج المولى أحمد فسار الى أخيه سيدى محمد بآسفى فنزل عليه ثم كان آخر امره أن توفى بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف .

ولما خرج المولى احمد الى آسفى عمد أهل رباط الفتح الى عبيد القصبة فانزلوهم منها وفرقوهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصبية . هذا ما كان من خلافة المولى احمد .

واما خلافة سيدى محمد فانه لما خرج من مراكش قاصدا الى آسفى اعترضته قبائل عبدة وأحمر وضيفوه ببلادهم وأهدوا اليه ، وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سرورا بمقدمه وتنويها بشأنه ، وصحبوه الى آسفى فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل آسفى بمقدمه واغتبطوا به وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمأنت به الدار رفع اليه أهل آسفى هداياهم ، وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود وتباروا فى ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة برجالاتهم وأعيانهم ، وبذلوا له أولادهم لخدمته واوصلوه

بكل ما قدروا عليه ، وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فاهرعت اليه المراكب من بر النصارى بانواع سلعها ، وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون ، وكثرت الخيرات ونمت البركات ، فاستركب واستلحق وعلا امره وطار صيته فى البلاد الحوزية ، ودخل الشياظمة وحاحة فى طاعته وتباروا فى خدمته ، فلم تمض عليه ستة اشهر حتى كان يركب فى نحو الالف ، فلما سمع الرحامنة ما صار اليه أمر عبدة وأحمر اقتالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم فى خدمته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من اعيانهم وقدموا عليه آسفى ، وقدموا بين يديهم هدية استرضوه بها . ولما دخلوا عليه اعتذروا اليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك الى السفهاء وانهم لم يأمروا بشىء من ذلك ولا رضوه ، واقسموا له ان لا يبرحوا من بابه حتى يسير معهم الى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة ، واسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس ، وكان فى موكبه من أصحابه وحاشيته نحو الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة .

ولما انتهى الى مراكش نزل بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز ، ثم تلاهم قبائل الدير كله بهداياهم أيضا وجاء الرحامنة باولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر فى ذلك ، وقفاهم فى ذلك سائر أهل الحوز ، وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فاجتمعوا اليه وحسنت منزلتهم عنده . ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسللوا اليه فرادى وأزواجا فاستعملهم فى خدمة البناء فبنوا بيوتهم واصلحوا شؤونهم ، واجتهد هذا الخليفة فى بناء داره الكبرى بقصبة مراكش الى أن اكملها وسكنها ، ثم شرع فى بناء ما تلاشى من اسوار القصبة وركب أبوابها وأفردها عن المدينة ، ثم غرس بستانا عظيما متصلا بداره الكبرى على جهة الغرب سماه النيل ، وأسس قصرا آخر متصلا بغربى هذا البستان سماه القصر الاخضر ، ويسمى أيضا المنصور ، وجعل لهذا البستان أربعة أبواب فى زواياه الاربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين آخرين أحدهما للدار

الكبرى شرقا والآخر للقصر الاخضر غربا ، وجعل فى وسط هذا البستان قبة منتخبة يتصل بها من جهاتها الاربع مماشى تمضى الى قباب أخر منتخبة أيضا ، وطول هذا البستان ينيف على مائتى خطوة تقريبا وعرضه قريب من ذلك ، وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعنى الدار الكبرى والقصر الاخضر ، ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذى بالقصبة اذ كان متهدما يومئذ،ثم أسس مسجدا آخر للخطبة بجوار قصره وهوالمعروف اليوم بمسجد بريمة، وهو مسجد حافل بديع، وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة، وبنى حماما ببريمة، وعمر مساجد غير ذلك للاحرار والعبيد ، وفرق الاموال على من انحاش اليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد أن كانت من الطين والقصب ، وكتب الكتائب وجند الاجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكى السلاح ، ومن عبدة وأحمر مثل ذلك ، ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك .

ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة واصلح بينهم وبين والده كما مر .

ولما كانت سنة تسع وستين ومائة والف غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وقرر الحامية بتارودانت منها ، ثم سار الى آكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد بمال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التى استفادها من المرسى ورتب الحامية فى آكادير أيضا ، ثم ان الطالب صالحا المذكور ذبح نفسه فى السجن وأفضى الى ما قدم بعد أن ترك فى القطر السوسى صيتا وذكرا ، وهو الذى يوجد طابعه على السلاح السوسى من مكحلة وسكين وخنجر الى الآن وهو سلاح منتخب عندهم .

وقفل الخليفة سيدى محمد رحمه الله الى مراكش مؤيدا منصورا فمكث فيها اياما يسيرة ثم خرج غازيا بلاد الشاوية فى السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة ، فقتل من أعيانهم عددا وبعث الباقى فى السلاسل الى مراكش .

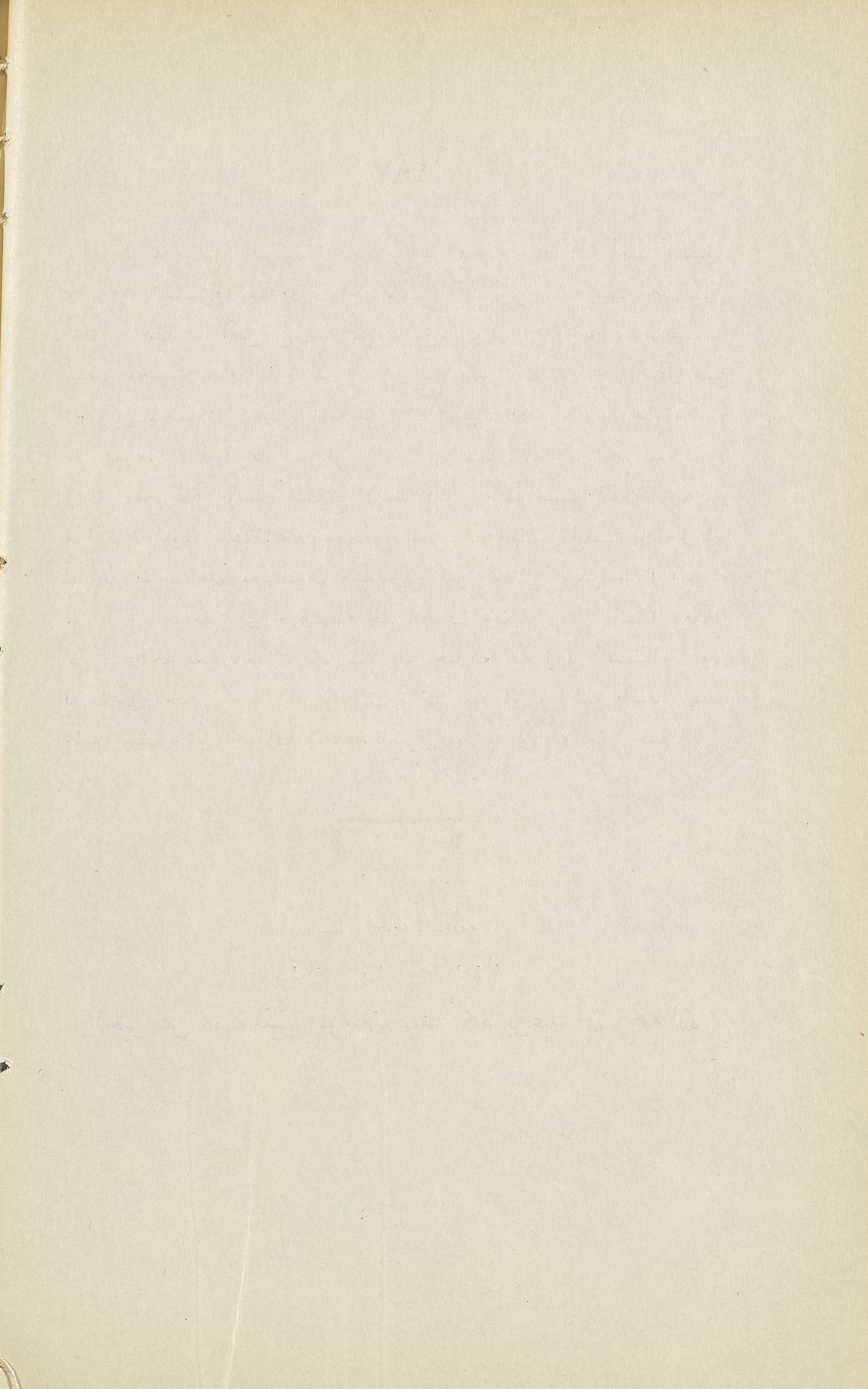
ثم تقدم الى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج اليه أهلها بالمؤن والهدايا واستبشروا بمقدمه . واما أهل سلا فلم يخرج اليه منهم احد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فنيش أبوابها فى وجهه ، فاعرض عنه سيدى محمد رحمه الله وتنكب المرور بسلا وعبر مشرع المجاز أسفل من العدوتين ، وسار الى قصر كتامة من بلاد الهبط ، فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزيانى ، وفى ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاح لانهما كانا يمنعانهم من القدوم عليه الى مراكش ، فولى عليهم القائد سعيد بن العياشى . ومن الغد ارتحل الى تطاوين فتلقاه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهدده ثم أطلقه . ثم مضى الى جهة سبتة حتى أشرف عليها ، ثم سار منها الى طنجة ثم كر راجعا فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أيضا ، فطوى له سيدى محمد رحمه الله على البت . ثم سار الى مراكش فاستقر بها مؤيدا منصورا الى ان وافته الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله .



تم الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله

الخبر عن دولة امير المومنين سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله



فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف « ب »

حرف «التاء»

حرف «الجيم»

حرف « الحاء »

حرف « س »

حرف » ش «

حرف « ص »

حرف « ط »

حرف « ع »

حرف « ك »

حرف « ل »

حرف « م »

حرف النـون

حرف « ه »

حرف « و »

حرف « ى »

فهرس الاماكن

حرف « ث »

حرف « ج »

حرف « ح »

حرف « د »

حرف « ق »





